



# عبد الله الطوخي

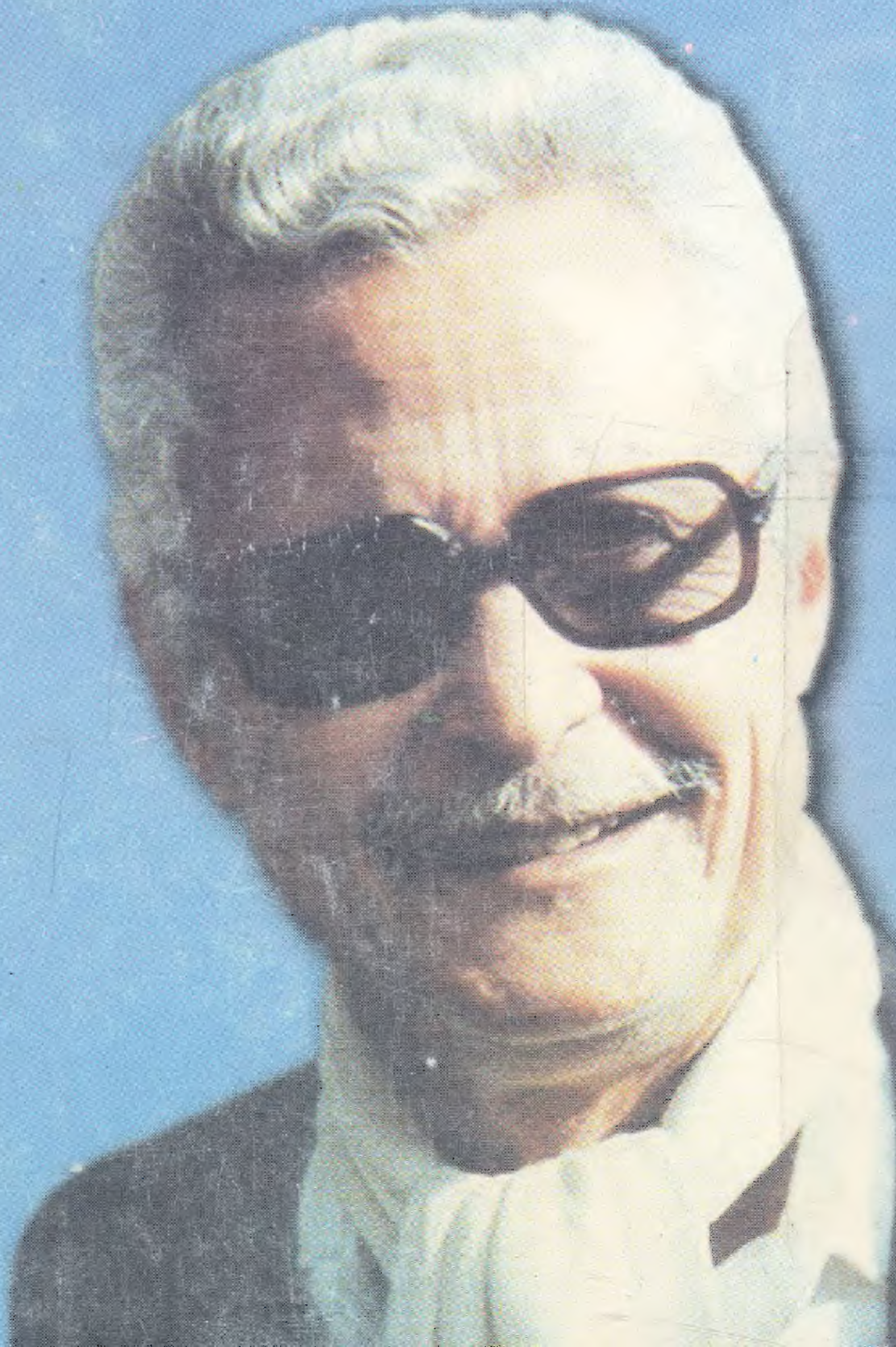
## القصص القصيرة

الأعمال الكاملة

مختارة



الهيئة المصرية  
العامة للكتاب







# القصص القصيرة

مؤلفات

عبد الله الطوخي





---

## على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة "الأسرة" بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص، ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالا جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى "مكتبة الأسرة" .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفصل لصاحبه وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير سرحان

---





## مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

### مكتبة الأسرة

### برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الكاملة)

#### الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

#### القصص القصيرة

مؤلفات: عبدالله الطوخي

#### الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان



# الإهداء

الى امرأة الحب الصافية

رفيقة الحلم والطوفان

زوجتى وصديقتى

فتحية العسال







# تقديم

## حياتي والقصة القصيرة

كتبت القصة القصيرة في مطلع شبابي الباكر .  
لم اكتبها بل اكتشفتها ، وكان اكتشافها حدثا هائلا  
وسعيدا . ان قلت اول واعظم الأحداث السعيدة  
في حياتي ، لا ابالغ ! .. فقد كنت في فترة الخبرة  
والشتات والبحث عن النفس ، وعن مبرر لوجودي  
في هذا العالم ! .. ومازلت اذكر - والقلب يخفق -  
اول قصة قصيرة خطتها اقلمي ونشرت في احدي  
المجلات الجامعية عام ١٩٤٩ .. ذلك اني تقدمت بها  
في مسابقة اعلنت عنها هذه المجلة ، وفازت بجائزة  
قدرها جنيه مصرى واحد ، طرت به فرحا ، واشتريت  
به هدية لحبيبتي التي أصبحت رفيقة عمري ..  
كانت الهدية حقيقية يد جلدية .. بنية اللون انيقة !



ليس فقط لهذه الواقعة العاطفية الفريدة ، بقيت ذكرى  
هذه القصة في نفسى ، وانما أيضا للظروف والملابسات التى  
كتبتها فيها ، والتى ملأتنى بشحنة وجدانية وروحانية هائلة  
جعلتنى أخرج القلم والورق وأكتبها - وما أنا بكاتب - وانصبت  
من نفسى على الورق فى جلسة واحدة .. واذا بى أمام مخلوق  
حى وجميل هو جزء من ذاتى . كانت فرحتى فرحة الأم التى  
خرج من رحمها مولودها الأول . كما كان احساسى أن القصة  
ليست هى وحدها التى ولدت ، بل أنا أيضا ولدت بها من  
جديد ! .. فما أنذا أستطيع أن أقوم فى الحياة بعمل جميل  
متفرد بل وخطير .. لا أبرر به وجودى فحسب ، بل أمضى به  
وأنا منتشى وفخور !

الآن الأمر يبقى أعمق دلالة من ذلك بكثير . فقد كان أخطر  
ما فى هذه القصة موضوعها : شاب على موعد مع امرأة متزوجة  
كان يعرفها قبل أن تتزوج ، والتقى صدفة بعد أعوام من  
زواجها ، فتحرك الحنين ، ودعته الى زيارتها فى بيتها .. ولكن  
متى ؟ ! .. بعد أن يخرج زوجها فى الصباح الى عمله الذى  
لا يعود منه الا فى المساء ! ويندفع الشاب مغامرا ، تحت سحر  
اللحظات المرتقة ، ويبكر فى الذهاب .. يتخفى داخل أحد  
المحلات المقابلة لباب بيت الزوجة ، راصدا ، وهو يشرب كوبا من  
اللين ، حركة الزوج ، منتظر خروجه .. ليدخل هو !!

واذ يرى الزوج يخرج من البيت ، رافعا ياقة معطفه لتحميه  
من برد الشتاء القارس ، موسعا خطاه ، يكاد يرتعش ، كى يلحق  
عمله ، تحدث فى نفسه هزة تجعله يتعاطف مع الرجل .. ويرى  
نفسه - لو فعلها - فى صورة ذئب يتسلل الى البيوت بعد أن  
يقادرها أصحابها . ليس هو وحده الذئب ، انما هى الأخرى  
أيضا ذئبة .. ورأى نفسه يخاطبها وهى تفتح له الباب : صباح



الخير يا ذئبتى العزيزة .. فتد عليه مريحة بحرارة : صباح  
النور يا ذئبي العزيز !

ما ان ارتسمت امامه هذه الصورة ، حتى هتف به هاتف  
من داخله : هذه خاتمة لقصة قصيرة . ووجد نفسه مدفوعا  
بقوة خفية سحرية وشهوانية ايضا ، لأن يخرج من جيبه قلما  
ونوتة صغيرة يحتفظ بها دائما في جيبه ، ومضى يكتب .. يكتب  
قصة هذا الذى رآه يحدث لو أنه أوفى بالميعاد وذهب اليها .  
ولم يرفع رأسه من على الورق الا بعد ان انتهى ، وأعطاهها ايضا  
عنوانها : الذئب ! .. وحينذاك نهض من مخبئه ولم يذهب الى  
المرأة ، بل انطلق فى الشوارع فرحان بقصته !

كان هذا الشاب فى الحقيقة هو أنا ، ومازلت أذكر الفرحة  
التي احتاجت بها روحى بعد أن انتهيت من كتابة القصة . ليس  
فقط لأنى ، لأول مرة كتبت قصة ، وإنما أيضا لأنى ، بفضل  
كتابتها ، نجحت فى مقاومة الاغراء وقهر غريزتى .. لكأنما  
انصبت الشهوة على الورق ، وبمئعة أروع . ونجوت من ارتكاب  
أبشع أنواع الخطايا .. وهو الزنا !!

تلك كانت البذرة الأولى للفكرة التي سيطرت على كل  
كتاباتي وفنى فيما بعد : ان الانسان بالفن يمكنه مقاومة الشر ..  
فبدلا من أن يرتكبه ، يتأمله ويعلو عليه ، ثم يحوله من فعل حرام ،  
الى عمل فنى يشهد بطهارة أعماقه وبراءته ! .. وهكذا ارتبطت  
أول قصة قصيرة كتبتها بفكرة الفضيلة التي تسبع على الانسان  
انسانيته ونقاؤه !

كما انى خرجت من كتابتى لهذه القصة بدرس هام آخر فى  
الفن ، وهو أن « التجربة » الحية هي أعظم ينابيع الفنان . كلما  
امتلات حياته بالتجارب ، امتلأت وسخت ينابيع فنه التي يفترق



منها .. ومن هنا كانت وما زالت لكلمة « التجربة » رنينها السحري في نفسى ، وقوة جذبها المغناطيسى ، كوعد أو بشر بقصة جديدة تلوح .. بل ان أية تجربة أو واقعة كانت تمر بحياتى ، لم تكن تكتسب في نفسى أى وزن أو أهمية ، ما لم أر قابليتها لأن تصبح قصة ، أو عنصرا فعالا في بنيان قصة .. ومن هنا كان نهى وتوقى الى « التجربة » والبحث عنها ، بل والعمل أحيانا على خلقها !

الا ان هذه القناعة كانت تحمل في ثناياها تناقضا دراميا واضحا وحادا .. التناقض بين ضرورة التجربة وضرورة الفضيلة في الوقت ذاته .. كيف يجتمع النور مع الظلام ، والماء مع النار في حيز واحد ؟ ! .. ولأن هواجس وتوترات العاطفة المقرونة بالجنس كانت في تلك المرحلة من الشباب هى المحرك والمثير للبحث عن التجربة واقتفاء أثرها ، فقد كانت ضرورة اقتران الفن بالفضيلة يحمل نوعا من المكابدة التى تبلغ حد العذاب .. فالتجربة لكى تكتب جيدا ، يجب أن تعاش الى أقصى أطرافها وأعماقها .. كيف يتأتى الجمع بين الاثنين ؟ ! .. ان هربت من التجربة فهى خيانة للفن .. وان أقيت بكل نفسى فى اتونها ، كسبت الفن وخسرت طهارتى وراحة ضميرى ! كيف يمكن حل هذا التناقض ؟ !

كان لابد من ثورة لحله فى نفسى . أجل . فقد كنت أحس من أعماقى ، وعلى نحو فطرى غامض ، أن الفضيلة والفن ليسا أبدا ضدّين متنافرين ، وأن ثمة موجة واحدة تحملهما وتدفع بهما معا فى نهر الحياة .. كيف اذن يمكن حل هذا التناقض القائم فى النفس وفى العقل ؟ !

كانت تربيتى الريفية المتدينة بالطبع هى المسؤولة عن هذه الرؤية .. فقد كان التناقض البادى فى العملية الفنية ، هو فى



الحقيقة انعكاس للتناقض القائم في نفسى منذ بدء فترة البلوغ ، بين الفرح بالحياة والرغبة العارمة في احتوائها ، وبين الخوف من الوقوع في الحرام وأن أكون لعبة في يد الشيطان . كان لابد من حل لانهاء هذا العذاب ! ولم أكن أمثل حينذاك حالة فردية خاصة ، إنما هي كانت حالة جيل كامل ، بل قل حالة وطن بأكمله ، وطن عاش طويلا مكبلا تحت حكم غيره ويريد تحطيم الأغلال . انه لا يريد فقط ، بل ويهب أيضا ثائرا لتحقيق ذلك . كانت الحرب او المجزرة العالمية الثانية منتهية لتوها ، والحلفاء الذين انتصروا على الفاشية يجلسون في « بوتسدام » ليرسموا على الورق خريطة جديدة للعالم . والشعوب المستعمرة تنهض مناضلة من أجل استقلالها واسترداد حريتها ! كان طوفان الثورة المصرية على الاحتلال الانجليزى بدأ يندفع بقوة وعرامة ويفمر البلاد كلها . ورغم أنى كنت لا أحب السياسة بل وأنفر منها ، إلا أننى وجدتني مندفعاً مع الطوفان . . واحدا ضمن عشرات الألوف من الطلبة والعمال والناس العاديين زاحفين الى ثكنات العدو في قصر النيل ، عزلا غير آبهين بمواجهة الحديد والنار ! كانت السياسة ملحمة مجيدة تخلق البطولة والأبطال ! كانت تعنى كلمات محددة : تحرير أمنا الكبرى مصر ، وإخراجها من كفن عاشت طويلا فيه . . ولأننى عشت طويلا في هذا الكفن في قرىتى وما أكثر ما انتفضت ثائرا عليه تائقا للخروج وللاتطلاق ، فقد وجدتني منجذبا شيئا فشيئا الى سياسة تلك الأيام والاندفاع مع الطوفان . كانت الثورة العامة متنفسا لثورتى الشخصية الفردية ، فامتزجت الاثنتان . . وسرعان ما وجدتني ، بحكم كراهيتى الأولى للسياسة والسياسيين التقليديين ، انضم الى احدى الكتائب الجديدة فى الثورة والنضال . وكانت كتيبة الشيوعيين :



ذلك فصل يستحق أن يكتب بالكامل وبالتفصيل ، لكن المهم منه الآن ، ونحن بصدد « القصة القصيرة » و « التجربة » و « ينايع الفنان » انى رايتنى فجأة أخرج من الكفن القديم وأمزق فيه . واذا بالعالم قد اتسع أمامى ، والموضوعات تعددت ، والبطولات اكتسبت معنى مختلفا ، وتفسير الأحداث والظواهر حتى الكونية أخذ منطقا جديدا تماما ! . . لم تعد عاطفة الحب التقليدية ومغامرات الجنس النابعة من الكبت والحرمان هى نبع الإلهام الأوحى لكتابة القصة . شرعت أخرج من أسر قصص « جى دى موباسان » و « الفونس دوديه » ومحمود كامل المحامى وإبراهيم الوردانى ومحمود تيمور الرومانسية ، مستبقيا ما اكتسبته من فنهم وبراعتهم فى التعبير والقص ! أصبحت قضية التغيير واستمرار الثورة هى مرشدى ومنارى الذى أكتب فى ضوئه القصة ، متحمسا ومنتشيا أن القلم يمكنه المشاركة فى صنع واستمرار ثورة !

تلك مرحلة أخرى ، تستحق أيضا الكتابة عنها بالتفصيل . . ذلك أنى سرعان ما وجدت نفسى واقعا فى أسر جديد . . أسر شعارات الكتيبة التى أكافح معها ، والتى تبشر مع مبادئ العدل الاجتماعى بدكتاتورية البروليتاريا ! . . ودخل علينا فى تلك الأيام خفية ، كاتب عتيق أصبح هو المثل الأعلى لى ولكل جيل النضال الوطنى : هو « مكسيم جوركى » ذلك الروسى اليتيم الشريد الذى اتخذ من الثورة أما وأبا ، فجعلت منه عملاقا من عمالقة الأدب والفن والثورة . . فمضينا نقتفى أثره ، بات حلم كل واحد منا أن يصبح « جوركى مصر » ، أو على الأقل « بافل » بطل روايته « الأم » !

فى تلك الأيام ، وقع فى حياتى حدثان كبيران سعيدان . . .  
وقعا فى وقت واحد تقريبا : التقيت بحبيبتي التى أصبحت رفيقة



عمرى .. وقامت الثورة التي كنا ننادي بها ونكافح من أجلها :  
ثورة ٢٣ يوليو .. وبدأت الحياة معزوفة رائعة وبهيجة . قامت  
الثورة اذن فالتفرغ للحب .. حب الحبيبة وحب الحياة ..  
وانطلقنا .. أنا وهى ! .. وإذا نادانى الفن وكتبت فكتاباتى  
أهازيج وأغنيات ، ووداعاً للحيرة والحزن والقلق ؟

ألا أن عاصفة عنيفة سرعان ما تجمعت وانقضت ، فأخذت  
الحبيب من الحبيبة ومن طفله الوحيد ، وألقت به مع عدد كبير من  
رفاق الكتيبة فى احدى الزنازين بسجن مصر !! .. تلك كانت تجربة  
التجارب فى حياتى كإنسان وككاتب . لقد غيرت الكتيبة فجأة ،  
وبعد أشهر قليلة من قيام الثورة ، غيرت تحليلها السياسى .  
وبعد أن اندفعنا من أول يوم نبشر بالثورة ونساندها ، انقلبنا  
على الوجه الآخر ، وأصبحنا نتهمها بأنها انقلاب أمريكى .. فمن  
يعلق اثنين من العمال فى المشنقة ، خميس والبقرى ، ويعدمهما ،  
لا يمكن أن يكون إلا عميلاً لأمريكا .. قمة الرأسمالية العالمية !! ..  
وان من يجلس مع الانجليز ليفاوضهم على الجلاء والاستقلال ،  
لا بد سينتهى بالخيانة والتنازلات .. فالتحرير الحق لا يمكن أن  
يتم إلا بالكفاح المسلح .. شعارنا !! .. واقتنعت بالمنطق ،  
وهتفت مع الهائفين بسقوط « معاهدة جمال - هيد » .. وكان  
الشن الفورى : عاين من عمرى فى السجن !

أقول كانت تجربة التجارب .. فقد خرجت منها الى مرحلة  
النضج . أول علامة لهذا النضج الا ينقاد المرء - والكاتب  
بالذات ، لراى غيره ، فردا كان أو مجموعة . أن يكون هو نفسه  
أولا - أحاسيسه وفكره وعقله وحساباته هو أولا .. الا يكون  
- دون أن يدري - واحداً فى قطيع . ويأليته قطيع واحد ، يل  
جماعات متناحرة ومتنازلة بأشنع أنواع الاتهامات والمسبات !  
وها نحن ننقلب على الوجه الآخر ونعود الى التحليل الأول ،



فها هو عبد الناصر يعقد صفقة الأسلحة التشيكية ، ويذهب الى « باندونج » ويعلن شعار الحياد الايجابي ( وليس عدم الانحياز ) ويناطح أمريكا والاستعمار كله .. حسن هذا التغيير ، والاعتراف بالخطأ فضيلة ، الا أن ما رأيته بعد ذلك يحدث جعلنى أفر من هذه المنطقة فرارا وبشكل حاسم . كنا ، ونحن فى السجن ، قد نجحنا بعد جهود هائلة ومضنية فى توحيد معظم المنظمات وادماجها فى حزب واحد موحد . وكنا جميعا نرى فى ذلك انجازا رائعا وتاريخيا يشير فى النفس الأمل فى المستقبل .. الا أننى فوجئت ، بعد أن خرجت من السجن بعدة أشهر بأحد القياديين الكبار يأتى الى وبهمس فى أذنى : لقد سيطر الانتهازيون على الحزب ، ولهذا فقد قررنا الخروج منه وتشكيل حزب آخر مستقل .. حزب ثورى ! يا الهى . انقسام مرة أخرى ؟ !

وانفجرت فيه : لا .. ليس فقط لتياركم الثورى ، بل لكل التيارات الأخرى . لم أعد أحتمل .. لم أعد أطيق .

وأعلنت انفصالى الى الأبد .. انفصالى عن التنظيم وليس عن الفكرة والمبدأ .

والحق أن بعدا نفسيا آخر مكن من نفسى هذا القرار .. بعد شخصى خاص بتركيبتى وتكوينى ! .. كنت أجدنى وأنا فى قلب اجتماعاتنا السرية ، كثير الشرود ، غير منجذب تماما الى ما يدور فيها ، انما أتأمل الرفاق كأشخاص وبشر ، لهم ملامح وظروف وتاريخ ، ثم أتنبه الى أن كثيرا مما قيل لم يدخل أذنى ، فأدارى حرجى .. وما أن ينتهى الاجتماع ونخرج فرادى من مكننا ، حتى امضى أنفوس الهواء بعمق : حرىتى : تعالى الى يا حرىتى !

كنت قد بدأت أضيق بالمواعيد ، وبذلك الدقة وذلك الحذر



الذى يستوجبه العمل السرى ، فما أبشع أن أكون أنا ، دون  
أن أدري ، مصيدة للآخرين .. وحينذاك أوصم بأبشع الاتهامات ..  
تلك التى رأيتها وسمعتها بأذنى وأنا فى السجن تحول حيناً  
البعض الى جحيم .. انك اليوم بطل .. وغدا عميل متستر  
ولثيم !!

الحرية .. الحرية .. وخلعت نفسى من التنظيم خلعا ،  
صانعا لحياتى تنظيمها الخاص بها والملائم لها . وبلغ بى التوق  
الى الحرية أنى لم أخلع نفسى من قيود التنظيمات فقط ، بل  
خلعتها أيضا من مهنة المحاماة التى كنت أعمل بها .. فقد وجدت  
مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين  
البشر !

تلك كانت احدى القرارات الخطيرة والمصيرية التى اتخذتها  
فى حياتى : لسوف أندر عمري بكل ما فيه ومن فيه للكتابة ..  
اننى لا أتخطئ .. بل أواضل النضال بالكلمة .. الكلمة  
المكتوبة !

كانت الكتابة أيامها تعنى « القصة القصيرة » فاندفعت  
أعالجها واكتبها بنشوة وشراهة !

ومثلما أذكر حتى الآن أول قصة قصيرة كتبتها ونشرتها فى  
حياتى ، مازلت أذكر أيضا أول قصة كتبتها ونشرتها بعد  
خروجى من السجن ، ذلك أنها كانت ، بالصورة التى نشرت بها ،  
تحمل تلك الغمامة القاتمة التى ظلت تلاحقنى ، وتضم نشاطى  
بالشك والازتياب وعدم الشرعية ، منذ خرجت من السجن صيف  
عام ١٩٥٥ ولمدة طويلة ! .. فقد نشرت هذه القصة ، وبرضاى  
باسم غير اسمى .. ومع هذا كنت سعيدا لمجرد أن أرى قصة  
قصيرة لى جريدة بالنشر وعلى مساحة صفحة كاملة من جريدة  
سيارة واسفة الانتشار .. هى جريدة « أخبار اليوم » !!



ابتسم الآن للذكرى .. فما الذى كان يدفع برئيس تحرير كبير وشهير مثل الأستاذ مصطفى أمين ، لأن ينشر قصة لكاتب مبتدىء وخارج لتوه من السجن ، وبهذه الصورة التنكيرية ؟ ! لذلك قصة بدأت أول خيوطها وأنا لا أزال فى السجن .

كانت هناك لجنة تابعة للتنظيم الذى انتمى اليه ، اسمها لجنة رعاية عائلات المسجونين السياسيين ، احدى مهامها جمع تبرعات من الأهالى وأساسا من الشخصيات الكبيرة والقادرة والمؤثرة اعلاميا ان أمكن .

وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » ، والأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير « أخبار اليوم » ، ممن صدر التوجيه بالذهاب اليهم ! كانت زوجتى هى المكلفة بذلك ، فالتقت بهما وعادت من اللقاء سعيدة ومنتصرة ، فقد تبرع كل منهما بخمسة جنيهات ، ابنتشعرنا من خلالها التعاطف معنا !!

وكان لهذا الاستشعار مبرره . ان حسنين هيكل ومصطفى أمين هما من رجال عبد الناصر . وعبد الناصر تصالحنا مع سياسته ، ونقدنا أنفسنا نقدا ذاتيا ، وبطنا نعترف بقيادته ! .. ما المانع إذن ، بعد الخروج من السجن ، وقرارى بهجر المحاماة ونذر نفسى للكتابة ، ان أذهب لأحدهما وأطلب منه العمل فى جريدته ؟ وبدأت بالأستاذ هيكل الذى رحب بى ، وأبدى موافقة مبدئية ، الا انه استمهلنى أياما ليسأل عن مدى امكانية تشفير خريج سجون سياسى معه فى تلك القلعة العتيدة « الأهرام » ! .. وبعد أيام ، فى الموعد المحدد ، فوجئت به يقول منذ أول لحظة دخلت عليه فيها : « يا راجل .. دانت شخصية خطيرة .. والأخطر منك مراتك » . ولا أذكر ما قيل بعد ذلك .



نهضت شاكرا اعتذاره بكل هذه الصراحة والوضوح ! ..  
خرجت من عنده واتجهت مباشرة الى الأستاذ مصطفى أمين ..  
واذا بى أمام نوعية أخرى تماما .. فقد احتفى بى الرجل وهو  
يستقبلنى ، حتى أننى فكرت ، لو لم أخرج من لقائه الا بهذا  
الاحتفاء ، وكل هذا الود ، سأكون راضيا ومكتفيا .. حكيت له  
موقفى .. قال بشكل مباشر : شوف - أن تعمل معنا الآن وبشكل  
رسمى ، هذا صعب .. أنا أرى أن نبدأ أولا بالنشر .. ومع  
توالى النشر ، قد تتحسن الظروف ، كن صبورا .. هات قصة  
لنقراها ، وإذا كانت - مملش - صالحة للنشر ، فسأنشرها على  
الفور !

وفى اليوم التالى كنت أقدم له القصة كانت مكتوبة وجاهزة .  
وفوجئت به يقرأها وأنا جالس أمامه .. اتابع بدقة كل خلجة  
فى وجهه ، ولم يلبث أن رفع رأسه عنها وقال : قصة جيدة .  
سأنشرها فى عدد السبت القادم . كدت أطير فرحا .. ولكنك  
تعرف المحظورات السياسية .. لهذا ، فأنا أرى - درءا لآى  
مشاكل ، أن ننشرها باسم آخر غير اسمك .. ما رأيك ؟

قلت فورا : موافق .. ليس الاسم الآن هو المهم . المهم  
هو نشر القصة . قال مبتسما : ولكن لابد لكل قصة من  
مؤلف .. فلتختر لنفسك اسما !

وبدت المسألة كمغامرة أو لعبة سرية طريفة معا .. وأخترت  
اسم ولدى .. بديلا لاسمى ! صلاح عبد الله .

وفى الموعد الذى حددته نشرت القصة ، وكان اسمها « أم  
مدبولى » . طرت بها فرحا وأنا أراها تملأ صفحة كاملة .. لم  
يكن عليها اسمى .. لكنها قصتى أيها الناس .. كلماتى .. وعدت  
أقراها من جديد كلمة كلمة .. كأنما أتأكد من أننى كاتبها ..



وما أقساه من شعور ، حين يجد المرء نفسه محروما من الانتساب الى كلماته .. الكلمات التي صب فيها ذوب نفسه وسهر فيها الليالي .. وتنسب الى شخصية أخرى وهمية ! .. ومع ذلك فرحت .. فرحت بنفسى ككاتب .. وتراءى لى الأمل كبيرا فى القد .. وعدت الى الرجل اللطيف الطيب بقصة قصيرة أخرى .. ونشرت بنفس الاسم « صلاح عبد الله » .

الا أن تجربتى مع « أخبار اليوم » ، ومع هذا الرجل الذى دخل قلبى لم تتواصل . فقد كنت أيامها أكتب قصصى وأنا محمل بعقدة الذنب ، انى تركت « التنظيم » والكفاح مع الزملاء تحت الأرض ، واذن فلا بد أن تتضمن قصصى ما يعلن ويؤكد انى لم اتخل عن المبدأ ذاته ، وبهذه العقدة كنت أبالغ ، رحت أتمس موضوعات أبطالها وشخصياتها من الطبقة العاملة ومن الناس الذين يعيشون فى القاع ، فنشر لى الرجل قصة أخرى ، ثم فترت حماسه لهذا النوع من قصصى .

وللحق أيضا ، فان حماسى أنا الآخر فتر ، ولكن من منطلق آخر : كيف اظلل أنشر وأنا محروم من رؤية اسمى على ما أكتب ؟ ! كانت لعبة الاستخفاء الطريفة قد حققت أقصى غاياتها ، ونهى اكتسابى لثقتى بنفسى ، ككاتب .. فتحولت بقصصى الى « روزاليوسف » . انها مجلة « اليسار » .. ويعمل بها اصدقاء شخصيون : حسن فؤاد ، وعبد الغنى أبو العينين .. ورأيت قصصى منشورة باسمى .. يا لها من فرحة ، واكتمل احساسى بذاتى ، وبدأت المسيرة الحق ! .. وتصاعدت الثقة بالنفس وأنا أسمع أحد النقاد اليساريين الكبار يهنئنى على قصة كتبتها ، وكانت أحداثها تدور فى أحد المصانع وأبطالها جميعا من العمال والعاملات .. ويقول لى وهو يربت على ظهرى مشجعا ومحمسا : هذا هو الأدب الطبقي الذى تحتاجه مصر .. وليس



الأدب البرجوازي الذي تفسخ وعفا عليه الدهر !! .. هزنتى  
كلماته ، ومضيت متحمسا أكتب على هذا المنوال !!

الا أن هذا النوع من القصص لم يكن يشبعنى فى الحقيقة  
أو يمتعنى ، كنت أحس فيه بكذبة ما .. ادعاء ما .. اننى  
لا أعرف شيئا عن حياة المصانع والعمال الا بالسماع . وما أكتبه  
ليس الا بالتصور والخيال .. اننى أولف وأفبرك قصصا لم أعشها  
باحساسى ووجدانى .. انها ، بما تتضمنه من أفكار وتعاليم  
وشعارات زاعقة ، أقرب ما تكون الى منشور سياسى !

لا .. ليست هذه نغمتى الأثيرة فى الفن .. نغمتى التى  
أحس معها أنى أرفرف أو انزلق خفيفا على سطح موجة ..  
نغمتى التى بدأت بها ، وأغرنتنى بهجر مهنتى ونذر حيلتى  
للفن !! .. لطالما تمنيت فى صباى ومطلع شبابى أن أكون مغنيا ..  
وما أكثر ما غنيت لنفسى تحت الأشجار على شاطئ النيل فى  
القرية ، ولأصدقائى هنا فى ليالى القاهرة .. واننى لتائق لأن  
أحس بأنى أغنى وأنا أكتب القصة .. كيف يتأتى لى هذا ؟ !  
كيف أسترده نغمتى .. أين ألقاها فتحملنى من جديد على  
موجاتها ؟ !

حتى وقع لى حادث جديد ! مجموعة قصص قصيرة لكاتب  
روسى اسمه « أنطون تشيكوف » .. ومضيت أقرأ فيها .. كانت  
القصة الأولى بعنوان « موت موظف » .. ولم تكن تشغل أكثر  
من صفحتين ، ومع هذا ، فما كل هذه البساطة والعذوبة  
والشجن الأسر الجميل ؟ ! ما كل هذه البصيرة النفاذة التى  
تستشف ما تحت الجلد كأنها عين نسر ترقب وتكشف من أعالي  
القمم أدق تفاصيل ما يجرى على أرض البشر وما يدور داخل  
أركان وجنابات النفس الإنسانية .. أجل .. وما كل هذا المزيج  
الرائع السارى فى قصصه بين الانسان وبين الطبيعة حتى يتحولان



الى عنصر كونى واحد .. وايضا .. ما كل هذا العشق للحياة  
حتى فى مناطق الكآبة والألم ؟ !

كان للحظ السعيد أن تشيكوف هذا ، روسى الجنسية ،  
فنهض على الفور فى نفسى كند خطير لمكسيم جوركى .. فرغم أنه  
يهمس ويرتل ، إلا أنه فى النهاية يفجر ثورة ! .. هو أقرب الى  
روحى ومزاجى أكثر من جوركى .. جوركى يقول : جئت الى  
هذا العالم لأختلف معه . وهو - تشيكوف - يقول : جئت الى  
هذا العالم لكى أكتشف أسرار قوانينه .. واغيره بها !!

غزا حب هذا الكاتب قلبى ، وفى صحبته استعدت معه نغمتى  
الضائعة .. وتمنيت لو أننى كنت أميش فى عصره ، وآه لو أننا  
كنا نسكن مدينة واحدة ، أو مدينتين أو مكانين متقاربين ،  
لسميت اليه واحتضنته وصادقته واستمتعت ، ليس فقط بروحه  
الإنسانية الفياضة ، وإنما أيضا بلامح وجهه الدقيق الجميل .  
والغريب أنى رأيت فى وجهه شبها كبيرا بوجه أمى ، رغم لحيته  
الصغيرة الأنيقة : الأنف المستقيم الشامخ ، والوجنات البارزة  
المنحوتة ، والنظارة الطبية التى تنبئ بعينين وأدعتين أجهدهما  
أرهاق العمل المستمر ، وشفتين مزمومتين على شجن عميق ،  
وارادة لا تلين !

نزعت صورته من الكتاب بحنو شديد ، ووضعتها فى  
برواز جميل ، وعلقتها فى أوضح مكان فى حجرتى . كان تشيكوف  
هو أول كاتب علقت صورته فى بيتى .. أصبح واحدا من  
هائلتى ! .. تهرع الآن الى ذاكرتى صور الكتاب الذين علقت  
صورهم بعد ذلك بجوار صورته : همنجواى . وتولستوى .  
وطاغور . ولورد بيرون . كنت - ومازلت - أرى فيهم ملمحا  
مشتركا رغم التباين الكبير فى التكوين الجسدى العام .. هو  
ملمح روحى ، يطل من عيونهم على العالم ! .



ولأعد الى رحلتى مع كتابة القصة القصيرة . لقد وجدتني بعد تعرفى على عالم تشيكوف اندفع بفرام اكثر فى كتابة القصة القصيرة ، وفى ظل موسيقاه الروحية ، كتبت منتشيا بعض قصصى: « وردة نامت » و « ابتسامة الرجل الكئيب » تلك التى فوجئت بعد نشرها فى « روزاليوسف » بتلغراف يهنئنى عليها .. وكان مرسل التلغراف هو الدكتور نظمي لوقا .. تهلت روحى ، ومضيت بيقين أقوى ! كما كتبت قصة « الأرنب » وفوجئت بها تترجم الى الانجليزية . وتدرس بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية كنموذج للقصة المصرية الحديثة .. اختارها الدكتور رشاد رشدى ، وترجمها الدكتور لويس مرقص .. وتصاعد اليقين بالفرحة ! .. لا انسى أبدا أن زوجتى فتحية هى التى ألهمتنى فكرة هذه القصة ونحن فى إحدى زيارتنا لقريتى .. ولهذا لا يأتى ذكر لهذه القصة ، الا وأحس بأنها قصتها ، وليست قصتى .. وما أكثر القصص التى ألهمتنى أياها ، وعاشتني معاشة كاملة فيها .. اننى مدين لها ، ولحسها الفنى الزاخر ، بالكثير مما كتبت ! ..



تلك كانت الفترة الذهبية للقصة القصيرة ، ليس فقط فى حياتى ، بل فى حياة مصر كلها ! .. كانت مصر فى ثورة .. الكفن القديم الكبير يمزق ، والطاقات الكامنة تتفجر ، والأرض تعد بانبات أزهار وثمار أجمل ! وكنا كتيبة أو مجموعة صغيرة مسها عشق القصة القصيرة ، فجمعنا هذا العشق الواحد ، وكونا ما يشبه الجمعية الأدبية .. نقرأ فيها لبعضنا ما نكتب ونتناوله بالتعليق والتقييم ، بحماسة وصدق يتفقان مع روح الثورة الطامحة الى تغيير كل شئ الى ما هو أجمل وأحسن ! .. كان لكتابة أى واحد منا لقصة قصيرة وقع الحدث أو الخبر

الهام ، نحتفل به ونجتمع حوله ، ونقضى أمتع الليالي : فاروق منيب ، وصبرى موسى ، وشوقي عبد الحكيم ، وبدر نشأت ، وأبو المعاطى أبو النجا ، وعبد الرحمن فهمى ، وصالح مرسى ، وفهمى حسين ، وسيد جاد ، وأمين ريان ومحمد سالم . . . تشاركنا أحيانا فى تلك الليالي فوزية مهران ، وزينب صادق .

وإن قد سبقنا بقليل ، من نفس الجيل ، مجموعة صغيرة من كلية الطب : محمد يسرى أحمد ، وصلاح حافظ ، ويوسف إدريس الذى نشر مجموعته الأولى : « أرخص ليالى » بمقدمة للدكتور طه حسين ، فلفتت الأنظار بشدة إليه ككاتب صاعد تعلن موهبته عن بزوغ نجم سوف يملأ بنوره سماء القصة القصيرة . . . كما كان من نفس الجيل أسماء أخرى تعرفت عليها لأول مرة : يوسف الشارونى ، وأدوار الخراط ، وشكرى عياد ، ولطفى الخولى ، ومحمود السعدنى ، وسعد الدين وهبة ، وفتحي غانم . . . مع اختلاف مذاقهم وتوجهاتهم !

كانت القصة القصيرة الجيدة فى تلك الأيام بمثابة الطلقة التى تدوى فى سكون الظهيرة ، فينتبه إليها الناس وتصبح مادة لحديثهم ! . . . وللحظ ، لم يكن اختراع التليفزيون قد دخل بيوتنا بعد . كانت الكلمة المكتوبة ، وليست الصورة ، هى أنس الناس ووسيلتهم الوحيدة لشغل أوقات فراغهم ! كان للقصة القصيرة وزنها ، ودورها الفعال والمعترف به كرسالة ، فمضينا جميعا ، ككتيبة فى ساحة معركة ، نكتب ونكتب ، وكلما كتب واحد من مجموعتنا قصة جديدة أقمنا له احتفالا ، وكأنه عريس يزف الى عروسه ! . . .

لكننا ، لم تكن باسم الصداقة والحب ، نجاىل بفضنا على حساب الفن : هل هى حقا لقطة قصة قصيرة ، أم هى ملخص لرواية طويلة وبهذا تخرج من عداد القصة القصيرة المثالية ؟ ! . . .



والفكرة .. هل فيها ما ينفع الناس ويعطيهم قوة وأملا في التغيير،  
أم هي مجرد بكائية تثير في النفس الاحباط وتضيف الى العتمة  
القديمة عتمة أخرى جديدة ؟ !

تلك كانت فترة التدريب الأولى للتمرس على اكتساب حرفية  
القصة القصيرة واكتشاف أسرارها .. تعلمنا منها أهمية السطر  
الأول ، بل الجملة الأولى في القصة . أن تكون بمثابة الوثوب  
المباشر على الموضوع ، ثم الفوص الى أعماقه مستكشفاً كل أبعاده،  
ثم الخروج الى السطح مرة أخرى ومعنا اللؤلؤة : لحظة  
التنوير ! ..

كما شغلتنا قضية اللغة والأسلوب . كان مذهبنا البساطة  
في التعبير بقصد الوصول الى أوسع دائرة من القراء .. وان  
لجأنا أحيانا الى الرمز فمن أجل مزيد من التوضيح والتأكيد ،  
وليس للتعمية والتغميض ! كنت وأنا أكتب القصة أتمنى أن  
تقرأها أختي التي لم تكمل تعليمها .. هي وكل أهلي وفلاحى  
قربى ميت خميس .

وكان التجدي الأكر هو القدرة على الجمع بين البساطة  
والعمق ، وذهب الحماس بأحدنا ، وهو « بدر نشأت » الى حد  
كتابة مجموعة قصصية بأكملها باللغة العامية « مساء الخير  
يا جدعان » . بينما الجدل كان حادا ومشتعلا بيننا حول لغة  
الحوار فحسب : هل يكون بالفصحى أو بالعامية ؟

وقد ظل هذا الجدل مشتعلا بيننا لمدة طويلة ، حتى اكتشفنا  
بالتجربة أن هناك لغة ثالثة ، هي اللغة الفنية المنبثقة من روح  
ونسيج العمل ذاته .. لغة لها شاعريتها وموسيقاها الخاصة  
بها ، سواء أكانت فصيحى أو عامية . أن « الفصحى » من  
« الفصاحة » .. وهل هناك أيها الأصدقاء أفصح من بيرم التونسي

وصلاح جاهين ، وفؤاد حداد .. فرسان التعبير بالعامية ؟ !  
كما شغلنا أيضا قضية أخرى ، هي دور الفن في التغيير ..  
وكان أحد مقاييسنا في تقييم القصة هو نوعية الموضوع أو الأزمة  
التي يعالجها الكاتب ، ومدى ما يقدمه من حل أو تنوير !!

وكانت هناك حينذاك مدرستان أو تياران في النقد متناقضان  
يقفان لبعضهما بالمرصاد : مدرسة الفن الملتزم بقضايا المجتمع  
ويمثلها الدكتور محمد مندور ، ومدرسة الفن للفن ، أو الفن  
بذاته ولذاته ، ويمثلها الدكتور رشاد رشدي . ورغم أنني كنت  
منتميا وبحماس الى المدرسة الأولى ، فقد وجدتني لفترة أتميل  
بل وأترنح .. فها هو الدكتور رشاد رشدي يتحمس لاحدى  
قصصى : « الأرنب » ويقرر تدريسها كنموذج لطلبته في قسم  
اللغة الانجليزية .. ثم ، وبألمفاجأة ، اذا بالدكتور مندور ،  
الذى كان متحمسا لقصصى من قبل ، باعتبارها منتمية الى تيار  
الواقعية الاشتراكية ، يهاجم هذه القصة بالذات ، ويتساءل :  
« ما الذى يقوله هذا الأرنب ؟ ! .. » واضطرب قلمى !!

ومازلت أذكر تأثير هذه الفترة الزاخرة بالحماس وبالصدام  
على منهج كتاباتى .. فقد ألفتنى أغبر نهاية قصة لى ، بدت لبعض  
المتحمسين لقضية التغيير مفرقة في التشاؤم .. متناقضة مع  
روح الأمل والثورة !

لقد أنهيتها وقد انطفأ « الفانوس » وحل الظلام والخوف ،  
فعدت أنهيها وقد أضاء الفانوس وعمت الفرحة !

ينهض الآن أمامى طيف رجل مهيب وحبيب الى القلب ،  
هو الدكتور على الراعى .. بهدوئه البادى لكنه يخفى في أعماقه  
البراكين . كان هو الذى نشر لى قصة « الفانوس » بنهايتها  
الأولى في الصفحة الأدبية التى كان يشرف عليها في جريدة



« المساء » .. وحين رآنى أغير نهايتها على هذا النحو ، كتب  
ينقد بسخرية لاذعة ومهذبة هذا التغير .. فالكاتب ليست مهمته  
أراحة الناس ، بل إقلاقهم ولسع الكسالى والحالمين منهم الى  
النهوض ومواجهة المشاكل بالعمل وبالفعل .. فعل التغير !

وقد ارتجت أعماقى لكلماته .. وبدأ لى أنى شوهدت قصتى  
باسم التفاؤل وروح الأمل .. فأعدت إليها - معتذرا - نهايتها  
الأولى .. كما كتبت قصة « النهاية السعيدة » وهى حوارية  
بينى وبين أحد فوانيس القرية ، ناقشت فيها قضية التغير ،  
لبس فقط فى الفن ، وإنما فى الحياة بشكل عام !

فى ذلك الجو الحافل والاحتفالى ، كان كل من يكتشف كاتبا  
عالما جديدا للقصة القصيرة يأتينا مهللا ويبشرنا به . وفى غمار  
تلك الفترة الحماسية ، وقعت فى حب « أو. هنرى » ..  
« وارنست همنجواى » الذى عشت فى نفسى بعد قراءة رائعته  
« العجوز والبحر » ، والتي لم تكن فى الحقيقة غير قصة قصيرة  
طويلة محكمة التكوين !

كما وقعت فى حب الكاتب الأرمنى الأصل « وليم سارويان »  
وعند سارويان لابد من وقفة حب ووفاء . كان لقائى الأول  
به فى كتابه العظيم « الكوميديا الإنسانية » . كان من حيث المظهر  
رواية طويلة ، لكن كل فصل فيها ، كان يمكن اعتباره قصة  
قصيرة قائمة بذاتها . ومن هذا الكتاب بالذات ، تكونت رؤيتى  
المثالية فى كتابتى للرواية فيما بعد !

جريت ملهوقا أبحث عن قصص أخرى له . وإذا بالطفولة  
هى عالمه الأثير والملىء بالروائع والمدهشات . ولأنى أيامها كنت  
أبا جديدا لطفلين ثم ثلاثة ، فقد أسقطت عليهم وعلى ، عالم  
سارويان وخياله الجميل الطليق والداعى لانطلاق الإنسان منذ

خروجه من الرحم الى الحياة ، والذي يبدو فيه الصفار أوفر احساسا وأكثر معرفة وحكمة بالفطرة من كثير من الكبار ! .. وفطنت الى ما في حياتي مع أطفالي وأطفال الآخرين من تجارب ولحاحات يمكن أن تكون نبعاً لقصصى ، فكتبت عديداً من القصص أبطالها أطفال وصبية صفار : « ابن العالم » .. و « الموتوسيكل » و « العصفور لعبة » و « حفلة عشرة » .. وغيرها .. وبدأ لى أنى حققت انجازاً هاماً ، فضمت هذه القصص فى مجموعة واحدة ، رغم أن بعضها كان قد سبق نشره ضمن مجموعات سابقة ، وأسميتها : « ابن العالم » .. داعياً من خلالها الى نظرة انسانية وثورية فى التعامل مع أولادنا الصفار ! وكان من أجمل ثمارها ، مقالا نقديا محبا كتبه الدكتور عبد القادر القط فى حريدة الأهرام ، أعطانى شحنة هائلة للمضى على الطريق .

اننى أحرص على ذكر ما أتذكره الآن من منابع قصصى ، ذلك لأنى لا أؤمن بالعبقريّة الشيطانية التى تولد من العدم والفراغ ، بل أؤمن بأن كل الانجازات الانسانية ، تقوم وتنهض جميعاً على أكتاف بعضها .. وللكتاب الأيرلندى « برنارد شو » جملة ساخرة وبليغة فى هذا المعنى .. اذ يقول : « شكسبير أطول منى قامه ، لكنى أقف على كتفيه ! »



فى تلك الأيام الحافلة بالحماس وبالحب ، تعرفت على الأستاذ نجيب محفوظ .. كان يعقد ، صباح كل يوم جمعة ، جلسة أدبية فى الدور الثانى من كازينو أوبرا ، فسعيت اليها لاستكشافها واستكشفه . وكنت منتهياً لتوى من قراءة ثلاثيته الشهيرة العتيدة « بين القصرين » .. واذا بى أقع فى حب شخصه من اللحظة الأولى ، وهو يستقبلنى بوجه بشوش ، وروح ابن بلد عادى بسيط وضحوك . ولم تلبث الجلسة ، بفضل حماسه



وتشجيعه ، أن أصبحت ندوة منتظمة لقراءة قصص الشباب ومناقشتها على أعلى وأرقى مستوى ! وسرعان ما ذاع صيت هذه الندوة واشتهرت باسم « ندوة الأوبرا » أو « ندوة نجيب محفوظ » . فكثر روادها واتسعت رقعتها حتى أصبح المكان أحيانا يضيق بنا . ولأن معظم روادها كانوا من الشباب ، فقد كانت المناقشات لا تقف عند حد التقييم الفني لشكل القصة وأسلوبها ، بل تجنح للدخول في صميم فكرتها ، ومدى ما تقدمه من أضواء وطاقة لتغيير الحياة الى الأفضل ! . . كان المناخ الثورى حينذاك - خاصة بعد القرار التاريخى بتأميم قناة السويس ووقوع العدوان الثلاثى ، ثم انتصارنا عليه . . كان المناخ مناخ ثورة ، فأين هذه القصص من روح الثورة ؟ ! . . تحولت الندوة الى بؤرة ثورية ! الى أن فوجئنا ذات يوم بالنادل يبلغنا أسفا بقرار وصل صاحب الكازينو من وزارة الداخلية ، بفض هذا التجمع ! وأن أى اجتماع يزيد على خمسة ، لابد له من تصريح . . كان وقع القرار كثيبا وقاسيا على نفوسنا . وأعلن البعض رفضه والاستمرار فى الندوة تحديا ، الا أن أشباح زوار الفجر حسمت الموقف ، وقررت الأغلبية قضيا ، فانقضت ، وتفرقنا أبدا سبا !

ولقد بقيت ذكرى هذه الندوة كنبع من ينابيع تكوين جيل أدبى بأكمله . . الا انها بقيت أيضا كجرح غائر أحدثته أجهزة الثورة فى نفوسنا ! كان شعورنا بعد هذا القرار أننا مطاردون من ثورتنا . . ومن هذا الشعور تكون نسيج الحزن والكآبة التى راح يظلل معظم قصاصينا وروائيينا !

ورغم هذا ، فقد كانت القصة القصيرة تمضى فى ازدهار . . وبدأ عشاق جدد لها فى الظهور وانضموا بحماس الى موكبها الاحتفالى : علاء الديب ، وعبد الفتاح رزق ، وعبد الوهاب داود ، وكمال مرسى ، ويحيى الطاهر عبد الله ، وجمال الغيطانى ،

وابراهيم اصلان ، وخيرى شلبى ، واقبال بركة ، وصلاح عبدالسيد ،  
ومحمد كمال محمد ، وابراهيم عبد المجيد ، وآخرون عفوا لعدم  
تذكرهم الآن .

كما كان لقائى التاريخى السعيد بمبدع عظيم فى عالم القصة  
القصيرة ، هو أستاذنا وفناننا الكبير « يحيى حقى » . لقد التقيت  
به وبقصصه متأخرا بعض الوقت ، لكنى من أول ما التقيته ،  
بدا لى وكأنى أعرفه وأعرف قصصه منذ دهور ! .. وأذكر أن  
أول من لفت نظرى اليه كقصاص هو الدكتور يوسف ادريس ..  
أذكر جملة حينذاك : لم تقرا ليحيى حقى ؟ ! .. من لم يقرأ  
مجموعته « دماء وطن » فهو لم يقرأ قصصا مصرية أبدا !!  
وقلت الدنيا حتى عثرت عليها ، وإذا بى أمام انفجارات ضوئية  
رائعة الحسن زاهية ، كل قصة هى مهرجان مشر حافل بالجمال  
وبالحكمة ، واعتبرته من يومها شيخ وأستاذ القصاصين المصريين ،  
ليس فقط بقصصه البارة الممتعة ، وإنما أيضا بتلك التحفة  
التي طلع علينا بها فى أوائل الستينات : « فجر القصة المصرية »  
وبفضل هذا الكتاب « الجوهرة » ألفتنى أمسك بجذورى ،  
فرجا باكتشاف جدودى العظام الأوائل الذين مهدوا لنا أرض  
القصة القصيرة : محمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وخيرى سعيد ،  
ومحمود طاهر لاشين .. ورحت أبحث عن قصصهم وأعجن روحى  
بعجينة أرواحهم ! .. انه الجنين الملح الدائم للانتماء ، وللأحاساس  
باليقين بصدق ما نذرنا حياتنا من أجله !

مضيت بحماس على درب القصة القصيرة .. إلا أن الأمر  
لم يكن بهذه البساطة واليسر . كنت فى تلك الفترة لا أزال أعانى  
من آثار تجربة السجن .. أخطر هذه الآثار أنى كنت ممنوعا  
من العمل فى أية هيئة أو مؤسسة ، عقابا على اختلاف ذات يوم  
مع الثورة ! .. كنت أحيا عاطلا وشريدا ، خاصة بعد أن هجرت  
مهنة المحاماة . وتعددت محاولتى للعثور على عمل ، لكنها جميعا



باءت بالفشل .. وعرفت حزن الآباء والأزواج الذين يقفون أمام أولادهم وزوجاتهم مطرقين عاجزين عن الوفاء بما يحتاجون .. وسرعان ما تحولت هذه الفترة بمشاعرها وأحداثها الى قصص قصيرة .. وخرجت منها بمجموعة من القصص القصيرة تدور حول البطالة والبحث عن عمل . كتبت قصتي « الصورة » و « الصيد » و « الرجل الذي ضحك » و « هدد ؟ لا .. انهيار » وغيرها .. نشرتها في مجلة روزاليوسف .. وصباح الخير ، والاذاعة ، وفي جريدة المساء التي كانت وليدة حينذاك ومعترف بها رسميا ، ولأول مرة كمنبر اليسار ! ..

كان الاحساس بالمطاردة بدأ يقل في نفسي ، وحل محله شعور نسبي بالأمان وبالأطمئنان .. ذلك أن الثورة كانت قد بدأت تدخل منعطفًا جديدًا : أفرج عن المعتقلين السياسيين ، وامتلأ هواء مصر كلها بأغنية عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين : احنا الشعب .. احنا الشعب .. يا فاتح باب الحرية .. يا ريس يا كبير القلب .. كان ذلك عام ١٩٥٦ .. عام المد .. عام تأميم قناة السويس والتصدى لعدوان ثلاث دول استعمارية .. أصبح الواحد في الكل .. والكل في واحد .. وانتصرنا .

كانت مصر لأول مرة في تاريخها الطويل المكتوب بمداد التعاسة والقهر ، تعيش الاحساس بالمجد وبالثقة في النفس ، وبالأمل الكبير في الغد !

في خلال تلك الفترة الزاهية أصدرت أول مجموعة قصصية لى : « داود الصغير » .. وصدرتها بهذا الأهداء : « الى جيلنا الجديد الصاعد . الجيل الذي يملك مصر الغد بين يديه ، ويعيش حياته بالحب وبالثورة معا » .. ثم أعقبته بمجموعتي الثانية : « في ضوء القمر » .. وكان اهداؤها : « الى أمي .. الراقدة هناك .. خلف الجسر .. وسط الخضرة .. وعلى

شفتيها ابتسامة أبدية .. وبموت أمي تسربت فكرة الموت الى نفسي واحتلت ركنا أبديا .. وفي البدء كان ركنا للحزن ، ثم مع الأيام أصبح « غارا » للتأمل والحكمة واستلهم المعرفة .. وبوحيه كتبت « حد المحراث » ذلك الذي يشق بطن الأرض منذ آلاف السنين ، لتنبثق منها الخضرة ، ورغم آلاف بل ملايين مواسم الحصاد ، فالخضرة في الحقول ما زالت .. عفوية وأبدية ، وكأنها لم تحصد مرة من المرات !

وتعاقبت بعد ذلك المجموعات : النمل الأسبؤد .. وابن العالم .. وبحر الدنوب .. والأمل والجريح .. حتى بلغت ستا ..  
تفصل بين الثالثة والسادسة عدة سنوات ! ..

وكنت أظن في بدء عهدي بالكتابة ، ان شيئا أو فنا آخر لن يقوى على سلبى من القصة القصيرة ، وأن هذا لو حدث فستكون الخيانة الكبرى لحبى الأول والأعظم . هي عين العاشق يعيشها دوما ضوء المحبوب فلا ترى أبعد من حالته .. غير أن أشكالا جميلة أخرى من التعبير سرعان ما غزتنى وأوقعتنى في غوايتها . وكان أول من أغوانى هو « المسرح » .. بخشيبته وستائرة المثيرة ، ودقات الافتتاح الثلاثة معلنة فتح الستار وبدء الكشف عن الأحداث والشخصيات مجسمة حية !! .. وبا لها من أزمة عنيفة تلك التى عشتها لعدة سنوات ، فى صراع بين القصة القصيرة والمسرح .. كلما واتتنى فكرة أنفقت أياما وليالى بل وأشهر كى أحسم موقفى منها : هل أكتبها فى شكل قصة أو مسرحية ؟ ! حتى كاد هذا الصراع يشل قلمي تماما . وقام فى نفسى هاجس باتى ربما فرغت وانتهيت ككاتب ، وأذن فقد انتهت حياتى . ورأيت نفسى فى الحلم محمولا فى نعشى ، وأنا نفسى سائر مع الناس فى جنازتى .. فاندفعت ، عقب هذا الحلم ، أكتب مسرحية تدور حول هذا المعنى : يموت الكاتب



حين يتوقف قلمه أو يفقد اتجاهه . وأسميتها « طيور الحب » . .  
وعرضت في نفس عام كتابتها على خشبة المسرح القومي . .  
حينذاك استبد بى عشق المسرح وشحنتنى بطاقة كبرى ومضيت  
أكتب له . . وهكذا انتهى الصراع بانتصار أضواء المسرح ،  
وانزوت الفصة القصيرة في ركن من قلبي ، متحفزة للانبثاق  
والانطلاق في أية لحظة !! . . ولكن ها هو غريم فنى آخر يدخل  
الصراع . فقد أغوتنى « الرواية » أيضا برحابة عالمها وتوالى  
أحداثها مثلما تتوالى الأمواج في النهر العظيم . . والحق أنها لم  
تكن غواية ، بل كانت ضرورة محتومة وأنا أكتب رحلتى الطويلة  
الأولى في نهر النيل . فقد خرجت منى وبشكل تلقائى على شكل  
رواية طويلة . . فوقعت في الغواية . . وكتبت عدة روايات أخرى!

هل تمت اذن الخيانة لحبى الأول . . القصة القصيرة ؟ ! .  
على الإطلاق . . فقد تنبعت . . وكلى فرح . . أن كل ما أكتبه ،  
مسرحا أو رواية أو مقالا أو فيلما أو حتى مسلسلا للتلفزيون ،  
انما أكتبه بروح ومنهج القصة القصيرة . . ذلك المنهج الصارم  
في ضرورة تحديد اللقطة وتكثيفها والكشف عن أعماقها وحركتها  
الجياشة الداخلية ، مع روح شعرية ولحنائية لو أمكن ، تحلق بها  
فوق الواقع الدارج والمعتاد ! . . وبهذا المنظور كتبت « رباعية  
النهر » . . كل فصل فيها يكاد يكون قصة قصيرة تتعامل مع  
موقف بذاته . . وكذلك فعلت في رواية « العودة للحياة »  
و « عينان على الطريق » بل ان رواية مثل « فجر الزمن القادم »  
أو مثل « محاكمة فأر » تكاد كلّ منهما أن تكون قصة قصيرة  
طويلة ، من حيث تأسيسها وانطلاقها من موقف واحد . . في مكان  
واحد لا يتغير أبدا . . رغم توالى الأحداث !!

لذلك تبقى القصة القصيرة هي الأميرة المتربعة على عرش  
قلبي ، صاحبة متيقظة ، بوجهها العرائسى البشوش . . تهمس

لى وترشدى وتضىء لى الطريق .. وكثيرا ما يستبد بى الحنين  
اليها واود لو أ طرح خلفى كل الأشكال والوذ بها ، متمنيا لو أعود  
فى عشق الفن الى التوحيد .. وأجلس الى الورق ولا أكتب  
غيرها .. محققا لنفسي - فى محرابها - امتع لحظات الاحساس  
بالحياة والامتزاج الكامل بالوجود !



ها هى الآن أمامى .. معظم ما استطعت جمعه من قصصى  
القصيرة التى كتبتها عبر مختلف مراحل العمر .. أقلب فيها  
وأعاود قراءتها ، محاولا اعطاءها الترتيب المناسب لضمها فى مجلد  
واحد أو مجلدين ، كافتتاح لمشروع باعادة طبع كل مؤلفاتى ، فى  
ذلك الصرح الثقافى الوطنى ، العتيد « الهيئة المصرية العامة للكتاب »  
فاذا بى ، وانا أتنقل فى هوالها ، أمام نوع من السيرة الذاتية

والحق أنى ترددت بين شكلين أو منهجين فى الترتيب : هل  
أقدمها وفق تاريخ النشر الطبيعى منتهيا بأحدث ما كتبت ،  
أم الأفضل البدء بالأحدث والأكثر معاصرة ، ثم نزولا حتى انتهى  
بأول ما كتبت ؟ ! ..

هى حقا مشكلة .. فالكاتب لاشك مع الأيام يزداد خبرة  
ونضجا ، وقد يكون من الأوفق أن يكون لقاءه الأول مع القارئ  
فى رحاب آخر قصصه التى تعطى خلاصة تجربته فى الفن وفى  
الحياة .. وبدا لى فى لحظة ، كم هو جميل لو أننى افتتحت  
بآخر ثلاث قصص قصيرة خطها قلمى عام ١٩٨٩ .. وهى  
« صيد البكور » .. و « حلاوة البحر المالح » .. و « موت الموت » ،  
الا أننى فى النهاية فضلت الاحتفاظ - بقدر الامكان - بالترتيب  
الزمنى لكتابتها ، الأمر الذى يكشف عن التجربة الفنية ،  
ومنابعها ، ونموها وتطورها شكلا وموضوعا .



ولان النبع الأول لقصى ، كانت هى حياتى فى القرية ،  
فقد بدأت بها ، وفكرت أن أدرجها تحت عنوان « قصص العهد  
القديم » .. ثم كان النبع الثانى : حياتى وتجاربى فى المدينة ..  
فثنيت بها ، مفكرا أيضا بإعطائها عنوان « قصص العهد  
الجديد » .. وهو العهد الأطول والأكبر والذى يحتوى على مراحل  
وتجارب كثيرة ومتنوعة ، من أول تجربة الحب والزواج ، الى  
تجربة الأبوة ، تلك التى ألهمتنى عديدا من القصص عن عالم  
الطفولة ، فرأيت جمعها وتقديمها متوالية بصرف النظر عن تاريخ  
كتابتها .. تكاد تكمل بعضها ! .. كما امتصتني بعد ذلك تجربة  
عامين فى السجن وما أعقبها من حياة التشرد والبطالة .. وبلدع  
آلامها وقسوتها كتبت عدة قصص صببت فيها مرارة وأشجان  
هذا العالم ! .. كما استفرقتني فى إحدى المراحل ، دنيا علاقة  
الرجل بالمرأة ، حيث اكتشفت أنها أكثر العلاقات طبيعية فى  
الحياة ، وفى نفس الوقت أكثرها تعقيدا ودرامية وامتلاء  
بالمفجرات .. وحاولت التعبير عن ذلك الاكتشاف فى بعض  
قصصى ! ..

مراحل وتجارب ورؤى تجعل من هذا العهد الثانى عهدا  
كثيرة ومتنوعة .. لهذا ألغيت فكرة « اليهود » هذه ، وتركت  
ترتيب القصص ينساب مع انسياب الزمن الطبيعى ! ..

والحق انه من الصعب تبويب القصص وتقسيمها بشكل  
قاطع بآثر .. تلك محاولة عبثية ومليئة بالافتعال ، ذلك أنها فى  
النهاية تجمعها جميعا روح واحدة ، هى روح كاتبها ، وتنبع كلها  
من نهر واحد هو نهر الحياة !!

تبلغ هذه القصص أربع وخمسين قصة ، أنظر إليها

فى مجملها ، وهى مضمومة الى بعضها ، كاحدى روايات حياتى . .  
كل قصة هى فصل فيها ، او موجة من الموجات !

أهمس لنفسى ، وللأصدقاء : لو أن عشرة قصص منها فقط ،  
بل لو خمس لا أكثر تحمل فى ثناياها عناصر البقاء وتجد فيها  
الأجيال الجديدة والقادمة ما يثير الفرح والاعجاب ، لكان فى ذلك  
كل السعادة والاكتفاء !

« عبد الله الطوخى »

نوفمبر ١٩٨٩



## فى ضوء القمر

كنت طالبا بالجامعة ، حين تزوجت من نعمات .. وحين  
أذكر الآن لماذا لم أستطع الانتظار حتى أتم دراستى كبقية خلق  
الله ، لا أذكر شيئا سوى انبى أيامها كنت ممسوسا بالحاجة الى  
إنسانة طيبة ، لا تفارقنى لا بالليل ولا بالنهار .

كنت كأي طالب من الأرياف ، أحس دائما وأنا فى قلب  
ضجيج القاهرة وزحامها ، بالغربة والضياع .. وبالحزن أيضا .

شيء واحد فقط ، كان يخفف عنى قسوة هذا الشعور ..  
نعمات .. ونعمات أيامها كانت داخلة على التاسعة عشر من  
عمرها .. متوردة الخدين .. وسمراء فى آن واحد .. لكنها  
كانت بخلافى .. كان وجهها دائما مفتحا للحياة .. ضحوكا حتى  
للزحام .. زحام المدينة التى ولدت فيها وعاشت كل عمرها .

ورغم ذلك ، التقينا .. التقينا كروح واحدة ، من أرض  
واحدة . كان من عادتنا قبل الخطبة والزواج ، أن نتمشى فى  
شوارع القاهرة وحواريها .. ونتكلم .. ونحلم بحياتنا معا ..  
وذاات مساء .. ونحن نسير سويا سألتنى فجأة ونحن فى

وسط الكلام . . - « لكن انت ليه بتبقى أحيانا حزين . . من غير سبب ؟ ! اروع اكون أنا السبب ، ومخبي على . . ! »

أربكني السؤال . أسعدنى . أيقنت أن نعمات انसानه تحببني ، وتحب أيضا لحظات حزني ، فقررت أن أتزوجها على الفور . . وتزوجنا .

كان أول شعار اتخذته لزواجنا : « الحياة جميلة . . فلنفرح بالحياة » كل شيء في نعمات كان بكرا . . حتى عينيها العسليتين ، كانتا كعيون الأطفال . . وكنت حريصا من أول يوم على أن أفتح أمامها كل أبواب الدنيا ، لترى على يدي ، كل ما فيها من جمال .

ما من منظر جميل كنت أراه بالصدفة وحدي وأنا في الطريق ، إلا وأخذتها معي بعد ذلك لتراه . . ولأرى وجهها الفرحان فرحانا أكثر ، ثم نضحك معا من أعماق القلب .

وذاث يوم - اليوم السابع لزواجنا على ما أذكر - خطر لي أن أقدم لها ليلة جميلة .

فإن تقضى ليلة هادئة في الريف ، وفي قريتي باللدات ، هذا شيء رائع حقا . . فالدنيا صيف . . ونحن في منتصف الشهر العربي . . والقمر طالع ، وحقول القمح مترامية كالعادة وغافية في حضن الجسر . . ما أجمل أن تشهد معي نعمات . . وفي قلب الحقول ، أول قمر يهل على زواجنا .

كانت الفكرة جميلة ومثيرة ، كادت تطير لها نعمات من الفرح ، فنقلناها على الفور .

ومع أننا دخلنا القرية ونسمة العصر تهب من فوق الجسر ،



والوان الشفق لم تخط زرقة الأفق بعد ، الا أننى لم أخرج بنعمات  
من البيت الا بعد صلاة العشاء بكثير .

كنت أريدها تطلع . . فتجد أمامها البدر متجليا في السماء .  
ظللت أنتظر الليل في شفق ، حتى اذا ما سكنت الحركة  
تماما في القرية ، وانقطعت الأرجل كلها عن المسير ، ولم يعد في  
السكة واحد يقول لا اله الا الله ، خرجت أنا وهى ، ورحنا  
وحدنا نتمشى في حقول القمح العارية التى تم حصادها .

كان اول ما واجهنا هو البدر . . كان يتوسط القبة في  
هدوء . . وملايين ذرات الفضاء تشع ضياء ونورا . . وبقايا  
أعواد القمح المحصودة ، بدت جذورها الرفيعة المسنونة وكأنها  
تفرش الأرض بالذهب .

توقفنا نحن الاثنين في حركة واحدة ، ورحنا نتطلع الى  
القمر . . كانت الدنيا من حولنا خلاء وسكونا . . والسكون له  
طنين . . وما من صوت الا دقات خافتة بعيدة لما كينة رى آتية  
من ناحية الجسر ، وآذان بعض ديك ، ربما ظنت أن ضياء البدر  
هى تبشير الفجر ، فراحت تؤذن وتصيح .

قالت نعمات في صوت هامس ودون أن تلتفت لى :

— يا سلام . . بلدكم جميلة . . جميلة جدا .

قلت لها وأنا منتش بفرحتها أكثر من نشوتى بالقمر :  
ما خلاص يا نعمات . . بقت بلدك انت كمان . . . . . وبلد أولادنا  
الى جايبين .

هزتها كلمة « أولادنا » بالفرحة ، فاستدارت فجأة بوجهها  
نحوى ورفعت لى بصرها لتقول شيئا . . أى شيء .

كانت في وقفتهما أمامي تواجه البدر .. وانسكبت أشعته  
الفضية على ملامح وجهها الأسمر الصغير اللطيف .. أجزاء من  
خدودها المتكورة وأنفها الملقوف ، مفروشة بنور القمر ، والأجزاء  
الأخرى تنعكس عليها ظلال ناعمة هادئة .

حلوة .. حلوة نعمات .. عروستي في ضوء القمر .. ولكن  
في عينيها انبهار غريب .. كانت تود لو تجد كلمة تقولها لي  
لتعبر عن فرحتها ، لكن شيئاً غريباً وساحراً كان يوقف الكلمات  
على شفتيها .

قالت وهي تمسك يدي بانفعال :

- أنا عايزة أقول لك .. أقول لك إيه .. سعيدة .. ؟ ! .  
لا .. سعيدة مش كفاية .

وصمتت وعيناها في عيني ، ثم عادت تقول وكأنها تكلم  
نفسها :

- نفسي أفهمك .. علشان أقدر أسعدك .

أختلج قلبي .. يبدو أن أجمل ما نجنيه من الحب كلمة  
تنبع من القلب ، وأنه يكفي انسان واحد من كل هذا العالم  
يحبنا من الأعماق لنكتفي ونعيش .

قلت لها وأنا أنظر في الخلاء :

- شايقة الحاجة لما تكون على طبيعتها تبقى جميلة  
إزاي .. عايزين حياتنا تبقى كده يا نعمات .

ضغطت على يدي ، ثم وسعت من خطواتها تود أن تطير  
بدلاً من أن تتكلم .

مضيئنا نسير .. لا متقاربين ولا متباعدين .. خطواتنا



واحدة .. وبقايا أعواد القمح الذهبية تتكسر وتخشخش تحت  
أقدامنا في إيقاع موحد ، وله رنين .

كانت نعمات تمشي كالمبهورة .. وكنت أنا مبهورا بانبهارها ..  
كنت أريد أن أحس كل ما تحس به عروستى ، فرحت أنظر الى كل  
شيء بعينها هي .

كل شيء كان غارقا في ضوء القمر .. حتى البيوت والعشش  
والدواوير الصغيرة أخذ طوبها النيب لون ضياء القمر ، وأطراف  
سعف النخيل وفروع أشجار الصفصاف بدت أطرافها العالية  
مفضضة وهي تتموج في وداعة مع نسيم الليل .

قالت وعيناها تمتدان في النور حتى تلبغا أشجار الجميز  
الضخمة الراسخة على جسر النيل .

- حاجة غريبة .. الجمال ده كله والناس ما تحسش  
بيه ؟ ! .. ليه الناس هنا ما يحتفلوش بالقمر ويفرحوا ؟ ! ..  
ليه يناموا في ليلة جميلة زى دى .. ؟ !

كان سؤالها ساذجا .. وكانت تبدو وهي تلقيه طيبة وحبيبة  
الى القلب ، لكن شيئا ما قبض قلبى وأنا أسمع .

قلت لها وأنا أجذب نفسا عميقا من صدرى :

- أصل اليومين دول رى القطن .. والفلاحين دلوقت  
زمانهم فى الفيضان يشتغلوا .

قالت وعيناها هائمتان بعيدا :

- الله .. زمان منظرهم جميل وهم يشتغلوا تحت القمر ..  
يا سلام .. جميلة بلدكم .. أجمل ما كنت بتصورها لى ..  
فاكر ؟

الا فاكرو .. !!

قبل زواجنا ، وايام الخطوبة ، كان يحلو لى دائما ونحن  
نتمشى فى شوارع القاهرة ، وبين بيوتها الضخمة العالية ، أن  
أصف لها الطبيعة فى قريتى .

الترعة من جانب يا نعمات .. والنهر من جانب .. والخضرة  
والخلاء .. ورائحة الطين والزرع والزهر .. زهر الفول والبرسيم  
بالذات .. وحتى النسمة .. كل شىء فيها جميل يا نعمات ..  
يا سلام يا نعمه .. لو يتحقق حلمنا ، ونذهب الى هناك ،  
ونحن زوجان ، خصوصا فى ليالى القمر .

وها نحن معا .. وحيدان .. على أرض مفروشة بالذهب ..  
سابعة فى ضوء القمر .

توقفنا عن المشى مرة أخرى .. وسكن ظلانا أمامنا على  
الأرض .. ماذا يمكن أن نقول فى تلك اللحظة ؟ ! هل فى الدنيا  
كلام .. أى كلام ؟ !

لا .. ولا شىء يصح أن يفصلنا فى تلك اللحظة عن بعضنا ،  
حتى ولو كان هذا الشىء هو شعاع واحد من ضوء القمر .

تناولت رأسها الصغير بين يدي .. وقربت وجهها من  
وجهي .. كان فى نظراتها استسلام ووداعة ، وشفاتها المكتنرتان  
لهما فى النور طعم ساحر وجميل لم أحس به من قبل أبدا .

آه .. ما أجمل عروستى .. وما أجمل أن أقبلها فى ضوء  
القمر .

وضممتها الى صدرى .. غير أن شفاها لم تكد تقترب  
لتلتقى .. حتى سمعنا فجأة ، صرخة ألم عالية شقت طبقات  
الفضاء من ناحية الجسر وصدمت آذاننا ! أصابتنا رعدة .



وتسمرنا في وقفنا ، وتصلبت شفاهنا هي الأخرى وظلت متباعدة  
في الفضاء

كانت الصرخة فيها ألم طافح .. ألم انسان يستغيث .

احتضنتني نعمات في فزع ، ووقفنا ملتصقين ننصت في  
رهبة لأصدااء الصرخة ، ونظراتنا تمتد رغما عنا الى مصدر  
الصوت .. ناحية الجسر .

لحظة من الصمت مخيفة وثقيلة أعقبت الصرخة ، ثم تبدد  
الصمت مرة أخرى ، وتعالى في الفضاء صرخات .. صرخات  
أكثر من انسان واحد .

تششت بي نعمات تريد أن تدخل بجسمها في جسمي ..  
تماما كطفل صغير مفزوع يحتوى بصدر أمه .

هذا الذي يحدث فجأة .. حلم هو أم حقيقة . ؟ ! . وأيهما  
الحلم .. وأيهما الحقيقة ؛ ؟ ! . أنا عشت في قريتي هذه  
سنين طويلة .. كل أيام طفولتي وصباي كانت على أرضها ..  
حتى أجازات الصيف كنت أقضيها بها .. كل شيء فيها أعرفه ..  
حتى هذه الصرخة .. ياما سمعتها من قبل .. وياما جرحت  
قلبي بالليل وبالنهاري .

أترك نعمات وأعدو ناحية الجسر لأستطلع الأمر ..  
لو تركتها في تلك اللحظة وحدها في الحقل لسقطت ميتة من  
الخوف في ضوء القمر .

ولم تمض لحظات ، حتى كان سكون الليل قد تبدد مرة  
أخرى ، وامتلا الفضاء بأصوات خشنة ومخيفة وفظة ، وراحت  
تدوى وتعلن طلب النجدة والأنقاذ .

وفي النور .. نفس النور الذي كنا نحلم فيه أنا ونعمات منذ

لحظات ، رأينا الرجال والنساء تنشق عنهم الحقول والسكك  
فجأة ، حتى الحقل الذى كنا نقف فيه ، كان الرجال يعبرونه  
جريا ، ويصوبون لنا نظرات خاطفة غريبة وهم يمرون بنا ..  
كانوا أشبه بعقاريت مخيفة .. فى أيديهم شماريخ .. وذيول  
جلاليتهم فى استناتهم ، ويسرعون صوب الجسر .

أحسست بنعمات ترتعش داخل صدرى .

ولم تمض لحظات أخرى ، حتى رأينا الجسر يهوى بأشباح  
الرجال ، وجمعهم تتقاطر على هناك وتحتشد وتتزاحم ..  
وتزجر .

غاص قلبى .. أنا أعرف ما الذى يحدث فى مثل تلك  
اللحظات .. كثيرا ما سالت الدماء فى قريتى ، وعلى تراب هذا  
الجسر بالذات .

يا للكآبة .

حبست أنفاسى .. وحبست هى الأخرى أنفاسها ، ورحنا  
نرقب الحركة فوق الجسر .. كنت خائفا من شيء واحد .. أن  
ترتفع الشماريخ فى الهواء .

يكفى شمروخ واحد يرتفع ، حتى ترتفع بقية الشماريخ ،  
وبعد ذلك تحدث المجزرة الرهيبة المعروفة فى ضوء القمر .  
أمسكت قلبى .

لكن الشماريخ لم ترتفع .. الأصوات فقط هى التى ارتفعت،  
وأخذت تتشاحن وتختلط وتتعالى حتى وصلت عنان السماء ..  
وجاءتنا الكلمات مع نسيم الليل ، مختلطة ومبهمة أحيانا ،  
وواضحة ومفهومة أحيانا أخرى :

— يا خلق يا هو . . طب وربى المعبود لأسيح دمه ..



يا ناس ده دور اليماني .. والراجل يتعرض لى .. هى المية  
تفوت عالارض العطشانة ... ما هى كل الارض عطشانة .. شهر  
وعشرة ايام من غير مية .. اعقل يا جدع انت وهو واقصر الشر ..  
العمدة ايه جاى هناك ايه . وهى يعنى البلد ما فيهاش رجالة ..  
طب سيبونى عليه .

وكلمات اخرى .. وفهمت كل شىء .

الناس فى قريتى يا نعمات يفضلون ان يموتوا هم ، ولا يموت  
الزرع من العطش .

والرجال يدخلون المعارك الدامية من اجل شربة ماء  
يروى بها كل واحد ارضه .

انا لم اقل لك هذا من قبل يا نعمات ، فقد كنا دائما  
نحلم .

اقوله الان ؟ ! ربما تقول لى عيناك الجميلتان الخائفتان ،  
وهل كان ضروريا ان يحدث هذا فى ليلة كهذه .. تركنا القاهرة  
من اجلها ، وجئنا لننعم بالسكون وضوء القمر ؟ ! .

قلت لها لأهدىء من روعها :

— شايقة القناية اللى هناك دى .. تعالى نقعد جنبها ..  
دول ناس بيتخاتقوا على الميه .. ياما حصلت الحكاية دى قبل  
كده .. تعالى تعالى .

قالت والاستغراب على وجهها :

— يتخاتقوا على الميه .. يعنى ايه يتخاتقوا على الميه ؟ !

كان استغرابها ممزوجا برنة خوف عميقة .. لقد احست  
فجأة ، انها تقف فى عالم غامض مجهول .. عالم لم تكن ترى فيه

منذ لحظات غير الخلاء .. والشجر .. وضيء القمر .. ثم فجأة  
تجسم هذا العالم أمامها واتخذت ملامحه شكلا قاسيا ومخيفا ..  
شكل رجال يقتتلون فوق جسر ويسفحون دماء بعضهم البعض .

قلت لها ونحن نقف على حافة القناة :

— أصل اليه مخسعة في التربة .. شايفه القناية ناشفة  
انداى .. وتذكرت شيئا فقلت لها ضاحكا :

— أنت مش فاكرة شهور التحاريق ؟ ! اللي كنت بتأخديها  
في الجغرافيا وأنت في أولى ثانوى ؟ ! .. وارتسمت على فمها شبه  
ابتسامة لكن الاستغراب والشرود لم يبرحا وجهها .

كان عقلها مع أصوات الرجال .. وكانت الأصوات لاتزال  
عالية وحامية فوق الجسر .. فعدت انصت أنا الآخر .. وسمعت  
صوت العمدة الغليظ الأجش ينادى على شيخ الخفر وعلى  
الخفراء .. وكانت الحركة واضحة ومضطربة على الجسر .

أشرت لها بالجلوس على حافة القناة .. فجلست بجوارى  
في صمت ، وكانت شاردة .

أخذنا نسمع الأصوات .. كان من الواضح أنها بدأت  
تقل وتخفت .. والناس أيضا بدأ عددهم يقل ، وصوتهم بدأ  
كالهمهمات .

هل حدثت المعجزة .. ؟ !

بعد دقائق ، رأيناهم يمشون جماعات وفرادى في خط طويل  
متحرك متجهين نحو بيت العمدة في أطراف البلدة .

قلت لها وأنا اتنفس في ارتياح :

— خلاص يا نعمات .. فانت علي خير .. نرجع تاني  
للقمر .



كنا نجلس على حافة القناة ، كتفا في كتف ، واقدامنا ممدودة أمامنا ووجهانا للقمر .. وانتظرت أن تتكلم نعمات ، لكنها لم تنطق بحرف .

قلت مضاحكا ، وكأنى ضبطتها متلبسة بفعل شيء خطير :  
- بتفكرى فى ايه !! لازم تقولى .. وبسرعة .

قالت وهى تعتدل فى جلستها :

- بافكر فى بلدكم .. بلدكم غريبة أوى .

- غريبة ازاي .

- مش عارفة .. أول لحظة وقفت فيها تحت القمر ، حسيت أنى شايفاك فى عينى زى ما أنا شايفه القمر .. حسيت كأنى شفت البلد كلها ، وعرفت فيها كل حاجة .. دلوقت باحس انى مش فاهمة حاجة أبدا .

وصمتت قليلا .. ثم قالت بصوت خافت فيه نبرة حزن بعيدة :

- خايفه لأكون مش فاهماك انت كمان ..

هزتنى كلماتها .. هناك كلمات لا تحتلّ منا أى تعقيب .. كلمات تحتاج الى الصمت ليستعيدوها الانسان فى سره مرات ومرات ، دون أن ينطق بحرف واحد .

كان الهدوء قد عاد الى القرية ، وجموع الرجال قد اختفت من فوق الجسر ، ولم يعد من صوت فى الفضاء سوى دقات خافتة متتابعة لماكينه الرى البعيدة .

أما نعمات ، فكان وجهها ساكنا ووديها كالملاك .

وفى هدوء : ملت عليها ومددت ذراعى لآخذ وجهها بين

يدى .. لكنها - فجأة - ابتعدت برأسها عنى فى حركة سريعة  
وقالت :

- لا .. لا .. مش دلوقت .. احكىلى الأول عن بلدكم ..  
احكىلى عنها كل حاجة .. نفسى اعرف كل شىء عنها .

لو ظلت نعمات تقول لى كلمة « احبك » وتكررها لى بعدد  
جدور القمح النابتة فى كل الحقول ، لما دخلت قلبى مثل  
ما دخلته .. بهذه الكلمات .. « احكىلى عن بلدكم » .

ماذا احكى عن بلدنا .. ومن أين أبدا يا نعمات ؟ !

واعتدلت فى جلستى ، وتربعت أمامها على الأرض وبدأت  
أحكى .

كان وجهى لها ، وظهرى للقمر .. أما وجهها فكان للقمر  
ولى فى وقت واحد .. وكانت تنصت باستغراق ، وعيناها  
الصافيتان تتوهجان بكل المعانى وكأنهما تطلان على عالم واسع  
عميق . ظلت أحكى .. وأحكى .. وهى تنصت وتنصت ..  
وصوتى كان حزينا دون أن أدري .. كان الكون كله ينصت  
للحكاية .. والوقت يمر دون أن ندري ، والقمر يميل فى السماء  
ويبتعد دون أن ندري أيضا .. والهواء تزداد رطوبته ..  
وفوجئنا بديك يؤذن بصوت عال وكأنه فى حقل قريب منا ،  
فتنبهنا لأنفسينا ، ونهضنا من على حافة القناة ، وفردنا جسمينا  
فى الخلاء .. كان الهواء رطبا ومنعشا .. والقلب مأخوذا .

« آه يا نعمات .. غير إن قصة قرينى طويلة .. تحتاج  
الى ألف ليلة وليلة .. وها هو الديك يؤذن » .

واحتويتها فى صدرى .. وسكن رأسها فى هدوء على كتفى ،  
ثم سمعتها تنهد من أعماقها وتغمغم :



- دلوقت بس .. عرفت ليه بتبقى ساعات حزين من غير  
سبب .

ورفعت رأسها من على كتفى ، ونظرت لى وكأنها ترانى  
لأول مرة .

كانت الحقول ساكنة .. والفضاء كله نورا .. أما القمر  
فكان مائلا وبعيدا فى السماء ، يرقب أول قبلة لنا فى قلب  
الحقول .

(( ١٩٥٨ ))

## الأول

لما اذن الشيخ جابر لصلاة المغرب ، كان فضياء القرية وبيوتها قد أصبح بلون الرماد ، رفعت أمينة رأسها ، وشدت جسمها ، وتنهدت من أعماقها لتطرد من صدرها تعب النهار ، ثم دخلت في هدوء على أمها الجالسة في الحجرة البحرية ، وقالت لها بصوت خافت مكدود :

— خلاص يا أمه .. شغل البيت .

ودون أن تنظر لها أمها هزت رأسها علامة أنها سمعتها ، ومضت في اطرافتها ، وجلست أمينة بجوارها على الكنبة في هدوء لتستريح .

نفس جلسة كل مساء .. الأم وابنتها متجاورتان .. لكنهما صامتتان تنظران من خلال فتحة الباب الى الطريق ، ترقبان سحب الغبار التي تثيرها قوافل الفلاحين والرعاة وهم عائدون من الحقول والجسور .. وبين اللحظة والأخرى تسرح كل واحدة منهما في عالمها الخاص .

أمينة تفكر .. الى متى يطول « غضبها » من زوجها ..

أربعون يوما مضت دون أن يبعث بأحد ليصالحها .. ومن  
يدري .. قد يطول ، ذلك شهورا أو سنين .

والأم .. متريعة على الكنية .. متشحة بطرحتها السوداء ..  
ووجهها الأبيض الحاد الملامح معتمد على كفها .. تقلب ما مضى  
في رأسها ، وتنتظر آذان العشاء .. لتصلى .. ثم تنام .

كان المفروض أن يطول الصمت بينهما كالعادة .. ولكن ..  
فجأة ، استدارت الأم لابنتها وقالت وقد تذكرت شيئا خطيرا :

— بالحق يا أمينة .. الأرنب الأسود من الصبح مش  
لاقياه . قومي يا بنتى شوفيه .. خدى اللبة الكشف وروحي  
دورى عليه .

احست أمينة كأن حجرا سقط على قلبها فجأة .. تلك  
هى ساعة الراحة التى تحظى بها لنفسها من كل هذا النهار  
الطويل .. وقد جلست بالفعل وبدأت تحس بخدر التعب يتحلل  
ويسرى فى كل جسمها وتسترخى .

همت أن تقول لها فى استعطاف .. « أنا تعبانه يا أمه ..  
والصباح رباح ، زمانه دلوقت دخل حجر ، أو مستخبي فى عين  
الفرن » .

لكنها لم تجرؤ كماداتها على أن تنطق بحرف .. كانت تعلم  
جواب أمها المحتوم .. ستلتفت لها بحدة وتقول بلهجة حازمة  
أمرة .

— عايزه تسيبيه للصبح عشان عرسه تلهفه .. امشى دورى  
عليه وهاتيه من تحت طقاطيق الأرض .

وزامت فى سرها .. لا جدوى اذن من الاستعطاف يا أمينة ..  
والأرنب لابد أن يعود .. وطاف بوجهها سخط أبكم ، وتململت



في جلستها كأنما تنتظر أن ترجع أمها عن رأيها .. لكن أمها قالت  
في جفاف لتستحثها للقيام :

ـ ومش حنام الا ما تجيبه .

لا مفر اذن يا أمينة .. أنت لم تجدى الراحة في بيت  
زوجك .. فهل ستجدينها هنا .. في بيت أمك .. ؟ !

ونفضت من جلستها وهي تكتم سخطها .. تناولت اللبنة  
الكشف وخرجت لتبحث عن الأرنب في صمت .

كان البيت واسعا وكبيرا .. بيت من تلك البيوت القديمة  
التي خرجت منها أجيال وأجيال .. وفي قديم الزمان ، كان  
أكبر بيوت العز في القرية .. المضيئة مفتوحة بالليل وبالنهار ..  
والرجل الغريب بدلا من أن يأوى في الطريق الى ظل شجرة توت ،  
يدلف اليها ويلقى السلام ، فيجد الفداء ، وربما تأخذه فيها  
أيضا سنة عن النوم .. وغير المضيئة ، حجرات وحجرات ..  
حجرات للنوم .. وحجرات للجلوس .. وحجرات للخزين ..  
وممرات .. وأفران .. ورغم كل هذا الاتساع ، فقد كان صوت  
الرجل الكبير أيامها يرن دائما في أبنائه .. وأصوات أولاده  
كانت هي الأخرى تطن فيه وتشيع الحركة والحياة .

ولكن كل هذا راح مع الأيام وانتهى .. مات الرجل .. وكبر  
الأولاد والبنات وتزوجوا .. الأولاد تركوا البلد وعاشوا مع  
زوجاتهم في المدينة ، والبنات مضيئ ليعشن في بيوت أزواجهن ..  
وصفصف البيت الكبير في النهاية على الأم ، وأصبح بالنسبة لها ،  
بيت الوحدة والصمت والذكريات .

وأمينة ، كانت للأسف ، هي البنت الوحيدة التي مال  
حظها .. كانت في الثلاثين من عمرها .. طويلة .. سرحة ..  
عينها واسعتان وعسليتان .. وتقاطيعها جميلة .. لكن جمودا

غريباً كان يطبع ملامحها . من الصعب أن تقرأ شيئاً في عينيها  
الواسعتين . . ربما خوف كبير من شيء مجهول . . وربما نداء  
بالعطف عليها . . كانت من ذلك النوع الذى يستدر عطف الرجال  
ولا يثيرهم . . وزوجها كان فى حاجة الى امرأة تثيره ، لا تستدر  
عطفه ، فضاقت بها منذ الشهور الأولى .

كان فلاحاً ، يسرح بنفسه بالبهايم الى الحقول . يحرق  
ويروى ويبذر . . ويريد آخر النهار امرأة تنسيه تعبهِ بحركة من  
الحاجب ، او بتقصيعة خفيفة من وسطها . . لكن أمينة ليست  
من هذا النوع ، فيسخط عليها ، ويأخذ بعضه بعد العشاء  
الى دكان « زهرة » بائعة الجواقة ويسهر عندها . . يجلس فوق  
المصطبة ، يأكل الجواقة من يدها . . ويضحك .

وأمينة كانت تحتل هذا . . لكنها فى لحظات ، كانت تخرج  
فجأة من صمتها وجمودها ويربد وجهها ، وتقرر أن تفجر البركان  
الذى فى أعماقها . . لكنها تعجز عن التعبير ، فتحس بهوان شأنها ،  
وتبكي فى حرقة ، وقد تمزق صدر جلابيها ، ثم تصيح كالفاقة  
وعينا ووجهها للسماء : « يارب على الظالم وابن الحرام » . .  
ثم تتركه وتمضى الى أمها لتعيش معها فى ذلك البيت الواسع  
القديم .

وقد خيل لها فى تلك الليلة ، وهى تحمل اللبنة الكشف  
لتبحث عن الأرنب أن البيت قد ازداد اتساعاً ، وأن ظلمة الليل  
قد دخلته مبكرة عن كل يوم .

أين هرب الأرنب الملعون ؟

ومشت واللبنة الكشف تضيء طريقها ، وراحت تفكر  
فى وجوم .

لابد أنه دخل عين الفرن وانكمش على نفسه وأقفل عينيه

ونام ، وربما اختفى في جحر في القاعة المجاورة لبئر السلم . .  
وربما . . كان فضاء البيت قد لفته الظلمات ، ظلمات متراكمة  
وكثيفة ، والقرية نفسها بدأ يسودها ذلك الصمت الذى يعقب  
الغروب الحزين ، والخفراء بدأوا يأخذون مواقعهم في أطراف  
القرية وحواريها ، وبدأ وجه أمينة في ضوء اللبنة الهزيل الباهت ،  
حائرا ومسكينا ومجهدا .

وتمتعت لنفسها . . « يعنى مش كنت زمانى دلوقت في بيت  
جوزى ، لكن أعمل ايه . . راجل ظالم . . وانت يارب تعلم ،  
وغيرك ما يعلم » .

وقادتها قدماها الى قاعة الأرناب ، فوقفت على بابها .  
وراحت تجيل فيها البصر . . عبر الأرض . . وفي الأركان . .  
لكن القاعة كانت مظلمة . . وكل ما فعله ضوء اللبنة ، أنه حول  
الظلام الى جو ضبابى قاتم ، لا تميز فيه العين شيئا واحدا .  
مدت أمينة يدها باللبنة أمامها على طول ذراعها ، وأنحنت  
برأسها قليلا ، ومضت تنقب بعينيها في الأرض . . خطوة خطوة ،  
ولكن ، لا أثر للملعون .

هو إذن لابد في جحر . . والقاعة فيها جحران .

واقتربت من أحد الأركان . وركعت على ركبتيها . ووضعت  
اللبنة على الأرض ، وفي دائرة الضوء الصغيرة ، بان جحر  
صغير . . فوهته دائرية وضيقة ومسدودة بالظلام .

زمت أمينة عينيها ، وراحت تجوس ببصرها في الجحر . .  
لكنها لم ترى أمامها غير الظلام .

— ادخلى يدك يا أمينة . فقد يكون راقدا في نهاية الجحر .



وتخيلته قابعا ينظر اليها في هدوء .. يرعش شواربه ..  
يراه ، ولا تراه .

غير انها ما كادت تمد يدها الى الفوهة ، حتى أسرع دقات  
قلبها وتولاها خوف شديد .

الجحر مظلم .. أسود .. وربما يسكنه ثعبان يا أمينة ..  
او سحلية .. وتمتمت بخوف في سرها « بسم الله الرحمن الرحيم »  
لا .. سأقول لها .. بحثت عنه كثيرا ، ولم أجده يا أمي ..  
وسأبحث عنه مرة أخرى في الصباح .. والنهار له عينان !  
لكن صورة أمها انبعثت في خيالها على الفور .. ستصبح  
في وجهها بعصبية : فالحة يا اختي فالحة .. أرنب ومش عارفه  
تلاقيه .. والنبي جوزك عنده حق ومعدور .. هي الواحدة  
الخايبه تتعاشر .

وأحست بهوان شأنها ، وسقطت من عينيها دمعتان .  
لا .. انها تفضل ان يعضاها ثعبان أو يلدغها عقرب ،  
ولا تسمع منها هذا الكلام .

ودفعت بيدها فجأة داخل الجحر وقلبها يدق .. مدتها  
حتى أحست بأطراف أصابعها تلمس نهايته .. التراب رطب  
وناعم .. وقوالب الطوب رطبة أيضا وفيها نتوءات بارزة .. هذه  
النتوءات بما تحمل من خيوط العناكب أرعشتها ، وأوقفت شعر  
رأسها .. لكنها مضت تتحسس في رهبة وحذر ..

لا شيء .. الملعون ليس هنا .. وأخرجت يدها بسرعة ،  
واستردت أنفاسها ..

اذن هو في الجحر الثاني .

وثناولت اللبة مرة أخرى ، فترأقست شعلتها مع النفس  
الخارج مع تنهيدتها ، ورات ظلها الملقى بجوارها على الأرض  
يتراقص هو الآخر ويتلوى ، ويأخذ أشكالا غامضة مخيفة .

آه يا امينة .. لو كنت تحفظين آية الكرسي التى يقولون  
عنها ، اذن لقرأتها الآن ، واطمأن قلبك .. ولكن ربنا هو الحافظ  
يا امينة .

واجتازت عرض القاعة الى الركن الآخر .. كانت قدمها  
وهى تمشى ، تطأ أعواد البرسيم والحطب الجاف الملقى على  
الأرض ، فتحدث أصوات وطقطات تشرح سكون البيت ، بل  
وسكون القرية كلها .

وحين وصلت الركن ، توقفت خطواتها ، وانقطع وقع قدميها  
المزعج هذا ، وعاد السكون يطن حولها من جديد .. وهمست  
لنفسها .. بصوت مسموع .. « يارب يكون فى الجحر ده بقى  
وأخلص » .

وأدخلت يدها .. لكنها أخرجتها كما أدخلتها ، فارغة .

بقيت جالسة فى مكانها أمام الجحر .. أسندت خدها  
على كفها ، وارتسم على وجهها الذى اختلط عليه الضوء بالظلام  
يأس كبير .

أين تبحث عنه هذه المرة ؟ الأم قالت كلمتها .. لن تنام  
الا اذا جاءت اليها بالأرنب واطمأنت عليه .

ومرت بخاطرهما وهى متجمدة فى جلستها أمام الجحر فكرة  
مفاجئة : اليس من الجائز ان تكون أمها قد ذبحته .. واكلته ..  
ونسيت . ؟ ! ان أمها تحب اكل الأرنب باللوخية ، وهى كثيرا  
ما كانت ترسل لها .. « نص أرنب محمر وشوية فتة » وهى

فى بيت زوجها ، لتعزى من مركزها أمانه ، ولكن .. آه منه ،  
لا يشر فيه ، الظالم . 11

وذكرتها هذه الفكرة بحنان أمها .. صحيح أنها قاسية ،  
لكنها حنونة أيضا .. أن أمها هذه لو لم تكن موجودة ، لخنقها  
زوجها من زمن وتخلص منها .. أنه كثيرا ما يثور عليها .. يثور  
حتى تومض عيناه ، فتخاف من شكله ، وتتكوم على نفسها ،  
فى انتظار أن يترك لها البيت .. ويخرج .. فيعاودها شىء من  
الطمأنينة ، وتتنفس الصعداء .

لا .. لا .. لا بد أن أعود لها بالأرنب .. هى التى تحمىنى ..  
وهى الآن جالسة تنتظر .

وتناولت اللبنة ، وضعتها هذه المرة على رأسها وسارت ،  
مرفوعة الرأس .. معذبة .. ومع وضع اللبنة الجديد ، انحسر  
الضوء عن معظم وجهها .. حتى ظلها على الأرض ، اختفى هو  
الآخر ، وتكوم تحت قدميها .

ودخلت قاعة الفرن .

كانت تحس نحو هذه الحجرة بالأمان بعض الشىء .. فأخر  
خبزة خبزتها فيها كانت منذ يومين ، ولو كان فيها حشرات  
فقد أحرقتها وأكلتها النيران .

وبدت أمامها عين الفرن واسعة .. أوسع من عين الحجر  
بكثير .

ستدخل اللبنة فيها أولا .. ثم تدخل برأسها بعد ذلك .  
انحنى حتى وازت برأسها تجويف العين ، ثم مدت ذراعها  
باللبنة داخله ، ثم دخلت برأسها ، وراحت تبلى فى الضوء .

— آه ..



شهقت فجأة شهقة فرحانة .. كان الأرنب الأسود راقدا  
أمامها في الركن فوق الرماد .. وما أن انعكس عليه ضوء الللمبة  
ورأى وجهها يطل عليه ، حتى انكمش في نفسه وارتعشت شواربه ،  
وبانت في عينيه لمعة الاحساس بالخطر .

لم تضيق أمينة وقتا .. كانت مجهدة ، وتريد أن تنتهى ،  
فأطلقت يدها فجأة كالسهم لتقبض عليه .. لكنه كان أسرع ..  
ما كادت أصابعها تلمس شعرد الناعم ، حتى قفز الى أعلى قفزة  
مذعورة ، أثارت حوله سحابة كثيفة من الرماد .

جزت على أسنانها في غيظ . وشرعت تمتد يدها مرة أخرى ،  
لكنها أحست بذرات الرماد تدخل عينيها ، فوضعت الللمبة بجوار  
جدار العين ، وراحت تفرك في عينيها وقفلت فيها حتى لا يملأه  
الرماد ، ثم عاودت النظر الية ، وعيناها ترمشان .

كان هو الآخر يحملق فيها ويرعش شواربه .

شيء ما أخافها في نظرائه .

أحيانا كان زوجها هو الآخر يقبع في الغرفة وحده في سكون ،  
وما أن تدخل عليه ، حتى يواجهها بنظرة جامدة مخيفة ، فتفهم  
على الفور أن وجودها غير مرغوب فيه فتترك له الغرفة ، وتخرج  
في صمت .

ولكن .. لا .. هذه النظرات لن تخيفها .. لن تخرج رأسها  
من القرن إلا بعد أن تمسك به .. ونظرت إليه مرة أخرى في  
غل ، وأخذت تفكر من أين تمسك به .. ومدت يدها .. لكن  
الأرنب كان ليدها بالمرصاد .. ما أن لمحها تمتد نحوه ، حتى قفز  
مرة أخرى قفزة هوجاء مذعورة ، فاصطدم بالللمبة ، فانقلبت ،  
وانطفأت شعلتها ، وفي الحال ساد عين القرن ظلام مخيف .

لو كان عليها ، لصرخت في فزع .. كتمت الصرخة في صدرها  
وأخرجتها شهقة .. أنها لو صرخت ، فلن تأتي لها أمها جرياً  
وحدها ، إنما القرية كلها ستأتي لتستطلع صرخة امرأة تشقى  
سكون الليل .

وارتعش فكها من الخوف والحزن .. أحست بالدموع  
تسيل من عينيها الملتهبتين ، وبأنفاسها تضيق ، فمسحت عينيها ،  
وجدبت نفساً كبيراً ، ثم مدت ذراعيها ، وراحت تتلمس بأصابعها  
الأرنب في الظلام .  
— تعال بقى .. ربنا يهديك .

ويبدو أن الأرنب كالقطط ، ترى جيداً في الظلام .. كلما  
أوشكت يدها أن تقترب منه وتقبض عليه ، حتى يحس بها ،  
وينط إلى بعيد ، فلا تقبض يدها إلا على التراب .

مرات ومرات ، واللعين يفلت منها .. وفي كل مرة ، كانت  
تفوص بجسمها أكثر وأكثر في العين .. وحميت المطاردة في  
الظلام .. نصف جسمها في الداخل .. والنصف الآخر في الخارج  
ويدها تندفعان هنا وهناك بغير انتظام ، والأرنب يتنطط ويقفز  
في كل اتجاه .. ومع كل قفزة ، كان رماد الفرن يثور ويملاً الجو  
بالغبار ، وبالهيو ، وأحست أن المطاردة لو طالت أكثر من ذلك ،  
أفانها ربما تموت مختنقة داخل الفرن ..

وكالمحمومة ، هوت بيدها عليه .. كان اتجاه ذراعها في  
هذه المرة صائباً فأطبقت عليه .

لم تستطع حتى أن تتنفس الصعداء .. كانت عين الفرن قد  
احتشدت بالهيو والغبار .. فأخرجت جسمها ورأسها ، ووقفت  
في فضاء القاعة تلهت ، وتستعيد أنفاسها .. أما الأرنب فكان  
يتدلي من يدها ، ويرقص بأرجله في الهواء .

الآن . . انتهت مهمتك يا أمينة . . اذهبي سريعا الى أمك . .  
هي الآن جالسة على الكنيسة تنتظرك ، ستفرح أنك وجدته . .  
ولن تقول عنك أنك امرأة خائبة ، وربما تسمعك كلمة طيبة  
تعزيك عن أحزانك في الحياة .

ومشت . . كان التعب قد فاض بها . . خطواتها واهنة ،  
وانفاسها متتابعة ، ومعظم وجهها معفر بالرماد .

ولكن . . ما أن بلغت باب الحجرة ، حتى أحست فجأة  
بقدميها تتسمران على العتبة . . لم تكن أمها جالسة على الكنيسة  
كما توقعت . . كانت نائمة على السرير ، مغطاة بالحاف ، وتشخر  
بصوت عال .

— أمه . . أمه . . أنا لقيت الأرنب يا أمه .

وتلملت أمها في رقدتها . وغمغمت كأنها تحلم .

— أرنب ، ؟ ! . أرنب إيه يا بنتى . ؟ ! . . أر . . أر . .

وتوقفت غمغماتها . . وسكنت شفتها . . وغابت في النوم  
من جديد .

(( ١٩٥٨ ))



## جفت الأمطار

أكثر من أى وقت مضى ، أحست أمينة من أعماقها الحزينة ،  
أن غيابها عن زوجها قد طال .

كانت سماء القرية لحظتها تمطر مطرا غزيرا ، والفضاء فوق  
البيوت والحقول والشجر تشغله غبشة قاتمة يستريح لها القلب  
المهموم . . تنهدت بصوت مسموع ، واعتدلت في جلستها على  
الحصير خلف فتحة الباب الموارب ، وأسندت خدها الأيمن على  
كفها ، وراحت ترقب الطريق أمامها وهو يفرق شيئا فشيئا في  
مياه المطر .

منذ شهور ، وهى تعيش هكذا في بيت أمها . . صامتة  
واجمة ، تعمل كثيرا ، ولا تتحدث الا نادرا ، وتنتظر ما تشير به  
السماء عليها أن تفعله .

لقد حدث ما حدث ، وانتهى الأمر ، بأن حملت طفلتها

---

تحولت هذه القصة الى فيلم سينمائى باسم « جفت الأمطار » كما  
نال جائزة احسن قصة للسينما عام ١٩٦٨ .

الرضيعة على كتفها ، وتناولت طفلتها الأخرى في يدها ..  
أما صبيها البكر ، فقد كان يلعب لحظتها مع أولاد القرية في  
الخارج .. ثم تركت بيت زوجها مطرقة حزينة ، وسارت الى  
بيت أمها وعيناها الواسعتان مفروقتان بالدموع .. وحين رأت  
أمها الدموع تنحدر على خديها الشاحبين ، قالت لها وهي تستقبلها  
بصوت يشبه الصراخ ، كأنها تشهد أهل القرية على ما تقول :

— بتبكي ليه ؟ ! .. بيت أبوك ومفتوح ، وأرضك معاك  
تاكلى من خيرها .. يعنى كان زايد عليك منه حاجة ؟ ! .. أنا  
عارفة قصده .. اللثيم .. يلهف منك الفدانين .. ياخذك لحم  
ويرميك عضم .. والنبي دى نجوم الضهر أقرب له من أرضك ..  
أدخلى يا حبيبتى أدخلى .

ومسحت المرأة الصغيرة دموعها ، ودخلت البيت لتعيش في  
صمت وسكون .



منذ زمن تحسبه بالشهور والأيام والساعات ، حدث  
هذا .. كانت الدنيا أيامها صيفا وحرا ، والفلاحون في قريتها  
يلتمسون النسمات في الظهيرة ويتمددون مع بهائمهم في ظل  
أشجار الكافور والجميز .. والأولاد هم الآخرون — ومن بينهم  
صبيها البكر — كانوا يتخففون من ملابسهم ويقذفون بأجسادهم  
العارية في مياه النيل والترع والمصارف ليتردوا .. وها هي  
الأيام قد دارت عليها بطيئة شاحبة ، حتى أطلت عليها أيام الشتاء  
فجأة ، وراحت عيون الساء تهطل بشدة وغزارة ، تفرق البيوت  
والعشش والدواوير .

دارت عليها الأيام ، وهي لا تزال في بيت أمها المعجوز ،

مستوحدة صامتة ، يأكل الحزن قلبها ، ولا تبوح بأحزانها  
لأحد .

وتنهدت مرة أخرى وعيناها ترقبان الطريق المنحدر من  
خلال فتحة الباب ، وخيوط المطر لاتزال تنهمر بلا انقطاع .

— يا ترى فين أراضيك دلوقت يا حسين .. ؟ !

لقد كانت منذ أول يوم خرجت فيه من بيته ، تتابع  
أخباره .. كانت تسأل مسعودة ، المرأة العرجاء التي تملأ لهم  
جرار الماء من النيل عن أحواله .. تسألها خفية وفي صوت  
هامس حتى لا تسمعها أمها .. ثم جاء يوم انقطع عنها كل أخباره ،  
ولم يعد له حس بالقرية .. ثم عرفت بعد ذلك من مسعودة ،  
أنه سافر فجأة .. ترك البلد وهاجر الى أرض بعيدة .

ودون أن تدري ، أحست بدموعها تتساقط من رموش  
عينيها على خديها .. وراودتها نفسها أن تجهش بالبكاء وتنتحب ،  
لكنها خشيت أن تسمعها أمها القابعة على الكنبه داخل الحجرة ،  
فتنهرها على دموعها وتلمع لها بأنها امرأة صغيرة فارغة العين تحن  
الى رجلها ، فأمسكت نفسها وجففت دموعها ، وأطرقت برأسها  
بين كفيها ، وراحت تفكر .

هل كان حسين في الحقيقة طماعا يا أمينة .. ؟ ! .. هل  
كان في نيته حقا أن يخدعك كما تقول أمك ، فيجعلك تبيعين  
المفدائين اللذين ورثتهما عن أبيك ، ثم يطلقك بعد ذلك ، أو يتزوج  
عليك .. ؟ !

ولم يطاوعها قلبها أن توافق على ذلك في سرها .

لقد جاءها ذات يوم بعد أن عاد بالجاموستين من الحقل بعد  
الظهر وكان متفتح الوجه .. وقال لها وهو يتخلع ملابس الشغل  
على مهل :



— أمينة .. أنا عايز أكلمك فى موضوع .. بس لازم تفتحى لى دماغك كويس ، وتفهمى اللى حاقوله .

وفرحت بابتسامته ، وراحت تستمع اليه وأنفاسها تتابع ..  
كان يكلمها حينذاك ، وكان يبدو بوجهه الأسمر المستطيل الذى لوحته الشمس ، وكأنه يحلم أحلام الدنيا كلها .

قال لها أن هناك فى الشرقية أرضا تباع بثمن رخيص ، وأن ثمن الفدان هنا يشتري خمسة هناك .. ومع أن تلك الأرض تحتاج الى مجهود وإصلاح ، إلا أنه قد اتفق مع بعض الرجال من أصحابه ، وسيشتركون فى شراء قطعة كبيرة ليستصلحوها ، لتصبح بعد عدد قليل من السنين ، أجود من أى أرض أخرى فى زمام قريرتها .

وسكت قليلا وبان عليه الشرود العميق ثم عاد يقول وهو يشير بكفه الى بعيد .

— هناك الأرض بكر يا أمينة .. عايرة الرجال .. الرجال اللى يحبوا الشغل والعرق بصحيح .. لكن هنا ، زى ما انت شايفه .. البلد كل يوم بتضيق .. والناس بتكثر .. والعمار داخل على الزرع من كل ناحية .. والحكومة عاملة مشروع كبير للجامعة الجديدة من ناحية المنصورة .. وحينزعوا أرض كثيرة .. والجدة منا لازم يفكر فى مستقبله من دلوقت .

وتجلى الحلم الرائع على وجهه الأسمر أكثر وأكثر ، وتحولت نبرة صوته الى ما يشبه الرجاء ، وهو يدعوها أن توافقه على أن يبيعاها الاثنان ما يمتلكانه ، ويشتريان بثمنه أرضا جديدة .

— مش احنا لوحدنا اللى حنكون هناك يا أمينة .. نوار ومراته نفيسة وأولادهم .. ومحمد أبو السيد ومراته .. وأحمد أبو رفاعى .. وكلهم .. كلنا حنشتغل سوا .. ونعرق ..

ونضرب بالفأس .. ونوطى .. وثقوم .. لغاية ما تبقى الأرض  
خضرة .. خضرة ، وتعوض لنا صبرنا وأكثر .

اطرقت ، ولزمت الصمت .. عاد يسألها في صوت خافت :

— ساكته ليه يا أمينة .. ؟

— انت عارف يا حسين .

— عارف ايه .

— أمى .

— مالها أمك .. ؟ !

— انا عارفة انها مش حتوافق ..

ونفرت العروق فجأة في جهته ، وارتعشت كل ملامحه ،  
وصرخ في وجهها وقد اكتسى وجهه بالشر والغضب .

— أمك يعنى ايه .. ؟ ! .. هو كل حاجة بينى وبينك لازم  
تكون فيها أمك .. اسمعى .. كل اللي فات كوم .. والمرة ده  
كوم .. هو انا حافضل طول عمرى تحت رحمة أمك ؟ !

ولم ترد على ثورته بكلمة .. وحين سبكت ، أعقب سكوته  
صمت ثقيل مخيف ، وراح كل منهما يتلمس في نفسه رائحة  
عاصفة مقبلة من بعيد ، لتعصف بكل ما في حياتهما من استقرار  
وهدوء .

\*\*\*

انها تذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله ، وتذكر أيضا حين  
مضت الى أمها في بيتها لتقص عليها ما طلبه منها زوجها .

لم تكذبدا في سرد الحكاية لها حتى لمحت وجهها ينقلب  
ويكفهر ، ونظراتها تتسع وتزداد حدة ، وحين لفظت « بيع

الأرض « أحست بأن كل شيء من حولها قد انقلب وضعه ، وأن شيئاً ما مروعاً سيطبق عليها ويخنقها .

.. له .. ؟ .. جنان .. ؟ .. يبيع في العمار ويشترى في الخراب .. ؟ هي البلد خلاص ضاقت باللى فيها .. عايز ياخذك هناك .. في الأرض السوداء المالحة . أرض حفرة جفرة .. لا فرع أخضر فيها ولا طيرة في السما .. لا .. أنا فاهماه وعارفه قصده . طماع وحرامى ولثيم .

وصمتت قليلا لتأخذ أنفاسها المتقطعة ، ثم قالت بلهجة متوعدة مندرة .

.. ولا في آخر يوم من أيامى ينباع شبر واحد من الأرض . كانت الأم تتكلم ونصف وجهها مغطى بطرحتها السوداء ، والنصف الآخر قمحيا مفضنا بآثر القسمات .. وكان في صوتها رنة رهيبة مخيفة تنطوى على الاحساس بالخطر ، وعلى الاحساس بضرورة الدفاع عن النفس والقتال بوحشية من أجلها .. لقد مات زوجها وأبو أولادها وهي في أجمل سنين شبابها .. وكان الأولاد - ومن بينهم أمينة - لا يزالون صفارا .. وقد ترك وفاته في قلبها الشاب حزنا ضخما أغرقته في شيء واحد كبير ، هو تربية الأولاد .. مات الأب .. اذن فليعيش الأولاد كما لو أنهم لم يحرموا من أبيهم أبدا .. مات .. فلتبق أرضه التى عاش يفلحها طويلا مقدسة وخالدة ، دون أن تمسها يد رجل غريب أو قريب .

وقد ارتعدت أمينة لسنماع كلمات أمها حينذاك ، فتقبلتها في صمت حزين كعادتها ولم تتكلم .. قالت الأم كلمتها ،



فلا مرد لها .. وأعتبرت أن كلمات أمها هي كل نصيبها من  
والدنيا ومن القدر .

وحين رجعت الى زوجها بعد ذلك ، وجدته ينتظر ردها في  
قلق .

قالت له أن أمها ترفض البيع ، جذب نفسا عميقا من  
أعماقه ، وكأنه يستل في الخفاء سكيئا غرسته في قلب كبريائه ،  
ثم قال لها في هدوء مروع :

— أنا خارج .. لكن قبل ما أخرج .. أخرجني قدامي .  
وسكت لحظة ثم عاد يقول بنفس اللهجة الهادئة المروعة :  
— قبل كده ، كنت بارجع أصالحك .. لكن المرة دي ..  
خلاص .. قطعت بيني وبينك العمر كله .

وهكذا خرجت .. الرضيع على كتفها ، والطفلة الأخرى في  
يدها ، أما صبيها البكر ، فكان يلعب مع أولاد القرية في أجران  
القمح لا يدرى عن فراق أبويه شيئا .

\*\*\*

انها تذكر ذلك اليوم الحزين بتفاصيله .

آه .. لا عليها من البكاء في تلك اللحظة ، فالسماء الواسعة  
نفسها تبكى وتفرق الطرقات بالسيول .

وجاءها صوت أمها من داخل الغرفة القريبة ، فبدا لها وكأنه  
آت من أبعاد سحيقة غامضة .

— أمينة .. ليه يابنتى قاعدة وحدك في البرد .. ؟ تعالى  
معنى في الدفا هنا تعالى .

أحست أمينة بكره مفاجيء لهذا الحنان .. ولأول مرة ،

أنبعثت في رأسها صورة قائمة مقبضة لأُمها ، : لقد تخيلتها امرأة لا تلبس الا السواد ، وتعيش حياتها وحدها في كهف مظلم ، وتمد اليها يدها المعروقة الضعيفة ، تريد أن تشدها اليها لتؤنس وحشتها ووحدها .

لقد أحست في تلك اللحظة احساسا لا واعيا ، ان أمها تريد أن تفرض عليها هي الأخرى ترميها القاتل ، مع أن لها زوجا لا يزال على قيد الحياة .

.. حاضر يا أمه .. أنا جايه .

وتعلمت في جلستها على الحصير خلف الباب ، وراحت تجول بعينيها الشاردتين في السكة المنحدرة .. كان بعض الفلاحين يجرون خفافا ليهربوا من المطر ، والبعض الآخر يسحبون مواشيهم ويستحثونها على الاسراع . وبعض النساء كن عائذات بالجرار من على جسر النيل وقد فاضت ثيابهن بمياه المطر ، ورحن يخطفن خطواتهن في نشاط وسرعة . أما أطفال القرية ، فكانوا يجرون هنا وهناك فرحين بالمطر ويصيحون وعيونهم متطلعة الى السماء في فرح .. « يا مطرة رخي رخي على قرعة بنت أختي .. »

كل ما في الدنيا في ذلك اليوم الشاتي ، كان يتحرك .. ويحيى ويذهب .. ويشيع الحياة فيما حوله .. أما هي ، فراكدة في بيت أمها ، لا طعم للحياة في عينيها ، ولا تملك من جلستها العاجزة الحزينة الا الذكريات .

يا سلام .. انها تذكر الآن يوما من أيام الشتاء المنقضى ، يشبه هذا اليوم المطير تماما .. كانت السماء تهطل .. وكانت تعيش في بيت زوجها ، وأحست بماء المطر يتسرب من السقف وتسقط قطراته في حجرة الجلوس ، فأسرعت وراحت تخرج المقاعد والكراسي وتفسل الأرض وتنظفها ، ثم فوجئت خلال ذلك بحسين يقف خلفها بجلبابه وطاقيته ، وكل ما فيه يفيض بالماء .

ولم تلبث أن رآته ينحنى هو الآخر ليساعدها في غسل  
الحجرة .. ولم تمض لحظات ، حتى وجدته يتوقف قليلا  
ويتأملها .. فتوقفت هي الأخرى وسألته وهى لا تزال منحنية :

— ايه يا حسين .. بتفكر فى ايه . ؟ !

فقال لها وابتسامته تتسع ، وعيناه تلتقيان بعينيها فى بريق  
حبيب :

— بافكر فى خدودك .. خدودك حمرة أوى النهارده كده  
ليه يا أمينة . ؟ !

أحست لحظتها على الفور برعشة خفيفة لليدة تسرى فى  
كل بدنهما ، وارتبكت ، لكنها لم تلبث أن ضحكت له ضحكة  
تجاوبت مع البريق المثل من عينيه .. ثم عاودت العمل من  
جديد ، بنشاط وفرح .

فى تلك الليلة ، لم يسهر حسين خارج البيت ، فالقرية كلها  
كانت قد نامت مبكرة لتتقى البرد والوحل والمطر ، ودخلا سويا  
حجرة النوم ، وقبل أن يناما أشعلا نارا صغيرة ، وراحا يرميان  
فيها بعض كيزان الذرة الخضراء التى كان قد أحضرها معه من  
الحقل ، وبقيتا مع أولادهما يستدفئون حول النار ويأكلون الذرة  
المشوية .. وحين أغلق الدفء ووهج النار عيون الأولاد بالنوم ،  
صعدا الى سريرهما .. السرير الذى لا تزال تنسدل عليه حتى  
اليوم الناموسية التل البيضاء .

انه رجل طيب . حسين انسان طيب بالفعل .. ترى ، أين  
هو الآن فى الدنيا الواسعة . ؟ ! . زمانه هناك .. فى الأرض  
الجديدة .. مع الرجال الذين اتفقوا معه .. لقد نفذ ما فى  
رأسه ، وباع فدانيه واشترى بثمنهما عشرة فدادين .. وكذلك  
الرجال الآخرون فعلوا مثله .. كلهم ذهبوا ومعهم نساؤهم ..



نوار ومعه امرأته نفيسة .. ومحمد أبو السيد ومعه شلبية ..  
وأحمد أبو رفاعى لحقت به زوجته بعد سفره بأيام .. كلهم  
هناك .. ولابد أنهم الآن فرحون بالمطر .. وفي هذه اللحظة  
أيضا ، لابد أن الرجال واقفون بعرض الأرض الواسعة .  
صدورهم عارية مكشوفة . ويستقبلون المطر في فرح بالغ ،  
وينحنون على التربة ، ويضربون فيها بقؤوسهم ، ويقلبونها بشفف ،  
وتعمر قلوبهم بالأمل .

واهتاج في نفسها ، وهي تتصوره بينهم ، حنين جارف لأن  
تكون بجانبه في تلك اللحظة بالذات . أى لحظة هائلة ، أن يعود  
حسين الآن من الحقل والمطر ، فيجدها هناك تنتظره . في ذلك  
البيت الصغير الذى استأجره ، ويجدها أيضا قد جهزت له طعاما  
ساخنا وملابس نظيفة جافة لتدفيء أوصاله ، ويكون أطفالها من  
حولهما يجرون ويمرحون .

على أنها لم تلبث أن أفاقت من خواطرها الحلوة فجأة ، حين  
نادت عليها أمها :

— أمينة .. تعالى يا بنتى غطينى باللحاف ، أحسن النوم  
ماسك فى عينى .

نهضت من جلستها . كانت أمها قد انتقلت من على الكنبة  
وتمددت على السرير ، ولم تكد تغطيها وتحكم الفطاء حولها ، حتى  
كانت طفلتها الرضيعة النائمة على السرير قد استيقظت من نومها .  
وهمت بالبكاء . فتناولتها بين يديها في الحال ، وجلست على  
الكنبة ، ومضت تهددها وترضعها في هدوء . كانت الأم قد  
راحت بعد دقائق قليلة في سبات عميق ، واستراحت أمينة من  
أعماقها لنعاسها . فلتفكر الآن كما يحلو لها التفكير ، ولتبك  
ما شاء لها البكاء ، ولتنتحب أيضا . لقد بقيت الأرض كما أرادت  
أمها . ولكن أى بهجة بقيت لها في حياتها ؟ كانت أمها توهمها

انه سيعود ليصالحها ورقبته تحت رجليه . لكنه لم يعد ، حقق  
كلمته التى قالها لها فى اليوم الأخير . « كل الى فات كوم .  
والمرة دى كوم » .

انها تعرفه . . عنيد . عنيد حين يخطيء الناس فى حقه .  
وهى أخطاء فى حقه فعلا . رفضت أن تسنده أمام الرجال  
الذين اتفق معهم على السفر ، وخذلته ، فلم تسمح له بالبيع  
والشراء مثلما فعلوا .

كان سيكتب لها نصف الأرض باسمها . وكانت سترحل  
معه فى أرض الله الواسعة . ينشدان حياة حلوة ، وتشاركه أيام  
العمل والغربة . . يا خسارة .

والتفت بعينيها ناحية أمها التى تفت فى نومها :  
هى السبب . . أمى هى السبب .

ثم تنهدت وأحست بالدموع تطفر الى عينيها ، وعادت  
أعماقها تجدثها من جديد .

لا . . أنا السبب . . أنا الخائبة . . عودتها إلا أعمل أى  
شئ إلا بأمرها . . أخواتى أنفسهن لا يستشرنها فى أى شئ . .  
وكلمة أزواجهن هى النافذة ، كان المفروض أن أتصرف لنفسى . .  
لقد قال لى حسين فى ذلك اليوم اننى أولى الناس بتشجيعه فى  
هذا المشروع . . صحيح . . كنت أنا أولى الناس بذلك .

كانت رضيعتها قد شبت وعادت الى النعاس ، فأرقدتها  
فى سكون ، وعادت بخطوات خفيفة الى جلستها خلف الباب . .  
وكانت السماء لا تزال تمطر بشدة ، وراحت تفرغ حمولتها دون  
حساب . . وفجأة ، انقطع المطر مرة واحدة . . ولم يعد هناك  
أى صوت يتخلل سكون القرية الشامل العريض .

ولاح لها من خلف مئذنة الجامع المديبة العالية ، بعض شعاعات خفيفة حمراء ترسلها الشمس من بين الغمام .. ورات الأرض الممتدة أمام الباب قد تحولت الى بحيرة تنعكس عليها ظلال الأشجار وقطع السحاب .. وانطلقت في الفضاء بعض الغربان والحمام والعصافير وبدأ الناس يعودون الى حركتهم ويخوضون ببهاثهم في المياه .

وأحست بروحها تفيض بالحزن ، وجاءت تنهد ، فخرجت التنهدة من صدرها شهقة ، نهضت من جلستها لتبحث عن أى عمل لها داخل البيت لتفرق أحزانها فيه .. لكنها لم تكد تتحرك من جانب الباب ، حتى لمحت امرأة شابة ترفع ذيل جلبابها وتنقل خطواتها في الأرض الموحلة في حذر .. علت دقات قلبها لمراها ، ودون أن تعي ما تفعل ، وجدت نفسها تنادى عليها .

كانت هذه المرأة ، هي نفيسة التي هاجرت مع زوجها نوار ، لتعيش معه هناك ، في الأرض الجديدة .

وتوقفت نفيسة على ندائها ، والتفتت في حركة سريعة الى مصدر الصوت ، وحين رأتها واقفة بجوار الباب ، مالت نحوها بخطواتها وسارت اليها .. ولم تكد تقترب منها ، حتى بادرتها أمينة في لهفة :

— حمد الله على السلامة يا نفيسة .. انشأ الله تكونى بخير .

لكن نفيسة لم ترد على ترحيبها على الفور ، إنما قالت لها وهي تتأمل وجهها في شبه استغراب .

— خير ايه يا أمينة .. ؟ ! .. انت عاملة في نفسك كده ليه يا أختى .. انت يا عيني بقيتى في ربح حالك .

ثم مصمتت بشفتيها في تحسر وعادت تقول :



— وحسين براخر يا ضنايا .. حالته بقت تصعب على  
الكافر .. يا أمينة فوقى لنفسك .. أمك مش حتنفعك .. وان  
تفعتك النهارده ، مش حتعيش لك العمر كله .

وسألتها أمينة بصوت ضعيف مسكين ، وكأنها تتلمس  
لنفسها خلاصا من أحزانها :

— والأرض يا نفيسة .. ؟

— أرض إيه ونيلة إيه يا أختى .. هو علشان عندك حنة  
أرض ، تقومى تتبغددى على جوزك .. ؟ ياريت كان عندى مال  
قارون وأنا أعطيه لجوزى .. هو احنا بنلعب هناك ... ؟ ..  
احنا بنشتغل ليل ونهار .. والحكومة بتشق لنا المصارف ،  
والأشياء حتبقى معدن .. لى نفسك يا حبيبتى ، وخدى أولادك ،  
ودوحى لجوزك أحسن لك .. وكتر الكلام مالوش فائدة .

واستأذنت منها نفيسة ، ورفعت ذيل جلبابها مرة أخرى .  
وراحت تخوض فى المياه بحذر .

وأحست أمينة بطنين يلف ويدور فى رأسها .. ثم يخف  
هذا الطنين شيئا فشيئا ، ليحل محله صفاء ينتشر فى نفسها  
رويدا رويدا .. ولمحت وهى لا تزال واقفة مكانها بجوار الباب ،  
دخانا يتصاعد من بعض البيوت ، فعرفت أن النساء والرجال فى  
القرية بدأوا يشعلون الأفران ليناموا عليها فى الدفء .. الرجال  
والنساء .. نعم .. كل رجل معه امرأته ، إلا هى .. والا هو .

ووجدت نفسها تعتزم شيئا ، لم تدر كيف انبثق فى رأسها  
وتحدد هكذا فجأة ، لكنها صممت على تنفيذه حتى ولو كان  
فيه موتها .. ولم تكد تحس بأمها تتحرك فى رقدتها تحت اللحاف ،  
حتى ذهبت إليها ووقفت بجوارها ، ثم قالت لها وكأنها تجرب  
الحزم والجفاف لأول مرة فى حياتها .

— أمه .

وردت عليها أمها والنوم لا يزال في عينيها .

— عايزة حاجة يا أمينة . ؟

— أنا راجعة لبيتى يا أمه .

وعادت أمها تقول في شبه استغراب وكأنها تحلم .

— بيتك . . ؟ . . ما أنت في بيتك يا بنتى . .

— قصدى بيت جوزى . . بيت حسين . .

انتفضت الأم من رقتها ، وراحت تنظر إليها في استنكار ،  
ثم قالت لها وقد بدت المفاجأة قد غلبتها على أمرها .

— والأرض . . ؟ . . وأرضك . . ؟

— الأرض الأرض . . ما الأرض بقى لها أكثر من سنة  
معايا . . شفت منها ايه الا الهم والقلب وكلام الناس على حظى  
المایل .

، ودخل عليهما في تلك اللحظة صبيها البكر ، نحيفا نحىلا  
يرتعش ، وقدماه الحافيتان موحلتان ، وجلبابه مبتل وضلده  
مكتشوف وبارز العظام . . واهتزت أمينة لمشهد ولدها ، فتوجهت  
لأمها بعينيها الباكتين وقالت وهى تكاد تصرخ وتمزق نفسها :

— عاجبك حال الولد كده . . ؟ . . خيقعد طول العمر من غير  
أب ، زى اليتامى .

وانتشرت الدموع من عينيها ، وراحت تجهش بالبكاء :

— يا بيت ما كان عندى ولا قيراط أرض ، كنت استريح  
من الغلب ده كله . . .

وتراعى للأم أنها أمام انساأة أخرى غير أمينة ، تلك التى

عرفتها طول العمر صامته صابرة ، وأحسنت في الوقت نفسه ، أن  
صبر أمينة قد نفذ ، وأن انفجارا كبيرا ومروعا قد يعقب صمتها  
الطويل ، هذا .

فعادت تقول لها وحدة كلماتها تخف وتلين :

— أيدى الله جراك يا بنتى . هو أنا قصدى أيدى غير  
مصلحتك ، معنى أنا فرحانة بقعدتك جنبى .

وردت عليها أمينة وهى لاتزال تنتحب :

— مصلحتى لازم أعرفها بنفسى من النهارده ، والوكيل  
ربنا .

ثم التفتت الى صبيها الذى راحت الدموع تتساقط من  
عينيه وهو يراها تبكى .

— واد يا مصطفى . روح نادى على خالتك نفيسة مرات  
عمك نوار . خلاص ، بكره حنسا فر معاها ، ونروح كلنا لأبوك .

ومسح الضبى دموعه ، وخرج يجرى فى الطرقات الموحلة  
فرحبا .

فى تلك اللحظة فقط ، أدركت الأم أنها أمام قرار حاسم  
لا سبيل الى الوقوف أمامه ، وتمنت لو تصرخ فى وجه الدنيا  
بأعلى صوتها ، لكنها أحسست أن صرختها ستضيع حتما فى الفراغ ،  
فأطرقت برأسها ، وقالت والدموع تنساب من عينيها هى الأخرى :

— خلاص يا بنتى .. هوضى على الله .. اعلمى الى انت  
عايراه ، وذنبتك على جنبك .

لم ترد أمينة بكلمة .. كانت فى أشد الحاجة الى أن تسكت  
وتستريح . فاستدارت الى رضيعتها النائمة على الكنبه



لترضعها وتشغل نفسها معها . وحين مالت عليها لتحملها بين ذراعيها ، وجدت فيها الصغير يبتسم ابتسامة حلوة رغم أن عينيها كانتا مغلقتين بالنوم ، وتذكرت ما يقوله الناس أن الأطفال يضحكون في نومهم حين تزورهم الملائكة في الأحلام . وامتلاً قلبها بسعادة لم تحس بها منذ زمن طويل . رفعت طفلتها المبتسمة الى صدرها وراحت تهددها وتوقظها على مهل . ودون أن تدري وجدت خطواتها تنقلها الى جوار الباب ، فاستندت عليه بظهرها ، وأخرجت ثديها لترضع طفلتها ، وراحت ترقب الطريق وتنتظر عودة ولدها ومعه نفيسة .

كان الطريق امامها في تلك اللحظة موحلاً ، والمسير فيه صعباً ، ولكنها حين جالت ببصرها في كل ما حولها ، أحسست براحة كبرى تغمر نفسها . . فالهواء كان قد أصبح دافئاً وطرياً ، والسماء قد جفت أمطارها وصفت . ولم يعد في الفضاء سوى سحببات صغيرة بيضاء تسبح على مهل ، وبعض طيور ترفرف بأجنحتها في الجو لتبحث عن قوتها ، وتبنى أعشاشها من جديد .

« ١٩٥٨ »

## الفانوس

رغم ان قريتنا الواقعة أسفل الجسر صغيرة جدا ، الى حد  
ان عم عطية الأعمى يحفظ حوارها وأزقتها بالشبر ويتجول فيها  
دون أن يقوده انسان ، الا انها في ظلمة الليل ، تبدو وكأنها عين  
فرن واسع منطفئ يحوى في جوفه الغموض والمخاوف والأسرار .  
كان الليل ينزل علينا دائما بظلمته الكثيفة الحالكة السواد ،  
فيشير في قلوبنا نحن الأولاد الصفار ميلا للحزن والوجوم .  
كان نهارنا كله عناء .. نسرح بأقدامنا الخافية وراء الحمير ،  
ونسقى البهائم من النيل ، ونحصد القمح أو نزرع البرسيم ..  
ثم تهبط الشمس ، وتصفر السماء ، فنمسح عرقنا ، ونعود الى  
بيوتنا والرغبة تملأنا لأن ننتقل في قضاء قريتنا ونلهو ونلعب  
وننسى متاعب النهار .

غير أن الصفرة كانت لا تلبث أن تضيع من السماء ، ويحل  
محلها سواد ثقيل ، وتصبح القرية كلها في لون الكحل ، وتبدأ  
الضفادع تنق نقيقا رثيبا مستوحشا ، والرياح تندفع من أعلى  
الجسر خلال الطرقات المعتمة فتترنح معها أوراق القش الجافة  
المرمية على الأرض محدثة حفيفا مخيفا ترتعد له قلوبنا .

كان أكثر ما يمكن أن نفعله في تلك الليالي المظلمة الواجمة ،  
أن نستلهم الشجاعة من أعماقنا ، ونخرج من بيوتنا على أطراف  
أصابعنا ، ونلتقي جميعا - كما تعودنا - على بلاط العمدة المملوء  
بالرطوبة ، ونروح نتهامس ونحكي الحواديت .

ولكن غالبا ما كانت جلساتنا هذه تنفض فجأة قبل  
الأوان .

فرغم أن السماء تكون من فوقنا واسعة وصافية ، والنجوم  
فيها بعيدة وكثيرة أكثر من دعوات أمهاتنا . . والنسيم من حولنا  
طرى وفيه رائحة نوار البرسيم وأزهار الفول ، إلا أن الظلمة  
التي تبلغ حتى ملامح وجوهنا ، كانت تنسينا كل ذلك ، وتملا  
نفوسنا برهبة غامضة ، وتشدنا بشكل لا يقاوم ، الى نوع معين  
من الحواديت .

فشئى الأنسر الصغير ، الذى لا تزال بأسفل ذقنه آثار  
رفسة حمار هائج ، يخلق في الظلمة بعينيه المستديرتين الدقيقتين ،  
ويميل علينا هامسا وكأنه يكلم نفسه . . « يقولوا يا أولاد ،  
إن بيت الحاجة آمنة مسكون . . والعفاريت كل ليلة تطلع منه  
بالليل على هيئة أرانب . . وفي مرة يا أولاد بعد صلاة العشا ،  
طلعت الأرانب لعم الشيخ جابر قرب الجامع ، وفضلت تجرى  
وتنط من حواليه ، وتدخل من بين رجله ، لكن علشان كان جافظ  
كلام ربنا . . ما جربوش أى حاجة » . .

كنا لا تكاد نسمع هذا الكلام ، ونمضى في تصوره ، سخطى  
نحبس أنفاسنا تجرى ، وشعر رؤوسنا يقف ، ونلتصق أكثر  
فأكثر ببعضنا ، لكن سعاداوى النحيل الذى يحلو له دائما أن  
يعزى ساقينه الهزيلتين كعودى الحطب ، ويلصقهما بالبلاط ليستمتع  
برطوبته ، لا يلبث أن يلتقط الحديث من شئى ويكمله ويحكى  
لنا ، يحكى للمرة العاشرة حكاية نعيم رفاعى الذى قتل عند المصرايف



القبلى .. ان روح القتيل تطلع فى الليل ، على شكل قسبيش طويل له عيون حمراء كشقوق النار ، وذقن طويلة بيضاء ، ويركب حمارا يروح به ويجيء على طول الطريق الزراعى ، حتى قبل اذان الفجر بقليل .

وقد طلع العفريت بحماره مرة لعم عبد العال ابو الشبراوى وكان راجعا من البندر بعد العشاء ، فتسمر الرجل من الخوف ، ولم يستطع ان يتقدم خطوة واحدة .. رآى بعينه الحمار يعلو ويعلو ، ورجلى القسيس طولان وتطولان ، وذقنه تمتد وتمتد حتى وصلت مترا .. صرخ الرجل من الرعب وجاء يجرى ، لكن العفريت لمسه بعصاه ، فوقع على الأرض ، وأصيب بالشلل من ذلك اليوم .. مسكين عم ابو الشبراوى .

لم تكن امصابتنا تحتل الاستمرار فى مثل هذه الحكايات ، وكانت أبسط حركة تحدث بجوارنا تفرعنا ، وتجسم من خيالنا الرهيب .. فقد يش فرع شجرة من هبة ريح ، أو نسمع وقع حوافر حمار هائل بصاحبه من البندر ، فنشتفض فى فرع ، ونطلق سيقاننا للريح ، ويقسم كل واحد منا فى نفسه ، الا يخرج من داره بعد ذلك فى الظلمة مهتما حدث .

ولكن حدث فى قريتنا بعد ذلك شئ غريب ، اهتزت له نفوسنا بالفرح ، ورحنا نتأمله غير مصدقين . فقد جاءت علينا ليلة فوجئنا فيها ببلدتنا كلها تموج بالنور ، مع ان السماء لم يكن فيها قمر .

فوجئنا فى تلك الليلة ، بفوانيس كثيرة ، مثبتة فى الحوائط على رؤوس الشبازع والحواري ، وفى داخل كل قانوس مصباح مشتعل يرسل الى الأرض والقضاء ضوءا هادئا حلوا يبدد الظلام . ولما سألنا ، قالوا لنا ان جمعية الاصلاح الريفى ، التى تكوّنت منذ شهرين ، قد أخذت اعانة من الحكومة ، واشترت هذه

الفوانيس ؛ وأن هذا شيء قليل من كثير ستقدمه الجمعية للأهالى :  
فهى ستقدم البرك والمستنقعات ، وتنشىء فوقها ملعبا كبيرا لكرة  
القدم ، يلعب فيه كل أولاد القرية بالمجان .

فرحنا بالفوانيس فرحة الدنيا ، وبدأت قريتنا فى نورها  
أجمل من كل بلاد البندر ، وأخذت حياة جديدة تدب فيها ..  
الرجال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمة ، وتجمعوا فى حلقات  
على المصاطب وفى الأجران ، والنساء طلعن الى الأسطح وافترشن  
القش ورحن يثرثرن ويضحكن .. أما نحن الصغار ، فقد أخذنا  
ذبولنا فى أسناننا ، وانطلقنا مع ريح الليل نجرى فى نور  
الفوانيس .. نمرح ونصيح .

كانت ليالى النور هذه أجمل من أى حلم يمكن أن يحلمه  
ولد منا وهو نائم بجوار النهر فى ظل شجرة توت خصراء .

كنا ننتظر بعضنا أول الليل فى ضوء أحد الفوانيس ، ونظل  
إفترقة الانتظار جالسين القرفصاء ، نتطلع الى الفانوس وهو يسكب  
الضوء ويبدد الظلام من حولنا .. لم يكن هناك من شيء لا نراه ،  
حتى الحصى وأشواك السنط وقطع الزجاج القديمة المتناثرة ،  
كنا نلمحها تلمع على الأرض .. كل شيء كنا نراه بوضوح ..  
البيوت والدواوير ، وشجرة أم الشعور ، والتلال .. وكل  
شيء .. كل شيء كنا نراه .

كان الفانوس يبدو فى عيوننا جميلا .. كنا نظل نتأمل  
زجاجه ، ونتأمل المصباح الذى فى داخله ، والهلال النحاسى  
الأخضر الذى يعلوه ، نتأمله فى صمت وسكون وكأننا نصلى ..  
وحين تكتمل جماعتنا ، نهض من جلستنا ، ونقسم أنفسنا ..  
عساكر وحرامية .. ثم نندفع فى مسالك القرية المضيئة زاعقين  
مهللين ، ونظل نجرى ونجرى ، ونضحك ونصيح ، حتى يهدنا  
التعب ، ونمسح العرق من على جبيننا بأطراف جلابينا ، ونعود

الى بيوتنا مهترين بالسعادة ، وكأنما أخذنا من ليلتنا ، ثمننا  
عظيما لكل العناء الذى بذلناه بالنهار فى الحقول وعلى الشيطان  
والجسور .

لكن لىالى الهناء هذه لم تدم طويلا ، فقد لاحظنا بعد  
شهور قليلة ، أن الفوانيس المضيئة ، بدأت تقل شيئا فشيئا ،  
وبعض الشوارع والحوارى غرقت فى الظلمة من جديد . .  
وأحسنا بالقلق يداخل نفوسنا ، ولكن شلبي قال وهو يحك ذقنه  
المجروحة ليطمئننا ، أن حسنين فراش الجمعية ، لابد أنه ينسى  
اشغال المصاييح .

غمرتنا كآبة شديدة . . وبدأنا بعد ذلك ، نتسلل من دورنا  
فى الظلمة على أطراف أصابعنا ، متجهين نحو الفانوس الوحيد الذى  
بقى لنا فى البلدة كلها ، ولا نكاد نبلغ شجرة السنط التى تميل عليه  
بعض قروعه حتى تروح ننظر اليه فى رجاء ، وندعو من قلوبنا  
ألا تنطفىء شعلته أبدا ثم نجلس فى ضوئه ، ونظل نحملق فى  
الظلمة المحيطة بنا ، فنخاف من الجرى واللعب ، وننكمش فى  
جلستنا أكثر وأكثر . . ونكتفى من السهرة بالكلام والحواديت .

ودون أن ندرى ، عاد شلبي الى حكاياته القديمة . . فقال  
أن الأرانب بدأت تطلع من بيت الحاجة آمنة ، من يوم أن انطفأ  
أول فانوس فى البلد . . أما سعداوى النحيل ، فقال هامسا أن  
القسيس الطويل وحماره ، كانا قد خافا من نور الفوانيس وهجر  
الطريق الزراعى ، ولكنهما سيعودان بالتأكيد ، لو انطفأ هذا  
المصباح الأخير .

وارتعشنا جميعا لذكر الأرانب والقفاريت بعد أن كنا  
نسناها زمنا وأحسنا بدموع الخوف والحزن تبلل قلوبنا ،  
ورحنا نتطلع الى الفانوس وندعو فى سرنا . . « يارب . . يارب . .  
ابق لنا هذا الفانوس . . فانوس واحد ليس كثير على بلدنا » .



و حين ذهبنا اليه في الليلة التالية ، وجدناه لا يزال مضيئاً ،  
ففرحنا كثيراً ، أكثر من أى ليلة أخرى ، وجلسنا على الأرض  
متربعين في دائرة النور ، ورحنا نحكى ونتحدث .. ولكن سعداوى  
قطع علينا الحديث فجأة وقال وهو يشير بيده الى الفانوس .

— « شايفين يا أولاد .. الفانوس بينطفى » .

ارتفعت عيوننا جميعا الى الفانوس .. كانت شعلته قد  
شحبت عن أول الليل ، وبانت عليها علامات الدبول .. أصابنا  
خوف فظيع ، خوف لم نحس بقطاعته من قبل طيلة عمرنا ..  
وانتفضنا جميعا واقفين ، ممسكين من الخوف بجلاليب بعضنا .

كانت البلدة كلها في تلك اللحظة صامتة واجمة .. الرجال  
لم يخرجوا الى المصاطب والأجران .. والنساء لم يطلعن الى  
السطوح .. والسكون كان منشورا وعميقا يطن في آذاننا ،  
والجنادب يملو صريرها .. وعواء كلب بعيد يبدو أنه غريب عن  
قريتنا يصل حزيننا الى أسماعنا .. ظللنا واقفين ننظر الى  
الفانوس الذى يموت منه النور لحظة بعد لحظة وكأننا لا نستطيع  
حراكا .. وخيل إلينا ونحن في عالم الظلمة والسكون هذا ،  
أنه لم يصبح في الوجود كله أحد غيرنا .. ولكننا أحسنا فجأة  
بواقع أقدام ثقيلة تقترب منا آتية من ناحية البندر فانتفضنا في  
فزع ، وصرخ شلبى وصاح .. « العفاريت رجعت يا أولاد » ..  
صرخنا جميعا صرخة مزقت سكون الليل ، وأطلقنا سيقاننا للريح  
عائدين الى بيوتنا .

وكانت هي الأخرى غارقة في الظلام .

(( ١٩٥٨ ))

## النهاية السعيدة

وصلت والدنيا ليل . . . وقفت أتأمل في الظلمة مشهد  
قريتي . . . لم أكن الملح لها دليلا أو علامة ، فقط رائحة الزرع  
الناابت في الحقول ، وشجرة السنط العجوز المائلة عند مدخلها ،  
كذلك أشباح بيوتها الواطئة الصغيرة الراقدة في بطن الجسر .  
كانت الظلمة حالكة ، والنجوم على صفحة السماء تبرق  
متهافئة من بعيد ، لم يكن هناك صوت ولا حركة . . . لا ساقية  
تدور ، ولا فلاح يستحث بهيمة . . . لا كلب ينبع ، ولا ذئبة تغوي . . .  
كل ما حولي صمت ، مجسم عميق . . . ومع هذا فقد أحسست  
برواحي تنتعش وترفرف وتكاد تطير ، استنشقت نفسا كثيرا  
وعميقا متلات به كل رثتي ، وشرعت أهبط السكة المؤدية  
إلى بيتي .

ثم يكن بيتي بعيدا . . . كنت أحفظ الطريق إليه عن ظهر  
قلب ، أحفظه بالشبر . . . وأعرف أن المسافة بين مدخل البلد  
وبينه بها ثلاثة مطبات متباعدة يمكن أن يتعثر فيها الغريب ،  
وأعرف أيضا أن هذا الطريق الضيق يصعد قليلا عند شجرة

النبق الكبيرة التى تظلل مقام سيدى حسن البادى ، ثم ينحدر الطريق فجأة مرة اخرى ثم يستوى ويمتد حتى ينتهى بوسعاية رحيبة يقوم امامها بيتنا الكبير القديم .

سرت على مهل متجها الى البيت ، كنت سعيدا لأنى سأرى أمى بعد دقائق قليلة .. سأدق الباب الخشبى الكبير دقتين خفيفتين ، فتصحو أمى فى الحال من نومها ، وتخرج رأسها الملفوف بطرحتها السوداء من تحت اللحاف ، ثم تقول فى صوت تختلط فيه البقطة بالمنام « مين . ؟ » فأرد عليها بصوت هادىء واضح « انا يا امه » . فتنزل من على السرير بقامتها التى أحناها الزمن ثم ترفع المزلاج وتفتح الباب وتتطلع فى وجهى فى لهفة . « مين .. ابنى عبده حبيبى » وتأخذنى بالأحضان .

تفتح قلبى للقاء .. فأسرعت من خطواتى ، سأراها ، وأكل من يدها أى شىء ، وأجلس بجانبها على الكنبه لأسمع منها بعض أخبار قريتنا ، ثم أتركها مستأذنا كالعادة وأخرج الى شوارع بلدتى وحواريها ، ربما تكون قهوة هنا أو هناك ساهرة أجلس فيها مع بعض الفلاحين . نشرب الشاى ونتحدث فى ظلمة الليل وسكونه .

لم أكد اجتاز الوسعاية واقترب من باب البيت ، حتى هبت فجأة من فوق الجسر القريب ريح شديدة اكتسحت كل ما على الأرض من تراب وأوراق هشة جافة . رفعت يدى لأحمى عيني من ذرات التراب ، غير أن صوتا موحشا وغريبا دوى فى أذنى فجأة ومزق سكون الليل .. كان الصوت فى وحشته وصريره يشبه اصطفاق نافذة زجاجية قفلت بفعل الريح حتى أوشكت أن تنهشم وتتهاوى .. اعترتنى رجفة ، وتوقفت . رحت أنصت وأجىل بصرى فى جدار بيتى وجدران البيوت الملاصقة اتمعن نوافلها ، لكنى كنت أعلم أن النوافل هنا ليست من زجاج ..



كلها مصنوعة من خشب الجميز أو السنط أو التوت الغليظ . .  
فمن أين انبعث هذا الصوت الزجاجي الخشن الكئيب . ؟ !  
لكن الريح هذات ، وهمدت الأوراق الجافة واستكانت على  
الأرض ، ولم أعد اسمع الا همس السكون وهمس نسيمات توشوش  
لبعض أشجار عارية قريبة . . لابد أنه الخوف الذي جعلني اتناسى  
أمر هذا الصوت الغريب وتخيلته وهما . . ولم أكد أنقل قدمي  
لأقطع الخطوات الباقية على باب بيتي ، حتى هبت الريح مرة  
أخرى باردة وعنيفة ، فثار الغبار ورقصت أوراق القش الجافة  
على الأرض وترنحت ، ثم دوى الصوت الموحش مرة أخرى ،  
وردعتني ما فيه من كآبة وتشاؤم وصرير . تسمرت في مكانى من  
الخوف وعدت أنصت من جديد . . أحسست شيئاً ما مرتفعاً  
عنى بعض الشيء فى الفضاء يروح ويجىء فى الظلام . . يهتز  
ويتذبذب مع هواء الليل محدثاً صريراً كائياً ومخيفاً . . ثم توقف  
الصرير ، وسمعت صوتاً غامضاً يشق سكون الليل ، ويقول لى  
بلهجة ترحيب :

— مساء الخير يا أستاذ .

تلفت حولى فى جزع وقلت بصوت خفيض ، محاولاً  
مداراة خوفى :

— مساء النور . . من يتكلم . ؟ !

أجاب الصوت فى نبرة توحى بأن صاحبها يبتسم فى سره  
ابتسامة سخرية خفيفة :

— أعتقد فعلاً أن المساء هنا نور ؟ ! على كل حال . . أنه  
نورك أنت . . نورتنا يا أستاذ .

قلت وأنا أمسك نفسى عن الصياح فزعا . . « من أنت أولاً . .  
ومن أين تتكلم . . ؟ ! » .. قال على الفور وكأنه أشفق على

حالى .. « أولا يجب أن تطمئن .. أنا صديق قديم .. ولكن أرجوك .. اخفض من صوتك ، والا لو رآك أحد وانت تتكلم معي ، فماذا يقول عنك . ؟ . مجنون معاذ الله ؟ ! أنت تعلم أنك انسان محترم في بلدتنا هذه ، وعاقل ، ولا يمكن أن تتكلم مع شيء لا ينطق في عرف الناس » .

كان الخوف يمتص أنفاسي .. أحسست أني وقعت في قبضة أحد العفاريات التي كنا نحكي عنها الخواديت ونحن اطفال .. يا للمصيبة .. لم تطلع لي وأنا صغير ، فطلعت لي وأنا كبير .. ألجم لساني ، وشلت خطواتي ، وعاد الصوت يقول وكأنه يعاتبني :

— لماذا لزمت الصمت .. ؟ ! لقد لاحظتك هذه الليلة وانت قادم ، كنت فرحان مبتهجا .. فلماذا اكتابت هكذا مرة واحدة ، وبدا علي وجهك كل هذا الخوف .. اتخاف مني .. ؟ ! قلت في ضراعة وتوسل : اعمل معروفًا .. قل لي من أنت .

قال بصوت ودود .. « ألا تراني فوق رأسك معلقا على جدار بيتك ، أنا .. سأقول لك من أنا .. بشرط ألا تجرى .. أتوسل اليك ألا تهرب مني .. أنا .. أنا الفانوس » .

أصابني رعب قاتل .. الفانوس . ؟ ! فانوس يتكلم . ؟ ! خيل لي أن ومضة خاطفة مرت بذهني ، وأخذت معها عقلي .. هممت أن أجرى مذهولا مفزوعا ، لكنه عاجلني وقال بنفس لهجته المطمئنة الودودة :

— كنت أحسب أنك ستفرح بلقائي .. أنساني هكذا بسرعة .. ؟ ! وبمجرد أن انتهيت من كتابة قصتك عني .. ؟ ! قصة عنه .. ؟ ! أحسست براسي يدور ويدوخ . أجل ..

أنا كتبت قصة عن قرينتى ذات مرة .. وسميتها بالفانوس ..  
ولكن .. ولكن ..

قال مواصلا كلامه « ها أنت ترانى مطلقاً .. وبابى الصغير  
مفتوح تسفى فيه ريح الجسر ، ويكاد زجاجى يتهشم فينتهى  
بذلك كل ما بقى لى .. لاشك ان جزءا من المسئولية يقع  
عليك » .

قلت وأنا أشهق « مسئولية .. ؟ ! .. تريد ان تقنعنى أنك  
تتكلم مثلما يتكلم الناس .. ؟ . لايمكن .. لايمكن .. فانوس  
يتكلم .. هل تعتقد أنه يمكننى ان أصدق ذلك » .

قال باستنكار شديد .. « ولم لا . ؟ . كنت أعتقد أن  
الفنان يمكنه أن يصدق ما يخاف الناس العاديون أن يصدقوه ..  
نعم .. أنا الذى أكلمك .. وليست هذه أول مرة أكلمك فيها ..  
ياما كلمتك طويلا من قبل وأنت تكتب قصة الفانوس .. ألم  
تكن تخرج فى الليل من بيتك هذا لائلا بالصمت وبالوجدة ثم  
تفترش الأرض وتجلس تحبلى ليالى طويلة ، كنت تناجبنى فيها ،  
وتحادثنى ، ولا تتعب من التطلع الى .. فلماذا تنكر على الكلام  
معك هذه الليلة .. ؟ !

قلت مرتعدا .. أوشك أن أستغيث .. « ولكن ..  
ولكن » .

قال بلهجة لطيفة ورقيقة .. « ولكن ماذا ؟ . انزع من قلبك  
هذا الخوف الذى يبدو عليك .. الخوف تماما مثل الجهل ،  
يعمى القلب عن الحقيقة ، ألا توافقنى على هذا ، باعتبارك  
كاتباً .. فنانا .. ؟ !

قلت وأنا أزدرد أنفاسى .. « نعم .. ولكن .. ولكن » .



قال مقاطعا بلهجة حازمة ومهذبة « ولكن يجب أن تجيب على هذا السؤال : لماذا غيرت نهايتي .. أقصد نهاية قصتك « الفانوس » .. كنت أنهيته بشكل ، ثم عدت فأعطيته نهاية أخرى .. هذا هو ما أريد أن أناقشك فيه .. أنه تغير لم يعجبني ولم يعجب اخوتي الفوانيس .. ان ذلك يؤثر في مصيرنا .. وقد قررنا أن نبلغك هذا الرأي في أقرب وقت .. أظنك اقتنعت الآن بحقي في النقاش معك » .

قلت وأنا أتطلع اليه مستسلما « نعم .. لك الحق .. تفضل .. تكلم » .

قال مبتهجا « عظيم .. سنصل اذن بالتأكيد الى نتيجة .. اما أن تقنعني واما أن أقنعك ، وبدون شهود علينا . ! . هل تذكر النهاية الأولى لقصتنا هذه . ؟ ! . أنا أذكرها .. أنا أعيدها عليك .. كانت هكذا .. » .

وأحسست بصوته يرق في هدوء الليل وينساب في أذني كالحفيف وهو يقول .. « .. انظرا آخر فانوس في قريتنا ، غرقت البيوت والأشجار في بحر من الظلام ، طلعت الأشباح من جديد للصفار وهم يلعبون .. صرخوا وطاروا في فزع الى بيوتهم .. وكانت هي الأخرى غارقة في الظلام .. !! .. ألم تكن نهايتها الأولى هكذا .. ؟ ! »

كنت مبهورا وأنا أصغى اليه .. كان صوته يمس روحي مسا حنونا وعنيفا في الوقت نفسه ، ونبرة حزن جميلة وجذيلة تشيع في كلماته .. قلت مستعلبا أن أعطيه كل نفسي :

.. تماما .. تماما .. بل وأجمل مما أنهيتها أنا ..

قال معترضا .. « لا .. لا تكن متواضعا أرجوك .. هكذا

أنهيتها أنت .. ونحن لا نريد الليلة إلا الحقيقة كما اتفقنا ..  
فلماذا عدت وغيّرت هذه النهاية ؟ ! »

قلت متحمسا .. « لقد سئلت نفس السؤال كثيرا من  
قبل .. »

قال متهللا .. « من غيرى .. ؟ ! .. اذن هذا يؤيد صحة  
نظرتنا .. ألم يعاتبك أحد على هذا التغيير .. ؟ ! »

قلت على الفور .. « نعم .. ومن بينهم أستاذ لي ، وصديق  
في نفس الوقت ، ونشر عتابه في إحدى الصفحات الأدبية  
الشهيرة ، ولكن صدقني .. كانت حيرتى تزداد يوما بعد يوم » .

قال وقد انقلب صوته فجأة الى تحذير وتنبيه .. « أخفض  
صوتك .. أرى من مكانى المرتفع شبحا قادم .. آه .. أنه  
الخفير .. يقترب منا .. يدب بعصاه حاملا بندقيته القديمة  
الصدئة على كتفه .. لو سمعت تحدث الى فسيتهمك أو يتهم  
نفسه بالجنون .. نعم .. الخوف قد يورث الانسان الجنون ..  
ما علينا .. قف صامتا لحظة .. التصق بالجدار ولا تتحرك ..  
وحين يمضى من أمامنا نعاود الحديث .. لا تنس أين وقف بنا  
الحديث » .

التصقت بجدار بيتي ، قلبي يدق وأنفاسي تتابع .. وبعد  
لحظات ، تنأى الى سمعى أقدام الخفير تقترب وتقترب .. ثم  
تعلو وتعلو .. وحين وازانى تنحنج بصوت أرعدنى ، ثم مضى  
يدب في السكة على مهل حتى اختفى شبحه ، وتلاشى وقع  
أقدامه .. حينذاك عاودنى صوت الفانوس .

— خلاص راح .. ولو كان هذا الخفير واسع الصدر  
بعض الشيء ، لناديته ليكون شاهدا علينا في الكلام .. لكنى  
لو فعلت ، فسيصرخ بالتأكيد ، ويرمينى بشمروخه ويحطمنى ،

مع أن الرياح لم تحطمني بعد .. لكنك غيره بالطبع ..  
أنت فنان .. تبغى الحقيقة حتى ولو كانت قاسية على  
نفسك .. نعود من حيث وقفنا في الكلام .. آه .. كنت تحدثني  
عن عتاب صديقك وأستاذك هذا على تغييرك لنهاية القصة ..  
صف لي هذا الصديق .. انه صديقنا أيضا نحن الفوانيس ..  
صفه لي في كلمات قليلة وبسيطة .

قلت وأنا أتهد .. « شاب حين يضحك .. وحكيم حين  
يتكلم » .

قال .. « أعرف هذا النوع من الناس .. نوع يتقبل كل  
الأشياء بحب .. لا يهمه أن تضحكه الحقيقة أو تبكيه .. قل لي  
وحياتك .. ما هي وجهة نظره في تغييرك لنهاية الفانوس .. اننى  
شفوف لسماعها » .

قلت مبتسما .. « سأقولها لك بعد قليل .. أعدك بهذا ..  
لكنى أريد أن أعرف وجهة نظرك أنت أولا » .

قال .. « عظيم .. لماذا عدت فأضأت الفانوس مرة أخرى،  
بعد أن كنت قد تركته في نهاية القصة مطلقاً .. ؟ ! .. ما هدفك  
من هذا التغيير .. ؟ ! »

قلت .. « أن أترك القارئ في نهاية القصة والقرية أمامه  
مظلمة وحزينة ، هذه صورة تثير الانقباض والتشاؤم والحزن » .

قال .. « ولماذا نقول أنها تثير الانقباض والتشاؤم .. الخ  
من هذه الكلمات المحفوظة .. !! لماذا لا نقول أنها تثير غطف  
القارئ وشجته ، فتدفعه لأن يعمل شيئاً من جانبه لى تضاء  
القرية والفوانيس من جديد .. ؟ ! »

قلت فى حماس .. « وهل ما فعلته أنا شيء ضار .. ؟ ! » .



بالعكس .. أضأت الفانوس الأخير من جديد ، وبذلك أصبح لى دور فى القصة » .

قال فى حماس طفى على حماسى .. « هذه على ما يبدو مشكلتك فى الفن .. دور الكاتب فى القصة .. ؟ ! من رأى أن أعظم دور للكاتب ، هو أن يخلق للمقارئ دورا فى الحياة .. وفى النهاية الثانية لقصتك هذه .. أضأت الفانوس الأخير بعد أن كان مطفأ .. وهذا جميل .. لكنك أضأته بنقطة حبر على الورق .. أنت لم تضيئه فى الشوارع والحوارى والبيوت .. أنت بذلك أرحت أعصاب الناس .. لم تلهب أرواحهم بمأساة قصتك .. أطفأت نار حماسهم وشجنهم ، فتركوا القصة وهم مستريحون ومطمئنون على قريتهم .. وهذا ما لم أكن أنتظره منك .. كنت أحسب أنك فنان ثابت القلب .. بعيد النظرة .. لا يروعك الحزن مهما كان » .

قلت مستفهما .. « يعنى .. ؟ ! »

قال : « أن تترك الناس وهم فى لوعة علينا وعلى قريتنا المظلمة .. وبدلا من أن تقوم أنت بمهمة اضاءة الفانوس ، توحى لهم هامسا بذلك .. بأن تلك هى مهمتهم » .

قلت وقد تذكرت شيئا : « هذا بالضبط رأى صديقى واستاذى .. بل وربما تكون نفس كلماته .. غير أنى كنت أسأله قائلا .. وما دمت أنا لا أضئ عن طريق فنى .. فماذا تكون إذن مهمتى .... »

قال الفانوس متعجبا .. « ومن قال لك أنك لم تضيء بفنك ، وفى هذه القصة بالذات .. ؟ ! .. ألم تقدم لهم فيها هذه الصورة وقبل أن تنطفىء الفوانيس حين قلت : « .. ثم فوجئنا ذات ليلة ببلدنا كلها تموج بالنور ، مع أن السماء لم يكن بها

قمر .. وفرحنا بالفوانيس المضيئة فرحة الدنيا .. وبدأت قرينا  
في تلك الليلة أجمل من كل بلاد البندر ، وأخذت حياة جديدة  
تلب في لياليها .. الرجال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمة ..  
وتجمعوا في حلقات السمر على الأجران والمصاطب .. والنساء  
طلعن الى الأسطح وافترشن القش ورحن يتكلمن ويضحكن ..  
أما نحن الصغار ، فقد أخذنا ذبولنا في أسناننا ، وانطلقنا مع ريح  
الليل نجرى في النور ونمرح ونصيح .

كانت ليالى النور هذه ، أجمل من أى حلم يمكن أن يحمله  
ولد منا ، وهو نائم بجوار النهر في ظل شجرة توت خضراء .. »

ماذا تريد من دورك في القصة أكثر من هذا .. عملت  
ما عليك وأكثر .. غير أن الفوانيس انطفأت بعد ذلك لسبب  
لا دخل لك فيه .. ذلك شيء يحزن قلبك الفنان بالفعل .. ولكن  
ما حبلتك .. ؟ ! أتضيئها أنت من عندك .. بسطر أو سطرين  
أو عشرة .. ؟ ! .. لا .. كان يجب أن تدع الناس إذا كانوا قد  
أحبوا من قصتك تجربة النور ، أن يعيدوها بأنفسهم مرة أخرى  
الى قرينتهم .. هذا هو امتحان الفن ومدى تأثيره في الناس .. !

قلت وشبه دوار في رأسي .. » عفوا .. لم أفهم عبارتك  
الآخيرة .. أريد توضيحاً أكثر من فضلك .

قال بلهجة حلوة .. » آه .. شكراً .. العبارة الأخيرة ..  
ماذا كنت أقول ؟ .. آه .. كنت أقصد أن الفنان يجب ألا يعمل  
كل شيء بنفسه .. يجب أن يترك للناس شيئاً يفعلونه .. لا بد  
أن يعطيهم الفرصة لكي يحسوا أنهم هم الآخرون مثله ، قادرون  
على الخلق وعلى العمل .. »

قلت .. » .. لقد فهمت تماماً .. ولولا هذا التغيير  
اللعين في النهاية ، لما ثارت بشأن هذه القصة أية مشكلة ..  
ولما نطقت أنت .. »

قال بضجر .. « كنت أعتقد أنك فهمتني فعلا .. المسألة يا أستاذ ليست مسألة نهاية القصة أو بدايتها .. انها قبل كل شيء طريقة تفكير الفنان .. لون نظرتة وفهمه للأمور .. وأنت حين غيرت النهاية ، غيرت القصة كلها دون أن تحس .. سلبت من قصتك روحا ، وأعطيتها روحا أخرى .. هذا هو الموضوع .. أفهمتني .. ؟ ! »

قلت مرتبكا .. « تقريبا .. لكنى محتاج الى توضيح أكثر .. لو تكلمت » .

قال .. « جدا جدا .. بكل سرور .. غير أنى حريص على وقتك .. لا أود أن أعطلك معى أكثر من هذا .. »

قلت فى لهفة .. « لا .. أبدا .. اكمل من فضلك .. ليس للوقت أى معنى فى هذه الظلمة .. »

قال وقد خيل لى أن لصوته أعماقا بعيدة .. « حين يعطى الكاتب لقصته نهاية اليممة .. هل تظن أنه بذلك يضيف الى آلام الناس الما جديدا .. ؟ ! .. لا .. انه فقط يحرك احساسهم بمأساتهم .. هو يحفزهم لأن يضعوا لهذه الآلام حدا .. !! »

« هل نسيت أهالى قريرتك .. ؟ ! .. كثيرون منهم ألف الحياة كما هى .. انهم يولدون هكذا .. ويعيشون هكذا .. ويموتون هكذا أيضا .. ضمرت فيهم روح التطلع والتغيير .. ما موقف الفنان هنا ؟ ! .. ما موقفك يا أستاذ .. ؟ »

قلت مباشرة .. « أرسم لهم صورة جميلة لحياتهم .. واجعلهم يتطلعون دائما اليها .. »

قال ملاحقا كلامى .. « هذا جميل .. جميل جدا .. ولكن قبل هذا .. يجب أن تحرك احساسهم بالآلم كما قلت لك



من قبل .. يجب أن تشعرهم بمأساتهم ، وبما في هذه المأساة من مرارة وألم ، حينذاك ستري كل واحد منهم مندفعاً وحده نحو الخلاص .. نحو حياة أجمل وأفضل .. »

قلت متسرعاً .. « الحياة التي أرسمها له في نهاية قصتي ..  
هه .. ؟ ! »

قال .. « لا .. ليس هذا ضرورياً .. انك قد ترسم لهم الحياة .. ولكن يبقى لهم بعد ذلك الخيار .. الفنان ليس وصياً على الناس .. هو يحرك الاحساس الكامن فيهم .. ثم هم بعد ذلك يختارون .. هم الذي يقررون مصيرهم بأيديهم .. »

وهنا اضطرب صوت الفانوس وخفت بعض الشيء ، ثم قال وهو يهمس لي في وجل .. « مرة أخرى من فضلك ، التصق بالجدار .. اخفض صوتك .. هناك وقع أقدام تقترب .. انهم فلاحون عائدون من الحقل ، كانوا يروون القمح .. التصق بالجدار .. ولا كلمة .. »

التصقت بالجدار ، وحبست أنفاسي ، ورحت أنطلع عبر الوسعاية .. لم يكن هناك من صوت .. فقط وقع أقدام كثيرة .. وهمهمات تبدو موحشة في ظلمة الليل وسكونه .. ثم لاحت أشباح بعض الرجال يدبون في الطريق في صمت ووجوم .. كانت خطواتهم بطيئة .. في بطء خطوات الجواميس التي يسحبونها بالحبال ، خافضى الرؤوس يتلمسون طريقهم في الظلام الحالك .  
مروا من أمامي في صمت .. همهماتهم توقفت ، وأشباحهم أخذت تختفي شيئاً فشيئاً في الظلام .

— هل رأيت موكبهم .. ؟ ! .. ما رأيك فيه .. ؟ !

قلت كالمأخوذ .. « انهم أبطال .. ليتنى أستطيع أن أرسم هذه اللوحة في قصة لي ، وكما أحسستها » .

قال ضاحكا: .. « بشرط الا تأتى فى نهاية القصة وتختتمها ببعض السطور البطولية .. هكذا مثلا .. » وكان موكب الفلاحين يخيم عليه الوجوم .. ولكن ضحكة قوية غامضة سرعان ما انطلقت من واحد منهم وراح صداها يتردد فى جنبات الليل الكبير » .

واستمر يضحك .

قلت له فى استياء « أنت اذن لا تثق فى كل ما اكتب » .

قال .. « أبدا أبدا .. العفو والله .. أقصد هؤلاء الذين اشاروا عليك بتغيير قصتك .. انهم لاشك يختلفون عن صديقك الذى كلمتنى عنه .. ربما فيهم شباب به ، ولكن تنقصهم حكمته » .

قلت .. « من الجائز .. ولكنى ألمس فيهم هم الآخرين حبا شديدا للحقيقة .. »

قال ساخرا .. « حب بلا تجربة .. كطائر بلا أجنحة » .  
قلت .. « يعنى .. ؟ ! »

قال .. « يعنى كل ما قلته لك من قبل .. لقد تأخر الوقت .. وقد تناقشنا كثيرا .. كثرة النقاش تبدد طاقة الفنان .. آن الأوان .. استودعك الله .. »

قلت فى لهفة ورجاء .. « لا .. لا .. أرجوك .. لا تتركنى الآن .. دقائق فقط .. أناقشك فى .. نقطة صغيرة .. »

قال بصوت حاسم أجش .. « لم يعد جدوى من النقاش بعد الآن .. الأفضل لك أن تفكر فى كل ما قلته لك .. سلام عليك .. كلمة أخيرة .. هناك ريح آتية من فوق الجسر .. ريح باردة وشديدة .. كن شجاعا وانت تواجهها ، ولا تخف .. سلام .. السلام عليك .. »

وسكت الصوت مرة واحدة ، وساد المكان صمت عميق  
رهيب .. هممت ان ارفع يدي لاتضرع اليه واستمهله .. لكن  
ريحا شديدة وباردة هبت مندفعة من اعلى الجسر واكتسحت  
الوسعاية والبيوت والأشجار ، وحدثت ضجة مخيفة ومروعة  
كنت أسمع خلالها زجاج الفانوس يصطفق مرات ومرات فى وحشة  
وكآبة .. نم سكنت الريح والشجر .. وهذأت حركة باب  
الفانوس المفتوح ، ولم يبق منها سوى اهتزازات ذات صرير مفزع  
وكثيب .

التقطت أنفاسى ، وصخت وشعر رأسى وقف كالإبر ..  
« أنت .. أنت .. كلمنى .. كلمة واحدة فقط .. فقط  
لا غير .. »

ولكن ما من مجيب من القرية كلها .. سوى السكون ..  
والشجن .. وصوت أقدام خفير أو فلاح عائد من حقله ..  
يدب مع بهيمته ، فى جوف الظلام .

« ١٩٥٨ »



## أونجاش

في تلك الأيام ، لم أكن الصبي الوحيد الذي يحب الكلاب في قريتنا ، كان بدير والشحات هما الآخران يحبان الكلاب حباً جما . . لم تكن نحن الثلاثة نسمع عن كلب جميل وقوى في أى بلد من البلاد المحيطة بنا ، حتى نذهب اليه ، نرقبه ونتأمله ، ونتحذى من نوعه . . بلدى أم وولف . . أرميت أو لولى أو رومى . . ونظل نرصد حركاته وسكناته ، وكذلك حركات وسكنات صاحبه ، ثم نتفق على أحسن الخطط لاصطياده . وكانت خطتنا غالباً ما تنجح ، وأصبح لكل واحد منا مع مرور الأيام ، كلب جميل وقوى يفخر ويتباهى به . .

سميت كلبتى « صاحبة » وبدير أسمى كلبه « نصر » أما الشحات فكان لون كلبه أسود فطيساً ، ليس فيه إشارة واحدة غير سوداء ولهذا فقد أسماه « سبع الليل » . . وكان يغمرنا نحن الثلاثة احساس مفرح بأننا نملك أجمل ما فى الحياة .

كانت كلابنا تصبحنا أحيانا الى الحقل ، وأحيانا كانت تبقى فى القرية تجرى وتمرح حتى نعود لها بعد الغروب .

و ذات مساء ، كنا عائدین ببھائمنآ الی القرية . . ولم نكد  
نصل الی مدخلها ، حتی رأینآ الولد سببوا یقبل علینا وهو یحجل  
فی مشیتہ كالعادة ویقول متحسرا . . « ما عرفتوش یا عیال . .  
مش عربیة الكلاب جت فی الضحی ولت كلاب البلد كلها . .  
مفیش غیر كلب ولا اتین الی فلتوا ناحیة الجسر ، وماحدث  
یعرف هجوا علی فین » .

فوجئنا بالخبر المحزن . لم نشأ أن نصدقه أول الأمر ،  
لكن القرية كان یسودها هدوء ثقیل علی غیر العادة ، لم یكن  
یتخلله نباح كلب واحد ، ولم تلمح عیوننا كلبا یرقد هنا ،  
أو آخر یتمشی هناك .

فكرنا أن نترك حبال البھائم من أیدینا ثم نجرى حتی نلحق  
بعربیة الكلاب ، ونبکی للعساكر کی یعیدوا الینا كلابنا ، لكن  
الوقت كان متأخرا والشمس راحت ، وحتى تراب الطریق لم  
یعد علیہ أی اثر للعجلات . .

عدنا بالبھائم الی مربطها ، كانت الطرقات كثیبة ، والتلال  
واجمة والدنیا باتت خالیة من أیة قرحة . لكن أملا صغیرا كان  
یداعب صدورنا . . ربما كانت كلابنا هی التي نجت بنفسها  
وفرت ناحیة الجسر . انطلقنا نبحت علی الجسر ، وفی حقول  
القطن ، وعلى أسطح البیوت والدواویر . لكن اللیلة انتهت دون  
أن یصادفنا كلب واحد فی القرية .

و حين طلع الصبح ، فوجئت بمنظر رقص له قلبی ، ورحت  
أهلل وأزعق وأصیح . كانت صابحة ترقد فی الندی أمام باب  
الدار ، وأذناها البنیتان مرتخیتان الی أسفل ، ورقبتها البیضاء  
ممدودة بمستوی بقیة جسمها ، وكان فی عیونها التعب والارهاق . .  
وكذلك بدير فوجيء هو الآخر یكلبه « نصر » یتمشی بجوار الدوار  
ویتشمم التراب ، فجری الیه ، وراح یحتضنه ویربت علی ظهره

يحنان . . أما الشحات ، فلم يعد اليه سبع الليل ، وراح يمنى نفسه بعودته بعد الظهر أو في المساء . . لكنه لم يعد . . وحينذاك فقد الأمل ، وراح يبكي ويقطع قلوبنا ببكائه ، أما أمه ، فقد فرحت في نفسها بضياح الكلب حتى لم تغد له رائحة ولا أثر ، وقالت له وهي تنسبه الموضوع . . « يعنى هو جاموسة بتحلب . . في ستين داهية يا سيدى » .

وفي الليل ، اجتمعنا نحن الثلاثة بجوار ضريح سيدى حسن البادى واستندنا الى جذع شجرة النبق ، وغير بعيد منا ، رقدت صابحة وكذلك نصر . . وعيونهما تلمع في الظلام .

ومضت لحظات تعودت فيها عيوننا على الظلمة ، ثم قال الشحات وهو يهز رأسه فى أسى . . « يا خسارة . . كان زمان سبع الليل معنا » .

قلت فى حزن . . « آه . . وكان زمانه مع صابحة ونصر كمان » .

فقال بدير . . « هو دلوقت عند الحكومة . . مالوش رخصة » .

قال الشحات وصوته يرتعش بالبكاء . . « يا يسموه . . يا يضربوه بالرصاص » .

ارتجفنا لكلماته ، وتصورنا سبع الليل وهو يتلوى من الألم على الأرض ، ثم تهمد حركته ، ويموت . . يا خسارة يا أولاد .

كان الشحات اكبر منا بعامين . . عمره أربع عشر سنة ويفهم فى الكلاب أكثر منا . . ولأول مرة ، عرفت أن الحكومة تسمم الكلاب التى ليس لها رخصة ، أو تضربها بالرصاص حتى



لو كانت أجمل كلاب الدنيا . وعز علينا الشحات ونحن نرى حزنه الشديد . . لكن صوته لم يلبث أن تغير ، وسمعناه يدق التراب بكفه بقوة وتحد ويقول « طيب . . والله ليكون عندي كلب أحسن منه » .

وأدركت على الفور أن الشحات سيبدأ جولة في البلاد القريبة ، يستعرض كل ما فيها من كلاب ، ويرمق أحسن ما فيها ثم يظل يحوم حوله ، حتى يصطاده ويعود به الى داره .

وعاد يقول بصوت حاسم . . « والكلب المرة دي سيكون من المنصورة » .

دق قلبي بالخوف عند سماع كلمته الأخيرة .

كانت قرينتنا أقرب القرى الى مدينة المنصورة . . فعند نهاية الطريق الزراعى الذى لا يزيد طوله عن كيلو مترين ، تقع حديقة شجرة الدر والنادى الملكى ، ويبدأ الطريق اللامع المرصوف المؤدى الى مبانى المدينة .

وفى الحقيقة ، كان كل واحد منا يتمنى من قلبه أن يكون له كلب من كلاب هذه المدينة . . ذات البيوت العالية والسكك الأسفلت والأنوار الكهربائية غير أننا كنا نخاف من مجرد الدخول البرىء الى هذه المدينة . . فقد كانت أمهاتنا فى تلك الأيام يحذرنا من ترك قرينتنا ، ويقلن لنا أن العساكر هناك يمسون بالفلاحين ويضربونهم ويقودونهم الى المركز . . ليس فقط العساكر المصريين . . بل أيضا العساكر الانجليز ! .

ولذلك ، كنا حين يصادف الأمر ونذهب الى المنصورة يوم السوق ، نسير داخل الرصيف ، ونتمنى لو ندخل فى جدران البيوت حتى نختفى عن عيون العساكر ، وحين نرى عسكريا ببدلته الصفراء من بعيد ، تهبط قلوبنا ، ونسير على أطراف

أصابنا ، ونوهم أنفسنا أن العسكرى ربما يففل عنا .. !! ..  
فكيف بالله يريد انشحات سرقة كلبه الجديد من المنصورة ؟ .

ولم أكد أفتح فمى لأذكره بهذا المنظر ، حتى بادر وقال لنا :

ـ والمرة دى حيكون كلب « أونجلش » .

يخرب عقلك يا شحات ؟ !

حقيقى أن الشحات ولد جرىء ، وأنقذ مرة جاموسة أحد  
الفلاحين جذبها التيار أيام النيل ودفعها الى بعيد ، وصاح الرجال  
وصرخت النساء ولكن الشحات خلع ملابسه ، وألقى بجسمه  
الأسمر النحيل الخفيف فى قلب النيل ولحق بالجاموسة ..  
وبطريقة سحرية ، جذبها الى الشاطئ وأنقذها .

حقيقى انه ولد جرىء .. لكن كل شىء يستطيع أن يفعله  
الا أن يتعرض لكلب « أونجلش » .. ورحت أتصور كلب أونجلش  
هنا .. آه .. لقد عرفت ما الذى أدخله فى رأسه .. انه كلب  
أسود غطيس ، ليس فيه اشارة واحدة بيضاء ، تماما مثل  
كلبه الذى ضاع .. سبع الليل ! .. عنده حق الشحات ..  
ولكن هل نسي أونجلش « بحاله » ؟

كان أونجلش هذا رجلا انجليزيا يسكن أحد البيوت فى  
أطراف المنصورة من ناحية قريتنا ، تحيطه قوة رهيبة فامضة ،  
هى قوة بلاده التى تحتل بلادنا كلها من زمن طويل ولم يكن أحد  
منا أيامها يعرف كيف يعيش .. هل هو متزوج .. هل له أولاد ..  
هل له عمل غير الاهتمام بالجنيئة التى تحوط منزله ؟ .. حتى  
اسمه .. اسمه الحقيقى .. لم يكن أحد يعرفه .. إنما هو  
رجل انجليزى ، انجليزى فقط .. يعنى « أونجلش » ولا غير ..  
وكان شعره أصفر غامقا ، ووجهه ورقبته فيهما حمرة رغم  
الشمس التى لوحتهما ، وكان يرتدى دائما بنطلونا كاكيا قصيرا ،

وجوربا طويلا كاكيا ايضا ، وفي المرات التى كنا نراه فيها ، كنا نلمحه يسير وحده على شارع البحر ، يدب بحذائه الأحمر الفليظ ، رأسه تسبق صدره ، كأنه يبحث فى غيظ عن شيء يصطدم به . . وكنا أيامها نسمع الناس يتكلمون كثيرا عن شيء اسمه « الحماية . . » . . ويقولون - فيما يقولون - ان أى مصرى يقتله أى انجليزى ليس له دية ، والقاتل لا يحاكمه قانون !

فكيف يتهور الشحات - وهو يعرف كل ذلك - ويقول لنا انه سيسرق كلب أونجلش ؟ ! .

قلت باستنكار : « باين عليك مستغنى عن روحك » .  
قال بلهجة حامية : « بكره تشوفوا . . الكلب حيكون عندى وحا اسميه كمان سبع الليل » .

وفى الصباح التالى ، والشمس لم يكن قد بان لطلوعها أية علامة فى اطراف الحقول ، جاءنى الشحات وقال لى : « اعطنى صابحة » .

وجعلت اتردد ، نظر لى نظرة غاضبة فيها شيء من العتاب وقال . . « حارجعها لك بالكثير آخر النهار » .

وفهمت قصده على الفور . . فقد كنا أيامها فى موسم عشارة الكلاب . . أعطيتها له والقلق يملأ نفسى ، تناولها من الحبل الذى علقتة فى رقبتها ، وسحبها ومضى فى الطريق الزرامى المؤدى الى المنصورة . ولم يكده يتعد عنى قليلا ، حتى رحت أجرى خلفه لألحق به ، وقلت له :

- « أنا جاي معاك يا شحات » .

وأضاء وجهه بالسرور ، مضينا فى الطريق صامتين . . كنا



نحس أننا على أبواب إخطر تجربة مرت بحياتنا ، وكانت رهبة شديدة تملأ نفوسنا ، ولا نقوى معها على أى كلام .

ولم نكد نصل الى طريق الأسفلت حتى ضاقت خطانا ورحنا نسير بحذر وعيوننا متوزعة على كل الطريق .. وحين بدأنا تقترب من بيت أونجلش ، اخترنا شجرة كبيرة ، جذعها ضخمة ، وفي أعلاها زهور حمراء كثيرة ولها ظل كثيف على الأرض ، وجلسنا خلفها .. وبقيت صابحة واقفة بجوارنا تنظر إلينا في صمت وتساؤل .

رحنا نرقب الطريق من مخبئنا ، لم يكن هناك عساكر لحسن الحظ . ومرت الوقت بطيئا .. قاتلا في بطئه .. وأخيرا ، جاء الفرج ، وارتعشت قلوبنا ، وتتابعت أنفاسنا ، وتبادلنا نظرة تشجيع .

في تلك اللحظة ، لمحنا « أونجلش » يخرج من بيته ببنتلونه الكاكي القصير ، ورأسه الحمراء الممدودة الى الأمام ، ويتجه بدبيب خطواته الثقيلة الى داخل المنصورة . وتنفسنا الصعداء ، كنا نحس ونحن نتنفس أن الدنيا لم يعد فيها هواء ، وحين أبتعد أونجلش ، وغاب عن عيوننا ، قال لى الشحات :

— « خليك هنا .. خللى بالك من السمكة .. » .

وبقيت جالسا في مكاني ، وسار هو وصابحة على مهل بحذاء السور ، وحين حاذى بوابة البيت ، توقف .. وتوقفت أيضا صابحة .

كان كلب أونجلش الأسود لحظتها يقف خلف الباب ، ويمد « بوزه » من خلال القضبان الحديدية ، وحين لمحت عيناه صابحة ، اهتزت شواربه اهتزازة سريعة ، واختلج جسده ،

واهتز ذيله في سرعة اهتزاز شواربه ، ثم راح يشب على الباب ،  
وقد سرت في أطرافه حيوية دافقة .

وأحسنا لحظتها بسعادة خفية ، ونحن نرى أن أولى مراحل  
خطتنا قد نجحت . . فقد كان من المهم جدا ، ألا ينبح الكلب  
ولا يفضب لوجود أحد أمام الباب . . وبقي الشحات واقفا  
لا يتحرك . وازدادت حركة كلب أونجلش وصدرت عن أنفه  
أصوات خافتة متلاحقة ، ثم هبط برجليه الأماميتين من على  
قضبان الباب ، وراح يدور حول نفسه ، ثم قفز فجأة قفزة عالية  
من فوق السور . وفي غمضة عين ، كان على أرض الشارع ،  
بعجوار صابحة التي أصابها فرح مفاجيء ، فراحت تتواثب في  
نشوة وذيلها يهتز .

غمرنا طوفان من الفرح ، لكننا كنا لانزال نرتعش من  
القلق ومن الخوف . . أن يعود أونجلش فجأة ، ويكون دمننا  
حلالا ، أو يضبطنا عسكري ، ويظل يضربنا بحدائه ، ثم يرمى بنا  
في أسطبل الخيل داخل المركز .

وبدأنا نتحرك . . عائدين من نفس الطريق الذي جئنا منه ،  
وسارت معنا صابحة ، ومن خلفها كلب أونجلش . . وفي دقائق  
بدت لنا سنين طويلة ، كنا قد قطعنا الطريق الأسفلت ، وأصبحنا  
على الطريق الزراعي . . وسط الحقول .

كانت صابحة بيضاء ، وأذناها بنيتين جميلتين ، وكان  
شعرها ناعما ونظيفا ، وفمها مدبب وطويل ولطيف . . ولذلك ،  
فقد ظل كلب أونجلش يتبعها ويتشمم أثرها . . ولكننا لم نكد  
نقطع مسافة من الطريق ، حتى توقف الكلب فجأة ، وتصلبت  
أذناه ، واستدار برأسه ناحية مباني المدينة ، وراح يعوى عواءا  
رفيعا خافتا أشبه بالأنين ، ثم تركنا ومضى بجري عائدا الى

المنصورة .. واحست به صابحة فراحت تعوى هي الأخرى  
وتزوم .. وتقفز الى أعلى وتشب بأطرافها حتى تتخلص من الحبل  
الذى نمسكها منه ، لتلحق بالكلب ولكنها لم تستطع ، فراحت  
تنبح نباحا عاليا وكأنها تنادى عليه . ولم يكد نباحها يصل الى  
سمعه ، حتى توقف عن الجرى فجأة ، واستدار ناحيتها مرة  
أخرى ، وراح يبادلها النباح .

ونظر الى الشحات فى قلق وقال .. « تعرف أحسن حاجة  
ايه ، نمشئ احنا ، ونسيب صابحة ، هي اللي حتجيبه البلد  
وراهنا » .

وأطلقنا صابحة من حبلها .. ولم تكد تجرى ناحية كلب  
أونجلش ، حتى أعطى ذيله للمنصورة ، وانطلق هو الآخر ناحيتها  
والتقيا فى منتصف الطريق ، وراحا يتواثبان ويتشاكسان ودون  
أن يحس كلب أونجلش وجد نفسه خلفها فى شوارع قريننا .

وفى الحال رتبنا امرنا ألا يخرج الكلب من البلد ، ويصبح  
للشحات الى الأبد .

ولم يلبث أن شاع الخبر .. العيال سرقوا كلب أونجلش ..  
كلب « أونجلش » بحاله .. ؟ ! .. مش معقول .. دول  
ولا الشياطين !!

وهرع اطفال القرية وصبيتها جميعا يتفرجون على كلب  
أونجلش ، وكانوا لا يريدون أن يفارقوه .. وباتت القرية كلها  
تتحدث عن هذا الخبر الأبيض والأسود فى آن واحد .. وأعجب  
بعض الرجال بشيطانيتنا ، والبعض الآخر تذكر « الحماية » .  
ومسدس أونجلش ، فقالوا أن مصيبة كبرى ستحل قريبا بالبلد .

ومال على الشحات وقال .. « خلى صابحة معاه يومين فى



البيت « عشان يولف علينا .. أنا خلاص حاسميه » سبع  
الليل .. »

وافقتة ، وكنت أتمنى في نفسى لو يكون لى مثل هذا الكلب  
الكبير ، ولا أطلب من الدنيا شيئا بعد ذلك .

لم تكن ندرك أيامها أن سرقة كلب هذا الأونجلش لن تنتهى  
هكذا ببساطة .. فقد سرى الخبر من قريتنا الى القرى المجاورة ،  
ثم الى المنصورة ، وأخيرا الى المركز ذاته .. ولم يكد يمر يومان ،  
حتى رأى الناس عددا من العساكر فى طريقهم ناحية بلدتنا ،  
وطار الخبر فى الحال ، وفى الحال أيضا ، شم الشجحات رائحة  
الشر وراح يفكر معى بسرعة .. « نعمل ايه .. ؟ ! نقتله أحسن  
ما ياخدوه ؟ ! لا .. حرام .. تقتل أونجلش نفسه ولا نقتلش  
سبع الليل .. نعمل ايه .. والعساكر ، والبهدلة فى اصطبلات  
الخيال .. ؟ ! »

وفى دقائق ، كنا قد أصبحنا عقلاء لأول مرة فى حياتنا ..  
وأطلقنا صابحة الى الشارع ، ومن خلفها سبع الليل .. وراحا  
يجريان فى شوارع القرية وحواريها .. وحين هجم العساكر على  
بيت الشجحات وعلى بيتى ، لم يجدوا شيئا بالمرة .

كنا قد فررنا بجلدنا ، واختفينا فى حقول القطن دون أن  
يحس بنا انسان .. كانت الشمس لحظتها حامية ، ونسمة وأخدة  
لا تهب على الحقول من فوق الجسر ، وظلال اشجار القطن صغيرة  
وخفيفة ، والعرق يسيل بغزارة على وجهينا ، ولكننا كنا نحس  
بسعادة كبيرة تغمرنا ونحن فى هذا المكان الصامت الأمين .

ونظرت الى الشجحات وقلت له فى همس « أنا عارف ..  
مش حيلاقوه » .

فقال لى وهو يبتسم ابتسامة تملأ كل وجهه النحيل

الأسمر .. « وحتى لو لقيوه .. سبع الليل حيرج تانى ، سبع  
الليل حب صابحة .. صابحة حت سبع الليل » .

فلت له .. « طيب .. وأونجلش . ! ؟ »

قال وهو يقطف لوزة من لوزات القطن المتفتحة ، ثم يبتسم  
في مكر :

ـ أونجلش .. ! ؟ .. ما خلاص راحت عليه .

(( ١٩٥٨ ))

## داود الصغير

كانت رابطتى بهذا الطفل ، رابطة محدودة .  
وانى لاذكر الآن ، اول يوم رأيته فيه .

كنا بعد العصر ، وضوء الغروب الهادىء الملون ، يغمر  
شقتنا الصغيرة فى الدور الرابع من أحد شوارع الجيزة . وكنت  
أتأهب للخروج ، لكى أقابل صديقا أردنيا تعرفت عليه منذ أيام .

كنت أسرع فى ارتداء ملابسى ، لا لكى الحق موعدى مع هذا  
الصديق الجديد فحسب ، وانما لأهرب من تلك الضجة التى  
يصنعها طفلاى وهما يمثلان « شارلى شابلن » وهو يبارز الناس  
الذين يقتلون الأطفال الصغار . يبارزهم بعصاه العجيبة .

طاخ طاخ .. ايه الراجل الوحش مات .. ايه .. طاخ  
طاخ .. مات .. مات ..

فى خلال هذه الضجة التى تتكرر عشرات المرات كل يوم ،  
كنت ابتسم من أعماقى لزوجتى ، وأقبض فى نفس الوقت على  
أعصابى ، وأفكر بالانطلاق هربا الى الخارج لأتعم بقليل  
من الراحة والهدوء .



كانت شقتنا تتكون من ثلاث حجرات ، وممر رفيع ضيق .  
وقد أصبحت هذه الشقة ، بعد أن كبر طفلاى وراحا يمارسان  
فرحتهما بالحياة .. بالزعيق والصياح والجري من حجرة الى  
حجرة ، أصبحت أشبه بمصيدة صغيرة مغلقة يتمنى المرء  
لو يهرب منها بمجرد أن يدخلها .

وكنت انظر الى زوجتى وهى تتعثر فى الطفلين حيثما تذهب،  
فلا أحس منها تبرما ولا ضيقا .. ورغم أنها كانت مريضة تعاني  
من ضعف فى قلبها ، فقد كان وجهها الأسمر الصغير الشاحب .  
دائم الابتسام .. وكأن الأمومة الكائنة فى أعماقها ، قادرة على  
ان تعطىها الاحتمال لتعيش وحدها بين ألف طفل صغير ، فى حجرة  
صغيرة مغلقة .

وحين فتحت الباب لاخرج ، وقعت عيناي على طفل صغير  
كان يهم بأن يطرق الباب بيده ، ولما رآنى ، صعدت عيناه الى ،  
واستقرتا قليلا على وجهى .. !!

كانت عيناه واسعتين .. حتى لتشغلان نصف وجهه ،  
وكان فيهما شعور بالاطمئنان كأنه يعرفنى جيدا ، وأعرفه منذ  
زمن طويل .. كان رأسه كبيرا نوعا ما ، وشعره أسود فاحما  
وقصيرا . وكانت بشرة وجهه يشوبها مسحة خفيفة صفراء وكان  
يلبس جلابية غامقة نظيفة ، وفى قدميه الصغيرتين .. « قبقاب »  
صغير .

وقبل أن أسأله من يكون ، سألتنى فى ألفة واطمئنان :

— ممدوح وحمدى .. هنا ؟

وفهمت على الفور أنه أحد اصدقاء طفلى الصغيرين .  
وما أن سمع الطفلان صوته ، حتى اندفعا كالاعصار

الصغير نحو الباب ، وراحا يزعلان ويهللان .. ايه .. « داود »  
جه .. « داود » جه .. جه .

كان ذلك اول يوم رأيته فيه .. ولم يكن يمر يوم بعد ذلك  
دون أن أراه ..

لم أكن أعيره كثيرا من انتباهي .. كان يلعب مع الطفلين في  
بيتى ، ويشارك معهما في ملء فراغ الطفولة الذى لا نهاية له .  
وكنت فى هذه الأيام ، أعيش مع الناس الذين يتكلمون عن  
مصر الحياة والأشياء .

كانت الأحداث الكبيرة ، تشغل العالم وتهز النفوس فنسى  
فى غمارها تفاصيل حياتنا الصغيرة .

تأميم القنال .. وانتخابات الأردن .. خطف « بن بللا » ..  
واشاعة مقتل الملك حسين .. دوامة ضخمة كنت أتوه فيها ،  
وأغفل عن أشياء كثيرة ، منها هذا الطفل الصغير .

مرت الأيام ، وتعودت أن أرى فى بيتى ثلاثة أطفال .. طفلى  
ممدوح وحمدى .. وداود الصغير .  
كنت أجفل بادىء الأمر من وجوده مع طفلى .

كان طفلاى يلبسان « بنطلونات » .. وهو يلبس « جلابية » ..  
وكانا يلبسان صنادل .. أما هو فيلبس « قبقاب » .. وكانت  
خصلات شعرهما ترتدى على جبينيهما ، أما شعره فقصير  
جدا .

كان هذا الشعور يساورنى فى بعض الأحيان ، لا سيما حين  
يزورنا أخو زرجتى المهندس ويقول لى مستبكرا : « لا .. لا ..  
أنتم لازم تنقلوا من هنا .. لازم تسكنوا فى حي تترى فيه الأولاد  
تربية كويسة » .

على أن هذا الشعور كان لا يلبث أن يختفى حين أرى الأطفال الثلاثة في دوامة مرحهم ولعبهم ، يكادون أن يتحولوا الى طفل واحد .

ثم انقضى هذا الشعور من نفسى شيئا فشيئا .

كنت لاحظ ان جباب « داود » نظيف دائما .. لا يتسخ رغم كثرة اللعب وأنه لا يخلع القبقاب من قدميه أبدا .. وكان رغم أنه أفقر من طفلى ، أنظف منهما دائما .

وكثيرا ما كان يلمع فى ذهنى سؤال خاطف : هذا الطفل .. من يكون .. ؟

غير ان الانجليز أيامها كانوا يحشدون البوارج والمدرمات وحاملات الطائرات ، ويزرعون أرض قبرص بفرق الموت ليطلقوها علينا ، ويقولون لنا أنهم لا يهوشونا بذلك .

وكنا نحن جميعا - لأول مرة - نقذف بأنفسنا ضد التيار ، ونقبل التحدى ، ونعانى تجربة المفاضلة بين الحياة والموت .

لذلك كان الناس ينسون تفاصيل حياتهم ، وكان سؤالى عن الصغير لا يلبث أن يتلاشى مع أشياء كثيرة من رأسى وظللت أجهل من يكون .

كنت قد حفظت اسمه « داود » من كثرة نداء أطفالى عليه ، ولكن .. من هو .. ابن من .. من أمه ومن أبوه .. ليس له بيت ؟ ! لم أكن أدري عن كل ذلك شيئا ، وكنت أجد نفسى خلال اندفاعى وراء عجلة أحداث الحياة .. أوجل هذا السؤال .

لم أكن أعرف عنه ، الا أنه يأتى الى شقتنا فى الصباح ، ويتركها مع المساء ويقضى اليوم كله يلعب أطفالى ، وأطفالى يلاعبونه .



كان وجود هذا الطفل في البيت مصدر سعادة كبرى  
للأطفال ، ولذلك فقد كنت مستريحا لوجوده بيننا .

ولكن مع مرور الأيام ، وجدته وقد أصبح عبئا جديدا على .  
لم أعد اشترى للطفلين ، إلا اذا اشتريت له مثلها تماما .  
واذا حدث ونسيت ، سألني ممدوح مستغربا . . « طيب . .  
وداود يا بابا » ويقول حمدي مسرعا . . « أنا خاطيعه من معايا  
يا بابا » .

وانظر الى داود حينئذ فتطالعني من عينيه الواسعتين نظرة  
حزينة مكبوتة لا احتملها .

هكذا أصبحت ، دون أن أحس ، أبا لثلاثة أولاد . . وبالرغم  
من هذا ، فقد ظل « داود » شيئا صغيرا ، في هامش حياتي  
التي تملؤها ضجة الحياة الكبرى .

وفي إحدى الليالي . . عدت متأخرا الى مسكني . كان الليل  
قد انتصف ، وأحسست بالصمت الكثيف يفر البيت . . فتحت  
باب الشقة . . ودخلت في هدوء .

كنت أحسب - كالعادة - أنني سأجد زوجتي مستفرقة  
في النوم مع طفلها ، وفي يدها كتاب مفتوح ظلت تقرأ فيه حتى  
أخذها النوم ، غير أنني وجدتها راقدة على السرير ، شاحبة  
مصفرة الوجه ، لا تكاد تقوى على شد أنفاسها ، وبجوارها ينام  
طفلاها الصغيران . . ورأيت في ذات الوقت داود الصغير جالسا  
القرفصاء على السجادة بجوار السرير ، وينظر اليها بعيونه  
الواسعة الصامتة .

أخذني هذا المشهد العجيب ، هرعت في لهفة الى زوجتي .  
كان بريق عينيها خافتا ، لكنها كانت تجاهد لكي تبسم لي  
ابتسامتها الحبيبة . . وتطمئنني .

ملت عليها أقبالها ، وكأنى أعطيتها الحياة كلها فى هذه  
القبلة ، وسألتها فى حنو .. مالك يا سميحة ؟ .

قالت بصوت واهن وهى تبتسم .. « مفيش .. أصل  
قلبي تعب .. جتلى النوبة ووقعت فى الصالة .. لكن الحمد الله  
خفيت خلاص » .

تتابعت دقات قلبى ، وغامت نفسى بسحابة من الحزن ..  
ان سميحة باتت شيئاً من نفسى .. لقد أحببتها منذ أكثر من  
سبع سنوات .. ولم يهن هذا الحب يوماً .. اننى لم أفكر  
يوماً - حتى مجرد التفكير - فى اليوم الذى أعيش فيه أنا وأولادى  
بدونها .

وتأملتها طويلاً .. فرايتها تميل بعينيها وتنظر الى داود  
القابع على السجادة أسفل سريرها ، ثم تتسع ابتسامتها ، وتنظر  
لى مرة أخرى .

سألتها فى حيرة : ليه داود ماروحش لغاية دلوقت .. ؟  
قالت وهى تمر بأصابعها على شعر رأسه القصير الأسود فى  
حب وحنان : لما تعبت .. كان ممدوح وحمدى ناموا .. وكان  
لسه داود ماروحش .. لما شافنى تعبانة قوى ، مارضيش ينزل  
وأنا بالشكل ده .. بعته الأجزاء بالروشته والفلوس وجاب  
لى الدوا .. الدوا هو اللى فوقنى .. وبعدين قتلته ينزل ..  
مارضيش لغاية انت ما تيجى .

ووجدتنى أنظر للطفل طويلاً ، وحلقى يفض بالدموع .. كان  
ينظر الى زوجتى وفى عينيه دعاء طفولى هادىء بأن يشفيها  
الرب .. انحنيت عليه وأخذته بين أحضانى ورحت أقبله فى  
تأثر .

كنت أحس لحظتها أنه أعز الى قلبى من طفلى ممدوح

وحمدى .. وأنه شيء كبير جدا فى حياتى .. اكبر من كل تلك الأحداث التى تفرقنى الحياة فى دوامتها .

واحسست به يخرج من بين ذراعى فى رفق ، ثم تطلع الى بعينه الواسعتين ووجهه الشاحب النظيف الساكن وقال :  
- أنا مروح بقى .

واهتز كيانى كله لسماع صوته فى تلك اللحظة .. لقد احسست بشيء ضخيم مرهوب يعيش فى أعماق هذا الكائن الصغير .. وقلت له وحروف كلمتى تنقطع :

- استنى لما آجى معاك .. احسن الدنيا ضلمة عليك .  
فقال وهو يبتسم ويشير الى زوجتى بأصبعه الصغير .

- لا .. خليك مع ابلة .. احسن هى لسه تعبانة .. أنا ماخافش من الضلمة .. أنا عمرى ما خفت من الضلمة .

وجالت عيناه جولة صغيرة بالسريـر .. حيث ترقد زوجتى  
وحيث يستغرق صديقاه حمدى وممدوح فى سبات عميق ، ثم توجه الى الباب ، وفتحه فى هدوء ، وخرج .

وسادنا الصمت لحظات .. كانت تسرى خلالها الى مسامعنا صوت طرقات « القبقاب » الصغير ، وهو يهبط على السلالم .

وتنهدت زوجتى وقالت فى صوت واهن حزين ..  
« مسكين .. مفيش حد بيدور عليه .. أمه تفتكر أنه عند أبوه ، وأبوه يفتكر أنه عند أمه .. وضايـع بين الاثنين .. أصل أبوه متجاوز على أمه » .

وانحدر على خديها الشاحبين ، خيط رفيع من الدموع .  
قلت لها .. « مالك يا سميحة .. ؟ »



قالت وهي تبكى .. « شايء صغير أد ايه .. لكن قلبه  
كبير .. كبير أوى .. يا ريته كان ابنى .. »

قلت لها فى تأثر .. « ما هو زى ابننا تمام .. »

وسكت لحظة ، ثم قلت فى انفعال مؤلم .. « سميحة ..  
أنا نازل خمس دقائق .. حالقه وأوصله .. »

واسرعت نحو باب الشقة ، وفتحته ، وهبطت السلالم  
بسرعة فى الظلام حتى وصلت أسفل البيت .

كان الشارع يختنق بالظلمة ، وبالصمت الكثيف .

وقفت أرهف سمعى ، على التقط صوت « القيقاب »  
لأعرف اتجاه الطفل .. لكنى لم أكن أسمع شيئاً ، سوى الصمت  
المتراكم الثقيل .. لقد غاب الطفل الصغير فى الليل الكبير .

ظلت واقفا وحدى فى الظلام .. كان الليل جهما وكثيبا ..  
واحسست بحزن من النوع الذى يحب الانسان أن يستسلم له ..  
كنت أحس بأننى عثرت صدفة فى الظلام على شىء ثمين رائع ،  
لكنى فقدته فى نفس اللحظة فى غمار الليل الحالك .

واستدرت لى أطلع السلالم ، وأطمئن على زوجتى المريضة ،  
ولكن سميحة حين رأتنى ولمحت كآبتى ، ابتسمت وقالت :  
معلش .. بكره من بدرى حتلاقيه معانا .. داود .. أصبح  
خلاص .. ابننا الثالث .

قلت مغمغما .. تمام .. تمام يا سميحة .

(( ١٩٥٧ ))

## ابتسامة الرجل الكئيب

اضطرتنى ظروف الحياة ذات مرة أن أشتغل صرافا في  
محل خردوات صغير !

واحد من تلك المحلات القديمة المرصوة على رصيف  
شارع السد ، والتي أفلتت من التنظيم بمعجزة ، فبقيت  
قائمة على الرصيف بلونها الرمادى العجوز شاهدا على احدى  
معالم مصر القديمة .. !

ومن أول لحظة جلست فيها وراء « الكيس » فوق المقعد  
العالى ذى الأرجل الخشبية الثلاث ، وجدتني أطل على عالم  
غريب جدا .. فالمحل كان ضيقا ومستطيلا ، ومع هذا ، كان  
مزدحما بأشكال وألوان من الناس ، والسقف كان واطئا به  
منحنيات ، والحوائط كلها من الأرض الى السقف مملوءة  
بالأرفف ، والأرفف مملوءة بالعيون ، والعيون مملوءة بالبضاعة .  
وقد تراءى لى الحائط الذى أجلس تحته مائلا قليلا .. وتصورت  
فيما لو حدثت أبسط هزة ، وسقطت الأرفف بالبضاعة على  
رأسى ورعوس الزبائن .. !!

داخلنى احساس بالسخرية !

لهذا هو آخر المطاف .. !!

غير أنى عزيت نفسى كعادتى كلما اضطرتنى الظروف الى  
شئ لا أحبه ، قائلا لنفسى : تجربة !

طيلة حياتى وأنا هكذا ، أهون وقع الأشياء والأحداث على  
نفسى باسم التجربة .

رحت أمارس عملى فى صمت وهدوء . يأتينى الزبون  
فأخذ منه القسيمة والنقود . ثم أراجع الحساب بدقة . ثم  
أعطيه البضاعة .. وبين الزبون والزبون ، أضع قلمى بين  
أسناني ، وأأمل الجو من حولى فى وجوم . !

وذات يوم ، جذبنى منظر غريب وطريف :

امراة سمراء ضخمة وسمينة ، تنتقى لنفسها « سوتيانا »  
وتقيسه على صدرها الضخم .. كان صدرها ضخما الى حد  
أنها راحت قلب فى كومة من « السوتيانات » وتقيسها  
الواحد بعد الآخر .. وحين عثرت - بعد أكثر من نصف  
ساعة - على « سوتيان » مناسب ، أطلقت صيحة فرح عالية ،  
لكنها عادت فى نفس اللحظة وقالت وهى تمصمص بشفتيها  
الفليظتين فى تحسر وأسف : « بس يا خسارة .. مش ده  
اللون اللى أنا عايزاه .. أنا كنت عايزاه بمبى .. »

غير أنى أفقت من سرحتى كالمفزع على صوت يصيح فى  
وجهى محتجا ويقول « ما تعطينا البضاعة بقى يا سنيدينا  
وتخلصنا ، والا يعنى عايز تطلعنا جنبك .. » !

ارتبست .

كان ولدا صغيرا .. واقفا أمام الكيس ، يشب على أطراف  
قدميه ، ولا يبدو منه سوى عينيْن واسعتين براقتيْن .. وحول



العينين وجه صغير أسمر معفر .. وفوق الوجه رأس كبير  
مليد بالشعر .. وفي نظرائه صفاقة وتحدى .

قلت وقد غاظتني المفاجأة ، وغازتني أكثر طريقته في  
الكلام وفي النظرات « طب بس هات الفلوس وبلاش غلبة .. ! »  
ارتفع حاجباه ، وقال في جزع :

— فلوس .. ؟ ! فلوس إيه يا أفندي .. ما هي القسيمة  
قدامك .. والفلوس اديتها لك .

— اديتها لي .. ؟ !

— طبعا .. لما حضرتك كنت ..

وتحول فجأة بنظرائه الى المرأة السمينة ، وغمز لي بعينه  
اليسرى غمزة مأكرة ، ثم عاد يقول :

— بس لازم حضرتك ناسي .. افكر كده .. !!

ما هذا .. ؟ أيمكن ان اكون قد فقدت ذاكرتى الى هذا  
الحد ؟ !

سددت له نظراتي أملا في أن أهزه وأعرف الحقيقة من  
عينيه ، لكنني فوجئت به هو الآخر يسدد لي نظرائه .. !!

شيء غريب أحسسته على الفور في عينيّ .. شيء قوى  
وعميق ونفاذ ولولا مشكلة الفلوس هذه ، لرحلت أنظر فيهما  
دون أدنى ضيق أو ملل .. كانتا واسعتين وبراقتين . وخضرتهما  
غامقة وداكنة .. ورموشهما ثقيلة وطويلة ، حتى تكاد تلقى  
ظلا على خديه .. ! كانتا جميلتين .. جميلتين لدرجة أني  
تذكرت لحظتها فتاة كنت أعرفها معرفة حميمة .. كانت تحب  
العيون الجميلة ، وتحادثني دائما عنها ، حتى ولو كانت عيون

قُطْعَةٌ .. ! غير أن هذا الخاطر سرعان ما انقطع ، فقد كان يطل  
من عينيه بريق التحدى .. !

شككت في الأمر .. !!

أيمكن أن أكون قد اخذت منه النقود وأنا مشغول بمنظر  
هذه المرأة السميننة ونسيت .. ؟ ! ربما .. وأنا دائئى الوحيد  
في هذه الدنيا ، والذي كثيرا ما اكره نفسى من أجله هو  
النسيان !! .. فتحت الدرج بسرعة ورحت أقلب فيه واهرش  
في رأسى .. !! .. ولكن يا ناس .. كيف أتأكد ، وفلوس الشغل  
كلها من الصباح في درج واحد .

جئت أنظر اليه مرة أخرى كالفريق .. وجدته مائلا برأسه  
الى الوراء وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة وقال :

.. انت صدقت بصحيح انى اديتلك الفلوس .. ؟ ها ..  
الفضل الفلوس أهى .. بس المرة الجاية لازم تاخذ بالك منى .. !

استسخنت طريقته في المزاح .. !

ماذا لو كان صاحب المحل موجودا في تلك اللحظة ، ورأى  
طفلا صغيرا يعبث بصراف خزينته .. ؟ ! انتابتنى رغبة في أن  
أصفعه ، غير أنى فوجئت « بمحروس » وهو أكبر عمال المحل  
الثلاثة سنا ، يقول لى بلهجة باسمية ، لكنها جادة وساخرة

.. ما هو لازم تاخذ بالك يا ريس .. أمال .. ده شغل  
سوق .. يعنى تسرح لحظة تضيع وتضيع المحل معاك .. !!

أحسست فجأة اننى في منطقة خطر .. منطقة لا تحتمل  
سرحانا ولا تأمل ولا « تجارب » ولا يحزنون .. ! .. تكفى  
سرحة مثل هذه وسرحة أخرى وسرحتان ، ثم أكون بأمر الله وأمر  
صاحب المحل أتسكع في الشوارع من جديد .. !

وفي غيظ شديد ، ألقيت له بالبضاعة وصححت فيه ؛

.. ياللا يا واد خد بضاعتك وغور من قدامى .

لكنه ما أن تناولها ، وابتعد عن البنك خطوتين ، حتى استدار فجأة نحوى ، وصاح هو يميل برأسه الملبدة بالشعر الى الوراء .. « ها .. شايف انت كبير أد ايه .. لكن برضه ضحكت عليك .. !! »

يا الهى .. ما الذى ينويه معى هذا الولد .. ؟ !

وفجأة .. رأيتـه يقفز بجسمه الصغير الى أعلى ، ودار حول نفسه فى فضاء المحل دورتين ، ثم هاد واستقر على الأرض ، ووسع ما بين قدميه الحافيتين ، ثم مال بظهره الى الخلف ودق على صدره المكشوف الهزيل بكفه دقتين وقال فى زهو :  
حلاوتك يا واد يا امبابى يالى مفيش منك فى البلد عشرة ..  
ها ها ها هاى .

وخطف منى نظرة ساخرة ، ثم انطلق ببضاعته الى الشارع الواسع يقفز ويحجل فى ضوء الشمس .. !

لم اكد امضى فى التفكير كالمأخوذ فيما حدث ، حتى تنبهت فجأة الى أن ارض الدكان ترتج ، ورأيت المرأة السمينـة « اياها » تتجه بخطواتها الثقيلة الى الباب دون أن تشتري شيئا .. !

امسكت أنفاسى ، وأشفقت أن تهتز الأرفف تحت وقع أقدامها وتسقط بالبضاعة على رأسى وعلى الأرض .

.. يا سائر ستر .

وما أن خرجت من باب المحل فى سلام ، حتى تنفست الصعداء ، ونظرت الى « محروس » .. كان هو الآخر ينظر لى



ويبتسم . . ثم قال لى وهو يجلب كالعادة نفسا عميقا من صدره المتعب . . « وليس ياما حتشوف كمان » .

طننت كلماته فى اذنى ، لكنى احسست لها بارتياح شديد فطالما تمنيت - قبل ان آتى الى هذا المحل - وانا اتسكع فى الشوارع والبيادين ابحت عن عمل ، لو ان عملى الوحيد فى هذه الدنيا ان اهتم فى ارجائها وأرى أكبر عدد من الأشياء قبل ان أموت . . كنت كثيرا ما أهمس لنفسي وأنا هائم على وجهى كالتائه : هناك أشياء وأماكن وأناس لابد ان يراهم المرء فى هذا العالم قبل ان يموت . . غير انى دائما كنت أفيق على الحقيقة المرة ، حين أعود آخر الليل الى زوجتى . . صفر اليدين . . كئيبا . . وتقول لى بعينها الصابرتين الحزينتين « والى متى سنظل هكذا . . الى متى . . ! »

وكان هذا الركن الصغير فى هذا المحل القائم الكئيب . . !  
أيمكن ان أجد فيه لنفسي نوعا من العزاء . . فأرى أشياء لم أرها - كما يقول محروس - وأسأل نفس الجزيرة . . ؟ !  
ودون أن أدري ، وجدتنى أسأل محروس :  
- لكن الواد ده بيشتغل ايه يا محروس . . ؟ !  
وقال وقد تنبه لسؤالى :

- قصدك أمبابى . . ؟ ! . . آه . . ده صبي ترزى . . كل دقيقة والثانية حتلاقيه زى الجن بينط قدامك . . بس خللى بالك منه كويس !

لا أدري لماذا عاودتنى فى تلك اللحظة آخر كلمة قالها لى أمبابى « وراحت ترن فى رأسى . « شايف انت كبير أد ايه . لكن برضه ضحكت عليك » . !

ما الذى كان يعنيه هذا الأفاق الصغير بهذه الكلمات . . ؟ ! .

ورغم اننى كنت أعلم انها خرجت من فم ولد صغير ، لا يزيد  
عمره على الثانية عشرة ، الا اننى أحسست بها تزعزعنى  
وتشككنى فى نفسى !

صحيح ، لماذا اختارنى انا بالذات - من بين الزبائن وعمال  
المحل - ليلعب لعبته العابشة السخيفة هذه ، ويضحك  
على .. ؟ ! لماذا يستهين بعض الناس أحيانا بأمرى ؟ كثيرا  
ما أسأل نفسى هذا السؤال المرير القاسى ، فتقول لى نفسى :  
« لأنك طيب » وحينذاك انتوى ان أكون فظا .. بل وشريرا ،  
لكى يقف كل واحد معى عند حده .. !

قرضت أسناني ، وانتويت او عاد هذا الولد ان استرد  
منه حقى كاملا ، وأجعله يكف عن « حنجلته » السخيفة هذه  
ويشعر بالندم !

لم تمر نصف ساعة ، حتى لمحته واقفا على باب المحل ،  
يرمقنى بنظرة طويلة وابتسم .

ضايقتنى ابتسامته . ! نعم .. ما هى مناسبة الابتسام  
فى تلك اللحظة والدنيا حر .. والشمس تضرب فى رأسه ،  
والأسفلت يلسع قدميه والعرق يسيل خطوطا سوداء قدرة  
على وجهه .. ؟ ! .. لسوف أنزع هذه الابتسامة المتبجحة من  
على شفتيه ، وأوقفه عند حده .

ورآه محروس ، فالتفت لى وقال .. « أهو جـه ابن الجنية .  
تانى . مش قتللك ! »

ناديت عليه .. فأقبل نحوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ،  
وينظر لى بركن عينيه ، كأنما يوهمنى انه خائف منى ، أو كأنما  
يوهم نفسه انه يلاعبنى لعبة القط والفار .. ! وقبل ان أنطق  
بحرف ، بادرنى ساخرا :

— شفت بقه الفصل الى عملته فيك .. ؟ !

وفوجئت بعمال المحل الثلاثة يضحكون ، فارتبكت .. !  
ويبدو انهم في تلك اللحظة كانوا في حاجة لأن يضحكوا ويزيحوا  
عن قلوبهم الهموم ، ففردوا أنفسهم ، وأشعل كل واحد منهم  
سيجارة ، وللصدفة .. لم يكن هناك لحظتها زبائن فطلبوا  
« واحد شاى » واقتربوا منا في شبه حلقة ، وراحوا يترقبون  
حوارا ينشب بينى وبينه .. !

كنت انا الآخر في أشد الحاجة الى تسلية ، غير انى رأيت  
الولد يقف منى أمامهم موقف الند للند ، ويبدأنى بالتحدى .. !  
قلت له فى غيظ .. « طب وانت عارف اللى يسرق بيودوه  
على فين .. ؟ ! .. عالسجن على طول » .

فلو سل على الفور ضحكة ساخرة وقال : « ها .. انت  
فاكرنى عبيط ؟ .. دول بيودوهم الأحداث يا جميل .. مش  
السجن .. دنا إمبابى والأجر على الله .. »

اذهلنى جوابه .. ورغم اننى تضايقت لأنى خسرت بداية  
الجولة معه ، الا اننى أحسست بقلبى يتفتح له ، ووجدتنى ابتسم  
له رغما عنى ، وما أن رآنى ابتسم له ، حتى استخفه الفرح ،  
ودق على صدره وكرر نفس كلمته .. « دنا إمبابى والأجر  
على الله .. »

لا أدري لماذا كان وقع اسمه غريبا على سمعى هذه المرة ..  
ليس هذا الاسم « إمبابى » كبيرا على سنه .. ؟ ! وتذكرت فى  
الحال شيخا مجذوبا .. له لحية طويلة بيضاء .. ويلبس  
العجة والقفطان .. ويجلس دائما على مقهى صغير قريب منا  
فى حارة الميضية ، يشرب القرفة والجثزيل ، ومن حوله أتباعه ،  
واسمه الشيخ إمبابى . ! قلت فى فضول وسخرية :



— طب وأمك سميتك ليه امبابي .. تقدر تقوللى .. ؟ !

قال وهو يتحنجل ويهز شعره الملبد ، فبدأ فى عينى كديك صغير ينفض عرفه فى زهو : « أقول لك يا سيدى .. عشان ولدتنى فى امبابة .. يوم مولد سيدى الامبابى .. آل وكانت عايزه تعملنى شيخ وتندهلى يا شيخ امبابى .. ها ها هاى » .

ثم التفت الى محروس فجأة وقال : « ياللا يا عم ادينى شريط نمره خمسة .. وتلات سوست .. أحسن اتأخرت على الأوسطى بتاعى ، أعوذ بالله عليه راجل ! »

ويبدو انه مثل صحيح .. ذلك الذى يقول « ما محبة الا بعد عداوة » فقد وجدتنى أحب امبابى . وأحب حديثه ومرحه وشغبه .. وأوشكت ان أنكشه مرة أخرى وأسأله أى سؤال عن « الأوسطى بتاعه » لكن بعض الزبائن دخلوا المحل فجأة ، فتفرقت حلقتنا فى الحال ، ولزم كل واحد منا مكانه ، أما امبابى ، فقد أخذ بضامته ، وانطلق كما انطلق فى الصباح الى الشارع .. يقفز ويحجل ويغنى .

منذ ذلك اليوم ، وعلاقة أشبه بالصدقة ولدت بينى وبين امبابى ! كنت لا أكاد أراه يدخل المحل ، حتى تتفتح له نفسى ، وأنادى عليه .. اشاغبه ويشاغبنى ويشاحكنى وأضحكه .. وأبدد بالمزاح معه ذلك الملل الذى كان يهجم أحيانا على روحى ويكاد يكتم أنفاسى .. بل ان امبابى أصبح مع الأيام ظاهرة طبيعية فى حياتى ، لا يغيب يوما عن المحل ، إلا وأحس له بوحشة ، وأسأل عنه محروس ، فيقول لى بابتسامته الشاحبة : « يعنى حمروح فين ؟ بكره باخويا تلاقيه ينط قدامك زى عفاريت الضهر .. » وفعلأ أفاجأ به فى اليوم التالى ، يندفع داخل المحل ، ويشق طريقة وسط الزبائن ، يشاغب معى كالعبادة ويهزر ..

ويغنى ويصفر .. ثم يأخذ بضاعته وينطلق صائحا كالعادة في ضوء الشمس « حلاوتك يا واد يامبابي ياللى مفيش منك في البلد عشرة » فأبتسم من أعماقي ، وأواصل العمل بحماسة شديدة .. !

غير ان الحياة ليست أنا وامبابي فقط .. فقد بدأت أحس بملل من عملي في هذا المحل ، وأصبحت أتململ كل دقيقة على مقعدى العالى ، ذى الأرجل الخشبية الثلاث .. وتاقت بروحى لأن انطلق في الشوارع من جديد .. أيمكن أن تمضى حياتى هكذا في هذا الكفن القائم الرهيب . ؟

وعاودتنى الكآبة .. عاودتنى بشكل ساحق وثقيل .. ولم تعد نفسى تتحرك لأى شىء أراد .. بل انى اكتشفت انى دائما أخدع نفسى باسم « التجربة » وأهول من الأمور .. فلا تجارب جديدة في هذا المحل ولا أى شىء يثير . صحيح ان الناس مختلفون ، لكنهم داخل المحل متشابهون .. متشابهون بشكل غريب .. الكل يجمعهم صراع واحد حول القرش .. ! . وياعم صلى على النبى داحنا زباين ، وياعم على الطلاق نخسر اقيها ، وتزعل ليه يا سيدى ، بين البايع والمشتري يفتح الله ! نعمة واحدة لا تتغير ، حتى تقززت منها نفسى وأحسست بتفاهة حياتى ، ورحت أعمل وأنا مطرق الرأس فى صمت ووجوم . !

غير ان امبابي كان دائما لكآبتى بالمرصاد ، لم أكن أراه يهرح ويفرح ويتحنجل الا وابتسم له رغما عنى .. ثم أجدنى أتساءل فى ضيق وحيرة ، أى جزء من قلب الانسان يمكن أن تنبع منه كل هذه السعادة وتفيض .. ؟ !

وكأنما العفريت كان يحس بسبؤالى فيجيب عليه بضحكة أخرى مفاجئة .. ضحكة تنزع كآبتى وأضحك دون أن أعرف لماذا أضحك .. وهكذا .. أصبح امبابي هو سعادتى الوحيدة في هذا المحل المقبض الكئيب . !

وذاث يوم .. ساعة ظهر ، كان المحل خاويا تماما من  
الزبائن .. فالحجو ساخن ، وأسفلت شارع السد المواجه  
لعينى يبخ حرا وصهدا ، والحركة فيه مثل النسمات تكاد  
تكون معدومة ، جلست سارحا فى ملكوت لا أدريه ، وكأنى فى  
غيبوبة .. فجأة .. دخل امبابى .. ولم أصدق عينى .. !

كان رأسه الصغير يتدلى فوق صدره ، ونصف وجهه بعينه  
معصوب بقطعة قماش .. ويمشى ببطء يتحسس طريقه .

— مالك يا واد يا امبابى .. ؟ !

لم يرد .. فقط زام بكلمات لم أفهمها ، ثم قال لمحروس  
وهو يقترب منه ، ورأسه مطاطا : « ادينى دستتين زراير ..  
وبكرة خيط شيكولانى سودة » .

كان صوته خافتا .. وشفته السفلى متدلّية فى سخط  
وفى الم كظيم .

امبابى هذا .. ؟ ! مستحيل .. وأين قفزه وحجله .. أين  
غناؤه وضحكه ! ؟

نهضت من مكانى ، وأسرعت نحوه .

— مالك يا امبابى .. ؟ !

— عينى .. !

قالها بنبرة واجمة مقتضبة خلعت قلبى .

صحت فيه : « مالها عينك .. وربنى » .

ومد يده الى العصابة ، ورفعها عن وجهه ، ثم تطلع الى .

كانت احدى عينيه نصف مفتوحة .. اما الأخرى ، فجفناها  
منطبقين وملتهبين ، والدموع تسح منهما بغزارة .



كان وجهه مترباً ، فاختلطت الدموع بالتراب على خده .  
وبدت خيوطها على وجهه كطرقات رفيعة موحلة متشابكة .  
انحنيت عليه ، وامسكت برأسه بين يدي .

— افتح عينك .

وحاول أن يفتحها ، لكن عضلات وجهه ارتعشت بالألم  
وباليأس ولم يستطع . !

امسكت بجفنيه في رفق ، وفتحتها .

كانت عينه اليمنى مصبوغة كلها بلون الدم . . وفي قلب الدم  
كانت نقطة صغيرة بيضاء معقودة . . !

غاص قلبي . . !

العين الجميلة . . العين التي ذكرتني أول ما رأيتهما بتلك  
الفتاة التي تحب العيون الجميلة . . هذه العين ، تصبح فجأة  
قطعة مخيفة من اللحم الأحمر . . ؟ ! وهذه العقدة الصغيرة  
البيضاء ، والتي تكاد تلتصق بحافة انسانها وتطبق عليه ،  
ماذا تكون . . ؟ !

صرخت فيه : ايه اللي عمل فيك كده ؟ !

قال وهو يسبل العصاية على عينه من جديد ، ويترق الى  
الأرض برأسه : « العيال كانوا يلعبوا العقلة والمضرب . . وقفت  
اتفرج . . نطت العقلة جت في عيني » .

تنبعت لشيء غريب في صوته . . كان فيه تعب وارهاق .  
ولكن كان فيه لامبالاة ايضاً . . أفرعتني هذه اللامبالاة . اننى  
معتقد من كل شيء يمس العين . . امبابى لا يعرف ان العين نور . .  
وان الحياة من غيرها كآبة وظلام . . لقد أشرفت أنا نفسى على  
هذه الظلمة ذات مرة . . كانت « عملية » خطيرة ، ظلت الأربطة  
البيضاء بعدها على عيني أكثر من أسبوع ، وكنت أسأل نفسى

وأنا في عالم الظلام الموحش .. لماذا يبحث الناس عن معبود ،  
وفي الحياة نور العين . ؟ !

لكن صديقي امبابي لا يزال طفلا . انه لا يبالي . وسيهمل  
بالتأكيد عينه وتضيع منه .

قلت له وأنا أربت على كتفه في حنان وكأنني أرجوه :

— اسمع يا امبابي .. تودى البضاعة للأوسطى .. وبعدين  
تروح على بيتكم ، وتخلي أمك تفسلها لك .. والصبح توديك  
المستشفى .. فاهم .. ؟ !

وأوما برأسه في صمت ، ثم أعطاني النقود .. وأخذ  
البضاعة ، وسار نحو الباب .. خطوة خطوة .. وعلى مهل .

كانت هذه أول مرة يخرج فيها امبابي من المحل ، دون أن  
يقفز ويصفر ، أو يصبح كالعادة في مرح بجملته الحبيبة ..  
« حلاوتك يا واد يامبابي .. ياللى مفيش منك في البلد عشرة » .

وبدا المحل في عيني ذلك اليوم مقبضا وكئيبا أكثر من أى  
يوم مضى .

توقعت ان يفيب امبابي عن عيوننا عدة أيام بسبب عينه ،  
لكنى فوجئت به في اليوم التالى واقفا أمامى في سكون .. كأي  
زبون غريب ، وفي يده القسيمة .. ! كان بنفس منظر الأمس ،  
ولكن بدون عصابة على عينه .

سألته : رحت المستشفى يا امبابي . ؟ !

— لا مارحتش .. !

— مارحتش .. ؟ ! مارحتش ليه .. ؟ !

قال في لامبالاة وضجر .

ـ أنا عارف بقى .. ياللا أدينى البضاعة ومشينى .. !  
احسست كما لو انه يريد أن يقول لى : وانت مالك ..  
وأن مسألة عينه هذه ان كانت تهمنى فهى لا تهمه .. واذن  
فلأتركه فى حاله !

جذبتة من كتفه بشدة ، وصحت فيه كأنى داخل معه فى  
معركة « طيب نزل ايدك الوسخة دى من على عينك » .  
قال مزمجرا .. « اصل الدموع نازلة ما بتبطلش » .  
انحنيت عليه .. أمسكت برأسه ، وفتحت جفنيه ،  
وتطلعت فى العين الجريحة .

ارتعدت .

كانت الحمرة قد ازدادت كثافة ، والعقدة البيضاء قد  
انسعت فى شبه دائرة ، وبدأت ترحف على انسان العين نفسه .. !  
امبابى فى خطر .. ! ويبدو أنى الوحيد فى كل هذا العالم  
الذى يحس بهذا الخطر .. حتى هو نفسه لا يحس بالخطر .  
قلت لأرج أعماقه بالخوف : انت عارف عينك دى لو خسرت  
يحصل ايه .. ؟ !

همهم متسائلا : يحصل ايه .. ؟ !

قلت لأرعبه : تبقى بعين واحدة . والعيال يقولوك ..  
يا أعور !

ارتعشت ملامع وجهه وانقبضت .. ثم تطلع لى فجأة  
وقال فى يأس وتعاسة :

ـ طب وأنا أعمل ايه بس .. ؟ قوللى أنا أعمل ايه .. ؟ !

وظل متطلعا لى ، ينتظر الجواب ، والدموع تسح من  
عينه .. !



طُن سؤاله في رأسى :

صحيح .. ماذا يفعل امبابى .. ؟

قبل سؤاله المفاجيء هذا ، كنت انا المسيطر على الموقف .  
ولكن في لحظة واحدة ، تعرضى كل شيء .. !

كثيرا ما تخبىء في أعماقنا لذة كبرى خلف تألنا الآلام  
الآخرين .. لذة الاحساس بأننا « انسانيون » .. فنشارك الناس  
آلامهم ، ونهمس لأنفسنا في كبرياء ورضا .. أهنأك أروع من  
هذا .. ؟ !

لكن امبابى عرائى فجأة أمام نفسى ، حين ألقى في وجهى  
بالسؤال « طيب وأنا اعمل ايه .. ؟ ! »

اذن لابد للموقف ان يتغير .. فأما ان أقدم له الجواب على  
الفور واما الا اجعل من مأساة عينه ملهاة أسلى بها قلبى الحزين ،  
فأتركه يخرج ببضاعته ، ولا ألومه بعد ذلك على اهمال عينه  
الجريحة ، وليكن مصيره بعد ذلك ما يكون . !

قلت بلا وعى ، وكأنى آخذ قرارا خطيرا في حياتى « تعرف  
تجلى البيت بكره الصبح بدرى ؟ »

قال على الفور ، متشبثا بالأمل « البيت فين .. ! ؟ »  
اخرجت ورقة صغيرة ، وكتبت له العنوان بالتفصيل ..  
وتنفست من أهماقى في ارتياح .

ها انا لا اتالم فقط لآلام الآخرين ، بل أصنع أيضا لتخفيف  
آلامهم شيئا .. !

كنت أظن ان المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، غير انى

اكتشفت في صباح اليوم التالي أن أبسط خطايا الحياة ،  
لا يمكن أن يتصدى لمحوها إلا مسيح جديد ، لا يخالجه الشك  
أبدا ، ويملك في قلبه الآلام الناس بحرا لا ينفذ من الدموع . !

فوجئت في الصباح بامبابي يدق على باب بيتي ، وقد ازدادت  
عينه سوءا ، وحتى العين الأخرى ، لم يعد قادرا على أن يفتحها  
وينظر بها إلا بصعوبة . !

أخذته من يده ، وأنا أحس بقلبي يرتعش . . لماذا  
هكذا . . لماذا أضيف إلى هموم روحي هموما جديدة . . ؟ ماذا  
أفعل لك يا امبابي . . ماذا أفعل . . ! وأحسست على كاهلي  
بثقل الجبال . واننى اتداعى . !

كنت قد حكيت لزوجتي في الليل حكايته . . وطلبت منها  
- حين يأتينا في الصباح - أن تذهب به إلى المستشفى حيث  
انى لا أستطيع ترك عملى في المحل . وحين ناديت عليها ورأت  
عين امبابي ، شهقت دون وعى شهقة عالية ، وبدت على وجهها  
علامات الألم العميق !

انتابنى شعور غامر بالراحة .

ما أجمل ان يقاسمك انسان آخر من قلبه ، أحزانك من  
أجل هموم وآلام الآخرين . !

غير انى فوجئت بها تقول في انفعال « مستشفيات لا .  
حيثيونا قاعدين في عز الشمس للضهر . . وآخرتها يعطوله  
شوية غسيل ومرهم وبعدين يقولوا له روح على بيتكم . . !  
لا يا سيدى . . أنا عندى المرهم والغسيل . . روح أنت على  
شفلك وسيبهولى . »

وأنا سائر في الطريق الى المحل هاودتنى نوبة رضا من

نفسى ! أيمكن أن أفعل لامبأبى أكثر من هذا ؟ .. لأشياء فى  
مقدورى أكثر من ذلك . !

غير أنى ما كنت أجلس جلستى التقليدية خلف الكيس على  
مقعدى العالى ، وهل الزبائن وبدأ طنين المساومات ، حتى  
هاودتنى الكآبة . وأحسست أنى افتقد أمبأبى وروحه المرحه .

فاجأتنى مرة أخرى نوبة شك قاسية !

كيف تركته لزوجتى .. ؟ ! أنا أعرف ان قلبها حنون ..  
والشهقة التى سمعتها تخرج من صدرها حين رأت عينه ،  
لايمكن أن اسمعها من ألف طبيب وطبيبة .. ولكن ، أيكفى  
هذا .. ؟ مجرد طيبة .. وحنان ساذج ؟ ! لا .. كان لابد من  
المستشفى ، وبسرعة .. ! .. ماذا يحدث لو كنت تركت عملى  
فى المحل ، ولو « بالخصم » وأخذته الى أى مستشفى .. ؟ !

أهذا كثير فى سبيل أن احتفظ لأنسان .. أى أنسان  
بنور عينه ؟ اننا نضيع الوقت عليه ، والمرض يستفحل فى عينه ،  
وربما زوجتى الآن تتلهى بمأسائه .. وتفرح هى الأخرى بأنها  
وجدت لنفسها فى الحياة دور المنقلد ، ولن ينكشف القناع ،  
إلا بعد أن تتم كل فصول المأساة ، ويفقد أمبأبى عينه .

وثقلت على صدرى الكآبة !

لهم أن الحيساة ، وهى تمحو عن وجهها أبسط الخطايا  
ترفض أن تعلق ذنبها بانسان واحد ، وترسم لنفسها طريق  
الخلاص على نحو عجيب غير مفهوم ! .. فالدى حدث لامبأبى  
مع زوجتى كان يشبه المعجزة فى يوم حزين ! .

كل الذى فعلته معه انها كانت تفسل له رأسه ووجهه  
بماء دافئ ، ثم تجلس على مقعد منخفض ، وتجلسه على الأرض



بين قدميها ، وتتناول رأسه الصغير وتضعه على ركبتيها في حنان ، ثم تقطر له في عينه ، وتضع له المرهم ، وبعد ذلك تعطيه كوبا من الشاي بالحليب .

وشىء غريب كان يحدث للصبي في أغلب المرات ، كانت تأخذه شبه سنة من النوم وهو مستلق برأسه على ركبتيها ، فتبقى جالسة في مكانها لا تتحرك ، وامبابي في غيبوبة الارهاق والنوم .. ثم ينتبه ، فينهض منتفضا ويرمش بعينه السليمة في حياء .. ثم يخرج على أن يعود اليها في العصر مرة أخرى ! .

وأحيانا كانت زوجتى تدخله حجرتي الصغيرة ، وتطلب منه أن يستريح في الظل قليلا على الكنبه ، حتى تهدأ عينه من المرهم والقطرة ، فيفيب عن نفسه ، ويروح - دون أن يدري - في النوم ، ثم أعود من المحل فأجده لا يزال غارقا في سبات عميق ، وصدره الصغير يطرد أنفاسا منتظمة عميقة ، أشبه بأنفاس رجل عجوز يستريح من شقاء الحياة الطويل ! .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى بدأت بشائر المعجزة تلوح ! . بدأت حمرة العين تخف ، والعقدة البيضاء تأخذ في الانحلال ! . تهلك قلبى بالفرح ، وافرحنى أكثر - وأدهشنى في الوقت نفسه أيضا - أن امبابي لا يخلف المجيء مرة واحدة .. بل ان اصراره على الشفاء وعلى الحضور مرتين في اليوم الواحد .. كان قد حول الأمر بيننا وبينه الى سباق من أجل الشفاء ! .

ومع الأيام كانت عينه تصفو وتصفو .. والبياض الطارئ على انبسانها يشف ويشف .. ثم جاء يوم ، وتلاشت العقدة البيضاء نهائيا من عينه ، وعادت العين الجريحة كما كانت مثل اختها ، لا يستطيع المرء أن يحدد ، أيهما كانت الجريحة ،

وتمنيت لو اقابل بالصدفة تلك الفتاة اللطيفة التي كانت  
تحدثني عن حبها للعيون الجميلة ، وأريها عيني أمبابو !

لحظتها أحسست ان في قلبي سعادة تكفيني لأعوام طويلة ،  
وتخيلت ، والفرحة تملؤني ، حين يعود أمبابي إلينا في المحل من  
جديد .. يعود إلينا بكل حيويته ومرحه ، ويتحنجل ويتنطط ،  
ويشأغبني ويهزر ، ويصيح بجملته المزهوة الحبيبة « خلاوتك ياواد  
يا أمبابي ياللي مفيش منك في البلد عشرة » وتعود الى المحل  
بهجته الوحيدة المفقودة ! .

لمحته بعد يومين ، يشق طريقه وسط زحام المحل .. كان  
مندفعا ومرحا ووجهه الأسمر الصغير مشرقا وبشوشا  
بالعادة .. فصحت عليه بلا وعي ، وبودي أن احتضنه :  
« أمبابي .. تعال يا أمبابي .. »

وتهللت روحي وتفتحت للحظات مرحنا القديمة ، غير أنه  
ثم يكد يسمع صوتي ، حتى توقف عن حنجلته فجأة ، وتطلع  
لي .. وما أن جاءت عيناه في عيني ، حتى فوجئت بنظرته تنكسر  
وترنخي ، ثم أقبل نحوي بخطوات بطيئة مرتبكة ، وقال وهو  
يحاول ألا يرفع عينيه في وجهي : « حضرتك عايز حاجة ؟ ! »

حضرتي ؟ !

أحسست برأسي يدور .. ولم أدري ماذا أقول .  
ابتسمت له ابتسامة حزينة ، ثم أطرقت في كآبة !

(( ١٩٥٩ ))

## الصورة

ما كدت أصل شارع الكورنيش ، وأمد بصرى الى بعيد ،  
حتى رأيت العمارة التى يسكنها « حامد بيه » شاهقة ومشرفة  
فى الفضاء .

لم تكن العين تجهد نفسها كثيرا أو قليلا فى البحث عنها ،  
كانت بنية اللون ، مفعنة فى الارتفاع ، حتى بدت وهى تبرز فوق  
البيوت المتلاصقة والمترامية حولها مثل عنق أسمر طويل  
لا رأس له .

أحسبنت وأنا أتأملها من بعيد بشيء من السكينة يفمر  
ذو حى . وبالرغم من أنى قطعت المسافة كلها من بيتى سيرا على  
الأقدام ، إلا أنى حين نظرت الى ساعة يذى ، وجدت أنه لا يزال  
باقيا على موعدى مع الرجل أكثر من نصف ساعة . . قلت فى  
نفسى . . اقضى هذا الوقت على الكورنيش .

كنّا فى الضحى . والشمس لم تشتعل بعد ، وموجات طرية  
ومنعشة من النسيم تهب من قلب النهر . . وبدأ لى الهواء لحظتها  
غامرا ومتدفقا وكأنه يكفى لى تنفس به المدينة أعواما وأعواما .



جلست على أحد المقاعد الرخامية ، ورحت أتصور ما يمكن أن يحدث في مقابلتنا التي ستتم بعد قليل . لكنى لم أعد لها أى كلام . . فبالأمس تحدثت مع الرجل بكل جوارحي . عرضت عليه المشكلة وقلت له أن الكأس قد فاضت ، وأنه لاشيء يثقل قلب المرء أكثر من الاحساس بالعجز . العجز حين يقف كل صباح أمام زوجته وأطفاله ، وتعتمد له عيونهم وأيديهم ، فلا يجد لهم في يده شيئاً مما يطلبون .

نعم لا داعى في التفكير فيما سأقوله للرجل ، فهو نفسه كفانى كثرة الكلام ، حين قال لى والاستغراب يبدو فى عينيه الواسعتين من خلف نظارته الطبية السميكة . . « شيء غريب . . هذه المدينة الكبيرة كلها ، ولا تجد لك فيها عملاً حتى الآن . . لا . . تعال لى غدا ، فى مثل هذا الميعاد . . وسينتهى كل شيء » .

لقد لخص لى عمق احساسه بحالى بتلك العبارة البسيطة . . قالها من قلبه ، والآلم ينطق من على ملامح وجهه الوسيم النحيل . . أجل . . لن اكلمه بعد ذلك عن مشكلتى أبدا . . ولاترك مصرى بين يديه . . ليوم . . أو لأيام أو شهور كما يشاء .

كانت الشمس لاتزال تفرش أشعتها على مياه النيل بدون حساب ، وتلمع على صدر الموج ، فتبدو مثل ملايين الريالات الفضية اللامعة . . تبرق . . وتتموج . . وترتفعش . . بل وخيل لى انى أسمع لها رنيناً أيضاً .

وكان اليوم يوم أحد . . وبعض الناس فى أجازات ، فركبوا القوارب والنشآت . وملاؤا هواء النهر بصيحات وضحكات . . وراح بعضهم بدور بلنشاته حول النافورة التي تثيق منها المياه الى أعالي الفضاء .

استنامت روحى لذلك المشهد . .

آه .. هو جميل ورائع ذلك النهر .. نهر النيل .. ولكن ..  
كم هو غير جميل في نفس الوقت أيضا ، أن يجلس على ضفته  
إنسان مودوع القلب .. وحزين ..

ولا أدري لحظتها لماذا تذكرت أن كثيرا من الناس ، في  
بلاد العالم كلها يحبون الجلوس على ضفاف الأنهار ، ويسندون  
خدودهم على أيديهم ، ويهزون أرجلهم في هدوء وأسى ، ويحلمون .

ورحت أحلم من جديد .. أن « حامد بيه » قادر على أن  
يجد لى عملا .. فهو رجل واسع الثراء .. والصلوات .. وقد  
ظل لعدد من السنين النائب الوحيد للدائرة التى تقع فيها قريتى ..  
وهو معروف على نطاق واسع .. ولقد قابلنى بالأمس فى حماس  
بالغ .. يا سلام .. لو يستمر هذا الحماس ، فيأخذنى من يدي  
على الفور ، ويسلمنى الى عمل ما .. وفى أى مكان .. فلم يعد  
أمامى مجال للاختيار .. المهم .. عمل .. أستقر فيه ..  
ولو سألتنى بعد ذلك أى إنسان .. « وانت بتشتغل فىن  
يا أستاذ .. ؟ » فأجيبه فى الحال ، بلا تفكير ولا تردد ، ويكون لى  
حينذاك مكان .. وعنوان .. وحين يسألنى طفلى الكبير كعادته  
فى الصباح .. « انت رايح فىن يا بابا .. ؟ » أقول له فى زهو  
وكبرياء .. « رايح الشغل بتاعى .. وبكره جاخذك معايا هناك  
يا حبيبى » .

يا سلام يا حامد بيه .

وتصورته من جديد .. نحيفا .. كثير من شعر رأسه  
قد شاب ، ولون بشرته أسمر من طول ما يقىم فى عزبته فى الريف .

ومرت أمامى فى تلك اللحظة قوارب لسباق التجديف ، كل  
من فيها يجدف بذراعيه ويفرد ثم يثنى بسرعة ركبتيه ، ويمرق  
كالسهم على سطح الموج .. نظرت الى ساعتى .. كان الموعد قد

أزف ، فقامت أتمشى بببطء على أسفلة الكورنيش وعيناي معلقتان  
بالعمارة الشاهقة ، ورحت أتملاها وأعد في طوابقها التي تزيد على  
العشرين .

● وحين ضغطت على جرس باب مسكنه ، فتح لى خادم أسود  
يرفل في ثوب أبيض فضفاض ، وحول وسطه حزام أخضر ..  
نظر لى مستفسرا قلت له : موعد مع حامد بيه .. وسرت خلفه في  
الصالة .. كان أول شيء قابلنى فيها هو الهدوء العميق .. وكانت  
أرضها مفروشة بالسجاجيد ، وبدت أمام عيني طويلة وممتدة ،  
حتى خيل لى أول الأمر أنى مازلت أتمشى على الكورنيش .. كل  
شيء في الصالة بدا وكأنه غافيا يحلم .. الستائر .. والصور ..  
والمقاعد الوثيرة المستديرة ، والأوانى الخزفية المرتبة على رفوف  
مثبتة على الجدران .

وحين انتهينا من الصالة ، دخلنا شبة صالة أخرى أعدت  
كحجرة للطعام .. وعلى أحد كراسى المائدة ، كان حامد بيه  
يجلس .. مرتديا بدلة سوداء ذات خطوط بيضاء ، وفي يده  
سماعة التليفون يتكلم ، وأمامه جرائد الصباح وبعض المجلات ،  
وصندوق لامع في حجم الكف مصنوع من خشب الأبنوس !

وحين رآنى ، ابتسم لى ابتسامة واسعة وهو مشغول بالكلام  
في التليفون ، ثم أشار لى بيده ورأسه برقة لكى أجلس أمامه .  
وجلس .. كان كل ما حولى في ذلك المسكن غارقا في  
السكينة والهدوء .. حتى خطوات الخادم وهو يمشى فوق  
السجاجيد الكثيفة الحمراء كانت أشبه بالحفيف .. لذلك ، بدا  
صوت حامد بيه وهو يتكلم في التليفون عاليا وله صدى .. ودون  
أن أحس ، وجدتنى أنصت رغما عنى لما يقول . كان يتناقش في  
جد واهتمام .. سمعت اسم محدثه .. وسمعت أيضا الفاظا  
تتردد أكثر من مرة ، وعرفت أن هناك نزاعا حول أرض ، وأن  
قضية مرفوعة منه في محكمة الإصلاح الزراعى .

كان من الواضح أن الطرف الآخر في الحديث ، رجل واسع الجاه وله سلطان .. تمنيت لو تنتهى هذه المكالمة بالحديث عني .. عن عمل لي .

لكنني كتمت الرغبة في نفسي .. وعتبت على روعي تطفلي السريع على علاقات الرجل بالناس ، ورحت أتشاغل في شيء آخر حتى ينتهى من حديثه .

كانت أمامي لوحة كبيرة معلقة على الحائط مرسومة بالزيت .. وكانت الصورة فيها مريحة ومشرقة الألوان .. حقول خضراء ، يشقها صفان طويلان من الأشجار المورقة والمثقلة بالأزهار وبالثمار ، وبينهما طريق .. يبدأ واسعا .. ثم يضيق ويضيق .. حتى يتلاشى في نقطة غامضة تلتقي بالأفق البعيد .

رحت أتأمل الصورة وأتسلى .. لكن شيئا ما أحسسته من أول لحظة ينقص الصورة ، وحلا لي أن أشغل نفسي في التفكير في هذا الشيء وأجهد ذهني في البحث عنه ، حتى ينتهى الرجل من الحديث .

لكنني لم أستطع .. كنت مشدودا الى كلام الرجل .. وكان شيئا ما .. واجما وحزينا يطفو تارة على سطح الصورة ، ثم يختفى تارة أخرى ويتلاشى .

وانتهى الرجل من حديثه فجأة .. وضع السماعة على التليفون ، واتجه في صمت بعينه مع عيني الى اللوحة ، ولم تلبث أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقال .. « منظر من بلدنا .. رسمه الرسام وهو في زيارة معي للعزبة » .

قلت : فعلا .. لوحة جميلة .. لا تمل العين من رؤيتها أبدا .



وخطر لى أن أكمل له رأى فأقول .. « لكن شيئاً  
ما ينقصها .. شيئاً يمكن العثور عليه » .

لكنى تذكرت حالى ، وسخرت من نفسى . أنا لم آت الى  
هنا لأضيع الوقت فى التأمل والحديث عن لوحة رائعة وملونة ..  
أنا جئت هنا ليقول لى هذا الرجل الطيب .. « لقد كلمت لك  
فلانا بخصوص عمل .. » أو لينهض من مكانه ، ويخرج معى ،  
ويصطحبني فى عربته هنا وهناك .. وأحس أن باب الأمل أصبح  
مفتوحاً أمامي .

لزمت الصمت .. لكنه ظل يرقب الصورة فى سكون  
واستغراق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه .. « انظر .. كيف تنتهى  
آخر شجرة مع آخر نقطة فى الطريق » .

قلت ونبرة صوتي يكسوها الحزن والأسى .. « تمام ..  
الأشجار تنتهى .. والطريق كذلك ينتهى .. ولكن بشكل لا يوحى  
بالانتهاء . ان الطريق والأشجار تظل قائمة وممتدة فى خيال  
الانسان » .

قال وقد تملكه الطرب فجأة ، واتسفت عيناه حتى ارتفع  
حاجباه عن نظارته .. « تمام .. تمام .. فكرتك رائعة .. كنت  
أحس بها .. ولكن لم أكن أستطيع التعبير عنها .. لست أدري  
لماذا .. الانسان منا فى هذه الأيام مشغول جداً .. مشغول  
بحيث لا يجد لحظة من الفراغ يعيشها فى لوحة مثل هذه » .

مستنى عبارته الأخيرة .. أحسست من أعماقي برغبة فى  
أن أصرخ .. صرخة أجمع فيها أحزاني ، وأجرح بها قلبي وأقول  
له .. « انت لا تملك لحظة من فراغ .. وأنا حياتي كلها  
فراغ فى فراغ » .

لكنى لزمت الصمت .. وأطرقت ..

اننى استحي من أن أصرخ لنفسي في وحدتي ، فكيف أصرخ  
صرخة العذاب في وجه رجل طيب مثل هذا ، تطوع لخدمتي ،  
ولم أعرفه الا منذ زمن قليل .. !!

وأحسست بأحزاني تطفو وتسد حلقي ، وتمنيت لو يترك  
مسألة اللوحة هذه ، ويدخل من تلقاء نفسه في الموضوع ..  
الموضوع الذي جئت من أجله ، حسب اتفاقنا سويا بالأمس .

ولم يطل صمتنا ، فقد قام الرجل من على مقعده ، وخطا  
بظهره خطوتين الى الورا ، ثم قال وعيناه لا تزالان عالقتين  
بالصورة .. « يبدو عليك أنك تفهم جيدا في الفن .. طيب ..  
ما رأيك لو كان الرسام قد رسم بعض طيور ترفرف في الهواء ..  
بعيدا عن آخر شجرة .. هناك .. في ركن الصورة .. ؟ ! »

أحسست من حيوية صوته ، أن قلبه مفتوح وفرحان  
للحديث عن لوحته ، وأن لحظة حماسه ونشوته يجب ألا تطفئها  
همومي وأحزاني الراقدة في نفسي .

قلت .. « من الجائز يا حامد بيه .. وعلى كل حال .. فأنا  
أحسست من اللحظة الأولى بشيء ينقصها .. ربما طيور كما  
تقول .. وربما شيء آخر » .

واغرقت نفسي في المشهد من طيب خاطر .. ربما فكرة مني  
تعجبه ، وتشمل حماسه لعملى .. ومرت لحظات .. ولم ألبث  
أن وجدتنى أقول وكأنى أكتشف لنفسي شيئا مدهشا ..  
« ما رأيك يا حامد بيه .. لو كان الرسام قد رسم على الطريق  
آثار أقدام .. رمزا لانسان كان يمر من هنا .. ذات يوم ؟ ! »

ورأيت عينيه تتسعان أكثر وأكثر ، ووجهه الأسمر يزداد  
بهجة وتفتحاً ، ولم يلبث أن اقترب منى وصاح في فرح وكأنه

يود أن يعانقني .. « يا سلام .. على الفكرة .. فكرة ممتازة ..  
صحيح .. لماذا لا يرسم الرسام آثار أقدام .. ؟ ! »

ودون أن أدري ، وجدت نفسي ابتسم له من قلبي ، وجواب  
ابتسامتي هو الآخر بضحكة من أعماقه ، ثم قال وهو يتنهد ..  
« تعرف .. الفن في نظري أجمل شيء في الحياة ، بدونه تمر  
الأيام على الواحد منا مملة وثقيلة .. فعلا .. نحن نضيع أيامنا  
في تفاهات .. لقد سمعتُ بأذنيك حين دخلت وأنا أتكلم في  
التليفون .. مشاكل لا تنتهى .. ولكنى سأكلم الرسام اليوم في  
هذه الفكرة » .

وخلع نظارته ، وراح يمسحها بمنديله على مهل .. ثم لبسها  
وعاد يتأمل الصورة من جديد ويقول :

— « تخيل معي .. أثر قدمين مفرطحين .. كبيرين ..  
يشغلان كل بداية الطريق .. ثم تصغر القدمان بعض الشيء ..  
ثم يصغر أثرهما أكثر فأكثر ، حتى يتلاشيا تماما عند آخر نقطة  
في الطريق .. آه .. انها ستصبح أجمل لوحة في بيتي .. »

ورآن علينا السكون لحظات ، جاء خلالها الخادم وهو  
يحمل صينية عليها فنجالان من الشاي ، وبعض قطع من  
البسكويت .. واختلست نظرة من ساعتى دون أن يلحظ الرجل ..  
كانت قد بلغت العاشرة والنصف .

ياه .. لقد مر أكثر من ساعة ، ولم يثر بيننا كلام من قريب  
أو من بعيد عن الموضوع الذى جئت من أجله .. توقعت لحظتها  
أن ينشغل الرجل قليلا بشرب الشاي ، فينسى حكاية اللوحة  
هذه ، وينظر لى وجهها لوجه ، ويتذكر ما جئت من أجله ،  
ويتكلم فيه .

ورأيت يده تمتد فى هدوء الى التليفون ، ويدير القرص .

آه .. ربما جاء الفرج .. لابد أنه سيكلم انسانا كبيرا  
بخصوصي ، يأخذ منه موعدا ، لتوجه لمقابلته ، بعد أن تنتهى  
من الشاى .

— ألو .. الأستاذ عبد المنعم من فضلك .

— .....

— خرج . ؟ . من خمس دقائق . ؟ . طيب مرسيه .  
وهز رأسه وهو يضع السماعة ، وقال والأسف يبدو على  
وجهه .. « خسارة .. تصور خرج من خمس دقائق » .. على  
أى الأحوال .. سأصل به اليوم .. ضرورى .. ضرورى .. «  
وأشار لى كى أتناول فنجال الشاى ، غير أن احساسا  
خفيفا بالياس كان قد تسلل الى نفسى .. قلت له وانا ادارى  
لهفتى وأشفاقى .

— من هو ...

قال على الفور .. الرسام .. كنت أسأل عنه .. فكرتك  
عن الأقدام اعجبتنى جدا .. ولن أرتاح حتى أنفلها فى اقرب  
وقت .

قال ذلك فى حماس وكأنه يحيينى ويرضينى بكلماته ، ثم  
مد يده الى العلبة الأبنوسية الموضوعة أمامه بجوار الجرائد ،  
وما أن فتحها وأخرج منها سيجارتين ، حتى حدث شيء غريب  
استيقظت له — فجأة — كل حواسى .

لقد انبعثت من العلبة أنغام موسيقية ذات ايقاع متتابع  
وجميل .. لم يكن يبدو على وجه الرجل وهو يقدم لى  
السيجارة ، أى احساس غير عادى .. كل شيء فى بيته كان يجرى  
هادئا وطبيعيا .. وترك العلبة مفتوحة ، وظلت الموسيقى  
دائرة .. هادئة ومتموجة أحيانا .. ومتتابة وراقصة أحيانا



أخرى .. وكل شيء في الجلسة أخذ طعنا آخر .. أحلى وأجمل وأغرب .

رشف الرجل جرعة شاي ، ثم جذب نفسا طويلا وعميقا من سيجارته ، ثم قال وهو ينظر الى علبة الأبتوس : البيانو الذى فى داخلها يعطى لحنا واحدا .. لا يتغير .. لكنه جميل على أى حال .. ومريح للأعصاب .. خصوصا لو تأمل الانسان لوحة مثل هذه لحظة سماعه .

قلت له ومشاعرى بدأت تتفكك وتستريح .. « بالفعل .. اللحن ماشى مع الصورة ، لقد رأيت علبة مثل هذه فى خان الخليلي .. تفرجت عليها فى مرة من المرات ، كانت جميلة . ولكن هذه أجمل بدون شك . وأغلى أيضا بكثير .. »

قال بحماس « لا .. لا .. هذه العلبة شيء آخر .. انها من فيينا .. فيينا فيها أشياء كثيرة وعجيبة .. أنا زرتها مند سنتين .. غريبة هذه المدينة .. أنت لا تتصور .. »

وراح يحكى لى عن أيامه فى المدينة البلورية الساحرة .. انزلق الى الحديث عنها دون أن يحس هو .. ودون أن أحس أنا .. كانت علبة الأبتوس مفتوحة .. والنغم لا يزال مسترسلا متتابعاً حلوا وسريعا .. حتى أننى تخيلت وأنا استمع لكليهما أنى أرى « سندريلا » الصغيرة وهى تشب على قدميها وتتماوج وترقص وتحلم داخل العلبة السحرية .. ودار بى الرجل دورة جميلة ورائعة فى بلاد الشمال على انغام البيانو الصغير ، وكانت اللوحة تطل على من فوق الحائط فى إنشراح وهدوء . وتخيلت آثار الأقدام وقد رسمت فيها على طول امتداد الطريق ، وأحسست بأشواق بالغة الحلاوة والحزن تهتاج فى روحى .. وأن العالم كبير كبير لا حدود له ، وأننى لابد فى النهاية سأجد لنفسى فيه مكانا .. وعملا ما .. أستقر وأحيا فيه .

لكنى تنبهت فجأة من خواطري .. فقد دق جرس التليفون .  
وكان رنينه المفاجيء عاليا ومزعجا جدا .. وضغ حامد بيه يده  
على السماعه فى ضجر ليوقف الرنين .. وما ان رقعها وبدأ فى  
الكلام حتى فهمت أن محدثه هو نفس الشخص الذى كان يتكلم  
معه عند دخولى .. فقد تكررت نفس اللفاظ .. : النزاع ..  
والأرض .. ومحنة الإصلاح ..

ولم ألبث أن رأيت فلامج وجهه تكتسى بعلامات الجهد ،  
وراح يقول فى استغراب .. « ماذا تقول .. ؟ ! .. اليوم  
بالذات ؟ .. شىء غريب .. لا لا .. سأحضر حالا .. »

أحسست بقلبي ينقبض . ورأيت حامد بيه ينهض من على  
الكرسى ، ثم نظر لى وهو يقول فى تأثر .. « أنا متأسف جدا ..  
أنا مضطر للسفر اليوم .. وسأبقى فى العزبة عدة أيام .. كان  
فى ذهنى أن نخرج الآن معا .. وأقدمك لواحد من أصدقائى ..  
ولكن معلهش .. كن مطمئنا .. لا تقلق من هذه الناحية .. »

قلت له وشبه غمامة تزحم برأسى .. « متشكر .. متشكر  
خالص .. أنا عارف ان ظروفك صعبة .. سأصل بك بعد  
أسبوع .. فى مثل هذا اليوم .. »

قال .. « تمام .. أكون رجعت .. وعلى العموم .. لقد  
امضينا معا وقتا لطيفا .. »

قلت وأنا ابتسم له .. « جدا .. جدا .. »

كنت قد نهضت أنا الآخر من على مقعدى .. ورأيت يتجه  
بخطواته نحو باب مسكنه ، فتبعته .. ولكنه توقف فجأة  
واستدار مرة أخرى نحو المائدة ، ومد يده الى العلبة الأبنوسية  
وقفلها .. وفى الحال ، انقطعت الموسيقى .. وانعقد الصمت  
الثقيل على المسكن من جديد .. وخرجنا مسرعين .

كانت عربته السوداء الكبيرة تنتظره .. وفتح له السائق

بابها ودخل فيها ، ثم أشار لى وقال مجاملا .. « ممكن  
أوصلك .. »

قلت مرتبكا .. « شكرا .. سأتمشى قليلا على  
الكورنيش » .

وانطلقت به العربة كالريح .. وحين اختفت عن عيني بعد  
لحظات ، رحت أرقب أمواج النيل فى وجوم ، وأتمشى على  
الكورنيش وحدى من جديد .

« ١٩٥٧ »

## الصيد

بعد أسبوع ، ذهبت الى حامد بيه كما اتفقنا ، وكلى امل .  
كان كل همى الا يحس الرجل انى أصبحت ثقلا عليه ، غير  
ان الخادم لم يكذ يخبره بوجودى حتى رأيتہ يقبل نحوى باسم  
الوجه ، ومد لى ذراعه مرحبا .. « أهلا أهلا .. جئت فى الوقت  
المناسب .. فقط سأتناول لقمة صغيرة ، ثم نخرج فى الحال ..  
لا بد أن ننتهى من موضوعك اليوم .. تعال .. »  
كان يرتدى ملابس المنزلية .. شبشب .. وبيجامة ..  
وروبا حريرا فيه نقوش صغيرة لامعة ومفضضة .  
قادنى الى نفس الحجرة التى جلسنا فيها فى المرة السابقة ،  
حجرة المائدة . كان يتهيأ لتناول افطاره ، وكانت بعض ألوان  
الطعام موضوعة على المائدة بشكل منسق وجميل ، وأصنافها  
توحي بأنها من الريف .. فطير مشلتت .. وجبن أصفر قديم ،  
وقشدة .. وعسل أبيض ، وبرتقال كبير بكرة ، خمنت أنه  
لا بد من ثمار حديقته فى العزبة .



قال لى فى بشاشة ونحن نجلس الى المائدة .. « اكل  
غلاحي .. هيا .. معى .. »

اعتذرت له شائرا .. واعساد على عزومته فى الحاح وكرم ..  
لكنى فى الحقيقة لم اكن استطيع ان ابتلع شيئا .. ومع انى كنت  
قد تناولت لقمة صغيرة مع زوجتى وأولادى فى الصباح ، الا اننى  
بعد ان قطعت طريق الكورنيش الى بيته ، وكان هواء النهر يهب  
من حولى ، أحسست بقرصة الجوع فى بطنى .. كان يخيل لى فى  
تلك اللحظة ان معدتى يمكنها ان تطحن الزلط .. غير انى لسبب  
لا ادريه كنت قد فقدت شهيتى تماما بمجرد ان اقتربت من  
بيته .

قال وهو يمد لى بيده ببرتقالة ، وفمه مشغول بمصغ  
الطعام : « اذن تاكل هذه على الأقل .. قل لى .. كيف  
حالك .. وأولادك .. ؟ ! »

تمثيت فى تلك اللحظة ان اكون شجاعا .. فأحكى له  
بصراحة عن حالى بعد ان سافر الى عزبته .. وددت لو أقول له  
انى قضيت الأيام السبعة أنتظر عودته بفارغ الصبر .. أجوب  
شوارع القاهرة على غير هدى ، واتفنن فى قتل الوقت .. اتفرج  
على المناس فى الطرقات ، وعلى المعروضات فى الفترينات ،  
واتوقف لأعد طوابق العمارات الضخمة الشامخة ، ثم أعيد عدها  
مرة أخرى خوفا من ان اكون أخطأت الرقم الصحيح ، وأدخل  
مزادات البيع لأتسلى بنداءات الدالين وأساليب المشترين  
والنصابين والمحتالين ، وأقف على محطات الترام والأتوبيس  
واتفرج على الركاب وهم يتزاحمون ويتشائمون وربما يتعاركون .

كنت أود ان أحكى له كل ذلك بالتفصيل ، وأحكى له أيضا  
عن الكتابة الصامتة التى كانت تلفنى أنا وزوجتى وأطفالى وكلنا  
أمل فى عودته .

تنهدت وقلت في حياء .. « الأولاد عال .. بخير والحمد لله ..  
طول الأسبوع ونحن جميعا في انتظار عودتك .. »

قال لى وقد أخذته كلماتى وتوقف عن مضغ لقمة كانت في  
فمه « العفو .. العفو يا أخى .. تصدق بالله .. كنت دائما  
على بالى وأنا فى العزبة .. أنت انسان طيب .. ولازم تشتغل ..  
لازم .. وفى وظيفة معقولة ومناسبة .. تعرف الدكتور  
محسن بيه الهرنوبى .. ؟ ! وكيل وزارة الخارجية سابقا .. ؟ !  
سندهب اليه الآن .. معنا موعد معه .. هذا الرجل وحده هو  
الذى سيجد لك عملا بالتأكد .. لقد كلمته عنك .. وأخذت  
منه وعدا .. أن صلاته واسعة وعديدة .. وله نفوذ أيضا ..  
وهو صديقى منذ أيام الطفولة ..

أحسست بفرحة جارفة تملك كيانى .. ودون أن أدري ..  
انبسطت عضلات معدتى فجأة ، وتفتحت شهيتى للطعام ..  
وودت لو يعيد على عزومته من جديد وأشاركه فى أكل الفطير ..  
ابتسمت فى نفسى ، ورحت أكل فصوص برتقالتى بشهية وعلى  
مهل .

وعاد يقول لى وهو منهمك فى طعامه .. « تعرف ان ملحوظتك  
عن الصورة أعجبتنى جدا .. جدا جدا .. ؟ ! »

وبلا وعى ، وجدتنى أطلع الى الصورة المعلقة على الحائط ،  
وكدت أصرخ وأقول له .. « لا لا . أرجوك .. كفانى كلاما عن  
الصورة .. وعن الفن .. وعن الموسيقى .. وعن الحياة ..  
كفانى ما حدث فى المرة السابقة .. أرجوك .. خلنا فى  
الموضوع .. »

لكنه مضى يقول وهو يمضغ الطعام فى هدوء ، وعيناه تتطلعان  
الى الصورة .. « هل تذكر ملحوظتك . ؟ ! عن ضرورة رسم

آثار أقدام انسانية فى الطريق .. ؟ ! .. لقد تكلمت عنها مع بعض  
أصدقائى .. وبالذات مع محسن بيه .. لقد أعجب بها جدا ..  
وهو يريد أن يراك .. انه يهوى اقتناء التحف واللوحات  
النادرة .. »

عاودت الطمأنينة روحى لذكر اسم محسن بيه .. فأن يحدث  
بينى وبينه تعارف على هذا النحو ، وقبل أن أراه ويرانى ،  
هذا شيء جميل ومبشر للغاية .

كنت أظن أن حامد بيه سىظل جالسا الى المائدة ، يأكل  
ويتسلى معى بالحديث حتى يأتى على كل ما أمامه من طعام  
لكنى فوجئت به ينهض مرة واحدة من على مقعده ، ثم نادى على  
الخادم الواقف عن قرب وقال له .. « جهز لى بدلة يا عبده ..  
البدلة الكاروهات .. »

ثم التفت لى وقال مستأذنا وهو يغادر المائدة .. « عن  
أذنك دقيقة .. البس وننزل على طول .. »

ودخل خرفة جانبية خلف خادمه .. وبقيت وحدى أنتظره .  
وعلى غير ما كنت أتوقع .. لم يغب فى ارتداء ملابسه ، فقد  
رأيتة بعد دقائق قليلة ، يخرج من الخرفة بخطوات نشيطة  
مرحة ، وقال لى وهو يشير بيده نحو باب مسكنه .. « تفضل » .

كان يرتدى بدلة خيل لى أنها جديدة ، لم تلبس من قبل  
أبدا .. بنية اللون .. كاروهات .. وبثلاثة أزواد .. بدا فيها أكثر  
طولا .. وأكثر رخاء وأناقة ، وكأنه ذاهب الى حفل كبير ساهر .  
وخرجنا من البيت .. وتنفسنا الصعداء .

كانت عربته السوداء الفاخرة تنتظره .. وما أن رأنا

السائق ، حتى نهض من جلسته على أحد الكراسي في الشمس ،  
وأسرع نحو باب العربية وفتحها . وأشار لى حامد بيه بالدخول ،  
فدخلت .. وقال للسائق وهو يعتدل في جلسته ويفك أزرار  
جاكته .. « على نادى الصيد .. »

نادى الصيد .. ؟ !

لم اكن أدري من قبل أن في القاهرة شيئاً اسمه نادى  
الصيد ، رغم أنه كان يخيل لى من كثرة تجوالى وتسكعى في أرجاء  
المدينة ، انى أعرف كل شبر فيها .  
وانطلقت بنا العربية ، وسادنا الصمت .

كل لحظة من لحظاتي مع هذا الرجل ، كانت امتحاناً قاسياً  
لأعصابى . اذا التزم الصمت ، كان على أن أحترم صمته ، فالتزم  
السكوت أنا الآخر حتى لا يكون وجودى معه عبئاً عليه .. واذا  
تكلم فجأة ، كان على أن أسرع فأنصت لكل كلماته بكل جوارحى  
وأبحث له عن الرد المناسب ، حتى أكون خير أنيس له في  
رفقته .

كنت وأنا معه مسلوب الإرادة ، زمام أمرى بيده ، ولا أدري  
من مصيرى معه أى شيء .. كان على دائماً أن أقبل عالمه الذى  
يعيش ويتحرك فيه بلا أدنى تفكير أو تفسير .. ولو قال لى  
حينذاك .. هيا بنا نرمى أنفسنا في البحر لنبحث لك عن عمل في  
قاعه ، لأومات له برأسى موافقاً ، وقلدت أمامه بنفسى في البحر  
على الفور ، وأرحت ضميرى .

كانت العربية تنطلق بنا ، والصمت يسودنا ، فلا أسمع  
الا صوت الهواء وهو يثز ويضطدم بواجهة العربية في انطلاقتها  
السريع .

ظلت العربية تطوى الطريق بنا .. وفي دقائق ، كنا قد اجتزنا



مباني المدينة وبيدات الشوارع تمتد أمامنا واسعة وفسيحة وشبه خالية ، ثم خرجت فجأة الى اليمين ، ودخلت شارعاً عريضاً طويلاً ، تظله أشجار كثيفة ضخمة .. وخيل لى أنى أسمع طلقات نارية تلوى فى الفضاء .

لابد أننا اقتربنا .. فقد كان هناك صفان طويلان من العربات الفخمة تزحم الطريق حتى لم يكن هناك موقف لعربتنا .. وفجأة .. تباطأت العربة .. ثم توقفت أمام مبنى أبيض صغير وأنيق .. وأسرع السائق وفتح لنا الباب .. وهبطنا .. وسرنا نحو باب المبنى .

كنت وأنا جالس فى العربة بجوار حامد بيه .. أتصور نادى الصيد هذا ، مكاناً هادئاً وغارقاً فى السكينة ، يخطر عليه الناس فى هدوء وراحة بال ، ويجلسون فى استرخاء ، ويمدون أرجلهم أمامهم ، ويعطون وجوههم لشمس الشتاء ويستدفئون ويشترثون ، ويقضون أيامهم الفارغة بعيداً عن ضوضاء المدينة .

ولكن .. ما ان دخلنا من الباب ، حتى وجدت نفسى فى عالم آخر تماماً .

من أول خطوة خطوناها بداخله ، واجهنا زحام شديد .. جموع من الرجال والنساء تتدافع وتتزاحم وتشرب بأعناقها وتنادى بشكل غريب لم أفهمه .

كان البعض يصيح .. والبعض يجرى مهرولا كأنه يخشى ان يفوته قطار .. والبعض الآخر تتقارب رؤوسه وكأنه يهمس بأسرار .

وأحسبت بحامد بيه يجذبنى من ذراعى ورحنا نشق الزحام بصعوبة ثم توقف أمام سبورة كبيرة سوداء .. مكتوب عليها أسماء .. وأمام الأسماء أرقام .. ومضى يقرأ فى السبورة.

باهتمام .. فرحت أقرأ أنا الآخر ، وفوجئت باسم « محسن الهرنوبى » مكتوبا عليها وكان هو الاسم الثانى فى القائمة .

لم أفهم من الأمر شيئا .. وكنت فى نفس الوقت لا أريد ان أفهم أى شيء .. بل انى أحسست بأنفاسى تضيق ، ورأسى من الزحام والضجيج تكاد تدور .. وخطر لى أن أجازف وأقول له .. « أرجوك .. لقد تعبت أعصابى .. عن اذنك .. وسأقابلك فى يوم آخر » . ثم أخرج من هذا المكان ، ولا أريه وجهى بعد ذلك أبدا ، وليكن من أمر مصيرى ومصير أولادى بعد ذلك ما يكون .. !!

لكنه تحرك من أمام السبورة فتحركت أنا الآخر خلفه كالذهول .. ومضينا نشق الزحام ، ثم صعدنا ثلاث درجات ، ورايت صفين طويلين من المناضد ، كل منضدة تغطيها مظلة كبيرة وملونة مثل مظلات البحر ، والرجال والنساء يجلسون اليها ، وأمامهم تمتد مساحة واسعة ومستطيلة مثل ملاعب كرة القدم ، ينبت فيها عشب كثيف قصير أخضر .

لأبد أنها حلقة الصيد .

وتقدم حامد بيه الى منضدة وجدناها بالصدفة خالية ، فجلسنا اليها .. ثم سمعته يضحى فجأة وبأعلى صوته .. « يا دكتور محسن .. يا محسن بيه » .

والتوى منى عنقى دون أن أحس ، ورحت اتطلع لأرى هذا الدكتور محسن .. رمز آمالى جميعا .

ولمحت رجلا يقف فوق العشب داخل الحلقة .. يلوح لحامد بيه ، وعلى وجهه ابتسامة تكفى لوجوه آلاف الرجال المهمومين .. ثم أقبل يخطو نحونا بخطوات واسعة نشطة وكأنه يجرى .

كان رجلا يقارب الخمسين من عمره ، ومع هذا لم يكن على

وجهه آثار لآى غضون .. وكانت سمرة وجهه مشربة بحمرة خفيفة ، ويرتدى بنطلونا وقميصا .. وفوق القميص بلوفر بكم طويل .. وفى يده اليمنى بندقية صيد .

استرحت لمنظره من الوهلة الأولى .. كان يبدو متفتحاً وفرحاناً بالحياة .. وحين بلغ مكاننا ، قام حامد بيه ، وسلم عليه .. ثم استدار لى وقدمنى اليه .. وقدمه الى .

أعجبني سلام الرجل .. كان سالماً فيه صحة وعافيه وشباب ، وفيه ترحيب أيضاً .. ولا أدري لماذا داخلنى اليقين اننى لابد مشغول على يديه ، وفى وقت قريب جداً .

وما كاد حامد بيه يطلب منه الجلوس معنا ، حتى سمعنا جرساً يدق ثلاث دقائق متتابة .. فحدثت فى الحال ضجة كبرى ، واستأذن منا الدكتور محسن ، وذاب فى الزحمة عن عيوننا ، وهرع كل الناس الى حلقة الصيد ، واتخذ كل منهم لنفسه وقفة أو جلسة .. ثم عاد الجرس فدق مرة أخرى دقة واحدة ، فالتزم الجميع الصمت وران على المكان سكون عميق ، كان الصيد قد بدأ .

لأول مرة فى حياتى كنت أشهد عملية الصيد هذه .. كان الشعور بالغربة يملأنى .. وفى بعض اللحظات .. كان يخيل لى أن الناس كلهم من حولى يحسون بأنى غريب عليهم .. ودخيل على عالمهم هذا .. وكنت أحياناً أختلس النظر الى من يجلسون أو يقفون بجوارى ، فلا أجد أحداً يرمقنى بنظرة ، أو حتى يحس بوجودى .

كان الجميع لاهين بترقب المعركة المنتظرة ، فرحت أنا الآخر أترقبها ولكن بغير حماس ، وبودى لو تنتهى فى لحظة ، ويعود لنا الدكتور محسن ، ونتكلم فى الموضوع ، وننتهى منه على أى وجه ، ثم أغادر المكان عدواً ، الى أعماق مدينتى .

وابتدا الصيد ..

كان هناك شاب أحمر الوجه ، واقفا داخل الحلقة ، ومصوبا فوهة بندقيته الى الأرض بشكل غريب اثار فضولى ، فمضيت أرقبه .

وفجأة .. لوح رجل بראה حمراء ، فخرجت حمامة صغيرة سوداء من حفرة في العشب ، وانطلقت في فرع في الفضاء ، وتبعها الشاب الأحمر بفوهة بندقيته .

وأطلق رصاصة .. وسكنت حتى الهمسات .

ثم انطلقت الرصاصة الثانية ، وشاربت الأعناق .

ثم انطلقت الثالثة والأخيرة .. لكن الحمامة السوداء ظلت ترفرف في الفضاء ، ورايتها تبتعد مفروعة في اتجاه مباني المدينة البعيدة .

ودون أن أحس .. وأنا اتبع الحمامة بعينى ، وجدتنى أتذكر .. أنا واقف فى بلكونة بيتى فى السيدة زينب ، وطفلى الصغير واقف بجوارى ، يشير فى نشوة وفرح الى سرب من الحمام تعود أن يحلق ساعة العصر من كل يوم حول الأبراج القريبة من سطح بيتنا ، ويهلل فى طرب ويصيح .. « الله .. شايف الحمام يا بابا .. أنا باحب الحمام يا بابا .. اشترى لى حمامة والنبي يا بابا » . ويظل الصغير يرقب الحمام بعيونه الطفلية الفرحة المنبهرة ، حتى يهبط الغروب على الحى .. وتنتشر العتمة ، فيهبط الحمام عائدا الى برجها فى سكونة وأمان .

هذه الحمامة الهاربة ، المتخبطة فى الفضاء من الفرع .. لو تطير .. وتظل تطير .. حتى تقترب من بيتى ، وتحط على بلكونة شقتى ، وتأنس الى طفلى الصغير .



غير انى افقت على الضجة وهى تعلو وتتزايد من حولى ..  
كان البعض يزوم فى حسرة وأسف ، والبعض يهلل .. ثم سمعت  
اصواتا تقول :

— « دور الدكتور محسن .. آخر دور .. دور واحد ..  
بخمسة وسبعين جنيه » .

وتوجهت ببصرى الى الحلقة ، كان محسن بيه واقفا بقامته  
المديدة مصوبيا بندقيته ناحية الحفرة التى ينطلق منها الحمام ،  
على أهبة الاستعداد لأن يطلق رصاصته .. كان وجهه لحظتها  
أشبه بصقر يكاد ينقض ، ومنظره يوحى بثقة لا حد لها .. ثقة  
فى أنه قادر على أن يفعل أى شىء فى هذه الدنيا .. أى شىء ..  
يما فى ذلك ايجاد عمل لى .

ولوح الرجل بالراية الحمراء .. وأمسك الجميع أنفاسهم  
مرة أخرى .. انطلقت من الحفرة حمامة بيضاء ، وطارت ترفرف  
مدعورة فى الفضاء ، وتبعها محسن بيه بعين بندقيته .

كانت أعصابه من فولاذ .. وما أن أطلق رصاصته ، حتى  
هال الجميع على الفور وصعدت من حناجرهم أصوات أشبه  
بالتفافات رجت أرجاء الفضاء .

كانت الرصاصة قد أصابت الحمامة من اللحظة الأولى ..  
رايتها تتجمد برهة فى الفضاء وكأنها صعدت ، ثم انتفضت  
انتفاضة خاطفة ، ثم هوت على الأرض ، واستقرت على العشب  
الأخضر بلا حراك .. وعلى نفس العشب ، كان محسن بيه واقفا  
كالعملاق .. يبتسم ، ويتحفز .

انقبض قلبى .. احساس عميق بالخوف وبالتشاؤم غمر  
نفسى .. وتذكرت طفلى .. لو كان معى الآن هنا ، لجرى نحو  
الحمامة ، واجتذنها وراح يبكى .

ورحت أبحث بعيني عن الحمامة المقتولة .. كانت راقدة ..  
بيضاء على العشب الأخضر . بلا حراك .

زاد احساسى بالضيق ، وبالخوف من شيء مجهول يكاد  
يدهمنى ، ويقضى على .

التفت الى « حامد بيه » .. خيل لى اننى سأرى على وجهه  
الآلم لمقتل الحمامة الصغيرة .. لكن وجهه الطيب النحيل كان  
يبتسم .. كان يبدو فى غاية السعادة والطرب .. والتفت عيناى  
بعينه ، فقال لى « شايف محسن بيه .. رجل مدهش ..  
مدهش .. الضربة منه لازم تصيب » .. قلت وأنا ازدد ريقى ..  
« تمام .. تمام » .

وحول بصره عنى الى الحلقة .. كان الصمت قد خيم مرة  
أخرى على قضاء النادى .. وارتفعت الراية الحمراء ثم  
انخفضت .. وانطلقت حمامة .. ورفرفت فى الهواء .. لكنها  
قبل أن تحلق عاليا ، كانت الرصاصة قد أصابتها .

.. لا بد أن الرصاصة جاءت بها فى مقتل .. فى الرقبة أو فى  
القلب .

وغاص قلبى .. ومن حولى ثارت عاصفة مجنونة من  
التصفيق والصياح وبقام حامد بيه وقعد على كرسيه مرات  
ومرات ، وظل يهتف متهللا ومنتشيا .. « برافو .. برافو  
محسن بيه » .

ويبدو أن محسن بيه سمع صياحه ، فنظر إلينا فى زهو ،  
وراح يهز لنا بندقيته ، شاكرا ومحيا .

كل العيون كانت تنظر إليه ، حتى عيون الصبايا والنساء

الجميلات . وغير بعيد عنه كانت الحمامة المقتولة — مثل أختها —  
هامة على الأرض . . ولكن فيها بقايا حياة . . أجنحتها تنتفض  
لحظة ، ثم تهمد حركتها على العشب لحظة أخرى . . وتقدم رجل  
يلبس طاقية وجلبابا ومشى نحوها ، وما أن اقترب منها حتى  
تناولها في يده ، ثم أخرج سكيناً من جيبه . . وذبحها .

آه . . قتلوا الحمامة يا طفلي الصغير . . ثم ذبحوها .

وبكى قلبى فى ضمت .

كان اسم محسن بيه يتردد حولى على كل لسان ، ومال  
حامد بيه برأسه نحوى ، فأفقت من ذهولى ، وقال لى وهو  
لا يزال فى قمة نشوته :

— الظاهر ان حظك عال . . مزاج محسن بيه باين عليه  
النهاردة مدهش . . فاضل الحمامة الثالثة .

الحمامة الثالثة . . سيقتلونها يا طفلي الصغير . . ويدبحونها  
أيضا بالسكين .

كان محسن بيه متحفزا لها ببندقيته ، يريد أن يصعقها  
بمجرد أن تطل على الدنيا من الحفرة . . وارتفعت الراية  
الحمراء . . وانطلقت حمامة ملونة ، وانطلقت فى أثرها رصاصة .  
لكن لم يحدث أى تهليل . . خيم على الجميع صمت عميق ، وظلت  
الحمامة ترقرق فى الفضاء ، ورقرق قلبى لمنظرها فرحاً . .  
« يارب » . . كنت أدعو فى سرى أن تفلت الحمامة من المصير  
المفجع .

غير أنه كان باقيا لمحسن بيك رصاصتان . . انطلقت الثانية  
عقب الأولى على الفور . . لكنها طاشت هى الأخرى ، وسمعت  
حامد بيه يقول فى حيرة ويمصمص بشفتيه . . « خسارة . .  
دلوقت مزاج محسن بيه حيزيع . . »

مزاجه يضيع .. ! ؟ . معنى هذا أن موضوعى هو الآخر  
سيضيع .. تتابع أنفاسى .. لا .. يجب أن يصيبها ..  
يجب أن يقتل الحمامة .. وانطلقت عيناي مع كل العيون أرقب  
الرصاصة الثالثة .. لابد أن يصيبها .. يارب يصيبها .

كانت الحمامة قد ابتعدت عن مكانه بكثير .. ولكنها لم  
تكذ تقترب من حدود الحلقة ، حتى انطلقت الرصاصة ، ورأينا  
الحمامة تتلوى وتهوى متطوحة الى الأرض ودون أن تتعدى الخط  
المرسوم .

وبلا وعى .. وجدتني أقفز من على الأرض وأصبح مع الجميع  
كالمحموم .. « هيه .. برافو .. برافو محسن بيه » .. رأيت  
البعض يعانق محسن بيه وهو يلوح ببندقيته بحماس ليرد على  
الصيحات والتحيات ، والنصر يلمع في عينيه .

وفجأة ، أحسست وكأنى أفيق من حلم مفزع ، وانتابنى  
وجوم شديد .. أحسست أننى فى حاجة الى أن أغيب فى عالم  
من الصمت لا حدود له ولا قرار .

كان قلبى يبكى على الحمامات الثلاث . وكانت صورة طفلى  
الصغير تتراءى لى وهو يبكى معى ويقول .. « الراجل ده وحش  
يا بابا .. ليه يقتل الحمامة يا بابا .. »

وأطرقت برأسى فى وجوم . كنت قد فقدت حماسى لكل  
شئ .. لم أعد متحمسا لا لمقابلة محسن بيه ، ولا للكلام معه ،  
ولا حتى للعمل ، ولا لأى شئ فى الحياة .. وحتى بعد أن جاء  
الرجل وجلس معنا ، وكتب لى كارتا أذهب الى صديق كبير  
وحميم له فى إحدى الشركات الزراعية ، كنت كالمذهول ..



أخذت الكارت في يدي وتركت النادي ومضيت الى الشارع أمشي  
على غير هدى .

كانت أصوات الرصاص لاتزال تدوى في أذني . . ومنظر  
الحمائم الثلاث في عيني ، هامة على الأرض مذبوحة . . بلا أدنى  
حرك ، وخوف غريب يطبق على ، من أن تأتي مني من الخلف  
رصاصة مجهولة فتصرعني . . وتنتهي حياتي التي طال بها  
التشريد .

« ١٩٥٧ »

## هدد ؟ ! لا . . انهيار

كان من الصعب أن أتصور أن الأستاذ رياض هذا  
وصاحب هذه الجثة الضخمة كلها شاب في الرابعة والثلاثين . .

فحين ذهبت اليه في مكتبه أول يوم لأتسلم منه عملي في  
الشركة ، وجدت كل ما فيه مكتظا باللحم . . أردافه الضخمة تثقل  
خطواته وتعوق حركته عن السرعة ، وتقاطيع وجهه الأبيض  
الأمس ملظظة ومتداخلة ، وعيناه تبدوان من ثنايا جفونه المنتفخة  
كخرزتين سوداوين لامعتين تتأرجحان في كل اتجاه .

كانت مهمتي عسيرة معه . . فمن أول لحظة كان على أن  
أتفهم نفسيته لكي أكتشف أحسن طريقة للتعاون معه ، وأضمن  
بذلك لنفسي مستقرا في العمل .

وكنت قد التحقت بهذه الشركة بوساطة أحد أولاد  
الحلال . . ولما كان مؤهلي الرسمي الوحيد للأسف ، هو ليسانس  
الحقوق ، فقد عينت بها تحت بند قلم القضايا . . ذلك القلم الذي  
لم يكن يشغله إنسان سوى الأستاذ رياض هذا ولا غير .

لم أكن فرحانا لأنني عشت في عمل مثل هذا . . بالعكس . .

كنت أحس أنه رمية قاسية برمانى بهذا القدر ولا مفر منها . . كنت أكره الحماماء من كل قلبى . . فقد مارسستها من قبل أكثر من سنتين ، وعصرت فيها نفسى لكى أقف فى ميدانها على قدمى وأجرب فيها معنى النجاح . . غير أنى كنت مصابا بمرض عضال . . مرض التأمل فى الحياة والأحياء وتسجيل خواطرى . . وقد وجدتنى أسجل كل يوم . . فيما أسجل ، كرهى لمهنتى . . ثم وصلت ذات يوم الى تعريف بسيط لها ، وهى أنها مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين البشر ، ففاض كرهى لها ، وهجرتها هجرانا تاما .

ولكنى - لسوء الحظ أو لحسنه لا أدرى - كنت متزوجا ولى ثلاثة أطفال وبيت مفتوح . . ولكى يظل هذا البيت مفتوحا ، والأحياء أحياء ، كان من المحال أن أظل منطلقا فى الشوارع أتأمل الحياة والأحياء وأسجل أفكارى وخواطرى . . كان لابد لى من عمل أضمن منه موردا ثابتا كل شهر ، وقد فشلت فى ذلك زمنا طويلا . . وفى النهاية لم أعثر الا على هذا العمل ، وتحت رئاسة الأستاذ رياض هذا ، فقبلت وأنا مرغم وحزين .

ومن أول يوم ذهبت فيه لاستلم منه عملى ، عزمت على أن أفتح له قلبى ، وأن أبحث عن السبيل الى قلبه هو الآخر . وفى لقائنا الأول ، رايته جالسا خلف مكتبه فى هدوء ، فخيل الى أنى امام طفل ضخم وأليف .

استبشرت خيرا بالعمل معه . . فقد أزاح الكرسي الذى يجلس عليه ، ووسع لنفسه فراغا يقف فيه ، ثم نهض يستقبلنى وعلى وجهه ابتسامة لطيفة ، وسلم على مرحبا ، ثم جلس الى مكتبه وبدأنا الحديث .

غير أنى فوجئت بابتسامته تنطفئ وتمحى ، واتخذ وجهه طابعا جادا ورزينا لا يتسق لظلمته ، وبدأ يتكلم .

ومن اول لحظة ، داخلنى شعور خفى بعدم الارتياح ..  
كان يكلمنى دون أن ينظر الى .. وكانت شفثاه تتحركان .. ويداه  
تشاوران ، أما عيناه فكانتا مثبتتين على زجاج مكتبه .

والغريب أنه سبقنى فتكلم فيما كنت أريد أن أتكلم فيه ..  
حدثنى عن التعاون وروح الزمالة والعمل المشترك . وركزت أنا  
الآخر على هذه المعانى وأكثر ، ووصل بى الحماس انى صارحته  
بأنى أرجو أن أخفف عنه كثيرا من عبء العمل .. وأريحه .

كنت أكلمه ووجهه الى مكتبه ، وعيناه على الزجاج .. وقد  
أعطانى وضع وجهه هذا فرصة لأتلمس صدى كلماتى فى نفسه ،  
وأتأمل ملامحه أكثر وأكثر .

كانت بشرته بيضاء مشربة بزرقة خفيفة جدا ، وأذناه  
كبيرتان ومفرطحتان بشكل يلفت النظر ، وكان تغير وجهه جامدا ،  
حتى بدا لى أنه ينتظر بفارغ الصبر انتهائى من كلامى ..  
وحين انتهيت من كلامى وحماسى ، برأيته يجوب بخرزتى  
عينيه فى جذران الحجرة ويقول :

المفروض يكون مكتبك معاى فى الأوضة هنا .. ولكن  
للأسف زى ما انت شايف .. المكتبة القانونية بالعة الأوضة ..  
ويستحسن يكون مكتبك فى الأوضة اللى جنبى .. وحنكون  
قريبين من بعض على كل حال .

كانت هذه اول مناسبة أعرف فيها معنى التعاون وروح  
الزمالة من وجهة نظره .. ومع هذا لم أعبأ كثيرا .. المهم عندى  
أن أعمل فى أى مكان ، وبأى صورة تكون .

ذهبت الى مكتبى الجديد فى الحجرة المجاورة ، وأسندت  
ذقنى على يدى أنتظر منه عملا .. ولم يطل انتظارى .. فقد  
شاهدته يدخل على الحجرة وفى يده بعض ورقات ، ومن خلفه



فراش الشركة يحمل بين ذراعيه آلة كاتبة .. ثم لم يلبث أن وجه لي الحديث : انت عارف ان في الشركة قضايا كثيرة وخطيرة .. وبعضها يحتاج لنوع من السرية . شأن كده أنا شايف انك تعاوننا في كتابتها على المكنة .. مذكرة مثلا ، عريضة دعوى ، ائدار ، الحاجات اللي انت عارفها دي .. انت زميل طبعا وفاهم كل حاجة .

في تلك اللحظة فقط تنبهت الى خطته الماكرة .. ان يحولني من محام في قلم القضايا الى تاييست قلم القضايا .. فما العمل ؟ كان المفروض بالطبع ان أقطع عليه خط الرجعة ، وأحدد الأمر بيني وبينه بجلاء ، لكنني لم أفعل .. ! .. لقد فرحت من أعماقي بخطته هذه ،: وتقبلت طلبه برضا ، بل وتمنيت في نفسي ان يقتصر عملي معه على الآلة الكاتبة ، فأظل بعيدا عن جو القضايا .. ودراسة المواد والنصوص ، تلك التي أمقتها من كل قلبي .

بل اني فرحت بالماكنة فرحا شديدا .. وتصورت نفسي في أوقات الفراغ وأنا أدق عليها لمزاجي وأسجل خواطري وافكاري ، والمسألة كلها من أولها الى آخرها « أكل عيش » .

هكذا استقر الوضع من أول يوم ، ودون ان نتفاهم فيه بصراحة .. تفاديت أن أكون محاميا ، وتفادى هو أن أكون منافسا للعرش الذي يجلس عليه .. ولكي يغطي موقفه معي ، كان دائما وهو يقدم لي شيئا أكتبه ، يركز على كلمة « زميل » .. انت زميل طبعا وعارف .. ما تفتكرش ان كتابة مذكرة زي دي على المكنة حاجة بسيطة .. والتاييست ما بتفهمش في القانون وبتغلط كثير .. لكن انت يوم ما تلقى غلطة حتصححها على طول .. لازم انت تتصرف ، والأمور تمشي على طول .

كنت ابتلع كلامه عن طيب خاطر ولا أعقب عليه .. وسارت  
العلاقة بيننا هكذا في صمت .. أنا في حجرتي أدق مذكرة  
أو عريضة على الآلة ، أو غارق في ذهولي أو في تسجيل خواطري  
وأفكاري ، أما هو فكانت أراه رائحا غاديا يترجرج ، كأنه فرح  
بجشته وشبابه .. وقد حدث أن سافر المدير إلى الخارج لمدة  
شهر ، فازدادت حركته وعلت ضحكاته وكثرت تنقلاته .. كان  
يحدث في كل حجرة يذهب إليها ضجة .. والأستاذ راح يا أولاد ،  
و « المتر » جه يا أولاد ، وتليفون للأستاذ .. وفنجال شاي  
« للمتر » قوام .

كان كمن يتنقل على عرش بين رعاياه وقضاياه .. أما أنا  
فبقيت ساكنا غارقا مع نفسي .

أحيانا ، كانت ضجته تثير في نفسي شعورا بالاستفزاز  
وبالرغبة في الصراع معه .. كنت حينذاك أتخيله بالونة منفوخة  
ضخمة لو شككتها بطرف ابرة صغير لتقلصت وتكرمشت في نفس  
اللحظة .. غير أنني كنت أمسك نفسي .. ان الصراع معه صراع  
من نوع سخيف ، والنصر عليه أسخف .. وإيامي في هذه  
الشركة مهما طالت ، فهي موقوته .. ولن يلوح لي بصيص عمل  
آخر يتجاوب مع روعي الا وسأوليهم ظهري هاربا بلا ندم .

لذلك تركته يصول ويجول على عرش قضاياه ، وبقيت  
هادئا في ركني ، مع ماكينتي .

وذات يوم خال من العمل تقريبا ، جئني في آخر وقت ،  
وقبل انتهاء اليوم بربع ساعة تقريبا ، وطلب مني في حرارة  
زائدة أن أدق له قبل أن أخرج ، عريضة على الآلة الكاتبة .

وكعادته دائما حين يطلب مني طلبا عاجلا ، راح يعبر لي  
عن إحترامه لعملي .. « والله لو سمحت يا أستاذ فلان ..

ونشاطك المعهود والله يا أستاذ .. الخ من تلك الكلمات الخداعة الجميلة » .

ورغم أننا كنا بعد الغروب ، والوقت متأخر ، وطبقات الظلام بدأت تتراكم خلف زجاج النافذة عن يميني ، إلا أن طلبه هذا أنعش روحي بعض الشيء .. فعلمى في ذلك اليوم كان قليلا، وقد حاولت منذ الصباح أن أنتهز فرصة فراغى وأكتب بعض خواطر لنفسي على الماكينة ، لكن ذهني وجسمي كانا قد تخشبا من طول الفراغ .

تناولت منه صورة العريضة وبدأت أدق على الآلة ، كلمة كلمة .. « انه في يوم .. وأنا محضر محكمة .. وفي تاريخه أعلاه .. وحيث أن .. الخ »

ظللت أكتب ورأسي مركز فيما أنقل .. لم أكن أريد الشرود حتى لا أخطيء في شيء فاضطر لأصادة ما كتبت ، حتى وصلت الفقرة التالية .. « وحيث أن الشركة المعلن اليها قد اخلت بالتزاماتها المنصوص عليها في العقد السالف الذكر .. وحيث انه نتيجة لهذا الاخلال ساءت حال جميع المباني الى درجة يخشى عليها من الهدد » .

هدد .. ؟ !

لم تكد عيناي تقعان على هذه الكلمة حتى توقفت يداي عن الحركة وبقيت أصابعى مفرودة في الهواء فوق أصابع الماكينة .

ما كلمة « هدد » هذه .. ؟ وما موقعها من هذه الجملة . ؟

وعدت أفكر مرة أخرى في كلمة « هدد » .. وفي الحال تخيلت رجالا شمرورا عن سواعدهم ، وأمسكوا بفؤوس ومعاول وراحوا يضربون بها في جدران بعض المباني ويهدون فيها .

نعم .. هذا هو الهدد .. أن يكون بفعل انسان ، وهذا ما لا ينطبق على تلك الحالة المذكورة في عريضة الدعوى .

لا .. أنسب كلمة هنا ، هي .. « الانهيار » فتكون الجملة هكذا .. « .. وحيث أنه نتيجة لهذا الأخلال قد سامت حال جميع المباني الى درجة يخشى عليها من الانهيار » .

تمام .. بهذا يكون المعنى مضبوطا .. وانتابنى احساس شديد بالزهو .. احساس يتيم لم أحس به من قبل طوال عملى فى هذه الشركة ، ومضت أصابعى تدق من جديد .

ألغيت كلمة « هدد » وكتبت بدلها كلمة « انهيار » . غير انى لم البث أن توقفت عن الدق مرة أخرى ، وجعلت أسائل نفسى .. « هل أنبه الأستاذ رياض لهذا التغير » ؟ ! .. طبعا ، فواجب الأمانة فى العمل يقتضى ذلك .. ولكن .. ربما يركب رأسه ، ويتذكر عرشه ، فلا يوافق على التغير ، ويطلب منى امادة كتابتها مرة أخرى .

لا .. لا .. الأفضل ألا أنبهه ، فالوقت قد تأخر ، والظلمة أصبحت تغطى زجاج النافذة ، وآن لى أن أخرج الى الشارع لأنفس الهواء الطلق وأصافح وجوه البشر !

لن أنبهه .. وقطعا ستفوت عليه .. فلو كان يعرف المعنى الحقيقى للكلمة ، لما كتبها بالتاكيد .

وعدت أدق من جديد .

ويبدو أنه كان معجبا جدا بكلمة « هدد » هذه ، فكررها كثيرا .. وكنت كلما قابلتني فى سطر من السطور ، غيرتها من تلقاء نفسى على الفور وكتبت بدلا منها « انهيار » .. حتى يحدث انساق فى معنى العريضة كلها .



ولم اكّد انتهى من الكتابة واخرج الأوراق والكربون من  
الماكينة واشّرع في ترتيبها ، حتى رأيته يدخل على والقلق باد  
على وجهه .

— هيه .. خلصت .. ؟ ! عال .. تسمح بقى علشان  
اعرضها على المدير ، احسن قاعد منتظرها مخصوص .

— اتفضل .. بس انا غيرت كلمة بكلمة .

قلت منى الاعتراف فجأة ودون أن أدري .. وبدأ عليه  
وقد أصيب بلعز مفاجيء ، وانقلبت بشرة وجهه وازدادت  
زرقة وفتامة ، ثم قال وكأن كارثة قد لحقت به « كلمة ايه اللى  
غيرتها » ! ؟ ! انت مش عارف انها رايحة المدير . ؟

قلت وانا ابتسم له ابتسامة مهذبة واشير بأصبعى على أحد  
السطور .. « لقيت كلمة « هدد » غير مناسبة .. فكتبت  
بدلها كلمة « انهيار » .

اكفهر وجهه .

— يعنى ايه غير مناسبة . ؟ انا اللى كاتب العريضة وعارف  
أنا باكتب ايه .. طيب لازم تتغير كلها من أول وجديد . اتفضل .

قلت له فى هدوء بالغ :

— حصل خير على العموم ، أصلى كنت فاكّر أن لى الحق  
فى التصرف .. انت نفسك اللى قلت كده ، لكن ..

ورايته يفتح فمه ليرد على كلامى مقاطعا ومحتجا ، غير أنه  
عاد فقفله ولزم الصمت وراح يجلب أنفاسا متتابعة من سيجارته  
حتى خيل الى أنه مصاب بضغط الدم ويخشى عليه ، فأثرت  
السكوت ، خصوصا وأن المشكلة بدت لى سخيفة لا تستحق  
جدلا أو نقاشا ، فتناولت منه الأوراق وقلت متراجعا « على كل

حال أنت اللى شايف المباني وعارف حالتها .. أنت أدري  
بالموضوع .

ويندو أنه استراح قليلا لتراجعى ، فصفت زرقة وجهه  
قليلا ، ثم جذب نفسا سريعا من صدره وقال بحماس : « شوف ..  
ما تفتكرش انى باكتب اى كلام .. أنا دايمًا احب أدقق فى  
الفاظى .. ومش فى الفاظى بس .. فى حياتى كمان .. كل المحامين  
زى ما أنت عارف يحبوا المبالغة فى استعمال الألفاظ .. أنا  
بالعكس .. ما أكتبش الا الحقيقة .. وفى الموضوع بتاعنا ده ،  
أنا فكرت فعلا فى كلمة « انهيار » .. لكن لقيت فيها تهويل  
ومبالغة .. ليه .. ؟ أقول لك ليه .

ومضى يشرح لى الفرق بين كلمة « هدد » وكلمة « انهيار » ..  
غير انى لم أفهم منه شيئا ، بل وجدته يتخبط ويتناقض ويكاد  
يصل الى نفس رأى .. ولمحت بؤادر الحيرة والخرج ترسم على  
وجهه فأسرعت أتدارك حيرته وخرجه .. وقلت له مؤمنا على  
كلامه : « تمام .. تمام يا أستاذ رياض .. هدد مطبوط .

وارتسمت على وجهه شبه ابتسامة باهتة ثم تركنى  
وخرج .. وجلست الى الماكينة لأدق العريضة من جديد .

كان موعد الخروج من الشركة قد فات منذ وقت طويل ..  
وليل الشتاء كالعادة هبط مبكرا ، والموظفون كلهم خرجوا ..  
وبقيت أدق على الماكينة وحدى .. وحانت منى نظرة الى نافذة  
حجرتى فوجدت طبقات الظلام متكاثفة ، والدنيا سكون ،  
ولا صوت من حولى سوى نقرات الماكينة تدق فى رأسى وتملاه  
بالضجيج ، فضاغت من سرعتى لأنتهى من العريضة ، وأنطلق  
الى الشارع أشم رائحة الحياة والناس .

لابد أن مسا من الجنون قد أصابنى بعد ذلك ، فقد وجدتنى

حين قاربت نهاية العريضة أتوقف عن الكتابة وأضحك .  
أضحك على نفسى وبصوت عال . . لقد تنبهت فجأة الى انى وقعت  
فى سهو فظيع لا يغتفر . كنت قد أعدت كلمة « انهيار » فى سطور  
كثيرة .

كانت الكلمة قد التصقت بعقلى . . ونسيت كلمة « هدد »  
هذه بالمرّة . . !!

شعرت بسخرية مريرة من نفسى : الآن . . ماذا أصنع . ؟ !  
لابد أن أعيد للكتابة مرة ثالثة ، وذنبى على جنبى .  
وجئتُ أغير الورقة المكتوبة بأخرى بيضاء خالية ، لكنى  
رأيتُه واقفا على الباب وكل ما فيه يتطق بالارتباك .  
— هيه . . خلصت . ؟ !

قلت وأنا أدارى خجلى : للأسف . . غلطت ثانى . نسيت  
وكتبت انهيار . . وصرخ . . حتى انى خفت أن يفقد رشده  
ويسقط بجسمه الضخم على الأرض ويغمى عليه .

— انت بتحتقر كلامى ؟ يعنى أنا مش عارف أكتب عريضة  
دعوى يا ناس ؟ وماتعملهاش الا لما يكون المدير واقف على  
دماغى ؟ طيب .

قال ( طيب ) . . وفهمت من نبرته أنه يهدد . . عند ذلك  
فقط خرجت عن صمتى . . ان المسألة تتطور . . ويجب أن أتكلم  
وأدافع عن موقفى .

— شوف يا أستاذ رياض . . الأوضة دى أولا ماتزعقش  
فيها . . ثم أنا يا أخى مش مقتنع بكلمة « هدد » دى . . وعشان  
كده كتبت « انهيار » ثانى ، كده من غير ما أحس .

— يعنى كلامى مالوش قيمة . . طرطور أنا فى قلم

القضايا .. تعال حضرتك اقعد مطرحى .. أنا أصلى كنت فاهم  
من أول يوم .

وعاد يصرخ بصوت عال .. غير أن صراخه لم يلبث أن  
احتبس في حلقه فجأة ، حين أحس بالباب يفتح من خلفه ،  
ورأى المدير واقفا بطوله وعرضه في فتحة الباب ينظر إلينا في  
صمت وشموخ واستنكار .

— ايه الحكاية .. الظاهر أنها وكالة .. مش شركة .

كانت هذه أول مرة أرى فيها الأستاذ رياض وجها لوجه مع  
المدير ، ولم يأخذنى العجب حين رأيته يرد عليه وهو مطأطأ  
الرأس وصوته خاشع يتحشرج :

— أنا خلاص يا سعادة البيه .. مش قادر أتعاون معاه  
أبدا .

ونظر لى المدير فى شموخ . يسألنى بعينيه ، غير انى لم  
أتكلم .. لم يكن عندى أدنى حماس لكى أدافع عن نفسى ..  
إنها قضية تافهة .. وكل ما هو حولى ممل وتافهة .. والأستاذ  
تافه .. وسيأتى اليوم الذى أتركهم فيه دون أن أودعهم بكلمة  
شكرا أو حتى كلمة عتاب .

— وعاد المدير يسأل .. « ايه الموضوع .. أنا مش فاهم  
حاجة » .

— عريضة الدعوى يا سعادة البيه .

— مالها .. اتكلم على طول .. فيه ايه .

— قاعد يغير فيها ويبدل على مزاجه .. ودى مسئوليتى  
قدامك يا سعاد البيه .. وبان على وجه المدير التجهم والغضب .

— يغير فيها .. ؟ ! دى عريضة بخمستاشر ألف جنيه .

وشاع خوف غريب على وجه رياض وقال بصوت مترجع :



— على كل حال سعادتك تستريح .. والعريضة حتوصلك  
حالا .. وسليمة .

— استريح .. استريح يا حضرة ، دول خمستاشر ألف ..  
ورينى .

— وتناول منه العريضة ، ونظر اليه مستفسرا .

— فين التغيير الى عمله . ؟ !

ورايث إصابع الأستاذ رياض تمتد وتشير على الورقة  
شبه رعشة :

— كان المفروض يكتب هنا كلمة « هدد » .. لكنه كتب  
« انهيار » .

— هيه .. وغيرها .

— لا يا سعادة البيه .. مفيش غيرها .. بس كررها كثير .  
وسكت المدير ، واخذ يقرأ العبارة على مهل وباهتمام ..  
مرة .. ومرتين .

— طيب وفيين الفلظ . ؟ الجملة ماشية سليمة .. « الى  
درجة أصبح يخشى معها على المباني من الانهيار .. كلام سليم ..  
قصداك فين التغيير » ؟

قال رياض متلجلجا وعيناه منخفضتان .. « لا .. أصل  
كان المفروض يكتب العملية هدد » .. لأن العملية مش انهيار ..  
العملية هدد .

ونظر اليه المدير في استغراب ، وارتسمت على وجهه  
الشامخ ابتسامة سخرية :

— هدد ازاي بقى يا أستاذ ؟ !

والجزم رياض .. ظل مطرقا في صمت ووجوم ، وراح المدير

يقرا العريضة التي كتبتها اول مرة ، من اولها لآخرها ، حتى انتهى منها ثم قال لى وهو يهز رأسه فى رزانة ووقار :

— الكلام مضبوط .. ومن غير كده ما تنفعش .. ثم رد العريضة الى رياض وقال فى جفاء .. « ابقى هاتها لى فى المكتب » وخرج .. ولم البث أن رأيت رياض يخرج خلفه بجسمه الضخم فى سكون ووجوم ، فنهضت من مكانى لكى الحق به ، واستوقفه ، وأقول له صادقا من قلبى :

— أنا آسف .. آسف والله يا أستاذ رياض .. أنا ماكانش قصدى .

لكن الأستاذ رياض كان يتبع المدير فى الصالة الطويلة الساكنة ، بخطوات بطيئة متعثرة تدعو للثناء .

وما أن دخل حجرة المدير وغاب عن بصرى ، حتى أحسنت بانقباض ثقل يملأ روحى ، فانتفضت خارجا الى الشارع ، متمنيا اليوم الذى أستطيع أن أترك فيه هذه الشركة بمن فيها ، دون أن أودعهم بكلمة شكر أو كلمة عتاب .. ولكن .. ربما يومها أقول كلمة اعتذار .. للأستاذ رياض ، ثم أمضى أبحث لنفسى عن موقع جديد فى الحياة .

« ١٩٦١ »

## الرجل الذى ضحك

شخص واحد فقط ، ظل جالسا الى مكتبه الصغير فى ركن  
الحجرة لا يتحرك ، وكأنه لم يسمع بالخبر .

الخبر : أن مدير المؤسسة - واسمه الأستاذ ماجد -  
أصيب باحتقان شديد فى زوره ، فاضطر الى الرقابة فى  
المستشفى عدة أيام لاجراء عملية لاستئصال اللوزتين .

كان الخبر قد وصل الى المبنى الكبير المطل على الميدان  
الواسع المزدحم المستدير ، فحدث على الفور نشاط مفاجيء  
فيه . . الموظفون تركوا مكاتبهم . . وراحوا يلتقون سلالا  
فى الحجرات وعلى السلالم وفى الطرقات ويتفقون : متى يزورون  
المدير فى المستشفى ، واين يلتقون قبل الذهاب .

واحد فقط ، فى كل هذه الضجة ، ظل جالسا الى مكتبه  
فى وجوم لا يتحرك .

هو يوسف خليل .

كان يوسف خليل يقول لنفسه وقد أضنته الحيرة .

هل اذهب . . أم لا اذهب ؟ !

ان زيارة مثل هذه للأستاذ ماجد ، لاشك شيء جميل ..  
ولكن ، هل من حقى فعلا أن أزوره ؟ .. أم أنها حكاية واجب ،  
ولا بد .. لابد أن أؤديه ؟

وخرجت من صدره زفرة .

لكم يظنيه نوع العلاقة التى بينه وبين مديره .. الأستاذ  
ماجد هذا .

أكثر من عامين معه فى العمل « ومع هذا ، فلا شيء بينهما  
سوى التجاهل والصمت .. صمت كان يحز فى نفس يوسف  
ويجرحه .. بل كثيرا ما كان يدفعه الى التفكير فى أن يترك  
هذا العمل ، وهذا المبنى بأكمله وينطلق - بكرامته - فى  
الشوارع ، حتى ولو تشرد فى الدنيا من جديد . لكن صورا  
من الماضى كانت تبرز له فجأة ، فينقبض لها قلبه ، ويسرع  
فيكبح جماح نفسه : لم يعد فى العمر بقية أخرى لاحتمال  
التشرد .. وغدا ، يأتى اليوم الذى يكتشف فيه الرجل  
حقيقته ، فيفتح له قلبه ، وتنصلح الأمور .. لكن هذا اليوم  
أبدا لا يأتى ، وصمت المدير يزداد عمقا ويثقل على قلبه  
يوما بعد يوم .

وعاد يحدث نفسه .

« لو ذهبت اليه فعلا وزرته ، ألن يقول انى انتهزتها  
فرصة لاجلس معه وأتقرب منه ، وأتملقه ؟ .. اليس من الجائزا  
أن يفكر هكذا ؟ .. ثم افترض انى لم أزوره ، فهل سينتبه  
لعدم زيارتى ؟

بالطبع لا .. انه لا يحس بوجودى وهو هنا ، قريب منى  
فى العمل ، فهل سيحس بى وهو هناك ، فى مكان آخر  
بعيد .

لا .. لن اكون طفيليا .



ولن أذهب .

وتجههم وجهه الشاحب فجأة ، واتخذ طابعا صارما ،  
وانكب مرة أخرى على أوراقه ، وراح يواصل عمله من  
جديد .

غير أنه عاد بعد لحظات فتوقف عن العمل ، وراح  
ينصب وهو يحمل في فراغ الحجرة بعينه شبه الجاحظتين .

كان العاملون لا يزالون يتجمعون حول الخبر ويتفقون على  
الزيارة .. وتناهت أصواتهم الى سمعه .. كانت تخفت  
أحيانا وتخفت حتى تبدو في أذنيه كالههمات .. وأحيانا تعلو  
وترتفع حتى تطفئ على أصوات الترام والعربات المنطلقة في  
الميدان القريب .. وتحول مجموع الأصوات فجأة في رأسه  
الى ما يشبه الطنين .

ما كل هذا ؟

ودهمه شعور بالخوف غريب .. وارتسمت له على الفور  
صورة أمه العجوز ، فقمره احساس بالأمان .. ربما هي  
تدعو له الآن من القلب أحر الدعوات .. ذلك هو عملها في  
الحياة .. ومرة أخرى ، جذبت الأصوات والههمات .. فيها  
شيء غريب يوحى بالتحفز والانتباه .. يبدو أن مرض المدير  
ليس مرضا ، وإنما هو حادث .. حادث خطير لا يصح أن يمر  
عليه هكذا ببساطة ، وعليه أن يراجع تفكيره فيه من جديد .

واضح من كل ما سمع أنه سيكون الوحيد الذي لن يزور .

ماذا لو حدث وتنبه الأستاذ ماجد - بشكل من الأشكال -  
لعدم زيارته ؟

صحيح أن الموقف بينهما لن يسوء أكثر مما هو سيء ، لكنها

ستكون - على الأقل من وجهة الذوق - سخيفة في حق رجل مريض .

لا لا .. لابد أن أزور !

ولكن ..

مع من أزور ؟ !

وبلغ أذنيه في تلك اللحظة صوت ضخم عالى ، فانتقبض وجهه لسماعه .. كان الصوت ضخما جدا ، وعاليا جدا حتى ابتلع جميع الأصوات من حوله .. أنه صوت « عباس » رئيس القسم الذى يعمل فيه .. وتخيله واقفا وسط الشلة .. بجسمه المربع السمين ، وعينيه اللولبيتين اللتين تأخذان كل الاتجاهات في آن واحد ، ويكلمهم بحماس زائد .

ضغط يوسف على أسنانه حتى ارتعشت عضلات فكه .

آه منه .. الوغد . لماذا هو متحمس جدا هكذا ، وكأنه ذاهب الى فرح أو حفلة عيد ميلاد ؟ .. أين كان كل هذا الحماس أو بعضه . حين سقط زميلهم الصغير « جبران » مريضا ولزم الفراش في بيته أكثر من شهر ؟ .. لم يزره مرة واحدة ولا حتى سأل عليه بالتليفون .

وهز رأسه كمن يدرك شيئا .

هيه .. « عباس » هذا دائما يعرف المناسبات التى يقفز فيها .. بل أنه لا يقفز ، هو فقط يقف كالجدار ، يحجب الكل وراءه ، والأستاذ ماجد لا يرى سواه .. حتى في هذه الزيارة يريد أن يكون هو الوسيط ، يعمل زفة لرئيسه ويتقدمها ، ويتقدم بذلك من قلب الرجل خطوات وخطوات .

لا .. لن أذهب في شلته .

لن أزور وأمامى جدار .

ولماذا أذهب مع أحد ؟ ..

وكما لو أنه عثر على شيء نادر وثمانين كان ضائعا منه ،  
فأشرح وجهه فجأة ، وتهللت كل ملامحه .. « صحيح ..  
لماذا لا أذهب وحدى .. نعم وحدى ، دون أن يكون معى  
أى انسان آخر » ؟ ..

يا لها من فكرة .

أليست هذه فرصة فعلا .. فرصة كانت على وشك  
أن تضيع ولا يمكن تعويضها .. اجلس مع الأستاذ ماجد لأول  
مرة فى حياتى .. اجلس معه عن قرب ، وبلا تكليف .. و ..  
وبالتأكيد سيحدث بيننا أى كلام .. سيسألنى - على الأقل  
شغلا للوقت - عن أحوالى فى العمل ، وحينئذ أكلمه من  
قلبي .. أخرج له حبات قلبى .. ويحس بى الرجل لأول مرة  
على حقيقتى ، ويكون ذلك بداية عهد جديد لى فى العمل .

آه ...

وتنفس بارتياح ، ثم أشعل سيجارة وراح يجذب منها  
أنفاسا عميقة حارة .

« .. عباس هذا موهوب فى الانتصاب كالجدار ، فلاكن  
أنا الآخر موهوبا فى القفز من فوق الجدران .. نعم .. يجب أن  
أكون واقعا مع نفسى ، فلا ألوم أبدا عباس .. لا ألوم الانفسى  
فالحياة صراع ، وعباس لو لم يفعل هذا ، لما استمر  
وما عاش .. و .. »

وكل يتحرك بطريقته .. فلاتحرك أنا أيضا ، ولكن  
بطريقتى .. ما دمت صادقا مع نفسى فلا يهمنى .. لقد آن  
الأوان .. لا قفز من فوق الجدار .

وتدفقت في عروقه موجة حماس ، فانكب على عمله لينتهي منه ، وبحركة لا ارادية ، مر بيده اليسرى على ذقنه ، فتنبه الى أنه لم يحلقها منذ أربعة أيام ، قال مذكرا نفسه : « لن أنسى أن أحلقها في البيت قبل الذهاب .. لابد أن أكون نظيفا وأنيقا بقدر الامكان »

عند يوسف خليل بدلة بنية اللون ، تفتح وجهه الأسمر وتنعشه فارتداها ، وعنده رباط عنق ملون أهدها أياها صديق قديم عاد أخيرا من بعثة في الخارج فارتداه أيضا .. وحين نظر الى المرأة ، رأى نفسه أنيقا ومتفتحا ، فتفتحت نفسه للزيارة أكثر وأكثر ، وغادر بيته .

وبالصدفة ، لم يكن المستشفى بعيدا جدا عن بيته ، فقرر أن يقطع المسافة مشيا على الأقدام .. كلها ربع ساعة ويكون هناك بالضبط في الموعد الذي حدده لنفسه ! .. كان قد ظل طيلة فترة الظهيرة يفكر ، فوصل الى أن الخامسة مساء هي أنسب الأوقات .. تكون زحمة زيارات الصباح قد انتهت ، وزيارات المساء على وشك البداية ، وبذلك يكون هو البادئ فيكون وقعها خفيفا وجميلا على نفس الرجل ، فيستقبله بود وترحيب .  
ومضى يسير ..

كان الوقت قبل الغروب بقليل ، ورغم أن الدنيا كانت شتاء ، إلا أن الجو كان لطيفا .. لطيفا بشكل محسوس ، والناس يروحون ويجيئون بنشاط .. والسماء ، كانت زرقاء فوق الشوارع ، تخطر بها سحب كبيرة وناعمة وبيضاء .. ولاحظ أن السحابة تتحرك في نفس اتجاهه ، فأسرع بلا وعى من خطواته ، وضحك لنفسه .. « ليس بعيدا أن أرى هذه السحابة نفسها من نافذة حجرة الأستاذ ماجد ، فأقول له وأنا أتحكم في ابتسامتي ناظرا الى النافذة .. هذه السحابة نفسها كانت



فوق راسي وأنا في الطريق اليك .. تصور يا أستاذ ماجد ..  
وكنت أسابقها » .

وندت عنه ضحكة صغيرة .. « أيها الساذج .. ليس الى  
هذا الحد يمكن أن يصل بينكما الكلام .. أنسيت يا يوسف  
أنك ذاهب الى المدير ؟ »

وهبط شيء في داخله .

الكلام فقط سيكون في حدود العمل ، يكفي هذا .

وهبت عليه وهو يسير فوق الرصيف نسمة منعشة  
طرية ، ذكرته بجو العصارى في الصيف ، فأحس برئتيه  
تتسعان ، وخطواته تخف وتسرع .. « فلأشعل سيجارة »  
وجذب نفسا طويلا .. « الدنيا واسعة .. تجمع الأرض  
والسحاب ، والناس والعربات ، والمرضى والأصحاء في قلبها ..  
قلبها الكبير الواحد .. فلماذا يحس المرء أحيانا أنه وحيد ..  
وغريب ؟ . يبدو أن العيب عيبى » .

وهز رأسه ..

بعد قليل .. سيصل الى المستشفى ، وسيدق باب  
حجرة الرجل المريض في هدوء ويدخل .. سيجده راقدا ..  
شاحبا .. على السرير .. سيطلب منه الا يتحرك .. الا يزعج  
نفسه حتى بالسلام ، ويجلس أمامه ، قريبا منه ، ويسأله  
عن صحته ، ويسأله هو بالتالى عن الأحوال في العمل ..  
وحينئذ سيتكلم من قلبه .

آه .. لو أن كل ما في أعماقي استطيع أن أخرج له :  
ان الأمر يتلخص في ..

وداح وهو ينظر بشكل عابر الى واجهات المحلات ،

يستعيد في ذهنه كل الكلام الذى أعده ورتبه مع نفسه طيلة فترة الظهيرة .. سيقوله نقطة نقطة .. لن ينسى واحدة منها .. سيحرص ألا يكون في كلامه أية رائحة للتملق أو النفاق ، بل اذا استدعى الأمر سيوجه اليه - الى الاستاذ ماجد نفسه - بعض الملاحظات .. الى خطته في العمل .. يوجهها اليه بشكل مهذب ورقيق .. وحينئذ يحس الرجل ان هناك وجهة نظر جديدة في العمل كان من الواجب أن يتعرف عليها ويستمع اليها من زمن .. ولكن .. آه منه : « الجدار » .. عباس هذا .. رئيس القسم .. هو الذى يحول دائماً بينك وبين هذه الكفاءات ، بل ودائماً يذر الرماد على أعمالهم ليطفىء من بريقها في عينيك ، ليظل هو اللامع الوحيد في نظرك .

لا .. لا .. لن يذكر اسم « عباس » ولا غير عباس .. لن يتكلم عن هؤلاء الذين يتخذون من التهريج البارع ولباقة الكلام ستاراً يغطون به عجزهم في العمل ، ثم يصلون الى أعلى المراكز .. فقط سيتكلم عن توزيع العمل .. عن الكفاءات التى تعيش راكدة فى الظل .. عن الأساليب الرخيصة التى تروج وتنتشر وتهبط بمستوى الإنتاج والعمل .. خصوصاً .. و ..

ومضى وهو مسرع فى خطواته يستعيد الكلام وينمقه .

فحاة انقطعت خواطره على منظر إحدى الواجهات الزجاجية الأنيقة فتباطأت خطواته .. ومر بيده على ذقنه « اليس المفروض فى مناسبة مثل هذه ، أن يذهب الانسان ومعه هدية .. تحمل المعنى اللطيف والانسانى للزيارة » ؟

وتوقف عن المشى ، وراح ينظر فى الواجهة .. « علبه السجائر هذه مثلاً » .

وراح يتأملها .. علبه مستطيلة ومفضضة .. فى حجم الكف .. مرسوم عليها مربعات سوداء .. وفى قلب كل مربع ،

وسمت باللون الأخضر ، ملكة مصرية قديمة ، جالسة على  
ركبتها ، تصلى للشمس ، والتاج على رأسها ، وفي يدها  
اليمنى فرعان من زهرة اللوتس .

الله .. ما أجملها ..

ووقعت عيناه على الثمن .

يا .. ولوى شفتيه .. لو كنا في أوائل الشهر لفعلتها ،  
بشرى ، بلا أى تفكير ولما همى بعد ذلك كيف أعيش بفيه  
الشهز !!

لو هدية جميلة ومعبرة ، وفي نفس الوقت رخيصة ..  
ما لكل الأشياء الجميلة هكذا غالية !

ووقعت عيناه على حقيبة مفتوحة .. مبطنة بقطيفة ،  
سماوية اللون ، معروض عليها - بترتيب وأناقة - محفظة ،  
وجلد ساعة ، وحزام ، كتب على ورقة صغيرة مجاورة له ..  
حزام جلد لأزار .

ماذا تعنى « لأزار » هذه ؟ كم فى الدنيا من أشياء لا نعرفها .  
وراح يتفحص جلد الحزام . وتذكر فجأة أن الأستاذ ماجد له  
كرش ضخيم يسبقه دائما فى المسير ، فابتسم لنفسه وهو  
يكاد يضحك .. يا مغفل .. الأستاذ ماجد قطعا لا يستعمل  
الأحزمة .. انما يستعمل الحمالات لتعينه على المسير .. واتسعت  
ابتسامته ، وواصل المسير مبتعدا عن الواجهة .

نعم .. لا داعى للتفكير فى حكاية الهدية هذه ، فالأستاذ  
ماجد لابد يعرف حالة واحد مثله .. ثم أن العلاقة بينهما لم  
ترتفع بعد الى هذا المستوى .

فلتكن الزيارة هكذا .. عادية وبسيطة .. من القلب الى  
القلب ، ولتكن هديته اليه بعض أفكار تعود على العمل

بالنفع .. نعم .. لابد أن يكون معقولا ومتزنا في كلامه .. لابد أن ينكر ذاته .. وليكن كل اتجاهه في الحديث خطة جديدة للعمل .. ومرة أخرى .. لا داعي أبدا لذكر أية أسماء بالمرّة .. سيقول له .. « رئيس العمل كالمالسترو .. عصاه الصغيرة الأنيقة تشير الى أصغر عازف كما تشير الى أكبر عازف .. نعم يا استاذ ماجد .. عليك أن تكشف قدرات الجميع وتحضنها ..

مرة أخرى ، تباطأت خطواته ، ثم توقف نهائيا عن المسير وقد ارتفع حاجباه بالسرور .

رأى عن يمينه فاترينة ضخمة عالية من الزجاج ، وخيوط رقيقة من الماء تنزلق عليها وتتسرب في خطوط متعرجة .. وكل سرسوب ترقص بداخله قطرات صغيرة تتواثب وتتلاحق حتى تصل الى أسفل الفاترينة لتسقى مجموعات زهور ناضرة وملونة .

وتفتحت أساريره .

لو « بوكيه » من هذه الزهور الجميلة ، يحمله اليه هدية ؟ و .. الله لو تكون من زهرة « البانسيه » بالذات . لقد قرأ عن هذه الزهور ذات مرة في إحدى القصص ، وأحبها ثم سأل عنها ، وحين رآها أحبها أكثر .

هيه .. مرة أخرى .. الفلوس .. فليدعه نهائيا من هذا الموضوع ، ويواصل السير في خط مستقيم .

هم أن يفادر الفاترينة ، لكن قدميه تسمرت ، وتعلقت عيناه بمنظر جميل : « فازه » صغيرة من النيكل .. تخرج منها ثلاث وردات .. والثلاث صفار .. بلدى .. كلها براعم تكاد



تتفتح .. الله .. أجمل ما فى الحياة ، هى الأشياء الصغيرة  
التي تعطى وعدا بالتفتح والازدهار .

لماذا لا يأخذ واحدة منها .. واحدة فقط ، ويقدمها اليه؟  
ستكون لمسة جميلة بلاشك .. ودون أن يدري ، وجد نفسه  
يدخل المحل .. غالب احساسه بالخجل وبالارتباك واشترى  
واحدة من الوردات الثلاث .. وخرج .

استخفه فرح غريب حتى كاد يقفز فى مشيته .. سيقدم  
له هذه الوردة الصغيرة هدية .. وقد تثير دهشة الأستاذ  
ماجد فى أول الأمر ، لكنها ستكون دهشة الانسان الطيب  
لكل ما هو صغير وجميل ومؤثر .. وسيعرف أى نوع من الناس ،  
هو يوسف .

ومضى يوسف يمشى بمرح .

الورد رمز للود بين الناس .. فلتكن هذه هى هديته اليه فى  
مرضه .

ولكن .. هل يظل يحملها فى يده هكذا ؟ .. يتركها  
تتأرجح أمام الناس بين أصابعه كإى شاب « عايق » .. فرحان  
بنفسه ؟ .. اذن ماذا يفعل ؟ .. يلقيها فى ورقة ؟ .. لكنها  
رقيقة ، وصغيرة .. لا تحتل .

وبمنتهى الصدر ، فتح جاكته ، وبمنتهى الرقة ، أدخل  
غصنها الرفيع الأخضر المورق فى جيبه الداخلى ، وبقيت الزهرة  
الحمراء خارج الجيب تلامس صدره .. وأحس بقلبه يدق  
دقات سريعة وحنونة .

ربما .. ربما يجمع الود كل الناس فى يوم من الأيام ..  
وتطيب الحياة .. وواصل المسير الى المستشفى .

كان بين الحين والحين يضع يده على صدر الجاكته  
ويتحسس الوردة بحنان بالغ ويطمئن عليها . ولم يكن يرى من  
الأشياء التي تقابله في الشارع سوى خطوطها المريضة العامة .  
وأخيرا وجد نفسه أمام باب المستشفى .

لم يتعب في السؤال عن الحجرة . . قالوا له . . « عند  
نهاية الممر . . خذ يمينك وستجدها » .

وسار في الممر . . ممر طويل تكسوه ظلال هادئة أوجت  
إليه أن يخفف من وقع خطواته ، وما أن انتهى منه والتفت إلى  
اليمين حيث باب الحجرة ، حتى جحظت عيناه في دهشة وتسمر  
في مكانه .

ما هذا ؟ لكأنه في حديقة للزهور !

أكثر من مائة بوكيه ورد . . وأكثر من ألف وردة بلدى  
مرصوفة بأناقة ونظام أمام الحجرة ، حتى تكاد تسد الطريق  
إليه . . و . . ووسط الزهور والورود ، عشرات البراعم الصغيرة  
التي لم تتفتح بعد .

أحس بشيء يسد حلقه ، وبشيء كالدوار يلف بسرعة في  
رأسه .

إلى هذا الحد كان ساذجا ؟ . . يشتري للمدير وردة ؟ . .  
وهز رأسه بشدة . . حمدا لله أن أحدا في العالم لم يعلم  
بفعلته . . وأغمض لحظة . . هيا يا يوسف . . ابتسم  
وبسرعة . . لا تطل الوقوف هكذا أمام الباب . . هيا أفرد صدرك  
وادخل على الرجل المريض بوجه بشوش .

كان الأستاذ ماجد راقدًا على سرير أبيض . . وبدأ بجسمه  
الضخم أكبر من السرير . . ولأول مرة كان يراه يوسف

ببيجامته .. ولمح شعرات سوداء كثيفة نابثة في صدره ..  
والحجرة كانت تموج بسكون مهيب .. خطا يوسف نحوه  
بنشاط ، وسلم عليه بحرارة .

-- حمد الله على سلامتك يا أستاذ ماجد .  
واعتدل ماجد قليلا في رقدته وقال وهو يمد يده بالسلام :  
- متشكر .

قالها بصوت واهن متحشرج ، فتذكر يوسف على الفور  
- كالمصدوم - ان العملية التي أجراها الرجل ، عملية لوز ..  
ومعنى هذا أن الزور مجروح ، واذن لا كلام على الإطلاق ..

احس بحجر كبير يسقط على قلبه .. أسقط في يده  
وأرتك .. كيف لم يفكر في هذا ولو لحظة ؟ .. كيف ظل يفكر  
الساعات ويعد في الكلام الذي سيقوله له ، وفي الردود التي  
سيستمعها منه ؟

وشملت روحه غشاوة ، فاطرق .. لكنه عاد يجاهد ..  
فربما ..

- شد حيلك يا أستاذ ماجد .. مش حضرتك أحسن  
دلوقت ؟

ودون أن ينطق الرجل بكلمة ، هز له رأسه هزة مقتضبة ،  
وبسط له كفيه علامة الاعتذار ، ثم أشار الى حنجرتة ، واطرق  
وأغمض عينيه .

اذن .. ولا كلمة .

بقى هو الآخر جالسا مطرقا في ضمت .. أحس بما يشبه  
الاختناق .. وفكر .. « لو قمت الآن فسيستريح كلانا من  
غير شك » .

تذكر الوردة فجأة ، فانتفضت أعماقه .. قد تبرز من صدر الجاكتة عفوا فيلمحها الرجل ويتعجب في نفسه .. أحكم يوسف من غلق الجاكتة ، ثم عقد ذراعيه فوق صدره .. أحس بالوردة .. بأوراقها تكاد تتفتت .. انقبض قلبه .. ومر بذهنه خاطر ، يخرجها من جيبه ويقدمها .. لكن الصمت في الحجرة كان ثقيلًا يجمد كل شيء .. والرجل مطرق ومغمض عينيه .. وشعره كثيف فوق جبهته .. وكل ما في الغرفة يوحي لكل ما فيها ولكل ما في الأعماق أن يتوقف ويصمت .. ان تظل المسافات والأبعاد كما هي ، لا تتغير ولا تتبدل .

انتابه احساس دافق بالهروب .

أيقوم ويستأذن ؟

لكن الرجل كان لا يزال مطرقًا ومغمضًا عينيه .. لا يصح أن يقلقه .. فليظل جالسًا هكذا حتى يفتح عينيه .

وأطرق هو الآخر .

فجأة ، تناهت الى مسامعه ضجة ، فارتعد كل وجوده ..

ورأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، كانت إحدى الشلل قادمة لزيارته .. يتقدمها عباس .. واغتمت روحه لمراه .. كان يتحنجل في خطاه ، ولم يكد يخطو من الباب بجسمه السمين المربع ، حتى شمل الغرفة كلها بنظرة واحدة سريعة من عينيه اللولبيتين ، وقال بصوت يقترب من الصياح وهو يخطو نحو السرير .. « سمعت آخر نكته يا ريس » ؟ .

وقبل أن يلقي بالنكته ، وقبل أن يرد عليه الرجل بكلمة ، سمع يوسف الحجرة كلها تفرقع بالضحكات .. وبدون أن يدري كيف يمكن أن يحدث هذا ، رأى وجه الأستاذ ماجد الساكن



ينشرح ويسطع بالبهجة ، ثم يقول لعباس بصوته المتحشرج  
ويكاد يضحك :

— خلت لك ألف مرة بطل جنان .. قوللى أول .. ايه  
أخبار الشغل !

ومط « عباس » شفتيه بحركة عتاب ، ثم مال براسه  
قلبلا على كتف الرجل وقال : « جرى ايه يا ريس .. يا ريس  
رفقا .. رفقا بصحتك .. والنبي كل حاجة ماشيه عال ..  
بحسك .. اسمع أول النكتة دى : كان فيه مرة واحد راجل  
بدقن ، قابل واحدة ست .. راح .. »

ولم يتابع يوسف النكتة .. كان يحس فى رأسه بدوار  
وانه يتلاشى .. لا يسمع ولا يرى .. طغى عليه شعور كاسح  
بالغربة .. وانه الطفيلى الوحيد فى الحجرة .. وتذكر بالكاد  
وهو يختنق ، انه جاء قبلهم واذن فله الحق أن يخرج أيضا  
قبلهم .. ولكن كيف يفعل هذا ؟ .. وسط هذه الزبطة ،  
والأنظار والأنفاس كلها متجهة الى الأستاذ ماجد ؟

مستحيل .. مستحيل يا يوسف أن تصدر منك أية حركة .

لقد وقعت فى فخ .. ولا مهرب .

وأفاق فجأة على ضحكة ضخمة من عباس ، تبعتها ضحكة  
هائلة من الجميع ، فانتفض فى فزع .. انه الوحيد الذى  
لا يضحك .

وبسرعة ، فتح قفمه .

وراح يضحك ويضحك .. ويضحك ويضحك .

« ١٩٦١ »

## شاطر يا عبد الستار أفندى

مضت أكثر من ثلاث سنوات وعبد الستار أفندى موظف مغمور في تلك الشركة الكبيرة المشهورة .. وذات يوم .. وجد أمامه الفرصة سانحة ليثبت فيها للمدير أنه شاب موهوب ونشيط ، فصمم ألا يضيعها على نفسه .. !

لم تكن بينه وبين المدير من قبل علاقة عمل مباشرة .. ولكن حدث أن تغيب السكرتير يوما عن الشركة ، فاستدعاه الرجل المهيب الى حجرة مكتبه الفاخرة ، وطلب منه بنفسه والاهتمام باد على وجهه الوقور الجاد ، أن ينجز له بعض عمليات حسابية عاجلة ، ثم يعرضها عليه في اليوم نفسه ، حتى لو اقتضاه الأمر أن يتأخر في الخروج بعضا من الوقت .

وبالطبع رحب عبد الستار بطلب مديره من كل قلبه ، وعلق على انجازه آمالا كبارا .

وما أن عاد الى حجرته ، حتى كان قد تحول الى شعلة متوهجة من الحماس والنشاط .. خلع جاكته وكرافته وعلقهما على ظهر الكرسي الذى يجلس عليه ، ثم أشعل سيجارة وأخذ

نفسا طويلا بمزاج ، ثم انكب على مكتبه وأوراقه ، وسرعان ما نسي العالم كله ، واستغرق في مهمته الخطيرة .

صورة واحدة فقط ، هي التي كانت تتراءى له بين الحين والحين وتتخلل الأرقام والأعداد التي يحسب فيها .. المدير بوجهه المهيّب الجاد ، جالس خلف مكتبه في أقصى حجراته الواسعة الطويلة وكأنها صالة ، وينظر الى الباب فيراه ، داخلا عليه محملا بالدفاتر والأوراق فيبتسم له ابتسامة خفيفة جدا ، ثم يقول له في وقار .. « خلصت بسرعة كده .. ؟ لا .. برافو عليك يا عبد الستار أفندى » .

لو يقول له المدير عبارة مثل هذه .

وتأججت شعلة الحماس في قلب عبد الستار أكثر وأكثر ، وراح قلمه يعمل مع عينيه في المئات والألوف من الأرقام والأعداد، ولم يرفع رأسه عنها وعن المكتب ، الا بعد ان انتهى من المهمة كلها ، واطمان لها تماما .

عظيم .. لسوف يعجب المدير قطعا بمهمته ونشاطه .. وسيقول لنفسه .. هذا شاب نشيط وكفؤ .. فلماذا لا نستغل نشاطه وكفاءته بصورة أحسن في العمل .. ؟ ! ألم ينجز العملية في أقل من نصف الوقت المقدر لها .. والوقت هنا من ذهب .. ؟ !

ونهض عبد الستار من على مقعده في حماس ، وتساؤل جاكته وكرافته ولبسهما ، وبدأ على وجهه النحيل الأسمر أنه تذكر شيئا هاما ، فخطا نحو زجاج النافذة ، وخطف من خياله المنعكس فيه نظرة سريعة ليطمئن على منظره ، ثم انحنى على دفاتره وأوراقه ، وحملها بين يديه وسار بها فرحانا الى حجرة المدير .

كانت الحجرة تقع في نهاية الصبالة ، في ركن هادئ على

اليسار ، وحرص عبد الستار وهو يمشى نحوها أن تكون خطواته مهذبة جدا ، وهادئة جدا ، ولا صوت لها .

ورأى الباب مواربا . . وهم أن يدقه مستأذنا ، لكنه خشى أن تسقط الأوراق من بين يديه .

أينحنى ويضع حمله الثقيل على الأرض . . ثم يدق الباب مستأذنا . . ثم يعود فينحنى ويحمل الحمل من جديد ، ثم يدخل بعد ذلك . ! ؟ . لا . . لا داعى لكل ذلك هذه المرة . . سيدخل مباشرة ، فى أدب يفنى عن الاستئذان . . حاملا غدره بين يديه ، وسيستقبله الرجل بنظرة تقدير .

وفتح الباب بكتفه الأيمن فى هدوء بالغ . . ودخل .

لم يكد وجهه يسبقه فى الدخول ، حتى لطشه منظر غريب . . أحس على الفور بشيء يكاد يصعقه ويشل حركته . . وأراد أن يستدير بأوراقه وينفلت عائداً الى حجرته . . وتنتهى المسألة عند هذا الحد ، لكن ضجة كبرى كانت قد حدثت فى نفس اللحظة ، ولم تمهله لكى يعود ، خيل اليه أن ديناميتا قد تفجر وطاش فى قلب جبل . . !!

ايمكن أن يحدث هذا يا ناس ؟ !

يمكن وأكثر . . فقد هوى أمام عينيه فجأة ، كأس ليمونادة مثلج على مكتب المدير . . وانسكب على حافظة أوراقه الخضراء ، وعلى بنطلونه من ناحية البطن ، وعلى الأرض أيضا .

لسبب لا يدرىه مخلوق فى هذا العالم كله ، لم يدخل عبد الستار الحجرة الا فى هذه اللحظة بالذات . . ولو كان قد تقدم دقيقة واحدة أو تأخرها ،: فربما لم يكن قد رأى ما رآه . . ولكن ساعة النحس تاتى لأبسط الاسباب !



فحين أطل عبد الستار بوجهه من الباب في هدوء ، كان المدير  
في وضع غريب .

كان يبدو كأنه يهم بالنهوض من على مقعده ، ويمد إصابع  
يده الطويلة الضخمة الى صدر سكرتيرته الشقراء مازحا  
ومغازلا .. أما هي فكانت - في نفس اللحظة أيضا - تقفز في  
دلال وتمنع .. وتقول « لا يا استاذ .. كده يبقى عيب » .

الدنيا يومها كانت صيفا وحرا .. وكانت ترتدى بلوزة  
لونها برتقالي ، والفتحة العليا التي بين مفرق ثدييها واضحة  
وفيها ظل جميل . وكتفاها كانا شبه عاريين ، وخصرها نحيل  
جدا ، وخصلة من شعرها البنى المصبوغ ترتدى على حاجبيها  
الأيسر !

الغزال الأشقر الحرون كان يقفز ويتأوه .. والأصابع الكبيرة  
كانت تمتد في نهم .. وفي نفس اللحظة ، جاءت عين عبد الستار  
في عين مديره المحترم !!  
كلاهما أحس بلسعة حارقة .

هم عبد الستار بالارتداد على عقبه ليعود بدفاتره وأوراقه  
الى حجرته لكنه لم يستطع .. فحين لمح الرجل داخلا عليه ،  
استرد يده من على الصدر النافر ، وكأنه يخرجها من ماء  
مغلي .. وقبل أن تعود يده الى مكانها الطبيعي ، كانت هوجاء  
ملعورة ، فأطاحت بكأس ليمونادة مثلجة كانت موضوعة أمامه  
على المكتب ، وأحدثت ضجة كبرى !

أما عبد الستار ، فقد وجد نفسه دون أن يدري - يتخلص  
من أوراقه ودفاتره واندفع كالأخوذ الى مكتب الرجل ، وراح  
وهو مسحوب الأنفاس يجفف بمنديله الحافظة وزجاج المكتب  
من السائل المراق .. !!

ظل منحنيا على المكتب يمسحه .. يده ترتعش ، وانفاسه  
تكاد تذهب ، وخواطر كئيبة محزنة تتدافع وتتزاحم في رأسه .

كده يا عبد الستار .. ؟ ! لماذا دخلت هكذا من غير  
إذن . ؟ ! . وفي هذه اللحظة بالذات . ؟ ! ها أنت قد رأيت كل  
شئ .. رأيت مديرك المهيب في العن لحظة . ! .. أنت لا ترضى  
بالحرج لرجل مثل هذا ، لم يكن يكلم أحدا في العمل الا من  
لفلوجه السمين المتدلى تحت رقبتة !! .

لا يا عبد الستار .. لم يكن يصح منك هذا أبدا .. قطعت  
عيشك بنفسك ، ونخل الحماس والشاطرة تنفك . !! .

الخواطر والأشباح كانت تتدافع وتتزاحم في رأسه وهو  
مقوس الظهر فوق المكتب يجفقه .. ولو كان الأمر متروكا  
له هو وحده ، لظل هكذا منحيا دون أن يرفع رأسه ، حتى  
لا تلتقى عيناه بعيني المدير مرة أخرى .. !!

لكن المفروض في الرجل أنه مشغول دائما ، وفوق رأسه  
برواز ذهبي أنيق مكتوب بداخله بخط جميل .. « الوقت من  
ذهب » .

إذن .. عليه أن ينسحب .. ولكن .. كيف ينسحب ؟ ! .

أقول له .. اغفر لي هذه الغلطة يا سعادة البية !! ..  
لا .. لا داعي للمغفرة أبدا ، فأنا لم أفر شيئا بالمرة .. وان كنت  
قد رأيت ، ففي بشر عميق والله .. حتى أصندقائي في سهرة  
الليلة لن أتسلى معهم .. ولن أضحكهم بكلام مثل هذا .. فليس  
كل ما يرى ، يقال يا سعادة البية .

والسكرتيرة في الحقيقة حلوة .. ساخنة يا سعادة البية في  
سخونة هذا اليوم الملهب . ولا عليك أن تتسلى لحظة وتروح

عن نفسك . . نعم تتسلى . . فمعاذ الله أن يكون معظم وقتك معها هكذا .

واحس عبد الستار بحزن شديد يثقل على قلبه ، وندم قادم يجتاح نفسه .

الصمت كان في الحجرة عميقا ومدهلا . . وعبد الستار لا يزال منحنيا على المكتب . . وخطوط الليمون الثلج مناسبة على الأرض . . وصاحبة البلوزة البرتقالية واقفة لا تدرى من الأمر شيئا على وجه اليقين ، فقد كان ظهرها لحظة النحس للباب .

أما المدير ، فقد نبتت في جبهته العريضة حبات عرق كثيرة ، واصفرت بشرة وجهه وكأنها تفضنت . . كان هو الآخر قد شل عن الكلام .

أستطيع أن يصرخ في وجه عبد الستار ، ويقول مشيرا على الباب . . « اتفضل اخرج بره » لكن أنفاسه لم تكن تسعفه على أى كلام .

واستمر الصمت الثقيل لحظات ، ثم علت فجأة دقات كعب حذاء السكرتيرة على أرض الحجرة الباركية . . ومضت خارجة بلا أى كلام . وبقيا هما الاثنان وحدهما .

هيه يا عبد الستار . . لا بد أن تتصرف بسرعة . . لا تعقد الغلظة أكثر وأكثر . . غادر الحجرة على الفور . . لقد جففت الليمون بمنديلك حتى فاض ، وأن لك أن تعصره . . وتعصر نفسك أيضا .

وكمن يحمل ثقلا ضخما يتدلى من حول عنقه ، راح يرفع رأسه من على المكتب في ثاقل وقلبه يدق . . وحين حاذت

عيناه عيني الرجل وشرع ينظر اليه ليقول له أى شيء . . أى شيء  
يأتى على لسانه . . لكن الرجل نفسه كان مطرقا برأسه ،  
وأصابعه تدق بقلم صغير على زجاج المكتب دقات رهيبة متتابعة  
وكانها ندير .

وفي صمت وانحناء ، خطا عبد الستار خطوات قليلة نحو  
منضدة زجاجية كان قد وضع عليها الدفاتر والأوراق دون أن  
يدري ، ثم حملها بين يديه ، ووقف بها أمام مديره مطرقا في  
صمت .

أيتقدم بأوراقه ويضعها بأدب على المكتب ، ثم ينصرف في  
سكون . ؟

لا . . يجب ألا يعيد حماقته . . يجب ألا يخطو خطوة  
واحدة نحو الرجل الا بإشارة منه .

كانت وقفته في منتصف الحجرة الواسعة . . بعيدا بعض  
الشيء عن المكتب الفاخر ، وبدا وهو مطرق في وقفته حاملا  
أوراقه ، كمن يحمل ذنبا كبيرا بين يديه . .

وطالت وقفته لحظات . . لكن الرجل لم يرفع له رأسه . .  
ولم ينطق بحرف . . بل ظل يدق زجاج مكتبه بطرف قلمه  
دقات غريبة ومخيفة .

هيه يا عبد الستار . . الواضح أن الرجل متجاهل وجودك  
أنت وأوراقك . . فالى متى ستظل في وقفتك الرهيبة هذه .

ها هي دقات قلم المدير قد توقفت تماما ، وبدأ ينفخ من  
أنفه الضخم . . ثمة انفجار آخر على وشك الحدوث .

انسحب فورا بأوراقك . . وعد بخيبتك أيها المتحمس  
النشيط الى عالمك الذى كنت تعيش فيه مغمورا منذ أكثر من  
ثلاث سنوات .



واستدار عيد الستار بدفاتره وأوراقه الى الباب ، ومشى  
في هدوء ، ثم خرج كالدهول .

ولم يكد يصل الى حجرته حتى قفل بابها خلفه واستند  
بظهره عليه والأوراق بين يديه ، ثم أغمض عينيه . . يسترجع  
الموقف دون ان يصدق أنه قد حدث . . وبعد وقت لا يدريه ، كان  
يتحرك من مكانه في ببطء ، وضحكة هستيرية ساخرة تخرج من  
قلبه الحزين . . ثم جلس الى مكتبه ورأسه بين كفيه ، وراح  
يفكر في المصير .

« ١٩٦٢ »

## فى شارع السد

فى تلك الساعة ، كان من المهم أن يكون لكل انسان بيت  
أو سقف ليهرع اليه ويستظل فيه . . أما من ليس له بيت  
ولا سقف ، فكان من المحتم عليه أن يهرب من ذلك السعير الذى  
تطرده الأرض من جوفها ، ويبحث عن شبر من الظل ليجلس  
فيه ويجفف عرقه ويستريح .

وشارع السد الذى ينحدر من ميدان السيدة زينب ، كان  
سامتها يعلو فضائوه بالصهد وأرضه التى كانت لم ترصف  
بعد ، ومبانيه العالية القديمة المشققة ، وعربات الكارو المتناثرة  
فى أنحائه ، كانت تبدو كلها من شدة الحر هامة وهشة ،  
لها رائحة الشيء الذى يوشك على الاحتراق . . وكان الشارع  
يبدو خاليا الا من أرجل قليلة بدت وهى تهزول مثل عفاريت  
الظهر .

على أن هذا الفراغ لم يلبث أن راح يخف شيئا فشيئا . .  
فالشمس كانت ماضية كالعادة فى رحلتها نحو الغرب ، والبيوت  
الرمادية القديمة المرتفعة على اليمين بدات ترمى على الأرض

ظللاً راحت تطول لحظة بعد لحظة .. ولم تكد تتكون منطقة واضحة من الظل حتى آوى إليها كثير من الرجال والشبان والصبية ، تمدد البعض منهم وأقفل عينيهِ ، وحاول أن يففو .. واشترك البعض في جولة وراحوا يدخنون المعسل ويتحدثون . ولم يكد يمر بعض من الوقت حتى فوجيء الجميع بصوت نفير يرتفع في الفضاء وينتشر .

— توت .. توت .. توت .

امتدت أعناقهم ناحية الصوت وراحوا ينظرون في فضول ، لكن البعض لم يلبث أن لوى شفتيه في سخرية واستخفاف ، وعدل برقبته على رأسه وراح يفكر في حاله من جديد .. أما البعض الآخر ، فقد ظل ينظر في فضول ويبتسم .. !!

كانت طفلة صغيرة تقف بالقرب منهم في الظل ، وبين يديها الصغيرتين نفير نحاس صدئ راحت تنفخ فيه بشدة .

لم يكن عمرها يزيد عن العاشرة ، قمحية الوجه شاحبة .. في أسفل ذقنها دقة صغيرة خضراء ، وتلبس جاكطة قديمة حمراء ، وبنطلونا أسود يبرز منه جزء كبير من ساقيهما النحيلتين .. وبالقرب منها ، كان رجل كبير يخطو على مهل ، وقد بدا من أول لحظة أنه أبوها .. كان عارى الرأس ، يلبس صديرياً غامقاً مخططاً ، وسروالاً أبيض فضفاضاً ومربوطاً من عند القدمين كالذي يلبسه الصيادون ، أما وجهه فكان مستطيلاً رفيعاً ، والأنف حاد كالمنقار ، والعينان لا تبرز خضرتهما الداكنة من داخل وجهه الغائر المعفر .

وراح الرجل يرقب ابنته في نظرات صارمة ، ثم أشار لها بدقنه إشارة خفيفة آمرة على أثرها أنزلت النفير من على قمها ، وألقت به على الأرض ، ثم أخذت تفرك كفيها الصغيرتين وتصيح

بصونها الرفيع وعيناها تتجولان في الراقدين على الأرض تارة ،  
وفي الناس القلائل الذين يمرون بالشارع تارة أخرى .

» .. هادي يا هادي .. يا ابو العباس يا حامي  
اسكندرية « .

ثم انحنى على الأرض والتقطت دفًا راحت تدق عليه  
دقات سريعة متتابعة ، وعادت تصيح في صرخات رفيعة :

» .. تكالي واعتمادى عليك يارب .. يا رازق الطير أرزق  
عبيدك « .

وارسلت عينيها الى مقام السيدة زينب المواجه لها ،  
وراحت تنادى وكلماتها المنغمة تمتزج بايقاع شخصخة الدف :

— نظرة .. يا بنت زين العابدين .

وعادت دقات الدف وشخصخاته تتتابع وتسرع أكثر من  
الأول .

كانت مساحة الظل التي تلقيها البيوت قد أخذت تتسع  
وتترامى ، والايقاع بدأ ينتظم في نغم متوازن متماسك ، ووجهها  
الصغير الشاحب أصبح أكثر تعبيرا وانفعالا .. وفي دقائق قليلة ،  
كان جمع غير قليل من الناس بدأ يتجمع حولها وتكونت حلقة  
منهم ليتفرجوا عليها .

وخطا أبوها نحوها خطوتين طويلتين ثم قال لها في صوت  
حاد وهو يصفق وعيناها تتجولان في الشارع وفي الناس .

» .. هوب هوب .. ياللا هوب .. وري الرجالة شغلك  
يا محروسة « .



وقفزت الطفلة في الحال قفزة سريعة ، واذا براسها  
تحت ، وقدميها فوق .  
صاح الأب :

الحق شوف .. طفلة عجيبة .  
لحظات .. وقفزت قفزة أخرى اعادتها الى وقفرتها  
الطبيعية .

جلبت من صدرها الهزيل نفسا عميقا ، ثم رفعت وجهها  
الى السماء المتوهجة ، وأرسلت من النفير أنفاما متقطعة متلاحقة  
ثم عادت تقول وهي تخرج بعض أكواب نحاسية صغيرة من كيس  
ملقى على الأرض :

— ١ ، ٢ ، ٣ .. اللعب يبدأ يا جدعان واللى يحب النبي  
يصلى عليه .

همهم الواقفون .. « اللهم صلى عليه » .  
ووجهت الطفلة كلامها الى أبيها :

— أبويا ..

— عاوزه ايه .. ؟ !

— ايه ده .. ؟ !

— كتكوت ..

— كم كتكوت .. ؟ !

— كتكوت واحد ..

— طيب لو كانوا ثلاثة ؟ .. ؟ !

— مش معقول ..

وحولت الطفلة نظرتها الى الواقفين من حولها ، وراحت  
تقول وهي تشير الى أبيها :

— شوفوا الحاوى ده كبير ازاي .. وأنا صغيرة أد ايه ..  
لكن أنا لعب أحسن منه .. والجدة يظبطنى .. دول كام  
كباية . ؟ ! طبعا ثلاثة .. وده كم كتكوت ؟ .. طبعا واحد  
مش كده .. طيب فتح عينك .. وانت يا راجل يا طويل يا عريض  
يا اللى واقف هناك ، لو جده يظبطنى .

وتوجهت أنظار الكل الى رجل فلاح يقف بينهم بقامته  
الفارعة ويلبس جلبابا بلديا وطاقية صوف ، وكان يتسم لها  
من قلبه .

وثبتت ركبتيها فى حركة رشيقة وجلست على الأرض فى  
غمضة عين .. وفردت ساقها أمامها .. ثم وضعت كتكوتها على  
التراب وتركته يجرى ويقفز وسط المتفرجين .. كان كتكوتا مرحا  
لونه تختلط فيه الصفرة بالخضرة وعيناه لامعتان .. حاصره  
الكل بنظراتهم .. وطافت بوجوههم ابتسامة .

— كام كتكوت .. ؟ !

— قلنا واحد ..

— طيب وان كانوا ثلاثة ؟ !

— قلنا مش معقول ..

— طيب أوريك ..

— أبوه وريتنا ..

— لا .. نستفتح من الجدعان دول قبل ما نلعب ..

— لا .. وريهم شطارتك الأول ، أحسن حد يفتكر أنك  
بتضحكى عليه ..

وتعقد جبين الطفلة ، غضبت من كلماته الأخيرة ، قالت  
مستنكرة :

— أنا عمرى ما ضحكت على حد .. الألبنت جدعة ، باكسب  
اللقمة بعرق الجبين ..

ومسحت جبينها بأصبعها الصغير .. وأزالت عنه العرق  
الذى كان ينحدر عليه من خلال خصلات شعرها الغزير .. ثم  
التقطت الكتكوت من على الأرض وانحنت على الأكواب ترفعها ..  
وأحدة بعد أخرى .

— تساي فانت وهو .. كتكوت واحد مفيش غيره .

ثم راحت تقلب الأكواب الفارغة على فتحاتها فوق المنديل  
الفاقع من جديد ، ووضعت الكتكوت تحت واحدة منها .

— هيه .. الجدع يظبطنى .

ومدت يديها فى حركة سريعة ، وراحت تكشف الأكواب  
الثلاث واحدة بعد أخرى .. ومن داخل كل واحدة ، كانت تخرج  
كتكوتا جديدا ، لونه غير لون الآخر ، ولم تلبث أن أطلقت الكتاكيت  
الثلاثة على الأرض فراحت تتواثب وتصوصو وتدور .

ضحك الجميع ، وصفقوا فى إعجاب .

كان الصهد لا يزال يغلى فى الجو ، والعرق يلصق ثياب  
الواقفين بأجسادهم ، والطفلة الصغيرة بدأ وجهها مصفرا  
ومرهقا .

— اللعبة دى مش حاجة .. فيه حاجات أحسن بكثير ..  
والمصرى زى ما أنتم عارفين ، أبو التفانين .

ورمقت أباهما بنظرة .. كانت عيناه الغائرتان تتفحصان  
الواقفين ، وابتسم ابتسامة صغيرة وقال وهو يصفق من جديد :

— مش قلتكم طفلة عجيبة .

وعاد يدور في قلب الحلقة ويقول :  
- يا بختنا بالنبي .. طيب وعاوزه ايه دلوقت يا محروسة .  
التقطت الطفلة الدف من على الأرض وراحت تشخشخ به  
وتقول :

- عايزه استفتح من دول .  
ورفعت عينيها الى السماء وعادت تصيح بحرارة :  
- الهى يعنى عينيه ! ؟  
فصاح أبوها متسائلا :  
- هو مين .. ؟  
- الهى فى جيبه فكة ، ويخل علينا بيها .  
- طيب روحى لفى عالجدهان .. وسيبيكى من الأندال .  
وبدأت الطفلة تدور ، وصاجات الدف تشخشخ بين أصابعها ،  
وراحت تبع صوتها الذى كان قد أخذ يضعف ويخفت .  
- الهى ربنا يخليه الهى معاه الفكة .. واللى ممعاهش ،  
ربنا يفك ضيقته وضيقتنا !  
وظلت تدور مرة واثنين وثلاثا ، ثم أعادت الرق الى أبيها  
وهى تمسح العرق من على جبينها بيدها المتربة .  
ونظر الرجل داخل الرق ، واكتسبت ملامحه بالحزن والضيق ،  
وعاد يقول للناس فى مرارة :  
- ثلاثة صاغ بعد العذاب ده كله يا ناس .. معاهش  
يا محروسة .  
لفى كمان مرة .. كملى الشلن نتغدى به .



وتناولت منه الرق .. وعادت تدور ، لكن يدا واحدة لم تمتد لها بشيء .

كان بعض المتفرجين قد تركوا الحلقة ، لكن أناسا آخرين جاعوا ووقفوا مكانهم ، ودب الأمل في قلب الرجل من جديد ، عاد يصيح :

— طيب من تانى يا محروسة .. شد حيلك يا حبيبتي ، علشان أجوزك النهاردة وأطلقك بكرة .

وأخرج لها من جيبه بيضة ومندىلا رفيعا فاقع الألوان .. تناولتهما منه وراحت تقول وهى تلوح بيدها فى الفضاء :

— دى ايه ؟ ! بيضة .. وده ايه ؟ ! منديل .. طوله عشرة أشبار بالكثير .. وراحت تقيسه بكفها الصغير .. ثم كورته وحشرته فى فمها ، وتبعته بالبيضة أيضا ، فبدأ وجهها الصغير الشاحب منتفخا وصدرها الصغير يعلو ويهبط وهى تجاهد لتأخذ أنفاسها فى هذا الجو الخائق .

وبدأت الطفلة تخرج المنديل الملون من فمها .. راحت تجلب .. وتجلب .. مناديل مترابطة بدت من طولها وتتابعها كأن لا نهاية لها . واستمر صدرها يعلو ويهبط .. وشحوبها يزداد .. وبدت عيناها وكأنهما جاحظتان .. !

وصفق الناس لها واشتد التصفيق . وتعالى همهمات .. يا سلام بنت عجيبة .. عجيبة صحيح .

والطفلة لا تزال تشد بأصابعها الصغيرة حبل المناديل من فمها ، ولم يكد ينتهى الحبل المزخرف الطويل حتى كانت البيضة بارزة من بين شفتيها .. ؟

وارتفعت الهمهمات من جديد : تانى .. من تانى .

نظرت الطفلة الى أبيها نظرة زهو . ارتعشت عظام وجهه  
رعشة خفيفة .. فقد أحس وهو ينظر في عينيها أن لبعتهما قد  
بهتت كثيرا ، وأن لون وجهها قد زادت صفوته .. وراح يقول :  
- معلش يا محروسة .. من تانى .. الجدةان عاوزين  
يتفرجوا عليكى مرة ثانية .

وتنهدت الطفلة فى صمت ، ورمشت بعينيها ، ثم بدأت  
تلعب لعبتها من جديد والناس يحملقون فيها ويتعجبون .

كانت الحرارة قد بدأت تخف بعض الشيء ، والميدان راح  
يصب فى الشارع أناسا كثيرين ، والنسيم بدأ يهب خفيفا ، لكن  
الحلقة المرصوفة كانت تحجب الأنسام عن الطفلة .

وراحت الصغيرة تجذب الحبل من فمها من جديد ، وأخذ  
صدرها يعلو ويهبط بسرعة عن ذى قبل ، لم يلحظ أحد من  
الواقفين أن ساقىها الصغيرتين بدأتا تتخلخلان .. واحد فقط هو  
الذى كان يحس بها .. أبوها .. قال يستحشها مشفقا :

- برواة عليكى يا محروسة .. هانت والنبي .. وحتتشى  
الليلة كمان .

وأخيرا انتهى الحبل الطويل من فمها وبدأت البيضة تشق  
طريقها الى شفيتها ، لكنها لم تكد تطل من فمها حتى سعلت الطفلة  
سعلة مفاجئة فسقطت البيضة من بين شفيتها على الأرض ،  
وانكسرت .

وظهر فى عيني الطفلة شيء يشبه الفرع ، وأحست بشيء  
رفيع حاد يمزق فى صدرها ، وسعلت سعلة أخرى اهتزت لها  
ضلوعها ، وشعرت بعينيها تغيمان ورأسها يدور ، وجاءت تهز  
وجهها وتنظر للناس من خلال ضبابات ملأت عينيها ، لكنها لم  
تع أى شيء ، وسقطت على الأرض مغشى عليها .

روع أبوها ، فانكفاً عليها وحملها بين ذراعيه ، ووضعها  
على حجره ، وراح يخاطبها بكلمات فاجعة ويهزها ويبكى .

وحدثت ضجة كبيرة بين المتفرجين وتحركت الأقدام  
وتزاحمت الأجساد .. وعلت أصوات واختلطت .. يا بنت  
زين العابدين نظرة . ميه يا جدعان .. وسع يا خلق انت وهوه ..  
يا ناس دى مش فرجة .. خلوها تشم نفسها .

شيئا فشيئا بدات الطفلة تفيق .. وراح صدرها الصغير  
يعلو ويهبط فى هدوء وانتظام .. وحين أحست بالضبابة الكبرى  
تنقشع من عينيها راحت تسبح ببصرها فيما حولها ، وتراعى لها  
الناس والأشياء خفيفة شفافة وكأنها فى حلم .. ثم بان فى عينيها  
وكانها تنبعت لشيء فراحت تدور ببصرها فيما حولها .

ولم يكد بصرها يقع على الرق حتى استقرت نظراتها المجهدة  
عليه لحظات .

ثم رفعت عينيها الى أبيها وسألته مهمة ، وشبه ابتسامة  
تطوف بوجهها .

— آبا .. احنا لينا أد ايه بابا ؟ !

(( ١٩٥٧ ))

## وردة

وأخيرا .. انتهت وردة من عملها اليومي الطويل .

تنهدت من أعماقها في ارتياح ، واستندت برأسها الصغير على حائط المطبخ لتستريح لحظة ، لكنها أحست فجأة بالخدر يعاود رأسها ويثقل جفونها ، فابتعدت برأسها عن الحائط ، وراحت تهزه في جزع لتطرد النوم من عينيها ، ولم تلبث أن تركت مكانها ، وراحت تجتاز الممر الساكن الذي يفصل المطبخ عن بقية الشقة .

كانت الشقة لحظتها غارقة في السكون ، ونور الكهرباء فيها يعطى إحساساً بأن الليل في الخارج مظلم وفاحم السواد ، والأصوات التي كانت تتصاعد الى سمع الصغيرة من أعماق الشارع القريب قد هدأت وخفتت وتحولت الى همهمات غامضة بعيدة متقطعة .. ما من صوت كانت تسمعه وردة حينذاك سوى حفيف قدميها الصغيرين وهي تمشي على بلاط الممر في وهن وعلى مهل .. وصوت سيدتها هو الآخر كان يعاود الدوران في رأسها



الدائخ المرهق .. « وبعد ما تخلصي يا وردة ، تمسحي جزمة حسن ، وبعدين تنيمي .. اوعى تنامي يا وردة قبل ما حسن ينام .. فاهمة يا شاطرة باقول ايه » .

كانت سيدتها قد آوت الى سريرها منذ وقت قليل واستسلمت لنوم عميق .. اما حسن - طفلها الصغير - فقد ظل ساهرا .. كان قد نام نومة طويلة بعد ان أحضرته وردة من مدرسته بعد الظهر ، ولم يستيقظ الا مع غبشة الغروب ، فظل صاحيا بجوار أمه على نفس السرير ، وراح وهو منبطح على بطنه ببيجامته الصغيرة النظيفة الخضراء ، يقلب تارة في كتاب صغير ملون ، وتارة أخرى يشخبط بقلم رصاص طويل في كراسة بيضاء .

كان خائفا من سكون الليل المطبق من حوله ، ومن الأصوات التي كانت تصدر عن وردة وهي تروح وتجيء في المطبخ تغسل الأواني والأطباق ، ارتعد رعدة خفيفة حين سمع وقع قدميها يقترب شيئا فشيئا من حجرته .. وتعلق بصره بالبواب ، وراح ينظر في وجل :

— انت خلصتي يا وردة .. ؟ !

كانت واقفة في مدخل الباب ، تجفف يديها المبلولتين في جلبابها الرمادي القصير ، ورأسها الصغير المعصوب بمنديل أزرق غامق مائل نحو صدرها في وجوم ، وضميرتاها الرفيعتان الصغيرتان تتدليان حتى قرب كتفيها .. وتعب النهار يطل من عينيها الغائمتين المرهقتين .

— أيوه خلصت ، فاضل مسح الجزمة .. جزمتك فين يا حبيبي .

قالتها بصوت خافت أجش فيه حنان عميق وغريب .. ومع

أن وردة لم تكن تريد عن التاسعة ، وحسن عن السابعة ،  
وكثيرا ما انطلقا معا كصديقين في أرجاء الشقة والشارع يلعبان  
ويضحكان ويتنططان ، إلا أنها كانت دائما في الليل ، وبعد انتهائها  
من عمل النهار الطويل ، تبدو وكأنها قوشك أن تضع في  
غيوبة ، فتواصل عملها في صمت ووجوم ، وتتمنى لو يتركها  
الجميع في حالها . لا يكلمها أحد حتى تنتهي من عملها ، ثم تأخذها  
الغيوبة وتنام .

— تعالى اتفرجى معايا في كتاب شرشر .. شوفي يا وردة ..  
شوفي شرشر .

لكنها عاجلته على الفور لتسكته .. « مش دلوقت .. سبنى  
أشوف شغلى عشان ننام .. جزمك فين » .. ؟ !

كان قد داخل صوتها بحة قاطعة مرهوبة ، أدرك معها أنها  
لا تريد منه في هذه اللحظة أى كلام .. فانكمش في نفسه وقال  
بصوت خافت ، كأنه يطيع أمرا « الجزمة تحت السرير » .

ومالت بجسمها في الحال ، دخلت برأسها تحت السرير ،  
وحين لم تر شيئا .. مضت تزحف هنا وهناك .. كان البلاط  
ناعما ورطبيا ، والتصق به خدها وهى تزحف عليه فأحست  
بالرطوبة تسرى في خدها لطيفة ومنعشة .. تمنى لو تسند وجهها  
على البلاط ويبقى جسمها ممددا بطوله هكذا حتى الصباح  
وتنام .. لكنها أفاقت فجأة على صوت حسن يسأل هاسا :

— انت لسه مالقيتهاش يا وردة .. ؟ !

كان يريد أن يقول أى كلام ليحس بوجودها معه ، ويطرد  
عن نفسه الخوف من وحدته .

وعادت أصابعها تتحسس في الظلمة من جديد .. هنا

وهناك . . ولم تلبث أن قالت مغفمة في شبه فرح . . « أهى . .  
لقيتها أهى » .

كان صوتها الأجلش يبدو بعيدا ومفرغا وكأنه صادر من بئر  
عميقة . . ثم عادت تزحف بجسمها ورأسها الى الوراء . . ولم  
تكد تخرج بالحذاء حتى جلست متربعة على الأرض ، ووضعته  
في حجرها ، وراحت تأخذ أنفاسها وتتنهد . . ولم تلبث أن انحنت  
برأسها على الحذاء وراحت تمسح فيه .

ومند اللحظة التي دخلت فيها بجسمها تحت السرير لتبحث  
عن الحذاء ، حتى اللحظة التي جلست فيها على الأرض لتمسحه ،  
كان حسن يتتبع كل حركاتها وفي عينيه ما يشبه التساؤل  
والانبهار .

انها تقف وحدها بالليل في المطبخ ولا تخاف . . وتمشي في  
الممر الطويل الصامت ولا تخاف أيضا . . وتدخل في الظلمة  
تحت السرير دون أن تصرخ أو تبكي . . وهي الآن تمسح الحذاء  
في سكون ونشاط . . وبدت في عينيه فجأة وهي جالسة على  
الأرض تحت مستوى نظره كبيرة . . كبيرة بصفائر ولا تخاف . .  
ودون أن يدري . . تركزت عيناه على يدها وهي تروح وتجيء  
بالورنيش على حذائه ، وتملكه فضول شديد ، وازدادت عيناه  
أنساعا ، ثم قال لها فجأة :

- انا أعرف أمسح الجزمة زيك يا وردة . . هاتي وأنا  
أوريكي .

شهقت دون وعي منها في جزع . . سيدها الصغير يمسح  
الحذاء . . !! واستقرت عيناه على وجه سيدتها الفارقة في النوم .  
همست له في غضب :

- انت حتسيبني في حالي . . والا أقول لما الصبح أنك

غلبتني .. يا الله خليك في كتابك وخليني أشوف شغلي عشان  
ننام .

وانكمش الطفل مرة أخرى في يأس وعاد يقلب في صفحات  
كتابه الملون الصغير ، وأحدث تقلبيه المستمر في الصفحات خرفشة  
بدت واضحة وعالية في سكون الليل ، فجذبت انتباه وردة ،  
ونظرت دون وعي منها نظرة خاطفة الى الكتاب .

فرح حسن بنظرتها الى كتابه ، فأسرع يقول لها في ابتهاج  
ممزوج بالرجاء :

— دا كتاب شرشر .. شوفي يا وردة .. شوفي .

قالت مغممة وهي تنهد في ضجر ، ويداهما تروحان  
وتجيشان على فردة الحذاء بطريقة آلية : أشوف ايه بس  
يا حسن .. ؟ !

قال لها وهو يقرأ الكتاب .. « الأرنب شرشر .. شاف  
الكلب فلفل .. شرشر خاف .. قام نط » .

وسكت برهة ثم عاد يقول وهو يشير لها بقلمه على صورة  
ملونة بالأحمر والأخضر والأسود : شوفي يا وردة .. شرشر بينط  
أزاي .. ده خايف من فلفل .

ودون أن تعي وردة ، توقفت يداها عن الحركة مرة  
واحدة ، وسكنتا بالحذاء على حجرها ، وراحت تتأمل الصورة .  
كان مرسوما على الصفحة أرنب أسود يقفز قفزة واسعة ،  
وشواربه الطويلة الرفيعة السوداء ممدودة أمامه في الهواء ،  
وخلفه الكلب فلفل يمد رقبتة ، وينبح عليه .

وتفتحت عينا وردة ، وارتفع حاجباها الثقيلان ، وراحت



تأمل الصورة باستغراق .. عالم حبيب وأليف تفتح أمامها  
فجأة دون أن تمي ، وراح ينبسط في ناظرها ويتسع ويتسع ..  
تحولت ذرات النور المنعكسة من مصباح الكهرباء على الكتاب  
في عينيها ، الى ملايين شعاعات الشمس الهادئة تغمر قربتها  
الصغيرة الواقعة أسفل الجسر .. وراى أمامها حقلا واسعا من  
البرسيم الأخضر يموج بحبات الندى فى الصباح ، وثلاثة أرانب  
ملونة تقفز وتنط فى الحقل الكبير وتقضم أعواد البرسيم ، وأما  
تقف عند رأس الحقل ناحية الزراعة ، وتنادى عليها بأعلى  
صوتها : تعالى يا وردة حلقي معايا بالأرانب .. حلقي يا بت  
أحسن هربوا من القاعة .. يا ندامة أحسن عمك شبانة ييجى  
ويلاقينا بندهس فى أرضه .

وتبدأ المطاردة بينهما وبين الأرانب ، ثم لا تلبث ان تنضم  
الى المطاردة شلبية ، اختها الصغيرة ، وسكينة صاحبها التى  
تسكن فى دار بجوار دارها .. وتحلو المطاردة وتحمى ، وترتفع  
صيححاتهن فى الفضاء حتى تصل الجسر ، ثم تتحول الصيحات  
الى ضحكات وهن يجريين ، والأرانب تجرى ، وتنط أمامهن فى  
ذعر .. ثم يمسكن أخيرا بالأرانب ، وتقول أمها وهى تنظر الى  
الأرانب التى ترفض بأرجلها فى هواء الحقل : وأنا يعنى ناقصة  
وجع دماغ ، والنبي من بكرة على سوق التلات وأخلص منكم .  
لكن وردة أفاقت من تخيلاتها فجأة على صوت حسن  
يسألها فى حرارة وحماس :

ـ مش الأرنب شرشر حلو يا وردة .. ؟

كانت على وشك أن تذهب الى سوق التلات مع أمها ،  
ويزوران المنصورة بالمرّة .. لكنها رمشت بعينيها وتنهدت وكأنها  
تفقد من حلم جميل حرما منه حسن .. ولم تلبث ان أومات له

برأسها علامة الأيحاب ، ثم سألتها في فضول وشغف وهي تشير  
الى صورة أخرى في الصفحة المقابلة :

ـ طيب ودي ايه كمان يا حسن ؟ .. اقرالى كده .

وراح يقرأ لها كلمة كلمة ، وعلى مهل :

ـ البط يأكل فت .. والوز يأكل رز .

ندت عن فم وردة ضحكة حلوة فرحانة .. كانت رنة  
ضحكتها أشبه بصوت بطة صغيرة تكاكي وهى تستحم فى التربة  
وتصفق بأجنحتها فرحا فى الهواء .

غير أنها لم تلبث أن كتمت ضحكتها فى صدرها ، وابتعدت  
برأسها من فوق الكتاب .. رأت سيدتها تتقلب فى فراشها  
لتغير الجنب الذى تنام عليه .. فراحت ترقبها فى قلق خشية  
أن تصحو ، لكن السيدة كانت لاتزال مستغرقة فى نومها  
العميق .

واقتربت برأسها الصغير مرة أخرى حتى كاد جبينها يلتصق  
بجبين حسن المنبطح على السرير ، وعادت تتأمل الصورة  
من جديد .

كان حسن قد فرح لأن قراءته أضحكتها وأفرحتها ، فراح  
يقلب فى صفحات الكتاب لينتقى لها صورة أخرى تضحكها أكثر  
وأكثر .. لكن يديه توقفتا فجأة عن التقليب ، وسألها وعيناه  
فى عينيها :

ـ انت بتعرفى تقرى يا وردة .. ؟

فوجئت بالسؤال .. ولم ترد .. ثمّة تعبير حزين عشى  
وجهها وأطل من عينيها ، وصورة محددة وواضحة كالشمس  
طفت الى ذهنها فجأة .. ذات يوم .. منذ سنتين بالتقريب ..

كانت خارجة بعد العصر من مدرسة القرية الواقعة عند شجرة  
الجزورين ، تزعم وتصيح مع البنات الأخريات .. كن جميعا  
يضحكن ويجرين فيثرن بأقدامهن الصغيرة سحابات من غبار  
السكة في الفضاء ، وواحدة منهن تقول : الليلة قمره يا أولاد ..  
وسهرتنا تبقى اليه في الجرن .

في نفس اللحظة ، سمعت صوت أبيها الخشن ينادي  
عليها ، وحين تلفتت اليه وجدت أفنديا كبيرا واقفا معه ببذلته  
النظيفة ، وقميصه الافرنجي الأبيض الشاهق .

— أهى وردة يا بيه .. تعالى سلمى على سيدك يا بت .

وصحبها الى دارها والبنات الصغيرات يرقبنها في  
استغراب .

كانت أمها تقف في صحن الدار تنتظر ، وحين رأتهم ،  
مسحت شيئا من عينيها بطرف طرحتها السوداء ، ثم قالت لها  
بحزم وجفاف وهي تغالب رعشة خفيفة على شفتيها :

— يا لله يا وردة مع سيدك ، وكم ان جمعتين بالكثير حنيجي  
نزورك .. شالله يا سيدة زينب . ثم احتضنتها وقبلتها .

ذلك كان آخر يوم لها في المدرسة ، لم تمسك بعده ورقة  
أو قلما .

وعاد حسن يسألها .. وعيناه تترقبان الجواب .

— انت بتعرفي تقرى يا وردة . ؟ !

ارتعشت شفرتها السفلى ، ونظرت له في عتاب حزين ..  
ثم قالت له بصوت خاطف وكأنما تتحداه :

— أبوه .. باعرف .

ـ طيب خدى اقري كده .

وناولها الكتاب . . وجاءت تمد يدها اليه ، لكنها أحست  
فجأة بفردة الحذاء تثقل يدها ، فتنهت الى نفسها ، وشهقت في  
فزع . . تذكرت لحظتها أنها كانت قد نسيت الحذاء نسيانا  
تاماً ، فابتعدت برأسها عن رأس حسن وعن الكتاب ، ثم تربعت  
من جديد ، وانحنت على الحذاء ، راحت تحك فيه بسرعة  
لتعوض الوقت الذي فات .

ـ انت حتسيبني اشوف شغلى . . والا أصحى مامتك  
وأقول لها . ؟ !

كانت البحة الخشنة الغريبة قد عاودت صوتها فجأة ،  
فأحس بها تعود مرة أخرى في عينيه كبيرة ، وغريبة عنه ،  
ومرهوبة . . فسحب بصره عنها في صمت وانحنى بوجهه على  
كتابه وراح يقلب فيه ، ويتفرج في ملل .

أما هي . . فقد انكبت بكل وجهها على الحذاء ، ومضت  
تعمل فيه بهمة ونشاط .

كان الليل من حولهما قد ازداد سكوناً وعمقاً . . ومصباح  
الكهرباء يسكب عليهما ضوءاً هادئاً وصافياً . . وعاد كل منهما  
الى الاستغراق في عالمه الغامض الغريب .

راح حسن يشخبط في كراسيه بالقلم ، ثم ترك الكراسية ،  
وعاد يقلب في الكتاب ، ويتفرج على شرشر . . ثم أحس  
فجأة ـ وذون أن يعى ـ أن الأرنب شرشر يبتسم له . . ويكبر  
ثم يصغر . . ويبتعد ثم يقترب . . وخطوط جسمه الأسود الناعم  
تخف ، ثم تتلاشى تماماً ، وتصبح بياضاً في عينيه . . كان حسن  
قد راح في نوم عميق .

وبقيت وردة ساهرة وحدها .



نُبع من الأحزان يرقد في أعماق وردة ، ويفيض على وجهها  
كلما مر بخاطرهما شيء يذكرها بقريتها .. في مثل ذلك الوقت من  
الليل ، يكون كل شيء في القرية هاجعا ومستكنا في الظلام ! ..  
الدور ، والجسور والبهائم والشجر .. وزمان أمها الآن هاجعة  
على الفرن .. محتوبة شلبية أختها الصغيرة في حضنها ، وتربت  
لها على جسدها الصغير ، حتى تنام .

وانتهت من الحذاء ، فوضعت تحت السرير في هدوء ،  
ونفضت واقفة وهي تتنفس في أعياء .

ماذا بقي وراءها . ؟ ! .. ونظرت الى حسن .. آه ..  
يجب أن تعدل نومته .. فانحنت برأسها عليه ، وأحاطت خديه  
بكفيها في رقة وحذر ، ووضعت رأسه على الوسادة بجوار رأس  
أمه ثم أخلت يديها .. وشدت قامتها المنهكة ، وجذبت من  
صدرها مرة أخرى نفسا عميقا .

الآن .. أنجزت وردة كل ما عليها .. وفي الصباح ستجد  
سيدتها كل شيء جاهزا .. آن لها الآن أن تعد فرشتها في  
المطبخ .. وتطفىء النور ثم تنام . لكنها تنبعت الى كراسية حسن  
وكتابه ما زالا موضوعين على السرير .. فتناولتهما لتضعهما  
وهي في طريقها الى المطبخ على البوفيه .

ولم تكد تتناول الكتاب وتنظر في جلده السوليفان الحمراء  
اللامعة .. حتى راحت أصابعها تقلب دون وعي منها في صفحاته .

« أنت بتعرفي تقرى يا وردة ؟ ! .. » عاودها سؤال  
حسن فجأة .. ودون أن تدري .. تراخت ساقاها ، وجلست  
على الأرض مرة أخرى ، ووضعت الكتاب مفتوحا على حافة  
السرير ، وراحت تنظر فيه .

كانت في الصفحة صورة للأرنب شرشر واقفا على ساقيه الخلفيتين ، وينظر اليها بكل وجهه وشواربه ضاحكا فرحانا .

وانتقلت عيناها الى الكلمات التي تحته ، وراحت تتمعن فيها .. خطوط رفيعة .. مستقيمة ومستديرة .. وممدودة ومتشابكة .

— اين كلمة « شرشر » ؟ !

— واين كلمة « فرحان » ؟ !

وراحت عيناها تدوران مع خطوط الكلمات وتدوران ، وتدوران .. وتنتقل بينها وبين الصورة .. لكن التعب كان يثقل جفניה .. ورموش عينيها تتلاقى ، ثم تنفرج ثم تتلاقى ، والرؤى تختلط في خيالها .. شرشر يقترب ثم يبتعد .. شرشر زعلان ، شرشر فرحان .. شرشر يظهر .. شرشر يختفي .. وردة تبتسم .. وردة تجري مع البنات في الجرن وتضحك .. وردة ترقد في حضن أمها على القرن وتنام .. وردة نامت .. جسمها على الأرض .. ورأسها ملقى على حافة السرير .. فوق الكتاب .

(( ١٩٥٨ ))

## شا . . جا . . رة . . شجرة

كانوا ثلاثة . . يلعبون في حديقة واسعة على النهر  
ويتصايحون . . والشمس لم تطلع بعد . . والفضاء رائق ليس  
فيه ذرة واحدة من ضباب .

جذبت الزوجة الصغيرة نفسا عميقا من صدرها ، وبحركة  
سعيدة ، ألقت بنفسها فوق العشب الأخضر وراحت تنادى :

— كمال . . كمال . . كفاية جرى . . « حمادة » زمانه  
تعب ، هاته في ايدك وتعال .

والتفت لها زوجها الشاب مبتسما للحظة ولم يرد .

كان مشغولا بملاعبة ابنه الصغير . وكان الاثنان — الأب  
والابن — يضحكان ويجريان . . وكرة صغيرة تنتقل بينها . . حيناً  
فوق العشب . . وحيناً آخر في ممر الحديقة .

وبالكاد ، كان الطفل الصغير يستطيع أن يجرى . . كل أربع  
أو خمس خطوات يتعثر خطوة . . أن كل عمره في الحياة سنتان . .  
وكلما كان يقع على العشب يصيح عليه أبوه :

— هيه .. برافو حمادة .. بطل .. قو مبسرعة ولا يهملك .  
وينهض الصغير من عثرته وتبحث عيناه عن الكرة ، فيصيح  
الأب من جديد :

— هناك .. عند الشجرة .. اجر هاتها .

ويجاهد الصغير في الجرى .. يجاهد ليحفظ توازنه ..  
وما أن يصل الى الشجرة .. حتى يذهب الأب اليه ويقول وهو  
يشير بكل ذراعه على الشجرة :

— تعرف دى تبقى ايه يا حمادة ؟ . اسمها « شجرة » ..  
شا .. جا .. را .. « شجرة » .. قول كده .

فتطل الحيرة من عيني الطفل ويبحلق وتتردد عيناه بين  
أبيه المتحمس وبين الشجرة ثم ينطلق قائلاً : « ججرة » .

— برافو حمادة .. انت هایل .. ولد ذكى .

ثم يصيح على زوجته التى تجلس على العشب تعدا لهما  
الساندوتشات وترقبهما فى سعادة .

— فأتك نص عمرك .. سامعة ابنك حمادة بيقول ايه ؟ ..  
بيقول « ججرة » على الشجرة .

وازداد صوته ارتفاعا وحماسا :

— النهارده حاخليه يعرف كل حاجة فى الجنينة .

كان الوقت بعد كل هذا لايزال مبكرا .. والشمس لم  
تطل بعد على الحديقة من خلف قمم بيوت المدينة .. لقد  
استيقظ الأب فى ذلك اليوم مبكرا جدا رغم انه يوم أجازته ،  
وحين فتح النافذة محاذرا من برد الصباح ، لأمس وجهه هواء



دافئ طازج ، فانتعش قلبه ، وامتد بصره الى بعيد ، فرأى  
السماء زرقاء صافية لا تتخللها سحابة واحدة .. قال لنفسه ..  
« كل هذا الجمال والدفء في يوم من أيام الشتاء ، ونظل بطفلنا  
الوحيد داخل جدران أربعة » ؟

واستدار بحماس الى زوجته ليوقظها « هيا نرتدى  
ملابسنا ونأخذ حمادة ونتمشى في احدى الجنائن .. أتذكرين ؟ .  
ولدنا تعلم المشى مع بداية الشتاء .. لم يذهب معنا خارج  
المدينة أبدا وهو يمشى على رجليه .. كنت تحمله على صدرك ..  
هيا انهضى .

وتركوا المدينة خلفهم .. وانطلقوا الى الحديقة .

— وشايف دى يا حمادة .. ؟ الحمرة دى .. ؟ اسمها  
« وردة » اسمها ايه ور .. ده .. قول كده .

كان يريد أن يعلم طفله الأسماء والكلمات .. واستبدت  
به الرغبة في أن يرقب التعبيرات التي تتوالى على وجه الصغير  
وهو يحملق في الأشياء لأول مرة وينطق بأسمائها .. فينتابه  
احساس بالكبرياء وبالفرح .

من صلبه خرج هذا الكائن الى الدنيا .. كائن صغير  
يتحرك ويمشى ويتلفت حوله ويلتقى بالطبيعة لأول مرة في  
حياته .

ولح قرص الشمس يبرز فجأة من وراء مباني المدينة ..  
أحمر .. ساطعا ومتوهجا ، فاستعيت عيناه وجلس على ركبتيه  
ليصبح رأسه قريبا من رأس صغيره وصاح :

— شايف يا حمادة .. شايف القرص اللى بيلمع هناك  
ده .. ؟ اسمه « الشمس » .. فاهم .. ؟ . الشمس ..

الشمس دى هى اللى بتنور لنا الدنيا .. وشايف كمان ..  
الأزرق المفروش حوالين الشمس .. ؟ الواسعة أوى دى ؟ ..  
أهى دى اسمها « السما » .. اسمها ايه .. ؟ . قول كده ..  
سا .. ما ..

ويتعثر الطفل فى الكلمات .. ثم ينطقها بطريقته ..  
فيحتضنه الأب بفرح شديد .. ويصيح على زوجته بأعلى صوت  
وهو يتناول الطفل من يده ويذهبان اليها :

— خلاص يا ست .. حمادة ابنك بقى كبير .. عرف كل  
حاجة فى الجنية .. شايفه بيضحك ازاي وفرحان .  
وتشابكت ضحكاتهما ، وجلسا ياكلان بشهية ، ويطعمان  
صغيرهما .

فجأة ، هبط غراب .

هبط من فوق شجرة ، ووقف قريباً منهم ، وراح وهو  
يتواثب ويتلفت حوله بحذر ، يرقب الطعام بعينه الصغيرتين  
المستديرتين .

صاح الأب هامساً لطفله :

— بص يا حمادة .

ما أن وقعت عينا الطفل على الغراب ، حتى اتسعت عيناه  
بالدهشة ، وتسمرت نظراته عليه ..

— تعرف ده اسمه ايه يا حمادة .. اسمه غراب .. لازم  
جعان .. شواف .

وقطع الأب لقمة ، وبهدوء ، رمى بها للغراب .

قفل الغراب من الخوف وارتد طائراً قليلاً إلى الوراء ، ثم  
وقف وعاد يرقب اللقمة ، ويتلفت حوله بحذر .. وكلص

صغير ظريف ، راح يقترب محاذرا من اللقمة .. خطوة خطوة ..  
ثم التقطها بمنقاره بسرعة وازدردوها .

ضحك الطفل وقهقهه في سعادة .

— خد يا حمادة اللقمة دى .. ارمها انت له .

وتناول الطفل اللقمة من أبيه ، ونهض من جلسته وراح  
ينظر للغراب .

وكان شيئا في عيني الغراب كان ينادى الطفل فخطا نحوه  
واللقمة في يده .

— لا يا حمادة .. ماتمشيش أكثر من كده أحسن يخاف  
منك ويطير .. ارم اللقمة بالله .

ورمى الطفل اللقمة ، ولم يتحرك الغراب .

لا هو تقدم الى اللقمة خطوة .. ولا هو تراجع من الخوف  
خطوة .. ظل في مكانه .. ينظر لحظة الى اللقمة الملقاة على  
العشب .. ثم يعود وينظر الى الطفل .. ويطيل النظر .. كأنما  
يقول لنفسه .. « .. هذا الشيء الصغير لا يؤذى .. لا يصح  
أن أخاف منه » .

وبهدوء شديد ، تسلل الى اللقمة ، ثم التقطها ، وارتد  
خطوتين الى الوراء بسرعة ، وعاد يقول للطفل الصغير بعينه ..  
« هيا أيها الصديق .. ألقف بلقمة أخرى » .

كان الطفل مدهوشا . خطا نحو الغراب خطوة . لكن الغراب  
تراجع خطوة .. تعجب الطفل .. لماذا يجرى الغراب منه ..  
وتقدم خطوة .. مرة أخرى عاد الغراب فقفز الى الوراء نفس  
الخطوة .

يا لها من لعبة .

مرتان وثلاث .. وخمس .

كلما تقدم الطفل خطوة أو خطوات ، أسرع الغراب الى الخلف ، محتفظا بنفس المسافة بينهما .. وعيون الاثنین لا يفترقان .

والأب ينظر الى الأم في سعادة :

— ولدنا وجد لنفسه صديقا .. العالم مليء بالأصدقاء .

وكان الصديقين الصغيرين اكتشفا لأنفسيهما لعبة حلوة ، فراحا يمارسانها بمرح . الطفل يتقدم من الغراب ، والغراب يسحبه مداعبا الى الوراء .. وابتعدت بهما اللعبة كثيرا في الحديقة .. والطفل نسي العالم ، والغراب هو الآخر حلت له اللعبة فظل يحاوره ويسحبه بعيدا بعيدا .. فجأة برز رجل ضخم ، يلبس جلبابا وطاقية ، وحافى القدمين .. انه الجنائني .. وما أن أحس به الغراب ولمحه ، حتى انتفض في فزع ومضى يشق الفضاء مبتعدا واختفى .

بهت الطفل .. أين الغراب ؟ أين راح ؟ وجاء يتلفت حوله ، فلم يجد شيئا .. لا شيء من حوله أبدا .. نادت عن صدره شهقة .. خوف فظيع أطبق عليه .. أين هو ؟ أين أبوه ؟ أين أمه ؟ فراغ .. فراغ مهول .. لا حديقة ، لا شجر .. لا ورد ، لا شمس ، لا سماء .. انشق قلبه عن صرخة رعب هائلة .

تسمر في مكانه ، وراح يصرخ ويصرخ في فزع .

« ١٩٥٧ »



## حفلة عشرة

قفز الخاطر فجأة الى راسى فانتفضت .  
ماذا لو تاه ولدى .  
وقفزت من على فراشى كالسروع . وارتديت ملابسى  
بسرعة مجنونة ، ونزلت فورا الى الشارع .  
كان الشارع يموج بالحركة .. زاغت عيناي .. ناس ..  
هربات .. اتوبيسات .. اشارة مرور .  
- تاكسى .. تاكسى .  
واندفعت داخل التاكسى وانفاسى لاهثة :  
- سينما كايرو يا اوسطى .. اقرب طريق لو سمحت ..  
بسرعة أرجوك .  
وانطلق التاكسى .  
كان السؤال يلف ويدور فى راسى بسرعة مخيفة كالدوامه .  
- ماذا لو تاه ولدى ؟ !  
واشعلت سيجارة ، ورحت أجذب منها أنفاسا متتابعة  
سريعة ، كأنما أريد أن أشعل بها صدرى وأعاقب نفسى على  
ما فعلت .

كَيْفَ سَمَحْتَ لَهُ بِهَذَا ؟ أَلَمْ أَكُنْ قَدْ أَفَقْتُ مِنَ النَّوْمِ بَعْدَ ،  
حِينَ جَاءَنِي الصَّغِيرُ وَأَفْضَى إِلَيَّ بِرَغْبَتِهِ .. فَأَنْقَدْتُ لَهُ ، وَوَأَفَقْتُه ؟  
أَبَدًا .. أَبَدًا .. كُنْتُ فِي كَامِلٍ وَعْيٍ .. كُنْتُ قَدْ صَحَوْتُ  
مِنَ النَّوْمِ مِنْ وَقْتٍ طَوِيلٍ ، وَشَرِبْتُ الشَّايَ ، وَتَصَفَّحْتُ الْجَرَائِدَ ،  
ثُمَّ .. ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فِي حَجْرَتِهِ لِأَخَذِ مِنْ جَبِينِهِ قَبْلَةً تُشْعِرُنِي بِجَمَالِ  
الصَّبَاحِ .. كَانَ وَاقِفًا بِبِيجَامَتِهِ الصَّغِيرَةِ عَلَى سَرِيرِهِ يَنْظُرُ إِلَى  
الشَّارِعِ مِنْ خَلْفِ الزَّجَاجِ .. لَمْ يَحْسِ لِحَظَّتِهَا بِدُخُولِي ..  
ظَلَلْتُ أَرْقُبُهُ بِفَرَحٍ .. كَانَتْ أَنْفُهُ الْمَتَكُورَةُ وَهِيَ مُلْتَصِّقَةٌ بِالزَّجَاجِ  
شَبِهُ فَطَسَاءً .. فِيمَ يَفْكُرُ الْعَزِيزُ يَا تَرَى وَهُوَ يَطْلُ هَكَذَا بِعَيْنَيْهِ  
إِلَى الدُّنْيَا مِنْ خَلْفِ الزَّجَاجِ .. وَقَدْ قُلْتُ لِنَفْسِي لِحَظَّتِهَا بِشُغْفٍ  
وَقَلْبِي يَرْقُرُفُ « مَتَى .. مَتَى يَكْبُرُ صَغِيرِي وَيَنْطَلِقُ وَحْدَهُ فِي  
الدُّنْيَا ؟ » .

وَحِينَ أَحْسَسْتُ بِى % التَّفْتُ لِي وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ بِالْفَرَحِ وَقَالَ  
وَهُوَ يَنْدَفِعُ إِلَى صَدْرِي وَيَتَعَلَّقُ بِرَقَبَتِي :

— أَنْتِ صُنْحِيَتِ يَا بَابَا ؟

وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ بِقَبْلَةٍ ضَاحِكَةٍ عَلَى خَصْلَةٍ شَمَرِهِ السُّبُودَاءِ  
الْمَتَهَدِّلَةِ عَلَى جَبِينِهِ .. قَالَ فَجْأَةً وَفِي عَيْنَيْهِ الْوَاسِعَتَيْنِ نَظْرَةً  
رَجَاءً :

— بَابَا .. أَنَا عَايِزُ أَرْوَحُ السَّيْنِمَا ..

— السَّيْنِمَا ؟ !

— أَيُّوهِ يَا بَابَا .. مَشَى النَّهَارُ دَهَ الْجُمُعَةِ .. وَدُلُوقْتُ حَفْلَةِ  
الْأَطْفَالِ .. أَصْحَابِي زَمَانَهُمْ كُلَّهُمْ هُنَاكَ دُلُوقْتُ فِي سَيْنِمَا كَايْرُو ..  
— لَكِنْ أَنَا مَشَى فَاضِي دُلُوقْتُ يَا حَبِيبِي عِشَانِ آجِي مَعَاكَ !  
قَالَ بِرَجَاءٍ :

ـ أروح أنا لوحدي .

ـ لوحذك .. ؟ ! لوحذك ازاي ؟ !

وتحول الرجاء في عينيه الى شبه دموع وارتعشت شفتاه :

ـ مش انت بتقول اني كبيرت .. وبقي عندي سبع سنين .

وبلا وعى .. وافقت .

أعطيته النقود وارتدى قميصه وبنطلونه القصير ، ووصفت

له الطريق .. ونزل .

جنون ذلك الذي حدث مني .. كنت قطعاً لا أزال مخدراً

بالنوم .. كنت أحلم انه كبير وأنا أرسم له الطريق « شارع

الفلكى بطولة .. وامش علي الرصيف يا ايها .. حاذر من

العربات .. سيقابلك ميدان الأزهار .. اسأل على شارع

شريف .. ثم خذ يمينك .. ثم يسارك .. ثم .. ثم » .

كيف فقدت عقلي الى هذا الحد فقدت بطفلي وحيدا في

الشوارع ؟ !

باسم ماذا فعلت هذا .. ؟

باسم التجربة .. ؟

باسم الاعتماد على النفس وتعاليم كتب علم النفس والتربية

الحديثة .. ! ؟

أنا أحمق .. مجنون .. أنا جاحد النعمة .. لا أستحق أن

أكون أبا .. أنا متوحش القلب .. يارب يارب .. لا يتوه ..

وقف بي التاكسي أمام السينما .. كان الزحام شديدا ،

جمهور الحفلة التي تلى الأطفال في انتظار لحظة الدخول .

وبنهفة ، وبكل قلة ذوق ، اندفعت أشق طريقى في الزحام

واسأل : « هل خرج الأطفال » ؟

« لا .. خمس دقائق ويخرجون » .

ووقفت أنتظر .

كان قلبي يهبط شيئاً فشيئاً الى قدمي .. لقد سألت طفلي  
قبل ان يخرج عن الفيلم الذى سيراه ، فقال وهو يكاد يطير  
من الفرح :

— الرجل المثالى يا بابا .. !!

وقد شجعنى الاسم ، بل وجدتنى لحظتها أفكر : كيف أصبح  
أنا الأب المثالى فى عين طفلى ..

وأحسست لحظتها بنوع من الزهو يملأ صدرى وأنا أعطيه  
النقود ، وأتركه يمضى .. وحده .

أنا ساذج ، خرافى التفكير .. وبحركة لا اراديه ، التفت  
خلفى الى لوحة الاعلانات وتعلقت أنفاسى : صورة كبيرة بالألوان  
لرجل يرتدى عباءة فضفاضة حمراء .. وعلى وجهه قناع أسود ،  
ويمتطى سهوة جواد أبيض طائر به فى الفضاء .

الآن .. مئات الأطفال داخل السينما جالسون أو واقفون  
يبخلقون بعيونهم المبهورة فى الشاشة ويتفرجون على هذا الرجل  
بحصانه .. وولدى ؟ .. تراه الآن جالسا بينهم ، أم ضل الطريق  
الى السينما وراح يضرب فى الشوارع على غير هدى .. ويبكى ؟  
وقاومت الرغبة فى البكاء .

الدقيقة الواحدة كانت تمر كعام .. فجأة ، علت ضجة  
كبيرة وفتح باب السينما على مصراعيه ، وبدأ الأطفال يخرجون ..  
كانوا فى اندفاعهم المرح من الباب أشبه بكتاكت صغيرة تتدحرج  
وتكاد تنكفىء وهى تتزاحم وتتسابق فى الخروج الى ضوء  
الشارع .

رحت أنقب بكل أعصاب عيني .. ولدى .. أين ولدى ..



بجبهته المضيئة ، وأنفه المكور وخصلة شعره السوداء التى  
تلامس حاجبيه ..

بنات وصبيان .. كلهم صغار ، وكلهم .. كلهم فى ايدى  
آبائهم أو امهاتهم أو أخواتهم الكبار .. والفرحة تقفز من  
عيونهم .. أحسست بفصة فى حلقى .. وقلبى يهبط الى قدمى ..  
ما من ولد وحيد .. الولد الوحيد فى كل هذا الزحام  
سيكون ولدى .

أين أنت .. أين أنت يا إيهاب .

الكتاكيت كانوا يندفعون الى الشارع .. وعيناي تروحان  
وتجيثان .. وقلبى يروح ويجيء .. هيصة وزيطة وضحكات  
نابعة من القلب وجميلة .

لو اسمع ضحكة واحدة منه أو كلمة لعرفته دون حتى أن  
أراه .. العشرات والمئات كانوا يخرجون .. وولدى .. يا ولدى  
أين أنت ؟ ..

أيمكن أن تكون جالسا فى مقعدك كالعقلاء ، حتى ينتهى  
الزحام ؟ ..

ربما .. أنا دائما اتخيلك هكذا .. كبيرا .. وعاقلا  
يا إيهاب .

شيئا فشيئا ، كان الزحام يخف ويخف : وبدأوا يخرجون  
فرادى .. ثم .. لم يعد يخرج أحد .  
غامت عيناي .

لقد ارتكبت الجريمة .. وتاه ولدى .

عدت أسأل وأنا أكتم هلعى :

— ماعدش أطفال جوا السينما ؟ .

لا .. كلهم خرجوا .

رفضت أن أصدق .. اندفعت جريا الى الصلاة .. كانت فارغة ، صامتة ، تكسوها ظلال كثيفة أشبه بسوق أو مهرجان كان وانفض ، ولا مخلوق فيها سوى اثنين يكتسان الأرض في وجوم .

تاه .. تاه .

وخرجت الى الشارع .

ماذا أفعل ؟ .. أجرى في الشوارع ، وأسأل وأبحث .. ربما أصطدم بطفل وحيد يبكي .. فيكون هو ؟ !

أى اتجاه آخذ ؟ .. أبدا بأى شارع ، هذه المنطقة سوق .. المدينة كلها سوق .. مدينة بلا قلب ، كما أحسها الشاعر مرة .. متوحشة .. لا .. أنا المتوحش .. ماذا ستفعل أمك حين يبلغها الخبر .. ليتها لم تكن نائمة لحظتها ، كانت بالتأكيد ستمنعك من الخروج وحدك .. الجنون .. حين تعلم .. حزن العمر .. لقد كنت حلمها يا إيهاب وهى لاتزال صبية .. هى التى اختارت لك الاسم حتى قبل أن تحمل بك .. كنت حلمنا فى أجمل أيام عمرنا .. يا حبيب عمرنا .. أهكذا بسرعة تضيع منا فى زحام الحياة .. يأخذك أناس مجهولون .. ولا يدري أحد ما مصيرك .. فى كل البلاد أناس بلا قلب .. غير رحماء .. يخطفون الأطفال ويستعملونهم فى ..

لا .. لا .. هناك أيضا أناس طيبون و .. آخرون لم ينجبوا .. ليتك تكون من نصيب هؤلاء ، سيحبونك بالتأكيد ، عيناك واسعتان سوداوتان .. وابتسامتك .. ابتسامتك جميلة .. من يومك وابتسامتك جميلة .. ومن يومك وأنت قوى .. كنا نسيمك « شمشون الصغير » أذكر ؟ .. على البلاج .. فى ثانى

صيف لك في هذا العاصم ، تحت ممعى وتجرى بالمياوه على  
الرمل ، وتهجم على الموج دون تهيب ، وفي يدك عصا ، وصدرك  
قوى ومرتفع ، ونزهو بك أمام الأصدقاء وأمام البحر .

ولدى .. من أجل أمك على الأقل .. أرجوك .

لا تصدمها الصدمة الرهيبة .

يا الهى ! . من أين أبدأ البحث ؟ !

فجأة .. سمعت ضحكة .. تصلبت قدمائى وأذناى .. هل  
أصدق قلبى ؟

والتفت ..

كان هو .. ولدى .. ايهاب .. واقفا مع ثلاثة أطفال ..  
كتناكيت صفار فى مثل حجمه وسنه .. كانوا يضحكون .. وواحد  
منهم ينفخ صدره ويقول : « هيه .. أنا الرجل المثالى » .  
قال ولدى وهو يشيح بذراعه :

— لا .. لا أنا الراجل المثالى .. شوفوا .

وقفز بجسمه الصغير الى أعلى فاردا ذراعيه وكأنهما  
جناحان .

صحت بلا وعى .. ايهاب .. ايهاب .

توقفت فجأة والتفت الى بعينين مستغربتين :

— الله .. أنت دخلت السينما يا بابا ؟ .

قلت بصوت خافت وكأننى أستريح من مشوار طويل قطعته

جريا :

— لا يا حبيبى .. أنا ...

وتلجلجت ..

صاح واحد من الأطفال فجأة وهو يضع عينيه في عيني  
ولدى وقال بلهجة ساخرة :

- هاها .. وبتقول لنا أنك جاي من بيتكم لوحده ..  
آه يا كذاب .

وانقلب وجه صغيري ، وصاح وقد امتلأت عيناه بالدموع :

- لا .. أنا جيت لوحدي .. جيت لوحدي .

- آه يا كذاب !!

والتفت لي بعينه الباكيتين وعاد يصيح وهو يدق في  
الأرض بقدميه .

- أنا مش كذاب .. أنا اللي جيت لوحدي .. لوحدي ..  
ايه اللي جابك يا بابا .. ايه اللي جابك !

وراح يبكي .. ويمزق نفسه من البكاء .

(( ١٩٦٠ ))



## العصفور لعبة

طلع عليه النهار وهو جالس الى مكتبه محنى الرأس يعمل بفكره .. وقد استغرقتة الحالة حتى لم يحس بدرجات الألوان وهى تنبثق أمامه على مهل من كتلة الليل الصلدة السوداء ثم تفتح وتشرق درجة بعد درجة حتى أخذ وجه الدنيا لون النهار .

وربما كان قد ظل هكذا ، غير شاعر حتى بضجة الصباح التى بدأت تشيع فى المدينة الضخمة ، لولا أن شيئا ما حدث فجأة جعله ينتفض فى جلسته ، وبغريزة الخوف وجد نفسه يميل مفزوعا وبسرعة على اليسار ليتفادى ذلك الشيء المندفع نحوه من باب الشرفة بسرعة رهيبة ، كقذيفة قاعدة اطلاقها مجهولة ، لكنها بالتأكيد قريبة ، ثم من هول السرعة تواصل اندفاعها وترطم بالحائط فوق رأسه ، ثم تسقط على الأرض بجوار مكتبه .

كان مصفورا ..

هنا ، تحركت فى الرجل غريزة القنص القديمة ، وفى أقل

من لمح البصر كان يندفع قفزا الى الباب الذى دخل منه العصفور وقفله ، ونظر الى الباب الآخر الذى يفضى الى بقية الشقة ، كان هو الآخر مقفولا .. واذن .. وقع العصفور فى الفخ !

وقف لحظة ينظر الى الطائر مفروذا الصدر لامع العينين متسع الشدقين بابتسامة النصر .. ها قد اصطدت عصفورا .. وعصفورا ملونا جميلا .. وابهجه الموقف ، وتذكر طفله .. سينادى عليه .. « نعم .. ما أروع أن يقدم الأب لابنه مثل هذه المعجزة على الصباح » .

وشد قامته سعيدا مزهوا .

« وليرى أيضا أن فى امكان أبيه أن يصطاد عصافير !! »

ما أن رأى الطفل العصفور ، حتى اكتسحت كيانه فرحة كبرى .. حقا معجزة يا أبى العظيم .. ! كان يقفز ويصفق ، وبدا وكأنه لا يصدق ، وصاح وهو يحضن أباه :

— العصفور ده بتاعى يا بابا .. اصطدته علشانى ؟ ! .

— عصفورك يا حبيبى .. عصفورك .. !!

قالها الرجل وقد تهدج بصوته بفرح غامر لفرح طفله الصغير الوحيد .. والتفت الى زوجته التى كانت هى الأخرى فرحة وسعيدة باستعادة طفلها ، وقال :

— عصفور جميل .. مبش كده ؟ ! .

قالت وهى تتأمل العصفور :

— ده كنارى .. الله على ألوانه .. شايف زاهية وناطقة ازاي !

— بس مسكين .. الصدمة كانت شديدة عليه .. عندك أكل له ؟ ! .

— عندى .. بس مش حياكل يا عىنى .

— ليه ؟ !

— عشان حزين ووحيد .. النوع ده ما ياكلش ، الا اذا كان له وليف معاه !!

— يعنى إيه ؟

— نشترى له عصفور تانى ، دكر اذا كانت دى نتاية ..  
أو نتاية اذا كان ده دكر ، ونشترى لهم قفص يعيشوا الاثنين مع بعض فيه !!

سمع الطفل اقتراح الأم ، فصاح مؤيدا وكل جسمه يهتز ..  
« ايوه يا بابا .. والنبي يا بابا .. اشترى له قفص يا بابا » .  
يا لها من فرحة .. محال ، وتحت أى شعار ، اطفاء  
هذه الفرحة .

وسرحت عينا الأب .. رسم خياله الصورة : عصفوران  
جفيلان من الكنارى ، يعيشان فى بيته ، داخل قفص انيق مدلى  
من سقف الصالة .. وفى أوقات الراحة ، يجلس مسترخيا  
أمامهما .. ويتأملهما .. وراح يتأمل الصورة .. حدثت  
اهتزازة .. تحولت أسلاك القفص فى عينيه الى قضبان ، وراى  
سجينين فى زنزانة .. هبت الذكرى المروعة من الأعماق فانتقبضت  
روحه .. لقد مر بالتجربة ذات مرة ، وشيبت روحه .. من  
أجل حرية وطنه ، فقد حرّيته أعواما .. وأغمض عينيه وهز  
رأسه بشدة : لا .. حكاية القفص هذه مرفوضة .. وأيضا لن  
يشترى الوليف الآخر ! . أى شيء جناه هذا العصفور ليحبسه ؟!  
كل ما فى الأمر انه كان يبحث عن حرّيته .. وضل طريقه ! .

لا .. لن أكون أنا سجنانه !! بعض من الوقت يقضيه الطفل

مع العصفور ثم يطلق سراحه .. نعم .. الى الفضاء لأبد أن يعود .

كان الطفل يقترب من العصفور .. خطوة خطوة .. منحنيا ومادا ذراعيه الصغيرتين أمامه ، ثم فجأة ، وكقناص صغير حذر ، قفز على العصفور قفزة مخيفة ليمسك به ، غير أن صرخة اعتراض حاسمة من شفتى الأب أوقفته .. استدار نحو أبيه مستفسرا في دهشة .

— ليه يا بابا .. ؟

— عشان لو مسكته حيموت في ايدك . !

خفض الطفل عينيه في استسلام ، واستدار الى العصفور معتدرا !! انقبض قلب الرجل ، وتشاءم لمصير العصفور : الأطفال سرعان ما ينسون .. وستعود اللعبة مرة أخرى .. وتصبح لعبة الموت ! .. ونظر الى زوجته كأنما يطلب منها العون .. وهمس :

— انا خايف الولد يموت العصفور ! ..

— اشترى له قفص ، حطه فيه .

— مستحيل .. وانت عارفة .. اسجن عصفور بجناحين ، وانفرج عليه .. منظر ما اقدرش عليه .

— وكنت بتصطاده ليه ؟ !

— انا ما اصطادتوش .. هو اللي دخل الأوضة .

— وبعدين قفلت عليه .. !!

— اللي حصل .. اعمل ايه دلوقت !!

كان العصفور قد هرب مرتعبا من قفزة الطفل ، ولاذ منكشا



بركن آخر .. وكان يلتصق بالجدار كأنما يريد أن يدخل فيه  
ليختفى عن هذه الأجسام والعيون المريبة الغريبة .

أحس الرجل أنه في ورطة .. هو المسئول ان حدث  
للعصفور شيء .. هل ينتظر حدوث هذا الشيء .. !! ولكن ..  
كيف يمكن اقناع الطفل بترك العصفور يطير .. ؟ ! .. كيف ؟ !  
يحدثه عن ضرورة الحرية للطيور ؟ ! ..

- حاسألك سؤال يا مجدى .. ليه ربنا خلق العصفور  
بجناحين ؟ !

- عشان يطير يا بابا ..

- يطير قين ؟ !

- فى الجو يا بابا ..

وتحمس الأب ، وتفاعل للنقاش ..

- عظيم .. يبقى ازاي نسجنه فى قفص ، او فى أوضه  
زى دى .. بين اربع جدران زى دول .. ؟ ! .. حرام طبعا ..  
ربنا يعدبنا .

اختلج وجه الطفل .

- انا حا حافظ عليه يا بابا ، وحاحط له أكل كثير .

- ولو يا حبيبى .. برضه حرام .. نسيبه أحسن يطير ؟ !

- يطير .. ؟ !

اتسمت عينا الابن ، وبدا فيهما الانزعاج . ولمح الأب بوادر  
دموع تكاد تنبثق ، بل وسرعان ما انبثقت ، وقال الطفل متوسلا  
وهو يبكى :

— لا يا بابا .. العصفور ده بتاعى .. انت اصطادته  
علشانى ؟

مناقشة الحرية مع الطفل سداجة وعيث ، واستخدام  
القوة أيضا .. خطأ :

ما العمل .. ما العمل !!

فجأة .. خطر له خاطر .. لمعت الفكرة .. وبرقت عيناه :  
سأنفذها .. ولتكن تجربة .. وان نجحت ، فستكون  
المعجزة .

— هيه .. يا مجدى .. انا وماما حنخرج نقعد فى الصالة  
تيجى معانا ؟ !

— لا يا بابا .. حاخلينى مع العصفور . !

— توعدننى انك ما تمسكوش ؟ !

— أوعدك يا بابا .

— وعد رجاله .. ؟ !

.. — وعد رجاله !!

— واوع تفتح شباك البلكونة ، أحسن يطير .. سامع !

— حاضر يا بابا ..

وخرج مع زوجته ، وعلى الفور بدأ فى تنفيذ الخطة !! .

فى هدوء شديد ، وبصوت لا يسمعه الطفل ، قفل الباب  
بالمفتاح .. سألته الزوجة باستغراب وانزعاج .

— إيه اللى بتعمله ده ؟ !

— دلوقت حتشوفي .

— حاشوف ايه .. عايز تحبس الولد لوحده ليه ؟ !

— مش لوحده .. معاه العصفور .. أرجوك ، أنا باحب الولد زيك بالضبط .

وتركها ومضى ينظر من ثقب الباب .

كانت هناك مطاردة خفيفة من الطفل للعصفور .. الطفل يناديه بذراعيه الممدودتين ، والعصفور يروح ويجيء بفزع وارتباك .. في كل اتجاه .

وقف الطفل ينظر الى الطعام الذي أحضرته الأم للعصفور :  
ألن تأكل منه يا صديقي العزيز . ؟ !

ووضع بعض حبات أرز على راحة يده ، واقترب يعطيها للعصفور ، لكن العصفور ولى على الفور هاربا الى بعيد ! .  
اغتاظ الطفل .. وهجم عليه مندفعاً في ضيق يريد أن يمسك به ، لكنه توقف .. تذكر وعده لأبيه .. واكتفى بالجلوس والفرجة عليه .. ما أجمل ألوانه .. لو يلمس هذا الريش الجميل بيديه .. ؟ ! أبوه لا يزال يعتقد انه صغير .. سينادى عليه ويطلب منه هو أن يمسك به .. واستدار الى الباب ينادى بصوت خافت :

— بابا .. بابا ..

لم يرد بابا ..

— ماما .. ماما ..

ولم ترد ماما .

لماذا لا يسمعانه . ؟ ! لابد انهما تركا الصالة ، وذهبا

الى حجرة أخرى !! . لم يحس بحركة الأب والأم وهما يتبادلان  
النظر من ثقب الباب للاطمئنان .. قالت الأم همسا :

- حرام عليك .. الولد خيفاف ..

- افرضي انه خاف .. حيحصل ايه !

- بدأ يزهدق .. ييلف حوالين نفسه ..

- عن اذنك ..

ووضع عينيه مرة أخرى على الثقب .. كانت الفرحة قد  
تبددت من على وجه الطفل .. نظراته حائرة .. تتردد بين الباب  
وبين العصفور .. العصفور مصمم على موقفه .. هذا العصفور  
لعين يستحق الضرب ..

- يا بابا .. يا ماما ..

مرة أخرى لم يرد الاثنان . لا صوت ولا حس يسمعهما .  
البيت ساكن صامت « سأخرج وانادى عليهما .. سأخرج بحذر  
ولن يهرب العصفور » . وذهب الى الباب وحاول ان يفتحه .  
فوجيء به مغلقا بالفتاح . خوف مفاجيء انبثق في نفسه ،  
واسرعت دقات قلبه .. وحاول مرة أخرى فتح الباب . الباب  
لا يفتح . تضاعف الخوف في روحه وانعدت دمة كبيرة قاومها  
في حلقه ..

- بابا .. بابا .. يا ماما .. يا ماما ..

الصمت الثقيل يشمل البيت .. تركاه وخرجا .. وقد  
يكونا خرجا من البيت كله .. صرخ ينادى بأعلى صوته ..  
اندفعت يد الأم لتخطف المفتاح ، لكن يد الأب تحولت الى قبضة  
من حديد على ذراع الأم .. بلا كلمة .. وبرقت عيناه ..



لا . . لم يأن الأوان بعد . . انها تجربة الحريبة . . فليتذوق  
الصغير ما فيها من مرارة .

قالت الزوجة وهى تعاني من قبضة يده .

— أنت متوحش .

قال وعيناه تلمعان :

— هو الذى متوحش . عايز يفضل حابس العصفور . أرجوك  
مش عايز اى كلام .

— افتح لى يا بابا . . افتح لى يا بابا . .

وراح الطفل يدق على الباب مناديا ، ولم تلبث نداءاته أن  
تحولت الى صرخات .

— افتح لى يا بابا . . افتح لى يا بابا . .

والأب لا يفتح .

شمل الرعب كيان الصغير وتخلخل . . الحجرة ضيقة  
ومقبضة ، لمعة عيني العصفور مخيفة . . الجدران ضخمة . .  
مصمته . . وضافت أنفاسه . . الى متى يظل محبوسا . . ؟ ! . .  
ونظر الى باب الشرفة . هل هو الآخر مقفول بالمفتاح . . واندفع  
بلهفة يفتحه . . فانفتح وانطلق منه الى الشرفة يصرخ وينادى . .  
يا بابا . . يا بابا . . ماما . .

فتح الطفل باب الشرفة من هنا ، وفى غمضة عين كان  
العصفور قد مرق فاردا جناحيه ، وانطلق سائحا فى الفضاء !!

للحظة أصاب الطفل الدهول والخوف . ماذا سيقول  
لأبيه ؟ ! . هو الذى فتح الباب فطار العصفور . . ؟ ! . .  
ما يكون . . وليخاصمه أبوه ، وليضربه ، وليعاقبه أى عقاب . .

المهم أن يفتح له باب الحجرة .. الآن ، يريد أن يخرج .. هل  
سيظل هكذا محبوسا حتى يأتى الليل ؟ ! ويخيم الظلام .. و ..  
تتابعت انفاسه وارتمى فى خوف على الباب يدق بكتلى يديه ،  
ويصرخ .. ويبكى ..

— افتح لى يا بابا .. افتح لى يا ماما .

صرخت الأم فى جنون ، وهى تهز كتفى الأب « أنت فظيع ..  
شنيع » .. العصفور طار خلاص .. كفاية حرام عليك ؟ .

— عايز أخرج يا بابا .. عايز أخرج يا ماما .

والصرخات الباكية ، والضربات الصغيرة المرتعبة على الباب  
تتوالى ... وبرقت عينا الأب بإبتسامة وحشية تخفى مرارة الألم  
الرهيب .. ومد يده الى الباب بالمفتاح .. نعم ..

آن الأوان .

وفتح الباب .

« ١٩٦٢ »

## ابن العالم

... ما ان انتهى اللعب ، حتى ضجت الساحة التى اتخذها الصبية والأطفال ملعبا لهم بالصياح وبالصفير .. فريق « الصوارىخ الجهنمية » المنتصر يهتف ويصيح . وفريق « الأسد المرعب » الذى انهزم يصفر ويزوم .. وتداخل الفريقان واختلطتا وابتدأت بينهما اللعبة الثانية الطريفة : لعبة الكلام الحامية بين الغالب والمغلوب .

غير أن طفلا من فريق الصوارىخ الجهنمية نظر فجأة الى ساعة يده ، وحينذاك طرّق باصبعيه فى الهواء وهتف متذكرا مع نفسه :

— آه .. لابد أن أعود ..

وانفلت من ساحة اللعب ، وانطلق يجرى فى الطريق المؤدى الى بيته .. كان يحجل من الفرح مرة ، ومرة أخرى يقفز فى الهواء ، ناشرا ذراعيه النحيلين فى الفضاء ، وقد خيل اليه انه ربما يحلق ويطير .. كان احساس جارف بالنشوة يملأ كل كيانه الصغير .

اليس هو وحده الذى حقق الهدفين لفريقه فانتصروا بذلك  
على « الأسد المرعب » ؟ !

آه .. ماذا سيحدث حين يلقى لهم بهذا الخبر فى البيت ؟ ..

وملأ صدره بنفس عميق من هواء الشارع ليساعده على  
الجرى .. وازدادت سرعته .. كان يتمنى لو يصل البيت فى  
غمضة عين .. ليس المهم أنه لن يتأخر على موعد الغداء كما اتفق  
مع أمه .. المهم أن يعلنهم بالخبر .. هذا الخبر سيحدث فى  
البيت هزة .. وأول من سيفرح به ، هى أمه .. أمه دائماً  
تقول له : « لم تعد طفلاً يا اسماعيل .. لم تعد طفلاً » .

كلامها حق .. لم أعد أبداً صغيراً .. صحيح ان أخى  
مصطفى يكبرنى بسنتين .. ولكن ، لو كان معنا فى هذا الماتش ،  
هل كان حقق هدفاً واحداً ؟ ..

كان صدره يضيق بفرحته .. وتمنى لو يقابل فى الطريق  
شخصاً يعرفه ، أى شخص .. صبي الخردواتى .. أو ابن بائع  
الجرائد الذى يبيع لهم الجرائد فى الصباح أو حتى بائع الخبز ،  
ويحكى له .. غير أن الطريق على طوله كان ساكناً شبه خال ..  
لم يكن يشغله سوى صفين من الأشجار الكثيفة على الجانبين ،  
وخلفها تكاد تختفى بعض بيوت متناثرة .. صامته تحت الشمس ،  
لا أحد يدخلها أو يخرج منها .. ونظر الى صفى الأشجار الممتدة  
بظلالها على طول الطريق .. وخيل اليه ان الأشجار تنظر اليه ..  
فمضى ينظر اليها .. وهى تجرى .. شجرة .. شجرة ..

لقد انتصرت أيتها الأشجار « وتمهل قليلاً ليسترد  
أنفاسه » لم أعد صغيراً .. هذه الشجرة المدببة العالية ،  
أستطيع أن أتسلقها حتى آخر فرع فيها .. سأطلعك غداً أيتها  
الشجرة .. لم أعد صغيراً أيتها الأشجار جميعاً .. أمى تقولها



لى دائما .. كم احبها ، امى .. وابى ايضا احبه .. واخى مصطفى .. ولكن مصطفى هذا دائما يزهو على ، وينفخ لى صدره لأنه اكبر منى بسنتين .. سنتين فقط .. ها .. بعد دقائق سيتغير الموقف .. بمجرد أن يسمعوا الخبر .

ومضى يسرع .

كانت الشمس لحظتها تتوسط صدر السماء .. ظهر يوم من أيام مايو .. وظلال الأشجار أصبحت عمودية فبدت أرض الشارع أشبه بشريط طويل من النور ، يجرى فوقه الصغير ويحجل .

كان الطريق واحدا من شوارع تلك الضاحية التى يسكنها الصغير مع أهله .. يحاذيها النهر من الغرب ومن الشرق تحيطها مساحة ضيقة من الحقول ، ثم سلسلة جبال منخفضة ، سمراء ورمادية .

وظل يجرى .. قفزاته المرحية تفجر صمت الظهيرة بالحياة .. حتى لاح له البيت من بعيد .. بطابقه الوحيد ، والشجرة التى تظله وتتدلى بعض فروعها الكثيفة حتى تلامس السطح .. وأحس بحب جارف نحو هذا البيت الذى سيدخله اليوم منتصرا هدفان وحيدى - يا امى .. ويا أبى .. ويا أخى مصطفى .. ويا ... ما هذا ؟ ! تباطأت خطواته .. بدا له أنه يسمع صوتا ، فتمهل وراح ينصت وهو يلهث .. والتقط الصوت على الفور .. كانت نقرات طبله .

طبله فرقة من فرق الكشافة لحدى المدارس ، تقوم بجولة استعراضية ، وتخيل المنظر : أشبال الفريق وهم يضربون الأرض بأقدامهم ، وأجسامهم مشدودة ، والشارات الخضراء على أكتافهم .. وحامل الطبله يتقدمهم .. أحس بالضيق .. ولوى

شفتيه بسخرية .. وماذا فى هذه المشية ؟ ها .. فى امكان اى واحد أن يمشيها : شمال . يمين . شمال . يمين . هذا هو كل ما فى الموضوع .. أما الكرة ، فشيء آخر .. حققت فيها هدفين .. وحدى .. الكرة أحسن ألف مرة من الكشافة .. وأصعب أيضا .. الكرة فيها محاورة ، ومراوغة ، وأهداف ، أما الكشافة .. مشى . . . مشى . . . مشى .. هذا هو كل ما فيها ، غير أنه أحس بروحه تهبط ، ودقات قلبه تسرع رغما عنه .. كان صوت الطبله يقترب ، وأدرك لأول مرة ان الكشافة تسير على نفس الطريق .. قادمة من الاتجاه المقابل .. وستظهر فى أية لحظة .. وتجهم وجهه ، لو ظلوا قادمين من نفس الطريق ، فسيفرون أمام البيت ، وسيجرب الجميع ليتفرجوا عليها ، لن يلتفت أحد الى .. سيفطى منظرهم على وعلى خبر الهدفين . لا . سأجرب بكل عزمى ، وألقى بالخبر ، قبل وصولهم !!

وانطلق يجرب .. وانفاسه تتلاحق .. كان يدعو من أعماقه أن تتأخر الكشافة .. أو تأخذ أى طريق جانبي .. انه يريد الأمان .. الا تسمع الآن شيئا فى العالم غير خبر انتصاره .. لكن ايقاع الطبله كان يعلو ويقترب ، وامتلا بالخوف من أن يصل صوت الطبله الى البيت قبل أن يصل هو .

— لا .. لا .. ابتعدى أيتها الطبله .. أيتها الكشافة خذى طريقا آخر .. يارب تفسد هذه الطبله .. افسدها يارب .  
غير أنه لمح فريق الكشافة يبرز فجأة من بين الأشجار ، مقبلا نحوه ، ونحو البيت ، وحامل الطبله يتقدم خطوات منتظمة « مهما كان الأمر سأسبق هذه الكشافة » ومضى يلهث .. ويجرب .

غير أنه لم يكذ يقترب من البيت ، حتى رأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، وأمه وأباه وأخاه مصطفى يتسابقون على الخروج

الى الشرفة وأصواتهم تختلط بفرح ولهفة .. غاص قلبه ،  
لقد وصلتهم دقائق الطلبة ، فخرجوا جريا ليتفرجوا عليها ..  
فتر حماسه .. وتوقف تماما عن الجرى .. وأحس بشيء  
ما يكتسحه ، ووقف خلف شجرة يخفى نفسه .

كان استعراض الكشافة قد اقترب جدا من البيت ، وأصبح  
منظرهم واضحا ، وحامل الطلبة يخلى لهم الطريق بدقاته  
المنتظمة .

ولمح أخاه مصطفى يترك الشرفة ويهبط سلالا البيت قفزا  
ويدفع الى وسط الشارع ليستقبل الاستعراض ، فنادى عليه  
بصوت خافت :

— مصطفى .. يا مصطفى ..

واستدار له مصطفى .. فصاح عليه وقد تجدد الحماس  
في قلبه :

— احنا مش كسبنا مائش النهارده ؟ اتنين لصفر ، وأنا  
الى جيت الجونين .. أنا لوحدى ؟

وفرّح حين رأى الدهشة ترسم على وجه أخيه ويسأله :

— جونين ؟ ! انت لوحذك ؟ !

— آه .. أنا لوحدى ..

غير أن الدهشة سرعان ما تبددت من على وجه أخيه ، وقال  
له بكبرياء وينفخ صدره :

— أنا كمان اصطدت سمك النهارده بسنارتى ، اتناشر  
سمكة أنا لوحدى .. واسأل ماما وبابا .. تيجى أوريهملك  
« وشوح بيده مستدركا » لا .. لما تفوت الكشافة أول يا عم ! .. !

وتركه وحده بجوار الشجرة ، واستدار يجرى نحو الكشافة  
التي كانت تقترب ونقرات طبيلتها تعلو وتملاً سكون الطريق ..  
أحس اسماعيل بقصة في حلقه .. ونظر الى شرفة البيت فرأى  
أباه يشير لأمه على الكشافة ويقول لها كلاماً بحماس ، ووجهه  
يضحك ، وأحس بالضيق من أبيه .

— أبى هذا يترك مصطفى يذهب الى النيل ليصطاد سمكا ..  
ولا يخاف عليه من الفرق .. انه لا يخاف علينا أبداً .. لماذا  
هو متحمس هكذا للكشافة .. أمى .. أمى هي التي سأقول لها .

واجتاز الطريق دون أن ينظر الى طابور الكشافة المتقدم ،  
وخطف الدرجات الخمس الموصلة لباب البيت وللشرفة ..  
وبلا وعى هتف من أعماق قلبه ، يعلن خبر انتصاره .

لكن الكلمات توقفت على شفثيه ، أمه لا تسمعه ، صوته  
يضيع في دقائق الطبول المتعالية . وأبوه يلف ذراعه حول كتفى  
أمه في ابتهاج .. وأمه تضحك بسعادة وتشير على الصبي  
الصغير الذى يحمل الطبله على صدره ويدق عليها ببراعة :

— الله .. شايف منظره جميل أد ايه .

وقف من خلفهما ينظر الى الكشافة باكتئاب ..

الكل ينظر الى الاستعراض بفرح ودهشة ..

أما هو .. فلا أحد يحس بوجوده ..

لا أمه .. ولا أبوه .. لا أحد أبداً .. حتى هذه الوجوه  
التي تطل من النوافذ على جانبي الطريق .. وأحس بأنه غريب .  
انه لاشيء على الاطلاق في هذا البيت .. بل في هذه  
الدنيا .. وازدحمت روحه برغبة في أن يجرى ويجرى ..



ويخترق الحقول .. حتى يصل الجبل ، ثم يصعد الجبل حتى يصل الى قمته .. ثم .. ثم ماذا ؟ !

وأحس بدمعة تريد أن تطفر من قلبه وارتعشت شفاته .. كان ثمة سؤال كبير وغامض يرتسم على شفتيه ، ويريد الجواب عليه من أى انسان .. أى انسان !

اختفت الكشافة من الطريق ، وتلاشى وقع طبولها تماما ، وعاد للبيت والمنطقة هدوؤهما العميق المعتاد وجلس الصغير مع أبيه في الشرفة يأكلان وحدهما .. كانت الأم قد قالت ، موجهة الحديث للصغير انها هى وأخوه مصطفى قد تناولا غذاءهما قبل أن يصل .. أما أبوه ، فقد فضل الانتظار حتى يعود ويأكل معه .

أحس الصغير لحظتها بحب دافق لأبيه .. وخف قليلا احساسه بالحزن على انتصاره الذى لم يحس به أحد ، وفكر - وهو يجلس أمام أبيه والطعام بينهما - أن يحكى له عن الهدفين اللذين حققهما فى اللعب .. وعأوده هتاف الأولاد له .. فتحمس وأوشك أن يفتح فمه .. غير أنه تذكر أعجاب أبيه بمنظر الكشافة ، وصيحة أمه الفرحانة وهى تشير بكل ذراعها على الولد حامل الطبله .. ثم .. أخوه مصطفى الذى اصطاد سمكا من النيل .

لا .. لن يقول له .. يبدو أن لعب الكرة ، وحتى تحقيق أى أهداف فيها ، ليس له قيمة .. سوف يهجر هذه اللعبة ، ويلتحق بفريق الكشافة ، ويصبح حاملا لطلبتها .. لا .. لا .. بل سيذهب من الغد الى النيل عند مرسى القوارب ، ويشترى سنارة من هناك ويصطاد سمكا أكثر من أخيه .

ولكن .. مصطفى سيقول انه غار منه .. وأحس باختناق

وبحيرة تعذبه .. ماذا يفعل .. ماذا يفعل الانسان .. ؟ وازدحمت  
روحه بالرغبة في الانطلاق .. يترك الطعام ويجرى .. يخرق  
الحقول حتى يبلغ الجبل .. ثم يصعده حتى قمته .. ثم ..  
ثم ماذا .. ماذا يفعل الانسان في هذه الدنيا ، ما هو أهم  
شيء في هذه الدنيا ، ليفعله .. لينظر اليه الجميع .. الجميع ..  
ويشيرون عليه باعجاب وانبهار ؟ !

— بابا ..

وخرج السؤال من شفتي الصغير :

— ايه أهم حاجة في الدنيا دي ؟ !

كان وقع السؤال مفاجئاً على الأب .. فتوقف لحظة عن  
مضغ الطعام مخفياً استغرابه بإبتسامة نبعت من قلبه .

يا للسؤال .. ما هو أهم شيء في الحياة ؟ !

ما الذي دعا الصغير لأن يسأل هذا السؤال .. آه ..  
كبر أطفلى وأصبح يسأل أسئلة كبيرة .. فيها كلمة الدنيا ..  
وكلمة الحياة .. آه لو أستطيع أن أعلم ولدى حب الحياة ..  
ليس أروع من أن يعلم الآباء أطفالهم حب الحياة .

— شوف يا اسماعيل .. مفيش في الدنيا دي حاجة تقدر  
نعتبرها هي أهم حاجة .. أهم من كل الحاجات التانية ..  
الشمس دي مثلاً .. مهمة جداً جداً .. الهوا اللي حوالينا ده ..  
برضه مهم جداً جداً .. الأكل اللي قدامنا ، مهم كمان .. جبل  
المقطم اللي هناك ده برضه مهم ، بيعملوا منه الأسمنت والبيوت  
والخزانات .. الشجر ، الزرع ، الناس ، الميه ، كل شيء ..  
كل شيء في الدنيا لو فكرت فيه تلاقيه مهم .. ما تقدرش  
نستغنى عنه .. الدنيا على بعضها كلها مهمة يا اسماعيل !!  
وسكت لحظة ليأكل قطعة من اللحم أمامه ، ويرقب أثر كلامه على

طفله ، غير ان الطفل لم يبد عليه أى حماس لما سمع ..  
ليس هذا هو ما يسأل عنه .

– والكورة يا بابا .. مهمة هى كمان .. ؟

فابتسم الأب وقد تذكر انه يتحدث مع طفل صغير .

– طبعا .. الكورة مهمة .. وكل الألعاب الرياضية مهمة ..  
بتقوى الجسم ، وبتحسن الصحة .. و ..

ولم يكمل .. مر من فوق الطعام ظل عابر لطائر ، فارتفعت  
عيونهما الى أعلى ، فرايا حداة سمراء كبيرة الجناحين ، تسبح  
فى دائرة واسعة من الفضاء ، فعاد الأب يقول بحماس :

– حتى الطيور مهمة يا اسماعيل .. انت عارف أبو قردان  
مثلا .. بيسموه صديق الفلاح ليه ؟ عشان ياكل الدود من  
الأرض .. كل شىء يا حبيبى فى الدنيا دى لازم له حكمة من  
وجوده .. حتى لو احنا ما نعرفهاش ، فيه غيرنا يعرفوها ..  
العلماء يعرفوا !! ولاحظ الأب ان ابنه لا يأكل .. وان طبق  
الخضار وقطعة اللحم لاتزال أمامه ، لم تمسسهما يده .. فابتسم  
له وقال :

– تعرف المهم ايه دلوقت ؟ ! انك تأكل .. عشان تبقى ولد  
قوى .. ويبقى لك عضلات .. شايف أنا خلصت أكلى بسرعة  
ازاى ؟ !

ونفض من على مقعده .

مرة أخرى مر ظل الحداة من فوقهما ، فنظر اليها الطفل  
فى فضول وقال :

– طيب والحدايات يا بابا .. لها فائدة كمان ؟ ..

فضحك الأب ضحكة مرحة وقال ، وهو ينظر برضا الى كل ما حوله من فضاء وسماء وأشجار .

— لازم يا حبيبى لها فائدة .. كل حاجة فى الدنيا دى لها فائدة ، والا ماكانتش اتخلقت .. انا قايم اغسل ايدى .

وترك مكانه ، وغادر الشرفة ، وبقي الصغير يأكل وحده !

كان شىء ما لطيف قد بدأ يتفتح فى نفس الصبى .. احساس بالارتياح وبالرضا عن نفسه ، بدأ يشمل كل كيانه ، أبوه يقول ان كل شىء .. كل شىء فى هذه الدنيا مهم .. هو معهم . ولعب الكرة مهم .. وتفتحت نفسه بالحب .. والطعام أيضا مهم .. وابتسم لنفسه ، وأقبل على الطعام بشهية .. فجأة وجد نفسه ينتفض من مقعده ويصرخ فى فرح .. لقد خيل اليه أن شجرة ضخمة تكاد تهوى على رأسه .. فصرخ مرتعبا ، واذا بالحدأة التى كانت تدور فوقهما مند قليل ، قد انتهزت قيام أبيه فانقضت على قطعة اللحم واختطفتها بمخالبها من الطبق وفى انقضاضها المفترس على قطعة اللحم ، ضربته بجناحها ضربة هوجاء .. أسفل عينه ، قامتلا بالرعب ، وراح يصرخ ويبكى .. ولم يكف عن الصراخ الا حين وجد أمه تصرخ هى الأخرى من الجزع وتحضنه وتربت عليه .

« ابنى حبيبى .. فيه ايه يا اسماعيل » .

وبكلمات باكية متقطعة :

« الحداية عورتنى .. وخطفت حتة اللحم بتاعتى » .

وأجهش بالبكاء .. ورأى أباه يقبل جريا على صرخاته :

— حصل ايه يا اسماعيل ؟ !

ازداد بكأؤه ..



- انت كنت بتكذب على يا بابا .. الحداية مش كويسه ..  
الحداية وحشه .. الحداية بتعور الناس .. عورتنى من غير  
ما اعمل فيها حاجة !

ودفن رأسه فى صدر أمه .. وانخرط فى بكاء مرير !

أحس الأب بكيانه يتهاوى أمام طفله .. تزعزعت ثقته فى  
نفسه .. وامتلات روحه بالكراهية نحو هذه الحداة التى كادت  
تصيب عين ابنه .. ومع بكاء طفله كان يسأل نفسه وهو يدور  
بعينيه فى الفضاء بحثا عن الحداة .. أحقا يجب على الانسان  
أن يحب كل الأشياء كما كان يقول لطفله ؟ ! والتقت عيناه  
بالشمس فأجفل وهو يجز على أسنانه :

- النار تدفء ، لكنها تحرق أيضا .. والنهر يروى ،  
لكنه يفرق أيضا .. كيف نحب كل ما فى هذه الحياة .. وفيها  
هذه الجوارح والوحوش التى تجعل من الانسان فريستها ؟

وأحس بأنه هو الآخر طفل جاهل تعذبه الحيرة ، وخيم على  
البيت صمت عميق لا يتخلله الا نسيج الصغير .. ودخل عليهم  
مصطفى فى تلك اللحظة ، كان يحجل ويصفر ، ومعه فراشة  
ملونة اصطادها من أحد الحقول القريبة ، وحين رآها اسماعيل  
المجروح تأكدت الهزيمة فى نفسه ، ومن جديد ، عاد يبكى ، ولم  
يكن أحد فى بيته ، يعرف حقيقة الشيء الذى يبكيه .

كان كل شيء يمكن أن يمر بعد ذلك بسلام ويقف عند  
هذا الحد ، خصوصا وأن الأب ظل جالسا مع طفله ، يربت عليه  
ويحدثه ، حتى خفف على نفسه وقع الحادث .

لابد ان الحداة كانت جائعة يابنى .. الانسان حين يجوع  
يسرق .. كذلك الحداة حين تجوع تخطف .. لم تكن تقصصك

أنت بالذات .. كانت تقصد الطعام لتأكل .. هيا يا اسماعيل ،  
هيا اخرج والعب في الشارع مع أصحابك .

الى هنا ، كان كل شيء يمكن أن يمر وينسى ، لولا أن  
اسماعيل وهو يلعب مع أصحابه الصغار ، سمع واحدا منهم يشير  
على الجرح التي أحدثته هذه الحداة أسفل عينه ، والمفطى  
بضمادة ، ويقول ساخرا منه :

— ها .. الحداية شافته صغير ، ضربته وخطفت منه  
خنة اللحمه وطارت .. ها ها ها ..

وقال طفل آخر باعتزاز :

— او كنت أنا يا ابني .. كنت ضربتها ضربة وقعتها .

وقال ثالث موجهها له الكلام بسخرية :

— يا ابني بعد كده ما عدتش تقعد لوحدهك .. احسن  
الحداية تخطفك بحالك ، وتطير بك .. ها .. ها .. ها ..

رنت في رأسه قهقهاتهم .. فلم يرد بكلمة .

شردت عيناه بعيدا وبرقتا للحظة .. شاعت في رأسه دماء  
حارة .. وتجدد الحقد مرة أخرى في قلبه نحو هذه الحداة  
التي استصفرته في عينيها ، فجرحته وخطفت طعامه وجعلته  
سخرية لأصحابه .. سيصبح جرحه هذا مدلة له طول العمر .  
والتمعت — مع الدماء الحارة في رأسه — فكرة تتابع  
لها أنفاسه .

سرى هؤلاء الأولاد انه ليس صغيرا .

وانسحب في سكون الى بيته .. ودخل حجرته .. لم يكلم

أحدا .. ظل وحيدا حتى هبط الليل ، ولم ينم الا بعد أن كان قد رسم الخطة في رأسه كاملة .. سيضرب هذه الحداة .. « نعم سأضربها » .. اسماعيل الذى حقق الهدفين وحده في اللعب ، سيضربها .. اسماعيل لم يعد صغيرا .. غدا سيعرفون هذا حين أذهب لهم بالحدأة مضروبة .. مجرورة من رقبتها بأحد الحبال .. !!

في الغد .. قبل الظهر بقليل ، كانت الخطة تسير بالضبط كما رسمها اسماعيل : قطعة من الجبن موضوعة في طبق ومكشوفة في عراء الشرفة ، وهو واقف يرقب السماء حتى حانت اللحظة ، واختبأ على الفور خلف الباب القريب من مكان الطعام ، وفي يده عصا : ساق أحد الكراسي القديمة ، وقد امتزج الفل في صدره بالخوف .. لم تنقض دقيقة ، حتى كانت الحداة قد لمحت قطعة الجبن .. فدارت حول نفسها دورة تستكشف بها المكان ، ثم انقضت كالسهم .. لتخطف الطعام غير أن الصغير برز فجأة بالعصا ، فانتبهت الحداة وانحرفت بسرعة ، وارتفعت مرة أخرى في الفضاء .. وابتعدت كثيرا .. غاص قلبه « لقد تمجلت .. لماذا تعجلت .. هل ستعود مرة أخرى ؟ !

آه لو تعود .. مرة واحدة .. مرة واحدة فقط .. لا بد سأصيب الهدف .. ستكون الضربة في المنقار والرأس .. ووقف في مكانه يرقب الفضاء من كل الجهات ، وأحس برهبة .. السماء كبيرة .. واسعة وعريضة .. لو أن لى أجنحة لطرت وراءها ، حتى آخر الدنيا ، وانتقلت منها .. آه ! ها هي .. كم هي صغيرة في كل هذه السماء .. وانكمش في مكانه ، وأسرعت أنفاسه .. أنها تهبط وتقترب .. تكبر وتكبر .. شكلها مخيف وقبيح .. قد تجرحنى هذه المرة أيضا .. لا ..

وتقبض على ساق الكرسي بشدة .. أنها تدور حول نفسها ..  
ترقب قطعة الجبن ..

وانقضت ..

ويكل الغل .. ويكل الخوف الذي يملأ قلبه ..

— طاخ ..

وشهق من الرعب وهو يرى الحداة ، ترتدى من الضربة على  
بلاط الشرفة وترفرف بأجنحتها تحاول النهوض وال طيران من  
جديد .. كان في عينيها لمعة ألم ورعب مخيفين ، وأحس بها  
تريد أن تنهض لتنقض عليه وتنهش فيه لو استطاعت ، فانتقض  
عليها بالرعب المتزايد في نفسه ، وانهال على رأسها بالعصا ،  
وراح يصرخ ويهتف :

— بابا .. بابا .. ماما .. ماما .. تعالوا شوفوا .

وراح وهو يضرب في الحداة يصيح وقد تملكته نشوة النصر  
وانتفض ملتفتا على صوت الأب يصرخ عليه :

— ايه اللي بتعمله ده يا اسماعيل ؟

— ايه اللي بتعمله ده يا ابني ؟ !

وبلهجة المنتصر :

— باضرب الحداية .

عاود الأب صرخته :

— ليه .. ليه تضربها ؟ ! .

— عشان هي اللي عورتني أمبارح .

وقفز الأب واختطف منه العصا ، وأمسكه من كتفه وراح  
يهزه بغضب .



— ومين قال لك ان هي دي الحداية اللي عورتك ؟

قال الطفل وقد اكتسحه رعب هائل خفى :

— هي يا بابا .. هي ..

وهز الأب ذراعيه في الفضاء .. كأنما يتمزق ، ويمزق الطفل معه ، لمنظر الحداية الهامدة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة .

— فيه ألف حداية في السما .. اش عرفك ان دي بالذات هي اللي عورتك .

ودار رأس الطفل ، وغامت الرؤية في عينيه ، وقفزت الدموع من حلقه الى عينيه ، وراح ينظر الى الحداية الملقاه في همود على الأرض .. والدماء تسيل منها .

ويبكي ..

يبكي انتصاره !

« ١٩٦٠ »

## الموتوسيكل

في الوقت الذي كان فيه الصبي ( ميشو ) منطلقا بموتوسيكله « السهم الخاطف » على آخر سرعة ، عائدا من مدرسته بقصر النيل الى بيته بمصر الجديدة ، كان أبوه بطرس وهو رئيس قديم لإحدى الطوائف الدينية ، جالسا في صالة البيت ينتظره ، وثورة من القلق والغيظ تأكل في أعصابه .

كانت ثورة الرجل قد شملت كل شيء في البيت . . . والبيت لم يكن بيتا بالمعنى المألوف . . كان قصرا فخما وضخما ، رغم أنه من طابق واحد وسلامك . . ودون أن يصدر أمرا ، أقفلت جميع النوافذ وأسدت الستائر ، وسادت الغرف والصالات والممرات ظلال كثيفة أشبه بلون الظلمة .

والى يمينه ، وتحت صورة كبيرة وقديمة للعدراء ، جلست زوجته الست أم ميشيل في صمت ، منحنية برأسها الذي شاب شعره وتجمعت خصلاته البيضاء في عقدة واحدة كبيرة ، وراحت تشتغل بأبرتها في قطعة من القماش ، وتتمم ببعض كلمات في سرها .

أما وكيل أعماله العجوز - عم عطا الله - فقد جلس أمامه ،  
لابساً طربوشه المخروطى الطويل الداكن واضعاً بطن كفيه على  
ركبتيه فى أمثال وأدب ، وراح دون أن ينطق بحرف ، يرمش  
بعينيه الضعيفتين من وراء زجاج نظارته العظيمة البيضاء  
السميكة .

كان الثلاثة ينتظرون عودة « ميشو » بفارغ الصبر ، وكلما  
نفخ الأب من أنفه ، أو تملل فى جلسته ، اضطربت الأبرة بين  
أصابع الأم ، واضطربت أصابع عم عطا الله هو الآخر فوق ركبتيه ،  
واختلس كل منهما من الآخر نظرة اشفاق وخوف .

لم تكن هذه أول مرة ثور فيها المشكلة ويكفهر جو البيت .

ثارت واكفهرت من قبل مرات ومرات .. عاد الرجل ذات  
يوم من زيارته لأرضه فى الشرقية ، فوجد ابنه « ميشو » قد  
أشترى موتوسيكلًا .. ولم يكذ يلقى على الموتوسيكل نظرة ،  
حتى راعته ضخامة حجمه .. ثم ما هذا أيضا ؟ ورقة ملصوقة  
على مقدمة الموتوسيكل ، ومكتوب عليها بخط اليد .. خط  
« ميشو » نفسه : « السهم الخاطف » .

تملكت الرجل ثورة ، وأصغر أمره بأن يخرج هذا  
الموتوسيكل من البيت فى الحال .. غير أن الثورة لم تلبث أن  
أطفأتها دموع الابن وتوسلاته .

- مش حاخرج بيه كتير يا بابا .. وحاسوقه على مهلى ..  
على مهلى خالص يا بابا .

لكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد .. كانت مجرد بداية ..

أن عددا من أصحاب ميشو فى المدرسة يملكون  
موتوسيكلات .. حسنى وعزير ومجدى وشيرين .. كل واحد

منهم له موتوسيكل .. موتوسيكل مجدى اسمه « النسر الذهبى » وموتوسيكل شيرين اسمه « الصاعقة » .. وحسنى « الدرى » .. اما هو ، فقد بات الليالى يتقلب فى فراشه ويفكر فى اسم لموتوشيكله .. اسم يمسح كل هذه الاسماء ويفارون منه جميعا .

آه : « السهم الخاطف » ! .

وينسى ميشيل نفسه ، ويركب السهم .. وينطلق به مع أصحابه فى الشوارع ويتلوى ويطوى الطريق فرحانا ، ويسابقهم ، ويسابق الريح .

أهناك سعادة فى الدنيا اكثر من هذا ؟ لكن الخبر دائما كان يصل أباه ، فتثور المشكلة كالعادة ، ويكفهر جو البيت من جديد .

غير انها حين ثارت هذه المرة ، كانت من اولها عنيفة تنذر بشيء خطير .

عاد الرجل فى ذلك اليوم بعد غيبة طويلة فى أرضه ، فصادمه خبر فظيع . ابنه ميشيل اشترك فى سباق للموتوسيكلات . ليس هذا فقط بل وصل به الجنون الى انه ربح السباق .. وكان الفائز الأول .

جن جنون الرجل ، وتملكه هياج غريب ، وراح يشتم ويلعن ويسب ، وأمسك الخدم بأنفاسهم وهم ينصتون من خلف الأبواب الى صوته وهو يصرخ فى وجه امراته .

— انا آلف مرة نهت عليكى قبل كده .. الموتوسيكل ده ما يخرجش بره البيت .. حضرتة عامل بطل ويشترك فى السباق ؟ .. لو كان يعمل لك حساب ، أو يخاف منك . ما كنتش ده حصل .. لكن أنا حاعرف ازاى اربيه .



في هذه المرة بالذات أحست الأم من نبرة صوته وبريق عينيهِ العزم والتنفيذ ، وكالعادة لم ترد على صراخه بكلمة ؛ كان خبر اشتراك ابنها في السباق قد صدمها هي الأخرى ، وهبط قلبها وهي تتصور .. لو ان كارثة كانت قد حدثت له في السباق .. وتمت في سرها .. « ليه بس يا ميشيل يا ابني .. ليه » .

وفي خطوات غاضبة ، اتجه الرجل الى الصلاة ، وجلس في نهايتها في مواجهة الباب ، وحتى يكون وجهها لوجه مع ابنه لحظة دخوله .

جلست هي عن يمينه ، وأمامه جلس الوكيل العجوز وخيم على فراغ الصلاة القائم سكون ثقيل وطويل ، والتفت على الثلاثة صمت الانتظار .

فجأة .. تمزق الصمت .. ترامي الى اسمائهم من بعيد ، أزيز موتوسيكل يقترب ، وفي حركة لا ارادية .. اعتدل الأب في جلسته وكأنه يتحفز لملاقاة عدو له ، وارتبك عم عطا الله في جلسته ورمش بعينه .. اما الأم ، فقد أحست بدقات قلبها تسرع فجأة وتتلاحق .. ان قلبها دائما يدق بالفرح كلما سمعت هذا الصوت .. معناه ان ميشيل عاد بالسلامة ..

لكن احساسا آخر داخلها هذه المرة .. تمت الا يكون هذا الموتوسيكل هو موتوسيكل ابنها .. تمت ان يتأخر بعضا من الوقت ، فمن الخير أن يدوم هذا الانتظار القاسي طويلا ، على الا تهب العاصفة .

لكن أزيز الموتوسيكل كان يقترب ويتصاعد حتى ملأت ضجة قرعائه خديقة البيت .. ثم فجأة ، توقف الضجيج والصخب وعاد السكون يلف الحديقة والبيت من جديد .

وبدون كلمة .. نهض الأب من على مقعده واقفا ، وأشار بأصبعه نحو الباب ونظر الى وكيله . فهم العجوز اشارته . كان عليه أن يخرج ليعود سريعا بالصبي .. وخرج .

وبقى الاثنان .. الأب يروح ويجيء بعرض الصلاة ، عاقدا ذراعيه على صدره .. متجهما وصامتا ومتحفزا .. والأم جالسة في مكانها ، ترقبه من ركن عينيها وهو يروح ويجيء بصرامة ! .. منظره هذا .. ما اقساه .. وبشكل خاطف ولا ارادى تذكرت هيئة المرحوم حميها .. أبى زوجها .. المقدس سوريال .. الذى أورثهم هذا البيت وأرض الشرقية ، دائما كان منظره هكذا . يدخل البيت فيحاسب الجميع على أنفاسهم . كم كان صموتا ذلك الرجل ، لا يتكلم الا بعينه . وان تكلم بلسانه فكل شيء يصمت ويرهف سمعه ويتوقف .. وآه من غضبته . هذه الغضبة لا تزال تعيش وتبرق في عيني ولده .. بطرس .. زوجها هذا .. الذى تعدى الخمسين .. جاءت تضرع اليه وتقول : « لا تكن قاسيا عليه .. ميشو ما يزال صغيرا .. استحلفك بالمسيح . انه ابننا الوحيد .. الوحيد من كل عشرتنا الطويلة .. لكن النطق خانها ، وسرعان ما سمعت وقع أقدام تقترب من الصلاة .. فراحت تتمتم في سرها ، وتغرز ابرتها في القماش بعصبية ، ولم تمض لحظات ، حتى بات ولدها يدخل الصلاة مع عطا الله ، ودون أن تدرى ، شكت الابرة أصبعها ، فعضت على أسنانها في ألم ، وانقبضت روحها .

كان ميشيل في مشيته يتقدم الوكيل العجوز بخطوة واحدة .. فرحته التى كان عائدا بها انقلبت الى غم وكآبة .. وحين بلغ منتصف الصلاة توقف ، فتوقف العجوز بجانبه حتى كاد يلتصق به .

كان احساس كل من الصبي والوكيل قد الهمهما أن هذا

الموقع الذى وقفنا فيه ، هو خير مكان يمكن أن يقفنا فيه أمام الرجل . لا بالبعيد ولا بالقرب . وقفنا فى صمت ، وحين أحس بهما الأب يتوقفان ، توقف هو الآخر عن الرواح وعن المجيء ، ثم استدار نحو ابنه فى حركة مباغتة ، ورمقه بنظرة طويلة .

شئ غريب أحس به فى تلك اللحظة .. لقد خيل إليه انه يرى ابنه لأول مرة . لقد بدا فى عينيه فجأة - رغم انه لا يزال فى السابعة عشرة من عمره - طويلا جدا .. هذه هى رأسه ترتفع عن حافة طربوش عم عطا الله .. وهو عريض .. اكتافه عريضة .. وعظامه كبيرة وأكمام قميصه مشمرة ، وخصلة من شعره ترمى على جبينه .

الولد كبير يا بطرس .. بل ويكبر يوما بعد يوم .. وساقاه تطولان وتتفرعان .. وجسمه يعرض يا بطرس ويهيش .. وذقنه نبتت وأخضرت .. الولد ينمو هذه الأيام بشكل خارق ومخيف .. هيئته تأخذ هيئة الرجال .. لا يا بطرس .. لن يكون أبدا رجلا عليك .. آن لك من الآن أن تأخذ دور المربي .. وان لم تأخذه من اليوم ، وبهذه المناسبة الخطيرة ، بشدة وحزم ، فسيقلت منك حتما ، بل وسيقلت من نفسه .. وينتهى كل شئ .  
وانفجر .

- كلمة واحدة .. الموتوسيكل ده ما يقعدش فى البيت بعد النهارده .. فاهم باقول ايه ؟

ومال برقبته نحو ابنه كأنما يتحفز ليلاقى أى كلمة تصدر منه .. لكن الصبى لم ينطق بكلمة .. ظل واقفا كما هو .. مطرقا برأسه .

- سامع يا عطا الله باقول ايه .. الموتوسيكل ده يخرج من البيت حالا .

ثم توجه بنظرته الى الصبي وقال بلهجة ساخرة لاذعة :

— وابق اشتراك حضرتك فى السبق بعد كده ! .. هه ؟ ! ..  
انت ولد مستهتر .. مستهتر .. ماعندكش اى احساس  
المسئولية .. وهى دى المسئولة ، وشار الى الام :

والتقت نظرة الام بعيني ابنها بلا وعى .. وفى عينيها قرا  
توسلا حارا .. « لا ترد عليه يا ميشو .. لا ترد » .

— وانت ما بتردش ليه ؟

عاد الأب يصرخ :

— هه ؟ .. مبسوط اوى انك كسبت السباق ؟ .. فاك  
نفسك بقيت راجل ؟ .. عامل حضرتك بطل وبتشتراك فى  
السبق ؟ .. كان نفسى اشوف البطولة دى فى المذاكرة .

وتدفق الكلام من فمه كالسيل .. ايضا لم يرد الصبي ..  
احساس عميق فى نفسه كان يقول له بانه اخطأ فعلا فى دخول  
السباق .. وان أباه بطرس عنده حق ، فيراوده شعور بالندم  
لكن صورة السباق كانت تعاود خياله وهو واقف أمام  
أبيه .. صورة جميلة وزاهية وسريعة مرت أمام عينيه ..  
وهو منطلق يومها بالموتوسيكل وأصحابه والناس يصفقون له ..  
ويهتفون .. يرافو ميشو .. يرافو .. فينتعش صدره .

« ثورة وتمر يا ميشيل » .. وظل واقفا مطرقا فى خشوع.

— برضه ما بتردش ؟ ! .. أنا أصلى عارف اللى فى دماغك  
كويس .. لكن لا .. الموتوسيكل ده يا عطا الله ينقل عليه فى  
المخزن .. ومن بكره الصبح تتصرف فيه .. بيعه .. توديه فى  
اى داهية .. فاهم بأقول ايه ؟



وهمهم عطا الله في ارتباك : « حاضر يا فندم .. اوامرك  
يا فندم » .

ارتجت اعماق الصبى .. المسألة جد لا هزل .. خيل  
اليه ان يدا ضخمة تطبق على رقبته لتسلب منه روحه .. وقفز  
الموتوسيكل الى خياله . رآه في صورة آسية حزينة مركونا  
على الحائط .. كالميت .. في غرفة مظلمة قديمة بالحديقة  
مقفولة عليه .. ثم في الصباح سيأخذه رجل كرية الهيثة ،  
أشعث .. ويركبه .. ويطير به .. ثم يختفى به عن عينيه الى  
الأبد ! .

وناوشته الرغبة في الصراخ : « لا .. لن تأخذه منى يا عم  
عطا الله .. لن تستطيع يا عم عطا الله .. لن يأخذه أحد منى ..  
ولو مت » .

لكنه عاد فكتم الصرخة ، انعقدت الصرخة في قلبه ثم انفكت  
دموعا من عينيه .. دموعا صامتة أحستها الأم ولمحتها رغم  
ظلال الصالة القائمة ففزعت أعماقها وهي تحدث نفسها أن  
شيئا ما فظيحا سوف يحدث .. لا بد سيحدث .. ماذا  
يمكن أن تفعل ؟ هذا العملاق الواقف عاقدا ذراعيه على صدره  
يوقف دائما الكلمات في حلقها .. حتى كلمة .. « كفاية »  
تريد أن تقولها له .. لكنها لا تستطيع .. لحظات صمت ثقيلة  
كل شيء توقف .. حتى الأنفاس خيل للأب بطرس انها توقفت ..  
وجذب من صدره نفسا عميقا مسموعا .. ومط صدره ورأسه  
الى أعلى في شموخ .. وتحفز .. ان ميشيل لم يتكلم هذه  
المرة .. لم يرد عليه .. لا .. ولم يجرؤ حتى ان يتوسل له  
مثل كل مرة .. هذا هو بالضبط ما كان يريد .. وهو بالضبط  
أيضا ما كان يحدث منه هو نفسه مع أبيه « سوريال » .. أيام  
ان كان صبيا وشابا .. وحتى وهو رجل أيضا .. أيام كان

الأبناء يعرفون كيف يحترمون الآباء .. فيقفون بين أيديهم — وعلى  
بعد كاف — في خشوع وامتنال والكلمة لا ينطقونها .

ها هو ميشو يعيد الماضى الجميل ، فيقف منه على بعد  
معقول ، مطرقاً برأسه ولا كلمة .. أحس بلمسة من الحنان تهف  
على قلبه .

— أنا قلت لك قبل كده انى مستعد اشتريك عربية ..  
أحسن عربية .. كاديلاك .. هدسون .. رولز رايس .. أحسن  
عربية مستعد اشتريها لك .. لكن الموتوسيكل .. لا .

ودون أن يعى الصبى ، انفجر رغماً عنه باكياً منهنها :

— وأنا مش عايز الا الموتوسيكل .

روع الأب .. « بتقول ايه ؟ » ..

وجمدت الكلمات على لسانه برهة .. وبرقت عيناه كأنما  
ترسل شرراً .. ثم تحول صوته الى ما يشبه الفحيح : انت  
ابنى ؟ .. مش ممكن تكون ابنى أبدا .. انت كلب .. مستهتر ..  
انت حقير .. أنا ما اقبلش فى بيتى واحد زيك .. بره البيت  
فوراً دلوقت .

ومع ذراعه الممدودة نحو الباب ، وجد الولد نفسه يستدير  
نحو الباب ويعطيهم ظهره فى خطوات سريعة .. كالمسوعة  
انتفضت الأم من جلستها وجرت خلفه لتلحق به وتوقفه ،  
ولكنها لم تلبث أن توقفت فى منتصف الصالة فى خوف ، وسقطت  
منها الإبرة والقماش على الأرض .. كان زوجها يصرخ بأعلى  
صوته كالمحموم : خليكى فى مكانك .. قاهمه بأقول ايه ..  
انت السبب .. انت اللى دلعتيه وخسرتيه .. الكلب المستهتر ..  
السافل .. لكن أنا حاعرف من هنا ورايح ازاي أربيه .

قبل أن يجتاز « ميشو » باب الصالة صكت سمعه كلمات  
أبيه « من هنا ورايح .. حاعرف ازاي أربييه » . رغبة عارمة  
تملكته في أن يجرى ويجرى بآخر سرعة .. يجرى وينطلق الى  
بعيد .. بعيدا عن هذا الجو الظالم الكئيب .

وأسرعت خطواته وأسرعت .. وجد نفسه يجرى ويجرى ،  
وفي لحظات كان قد قطع ممر القصر الطويل ، وهبط السلالمك ،  
وتوجه الى الجراج ، ثم ألقى بنفسه على الموتوسيكل .. أمسك  
ذراعيه بقبضته ووقف منحنيا عليه برهة .. يلهث .

كان قد قرر نهائيا أن يهجر البيت ولا يعود اليه أبدا ..  
دار بعينيه من حوله دورة خاطفة كأنما يودع كل شيء . الحديقة  
الكبيرة .. عم عبده البواب .. والقصر ذاته ، وشرفة حجرته  
التي كان يستذكر فيها وينام .. والبيوت الأخرى المجاورة ..  
كم له فيها من أصحاب .. وقبل الأصحاب .. « فلورا » البنت  
الجميلة .. ذات الشعر المفضفص والعيون السود والتي سكنت  
في الشارع منذ شهور قليلة وكان يحلو له أن يزورها أمامها  
وهي تطل من الشباك وقت الغروب ، فينطلق بموتوسيكله أمام  
بيتها ويأخذ منها نظرة ويطير .. وهز رأسه بشدة ينفذ عنه  
كل شيء . وركب الموتوسيكل واعتدل في جلسته عليه ، واحكم  
قبضته على ذراعيه ، ثم ضغط على البنزين . وفي الحال حدثت  
الفرقة متتابعة عالية . وفي أقل من لمح البصر ، كان قد قطع ممر  
الحديقة وانطلق بالموتوسيكل الى الشارع ، تاركا خلفه ضجة  
كبرى تلف وتدور كالدوامة في فضاء البيت « هلمت الأم لسماع  
الصوت - وانخرطت في البكاء . بكاء ضاق به الأب فارتعشت  
عظام فكيه واصطكت أسنانه وصاح فيها كالمجنون « كلمة واحدة  
مش عايز اسمعها .. يروح في ستين داهية .. الكلب ده مش عايز  
أشوف خلقتة بعد كده » .

كان ميشو قد ابتعد بالموتوسيكل كثيرا .. لم تكن له وجهة معينة .. كل همه أن يترك البيت ويبتعد عن المدينة بأكملها .. كان نسيم الغروب يثز في أذنيه ويصطدم بوجهه باردا ، ومنعشا .. ومع اندفاع الموتوسيكل ، تحول النسيم الى ريح واندفعت الريح من فتحات قميصه الى جسده ، فأحس بالرطوبة تنعشه ، وتملكته لذة غامضة في أن يمعن ويمعن في الانطلاق وانطلق .. خصلات شعره الطويل تتلوى وتتراقص وتتنافر على جبهته ، ورأسه منحنية الى الأمام فوق ذراعى الموتوسيكل .. وكأنه يناطح الهواء .

وأوار المدينة بدأت تضاء وتتناثر في كل مكان .. والعتمة بدأت تحتل قلب كثير من الشوارع وهو في حالة انجذاب غريب نحو شيء غامض وبعيد . ظل يسرع بالموتوسيكل . تارة في خط مستقيم وتارة يتلوى ليمرق من بين العربات والسيارات والناس .. كل أمنيته في تلك اللحظة أن يصل الى مكان بعيد هادئ . خالى ، ليس فيه انسان . ثم يهبط من على الموتوسيكل ويركنه بجانبه ، ثم يجلس الى نفسه ويفكر على مهل .. كيف يبدأ الحياة من جديد . من الآن ، لن يتحكم فيه انسان .. خلاص . لقد كبر وأصبح رجلا . سيذهب الى بلد آخر . الاسكندرية مثلا . ويطوف في شوارعها بالموتوسيكل ويبحث عن عمل . أى عمل . ميكانيكى سيارات وموتوسيكلات . آه ، تمام ، انه يفهم في هذه الصنعة .. ويكسب .. ويعيش حرا .

بدأت له الفكرة جذابة ومثيرة . 'وانبثق في نفسه الشعور بحلاوة المغامرة وسحرها وغموضها فترك العنان للموتوسيكل . وانطلق على آخر سرعة .. آه ما أحلى الموتوسيكل . الموتوسيكل العزيز المفضض ، القوى الجميل « السهم البخاطف » كان أبوه يريد أن يأخذه منه ويشتري له عربة . أى عربة تلك التى تعادل



الموتوسيكل .. السهم الخاطف ؟ يتحكم فيه الانسان هكذا .  
بملء القبضتين هكذا . ويمرق به بين العربات كالريح هكذا ..  
تماما كما فعل في السباق .. لو كان قد تذكر - فقط - وجه أبيه  
وهو يسابق لخسر السباق بالتأكيد ، أو لعمل صدمة ..  
هذا الوجه بحاجبيه الكثيفين وعينه البراقتين الصارمتين . كم  
يود لو يخرج من رأسه وحياته الى الأبد . وهز رأسه .  
ما هذا ؟ الوجه يتأرجح في الفضاء أمامه . وجه أبيه بطرس .  
بنظر له بقسوة . كأنما يسد عليه وعلى الموتوسيكل الطريق .  
لا . لا . وهز رأسه مرة أخرى ليعيد صورة الوجه عن عينيه  
لكن الوجه ظل يخائله . يطارده كأنهما في سباق . سباق  
سباق . لا .. لن يعود الى هذا الوجه أبدا . وفجأة .

بدا له في عتمة الشارع وكأن جسما ضخما يبرز له فجأة  
ويختلط بالوجه ويسد عليه الطريق .. وقف شعر رأسه ،  
وتنبهت فيه غريزة الاحساس بالخطر .. وتركزت غريزته على  
قبضته وفي عينيه . ان الجسم يكبر ويقترب ، والوجه يكبر  
ويقترب . تملكه خوف كاسح واستماتت أصابعه على ذراعى  
الموتوسيكل وبكل ما يمتلك من قوة فرمل .

أوشك وجهه ان يشع بنور ابتسامة . لكن رجة عنيفة  
حدثت . انتفاضة مروعة هزت كل جسمه .. ولم يحس بنفسه  
وهو يطير من على الموتوسيكل . ثم سقط على الأرض . غائبا  
عن الوعي .



- ميشو .. ميشو .. ولدى ميشو .

والصبي يتقلب من الألم على فراشه .. ويهذى : ال ..  
الو .. تو .. سيكل .. الو .. تو .. سيكل .

— مېشو .. مېشو .

ومېشو غارق في الغيبوبة .. يصعد مع الدنيا ويهبط ..  
ويهلدى .

— المو .. تو .. سيكل .. المو .. تو .. سيكل .  
والآب بطرس يبكى .. وينهنه .. وكان صوته وهو يجهش  
بالبكاء أشبه بنشيج طفل صغير .

« ١٩٥٩ »

## الكلب عض لطيفة

الكلب عض لطيفة ..

لطيفة عضها الكلب يا أولاد ...

وانتشر الخبر بسرعة في القرية .. انتقل من « الكفر »  
حيث وقع الحادث ثم وصل الزراعية ، ومن الزراعية وصل  
الحقول ، وأخيرا .. بلغ عرفات .. !

كان عرفات يعزق بفأسه في أرض طماطم في أطراف أحد  
الحقول وما أن سمع بالخبر ، حتى تصلبت يده بالفأس في  
الفضاء .. بدا شاردا للحظة ، كأنه لا يصدق ، ثم لم يلبث  
أن انتفض فجأة .. أسند فأسه على كتفه وأعطى وجهه للقرية  
وأطلق ساقيه للريح .

كان المشوار أمامه طويلا ، فمضى يعدو على الزراعية بآخر  
سرعة .. وود لو يغمض عينيه ويفتحهما ، فيجد نفسه هناك .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ ..

لطيفة حبيبة القلب .. يعضها كلب ؟ ..

كانت الشمس قد انخفضت ومالت للغروب .. وخايلته  
أشعتها وهو يجرى .. ورأى وجهها - وجه لطيفة - شاحبا ..  
متألما .. وعيناها ، بخضرتها التي يعبدها ، تقولان له في  
عتاب .. وفي ألم .. « كنت فين يا عرفات .. لما عضنى  
الكلب » .

وراودته الرغبة في البكاء ..

أهكدا الحب يا عرفات .. عذاب في عذاب ! ..

وعلى المدى البعيد للبصر ، لم يكن للقرية أى اثر .. وأحس  
بأنفاسه تتلاحق من الجرى . كان طويل القامة ، فبدا منظره وهو  
يجرى بجلبابه الفضفاض ، والفأس على كتفه مثيرا . ما من فلاح  
كان يمر عليه مهرولا ، إلا ويصيح عليه بدهشة وفضول ..  
« حصل إيه يا عرفات .. سايب الفيط وبتجرى كده ليه » ؟ ..

لم يكن يتوقف برهة ليرد .. كان فقط يخطف نظرة منهم ،  
ويغمغم بكلمات غير مفهومة ، ويواصل الجرى .. بماذا يمكن  
أن يرد ؟ .. وخطر له أن يتفجر في وجوههم ويصيح بأعلى  
صوته .. « لطيفة عضها الكلب .. لطيفة يا أولاد الكلب » .. !

ولكن .. أيمن بعد كل هذا الصبر الطويل . أن يفقد  
عقله .. ويبوح بالسر ؟ ! .. السر الذى لا يعرفه غيره هو  
ولطيفة .. والذى تعاقدوا معا - بالنظرات - على كتمانها .. ؟

وخرجت من صدره زفرة تعاسة .. وبدأ الطريق أمامه  
الى القرية طويلا .. لا ينتهى ، وأن الانسان - كما يقول دائما  
الشيخ فودة خطيب الجامع بصوته المفجع الصارخ - لم يخلق  
على هذه الأرض الا ليشقى ويتعذب ! ..

أهناك في الدنيا عذاب أكثر من هذا ؟ ..



اننان يحب كل منهما الآخر بلا اى كلام .. ولأكثر من  
عام ؟ .. بل انه لحظة وصول الخبر كان يضرب الأرض بفأسه ،  
وصورتها أمامه . بعيونها الخضر النادرة في هذه البلاد .  
لحظتها بالذات .. كان يتخيل نفسه واقفا معها بالقرب من مدخل  
البلد . يتحدى العالم كله ويكلمها .. يخرج لها كل ما في قلبه  
من حنين .. « لحد امتى بس يا لطيفة ؟ من جمع القطن اللى فات  
واحنا على دى الحال .. يا لطيفة دوختينى .. أنت عارفة  
دست الفول وهو بيقلى ؟ .. هو انا .. لا أنت بتطفى النار من  
تحتة .. ولا بتصبى عليه ميه يبرد .. لحد امتى بس يا لطيفة  
حنفضل خايفين من كلام الناس .. » وفجأة .. جاء الخبر ..  
فاختنقت كل أفكاره ، ولم يعد يكلم نفسه .. نسي كل شيء ..  
نسى شغله .. نسي انه يريد منها كلمة .. كل ما يريده الآن  
ألا يمسخها سوء .. أن تظل لطيفة على قيد الحياة ، حتى  
ولو عاشت مع غيره ولم يتزوجها .. ولم تكلمه طول العمر  
كلمة .

وغص حلقه بالدموع ، وارسم على وجهه الأسمر المجهد ،  
وهو يجرى ، حزن كبير .

انطلق يجرى ويلهث ، حتى لاحت له مئذنة القرية وبيوتها  
من بعيد .

قطع المسافة كلها جريا ، دون أن يتوقف لحظة ليلتقط  
أنفاسه .. وحين اقترب من مدخل البلد ، كف عن الجرى ..  
مضى يمشى بخطوات بطيئة ، وحاول أن يبدو لا مباليا .. كانت  
الشمس قد اختفت خلف البيوت وانتشر ذلك اللون الرمادى  
الحزين فى الفضاء ، والذي يسبق دائما سواد الليل ، فأحس  
عرفات بالتعاسة .. « أحقا ما سمع ؟ .. » كانت الطرقات شبه  
خالية .. فعاد يستحث خطواته .. وما أن أشرف على الكفر ،

حتى فكر للحظة أن الخير كذب .. كان المكان هادئاً .. والناس  
يجلسون على المصاطب ويثرثرون .. و « فايقة » بائعة الجوافة  
تجلس تحت شجرة التوت ، أمام دكانها ، وبعض الرجال العزاب  
والشبان يأكلون الجوافة من يدها ويقهقهون ..

ربما لم يحدث شيء .. ربما ..

وأخرج من صدره زفرة وهو يتسمع ضحكاتهم ..

لماذا لم يعد يضحك مثل هؤلاء ؟ لماذا حتى قبل أن يصله  
الخير - أصبح يسير في شوارع القرية وحواريها هكذا مهموما ،  
وكانه يحمل على كتفيه الجبال ؟ ! ..

قبل أن يعرف الحب قلب عرفات ، منذ عام واحد ، وكان  
في الثامنة عشرة ، كان ولداً مرحاً وبهجوحاً ، يحمل فأسه  
في مواسم العمل ويذهب إلى الفيض ليعزق أو يقلع أو يجمع ،  
يفنى زملائه ويسبقهم في الخط .. وفي مواسم البطالة ، يأخذ  
ذيله في أسنانه ويجري على الجسور ويتسلق الأشجار ويأكل  
التوت والجميز ، أو يذهب إلى النهر ويصطاد السمك ويقذف  
نفسه - بجسمه الأسمر السرح - ضد التيار ويسبح ويزعق  
على زملائه ..

كان خلياً .. مفتوح القلب لكل ما في الحياة ..

ثم رآها .. رأى لطيفة ذات يوم ، فتغير كل شيء ..

كان جالسا مرتكنا بظهره على جذع شجرة صفصاف ،  
تتدلى فروعها حتى تلامس ماء الترعة ، والدنيا حار .. والشمس  
قرص نار ، يأمر بالصمت كل شيء .. صمت يرين على الحقول  
وعلى الأشجار ويمتد حتى الجسور البعيدة .. كان العالم كله  
في لحظة صمت مطلق .. ومع هذا كان يفنى لنفسه ..

وفجأة ، سمع حركة .. التفت .. فوجدتها .. تشير اليه  
ليساعدتها على حمل الجرة .. ذهب اليها .. وحين رفع معها  
الكرة الى رأسها ، واستوت قامتها بصلبرها ، وجد عينيها  
الخضراوين في عينيه .. أسرعت دقات قلبه .. وأحس بحاجة  
لأن يقول شيئا .. خائنه أنفاسه .. ماذا يقول ؟ .. واستدارت  
عنه - والجرة فوق رأسها - في هدوء ..

قال لنفسه ، وهو يراها تمضي تطرقع بشبشبها في صمت  
الظهيرة .

« يكونش ده اللي بيسموه الحب يا عرفات » ..

واختفت عن عينيه .. ومن تلك اللحظة ، وعرفات شخص  
آخر .. كف عن اللعب وعن الجري ، عن الغناء الطليق لزملائه  
في الحقول .. أصبح دائم الشرود ، لا تخرج من قلبه مثل  
هذه الضحكات .

ولمح واحدا من أصحابه مقبلا من بعيد ، فأسرع اليه ..  
وقبل أن يسأله عرفات . قال له « انت ماعرفتش ؟ .. مش كلب  
عمك أحمد أبو ريا عض لطيفة ؟ .. وسفروها في قطر أربعة ..  
وودوها على مستشفى الكلب .. في مصر .. ؟ !

أحس بقلبه يسقط .. اكتسحه حزن غامر .. وأحس أن  
الدنيا خلت عليه .. ومضى يمشى وكأن غشاوة على عينيه .  
لطيفة ليست موجودة في البلد .. اذن لا أحد فيها .. هو نفسه  
ليس له وجود فيها .. كانت الدنيا قد أظلمت .. واستراح  
للظلمة .. لو بكى فلن يلمح دموعه أحد وتراءى له وجهها ..  
تغمض عينيها من الألم وتتأوه .. هناك .. في مصر أخذوها  
في القطار وسافروا بها الى مصر .. مصر ! ..

وبرقت الفكرة في رأسه : لماذا لا يسافر الى مصر ،  
ويزورها في المستشفى ..

وتلقف الفكرة .. شع لها وجهه الأسمر بالفرح .. نعم ..  
هناك سيلتقى بحبيبة القلب ، ولأول مرة في حياتهما سيتكلمان ..  
بعيدا عن العيون .. سيقول لها كل ما كتبه القلب سنة بأكملها ..  
وهي الأخرى .. ستكلمه .. بصوتها الخافت من شدة الألم ،  
ويتعاهدان هذه المرة بالكلمات ، وليس بالنظرات وحدها التي  
عذبته .

غير أن حماسه اختنق فجأة .. ماذا لو عرف أبوها أنه  
سافر الى ابنته وقابلها في القرية .. ؟ .. أى فضيحة .. ؟ ..  
ثم ان معظم شبان البلد دائرون على لطيفة .. فليكن هو - كما  
يحاول دائما أن يكون - في نظر أبيها - شابا عاقلا ورزينا ، فيوما  
سيأتى ويتقدم اليه يطلب منه يدها !

وعاوده الوجوم .. ومشى يتخبط على السكة في الظلام ..  
أحس أنه حبيس .. وثقل عليه الشعور بالعجز ..  
وبالهوان .. لطيفة يعضها كلب وهو على ظهر الأرض .. ؟ لو لم  
يكن ساعة الحادث يعزق في أرض الطماطم ، لرآها على الأقل  
وهم يحملونها الى القطار ، وتبادلا نظرة وداع .. وآه لو كان  
واقفا لحظة الحادث ، وراى الكلب يهجم عليها ، اذن لهجم  
عليه كالوحش وأطبق على عنقه وصرعه .. ثم حملها .. حمل  
الحبيبة على يديه حتى بيت أهلها ، كأشجع الفرسان !

ولكن .. يا ألف خسارة .. الكل رأوها .. كل شبان  
البلد رأوها .. ما عداه .. « ما عداك أنت يا عرفات .. ثم تقول  
لنفسك ان أحدا في الدنيا لا يقوى على حبها مثلك ؟ ! ما هو  
دليل حبك .. ؟ !



وغشيت عينيه سحابة ضنى .. ولولا انه يحفظ بالشبر  
كل شوارع القرية وحواريها ، لتعثر من الحزن في الحفر التى  
تملا الطرقات .. وجز على أسنانه بشدة .. فجأة .. قفزت  
الى رأسه فكرة .. فتوقف عن السير .. « لطيفة عضها الكلب  
فسافروا بها الى مصر . فلماذا لا يعضنى أنا الآخر كلب .. نفس  
الكتب .. ويسافرون بى الى هناك .. آه .. وأصبح معها فى  
نفس المستشفى ؟ ! » وتدافعت أنفاسه .. لم يناقش  
الفكرة .. ارتسم على وجهه فرح وحشى .. وأسرعت خطواته  
فى الظلام .

كان يعرف الكلب الذى عض لطيفة .. انه كلب شرس ،  
يعرفه بحجمه الكبير .. ولونه الأسود الفطيس والاشارة البيضاء  
التى بين عينيه .. سيعرفه رغم الظلام .. ومضى يبحث عنه ..  
يعسرس بعينه فى الظلمة ويرهف أذنيه . لكن الكلب لم يكن  
له أى اثر .. أيقن انه هرب بعد فعلته . ! فليبحث اذن من  
كلب آخر .. أى كلب . ! أى مفاجأة للطيفة . حين يذهب اليها  
هو الآخر معضوضا بعضة كلب . ! واكتسحه حماس ضار ،  
ومضى يبحث عن كلب فى الظلام ..

ولكن ، ولا كلب .. !

غاص قلبه .. !

هل هربت كل الكلاب الليلة من البلد .. ؟

وتذكر ان بعض الكلاب تتجمع فى العادة عند مدخل البلد ،  
فأسرعت خطواته الى هناك .. ودق قلبه ، فقد رأى كلابا  
كثيرة .. وسار ببطء نحوها حتى اقترب منها ، غير أنها ما كادت  
تحس به ، حتى فرت خائفة .. هربت كلها .. الى بعيد .. !

هل ستفشل الخطة .. ؟ وأثقله الحزن . إلا يوجد كلب  
واحد في كل هذا البلد يعضه .. ؟

ومضى يمشى في تعاسة .. فجأة تصلبت قدماه .. لمح  
رغم الظلام كلبا يرقد بجوار ضريح أحد المشايخ .. آه ، ..  
هذا الكلب لن يفلت مني ! وتلصص نحوه بحذر ، ثم فجأة ،  
كالسهم انقض عليه عرفات وأطبق على رقبتة بيد ، ووضع  
الأخرى على فمه .. زعر الكلب من المفاجأة .. فراح يصرخ عاويا  
في فزع .. وراه عرفات يفتح فمه .. تتابعت أنفاسه ، وما أن  
رأى أنيابه في الظلام ، حتى أسرع ووضع يده في فمه ، بين  
أسنانه .. غير أن الكلب انتهز حركة يده ، فانتفض انتفاضة  
مروعة ، وبحركة مدعورة ، تخلص من يده .. قفز وولى هاربا  
يرتجف من الخوف ، وفي لحظة كان قد اختفى في الظلام ..  
وبقى عرفات في مكانه .. تعيسا .. مدهولا .. شفتاه  
ترتشان ..

كلب ..

كلب يا ناس ..

أى كلب يعضنى ..

لكن الكلاب كانت تولى منه هاربة .. أحس بالحزن يقهر  
قلبه ..

جلس بجوار الضريح .. وحيدا .. أسند خده على يده ..  
وراح ينظر بتعاسة ، الى وجه لطيفة في الظلام (\*) ..

(( ١٩٦٢ ))

---

(\*) موجت هذه القصة كمشهد كوميدى أنساني في مسرحية  
« الشخصايه » للمؤلف عام ١٩٧٣ .. وأصبح واحدا من المشاهد الأثيرة  
التي يختارها طلبة معهد الفنون المسرحية ليتقدموا بها للامتحان .

## حد المحراث

كان يدرك أنها الليلة الأخيرة له في هذا البيت .. ليلة الوداع .. الوداع المر .. ليس له وحده .. أخوه .. وأخواته البنات .. وكل من يحيط بالجسد المسجى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة .. بعدها لن يعود البيت بيتا .. سيصبح مسرحاً لأشباح الذكريات !

ورغم أنها كانت غائبة عن الوعي من يومين إلا أن أخاه لم يبعث له بالبرقية إلا بعد أن فقد الأمل : أحضر .. حالا .. أمك تريد أن تراك ..

وحين وصل ، عرف أنها سقطت مغشياً عليها ، دونما كلمة ، لم تلحق حتى أن تنطق للذين هرعوا إليها بما تتمناه .. ولقد أدركوا على الفور أن هذه لابد أن تكون أميتها الأخيرة .. أن تراه قبل أن تموت .. الصغير الذي مات أبوه وهو في بطنها جنين عمره ستة شهور ، وانكبت عليه طول العمر فاردة جناحيها عليه حتى وهو بعيد .. تسقيه الحنان والحب والبركات .. لم يشعر يوماً أنه يتيم الأب .. كانت هي الأم والأب على السواء .. وها هو يعود ، بعد غيبة شهور ، ليجدها ممددة على ظهرها

بلا حراك . . مع بقايا أنفاس تبدو للحظة قوية فيخيل إليه أنها  
ستهب واقفة على قدميها وتستعيد موقعها العظيم في الحياة ،  
غير أن الأنفاس كانت سرعان ما تخفت وتهافت ، أشبه بأنفاس  
قاطرة نفذ وقودها فتوقفت ، ومع هذا لاتزال تصدر أصواتا . .  
لا تريد أبدا الاستسلام !

كان وجهها وجه مجارب . أنفها المستقيم الحساد ،  
والوجنتان الناتئتان المحددتان ، ونظارتها البيضاء ، لم يجرؤ أحد  
على أن يخلعها ، وطرحتها الجورجيت السوداء ، لاتزال حول  
الرأس ، اطارا مهيبا للموت كما كانت اطارا رائعة للحياة ،  
لم يهن على أحد أن يمس اللوحة العظيمة بشيء ، فليبق المظهر  
الشامخ حتى آخر لحظة .

كان قد أفرغ على طول الطريق ، في القطار وعلى الزراعة ،  
كل ما عنده من دموع ، دخل جامد الوجه ، رأى أخوته البنات .  
وأخاه الكبير الوحيد ، ونساء قريباته ، وأخريات غريبات ،  
يجلسن حول الجسد المسجى ، يلبسن السواد ، كورس الأحزان  
القديم . . للكورس بقية في الخارج ، حول البيت يقف الرجال ،  
جماعات أو متناثرون ، كلهم صامتون ، مطرقوا الرؤوس . .  
حركة الأشجار ميتة ، صيف حار ، هل في الصيف دائما تحل  
الأحزان ؟ !

لم يتبادل كلمة مع أحد ، لم يأن بعد أوان العزاء ، واقتراب  
من الجسد ، لم يصدق مع الأنفاس اللالحة القوية ، أنها  
الأنفاس الأخيرة . . لا . . لابد في أية لحظة ستنتفض وتستوى  
جالسة . . متحدية ، وتطرد كورس الأحزان . . لو ماتت حقا  
فسيكون في العالم موت .

وسمع أصواتا هامسة تقول :



من يؤمان والروح تريد أن تطلع .. أى عذاب :  
— لا تريد أن تفارق الدنيا قبل أن تراه . ها هو قد جاء  
اليها ..

— وشوشها يابنى فى أذنها ، قل لها أنك جئت لتستريح ..  
أحقا ستسمعه ؟ يعطيها اذنا بالرحيل ؟

لو مال عليها فسيصرخ فى أذنها مستجديا منها البقاء ،  
الاستمرار فى الحياة . رغم كل العذابات .. اسمعنى يا أمى ..  
اسمعى هذا الخبر : بالأمس فقط عينت : أصبح لى عمل ،  
بعد سنوات التشرد ، ومرتب كل شهر .. وستحلو الحياة ..  
سأرد لك الدين مضاعفا .. أصبح يا أمى .. أصبح وسنبدا معا  
الحياة .

ويرتفع صوت واحدة من أفراد الكورس :  
— يا ناس . حرام .. كانت تبيع الكل . أريحوها من هذا  
العذاب ..

— حقنة تريحتها .. لو تحبونها غيبوها عن الوعى ..  
سيدة المارك لا تلقى السلاح .. لا تسلم حتى الرmq  
الأخير ..

أحسن بفشله أن يبكى .. أن يتكلم حتى .. خرج من  
الحجرة مطرقا ..

وقف أمام البيت . الوسعاية . ملاعب الصبا والطفولة ..  
والكتكوت يجرى .. فى عز شمس الظهر .. والدجاجة تتبعه ..  
تشجعة تارة ، وأخرى تحذره من الفرق فى النيل ، ومن ذئاب  
الحقول ..

حر يونيو شديد .. وحول البيت لا ظلال .. الأقرباء الرجال  
واجمون ..

— ما العمل ؟ ! انها ستموت ..

— وهل بعد الموت عمل يستحق أن يكون ؟ ! اذكروا الله  
بذكركم ..

مع الوهج راح في غيبوبة . تأخذ الأحداث أحيانا مواقف  
عجيبة :

بالأمس فقط وجد لنفسه في المدينة عملا .. بعد سنوات  
التشرد والضياع والمطاردات وجد عملا .. « كان يجب أن  
تنتظري لكى تفرحى يا أمى بالخبر .. انى استلمت عملا .. أصبح  
لى مكتب .. وعنوان .. ومرتب أول كل شهر » ..

تراها أحست أنه بلغ شاطئ الأمان .. فلم يعد لها من  
مهمة فى الدنيا ؟ فقررت الرحيل ؟ !

ورأى حلاق القرية يأتى مهرولا ومعه حقنة .. وقف ينظر  
اليه وهو يفرس الحقنة فى الذراع الصغير .. تراخى اللحم الذى  
كان يوما مدملجا أبيض ..

— حرام يا ناس .. لا تعذبوا جسمها ..

— الحرام الا ترحموها من الألم ..

واحتشد صدره بصرخة : أيها الوحش .. أبعد سن  
الابرة عن ذراعها .. لكنه كان قد تحجر . وفى الدهول وهو يرى  
الرجل يفرس الابرة فى الذراع .. توجع .. دون أن يقول آه ..  
وداخلته رغبة عميقة فى التلاشى .. بعد دقائق سينتهى كل شيء .  
كيف ستكون حياته ؟ بدونها لأول مرة فى الحياة ؟ ! .. والثياب

السوداء .. أيها الكورس القديم العتيد .. علامة حزننا  
الأزلى .. أنت اطار الخضرة الأسود .. ليس بعد الموت سر .  
ليس بعد الموت مأساة !

وخرج مرة أخرى الى الوسعاية . قرص الشمس جبروت  
رهيب ومرهوب .. لا نسمة هواء . كل ما في الأرض والفضاء  
والسمااء هائم وغير قادر حتى على الأنين .

.. ماتت ..

وانطلقت الصرخات .. بالتباع .. وجنون ..

انفجر قرص الشمس .. الشظايا متناثرة تملأ الجو ..  
انتهى عصر ..

بدأت أيام اليتيم . اجمع شظايا حياتك الثقيلة واحملها  
وحدك على ظهرك ، وامش محنيا بها ، الى أن تموت أنت الآخر .

حدث ما لم يخطر له لحظة واحدة على البال .. المستحيل  
حدث .. ماتت .. اذن افقانون العالم هو الموت .

هرج ومرج . كان مذهولا . وبدأ على الجميع أنهم يدركون  
حاله ، فتركوه ومضوا يقومون بالمهمة ..

الآن يخلعون عنها الوشاح المهيّب الأسود . يخلعون النظارة  
الدقيقة البيضاء . ملابسها الفضفاضة الغامقة الطويلة . المحفظة  
الجلدية القديمة المليئة بأوراق غالبا لا نفع فيها . كانت تؤمن  
بالكتابة ، كانت دائما تقول في معاملاتها مع الآخرين : وهل العقل  
دفتر ؟ ! الورق والقلم يشهدون . حد الله بيني وبين حقوق  
الناس .

تري : هل في المحفظة نقود ؟ !

فليأخذها لصوص الموتى لو يريدون .

هو الآن يريد أن يهرب . لا يريد أن يمشى وراء النعش  
ويرى الجسد النبيل يغيبه التراب .. والظلام .. لو عليه ،  
لانطلق يجرى ويجرى حتى يصل الى الجسر العالى ويرسل  
صرخة .. عواء .. يملأ به فضاء النهر ووجه الحقول ، ثم ..  
ثم ينكفىء على الأرض .. تحت الجميزة ، ويفمض عينيه ،  
وبستسلم للأرض ، هامدا ، متحجرا ، بلا أى تفكير .. فالكل باطل  
وقبض الريح !

يبدأ الكورس أولى مهماته . سيخلعون عنها الطرحة  
السوداء ، وعصبة رأسها السوداء أيضا .. لكنكم لن تخلعوا عنها  
شعرها الجميل الناعم ، ولا « المقصوص » الطويل الرفيع الذى  
كان ينسدل دائما على جانب الوجه ، بجوار الأذن الدقيقة  
الصغيرة ، بقرطها الذهبى الدقيق ، المثلث الشكل ، والذى  
كثيرا ما كان يتأرجح مع حركة وجهها فيتذكر للحظات خاطفة  
أنها أنثى .. أجل .. نادرا ما كان يحس بها امرأة أنثى .. كانت  
تبدو دائما متحفزة للقاء عدو ما .. وفى عز نومها كانت تبدو  
وكأنها مفتوحة العينين متيقظة . مات الرجل والأولاد كتاكت  
صفار ، وهى لم تزل جميلة وبضعة وشابة .. دفنت معه  
الاحساس بالشباب وبالأثوثة .. وأخذت دور الحارس والمربى ،  
وخاضت الصراع ضد الثعالب والذئاب !!

ثم ماذا بعد كل هذا الصراع والكفاح ؟ ! الأولاد كبروا  
وتزوجوا ، ورحلوا الى المدن .. الا البنت الوسطى ، تزوجت من  
فلاح طيب ، وعاشت بجوارها فى نفس القرية .. هى الآن الرابطة  
الوحيدة الحية له بالقرية .. ها هى تصرخ وتولول بجنون ..  
تهرع اليه وترتمى على صدره وتنبوح :



— أمك ماتت .. ما تسبنيش لوحدي ..

واحتواها في صدره .. واجهش بالبكاء . وفوجيء بالنعش  
خارجا من البيت محمولا على الأعناق .. أحس بنفسه شيئا  
كالرماد .. ليس أول نعش يراه في القرية خارجا ليوارى من فيه  
في التراب .. لكن الجثمان المحمول ليس أى جثمان .. أنها  
أمه .. وأبوه .. لكن الموت حق ..

— حق من ؟ ! ..

— حق الله ..

— وحقى أنا فيها ؟ !

— أنت من سنوات بعيد عنها هناك . في مدينة الأنوار ..  
لم تكن تأتى لها الا وانت مثقل بالهموم .. وبألمك « العبرى » ..  
فتمسح عنك ، وفي لحظة ، كل الهموم .

— هذا حقى .. وحق الصغيرة المسكينة . وحق هذا الأخ  
الذى يمشى مترنحا وراء النعش ، في ذهول .. كلنا لنا عليها  
حقوق .

— حقوق . حقوقكم انتم . وحقها في الراحة والهدوء ؟ !

— راحتها دائما كانت في التعب .. « لذتها يا ابنى في  
شقاها » .

— ذلك كان جيلها . عصرها ..

— اذن انتهى جيل . انتهى عصر .

وتحرك النعش : مضت قدماء وسط الجموع . وأخذته  
الغيبوبة من جديد . تنبه فجأة أنهم ربما يكونون قد غيبوها في  
التراب وهو غافل . فانتفض يجرى : يشق طريقه وسط

المشييعين ليلحق بالنعش .. وعادت قدماه ترحفان .. كان الموكب  
يوصل مسيرته . وعبروا الكوبرى الخشبي الى الضفة الأخرى  
من التربة . كانت المدافن وسط الحقول .. كيف ظلت هذه  
الحقول خضراء حتى الآن ؟ ! لماذا تتلون بلون القبور ؟ ! وعند  
المقبرة ، عند الفتحة المستديرة الظلماء ، وقف يرقب المنظر  
الغريب المروع . أهو وهم أم حقيقة . كانت الدموع قد جفت ،  
وجحظت من الروع عيناه . اللحد الطويل الضخم ، الفماق  
البشرة ، بجلبابه البلدى البنى القديم ، يدخل المقبرة .. يسوى  
التراب التسوية الأخيرة . يضع لرأسها وسادة صغيرة - أشكرك .  
من الأعماق أشكرك أيها اللحد ! ورغيفا أيضا من الخبز ؟  
هل ستستيقظ ايزيس لتأكل ثم تنام من جديد وتستريح ؟ !

أجل .. انها لم تمت . ليست هى . وسأعود الى البيت  
فأجدها هناك ..

وقفلوا المقبرة .

انسل من الزحام ..

حول المقابر ، مقابر القرية كلها كان يدور . وعلى حافة  
حدودها التربة جلس شاخص العينين . كانت حقول القمح  
النابتة الصغيرة تترامى الى آخر الأفق البعيد . وخيل اليه ان  
أعواد القمح هى هكذا ، بنفس الحجم ، طوال العمر .. لم يحدث  
بذر أو حصاد جديدان منذ آلاف السنين ! .. نظر الى  
اليسار .. الى الضفة الأخرى ، من حيث جاء الموكب :  
أشجار الصفصاف ، والتوت ، وأم الشعور ، تحجب بيوت  
القرية .. وقام فى نفسه أن ينطلق بكل قوته ويجرى  
ويجرب .. يهرب .. لم يعد فى هذه القرية شئ عزيزا  
يستبقيه ! ! لكنه تذكر .. السرايق الذى سيقام ..  
والكلوبات التى ستضياء .. وهو واقف ليتقبل العزاء ..

من كل البلاد المجاورة والبعيدة سيجيئون ليشهدوا على  
يده ويعزوا انفسهم قبل أن يعزوه .. كانت لها شجرة الرجال  
الكرام العظماء .. وكانت تفرح اذ يكون في البيت ضيوف ..  
وكانت تسعد باطعام الآخرين .. يا لجمالها العظيمة « كلوها  
تروح .. فرقوها تفوح » .. الآن سيرتك يا أمي هي التي تفوح !!  
اصمد أيها القلب واحتمل الليلة .. ستظل مستيقظا طول الليل ،  
فلم يعد لك مكانا هنا تنام فيه .. البيت القديم بدونها أصبح  
خرابة تسكنها الأشباح .. رغم أنها هي التي علمتني الشجاعة ..  
وأنه ليس من جن ولا عفاريت .. وأن « البنى آدم يا ابني هو  
العفريت » .. الآن .. هذا البيت بدونها هو الخوف ذاته ..  
محال أن يدخله أو يجوس في ابهائه !

وهذات الضجة .. لم يعد يسمع أى صوت . انسحب  
المعزون وعبروا الى الضفة الأخرى . وهو وحيد لا يزال جالسا  
على أطراف المقابر والحقول .. متى زرعوا هذه الحقول ؟ !  
كم مرة زرعوها ، وكم مرة حصدوها ، ثم نبتت هذه الخضرة  
من جديد ؟ ! أو ربما لم يحدث بذر أو حصاد ، إنما هي هكذا  
منذ آلاف آلاف السنين !

ونهض . مر على المقبرة . توقف أمام الفوهة المسدودة ..  
انتصب شعر رأسه . فتحت الفوهة . وراها ممددة في سكون  
تستريح . كانت متعبة ، ومع هذا ، حين رآته ، نهضت بجلال  
جلست نصف جلسة .. كان على وجهها صفاء عميق . وفوق  
شفتيها ابتسامة أبدية ، وبسطت كفها .. تستوقفه : لا ..  
لا تدخل . ابق عندك .. تذكر . لم أتركك الا وانت رجل كبير ..  
الآن احمل حياتك على كاهلك وامض بشجاعة !! تقول انك أخيرا  
وجدت عملا ؟ ! كنت واثقة . مبروك . ألف مبروك . سأزغرد لك .

وانتشر في كيانها صليل زغرودة ذهبية ملأت جنبات المقابر

والحقول .. وانتابته رعشة محمومة .. يريد أن يهجم على  
القبر ..

— أمي .. أمي ..

وعادت تبسط كفيها في وجهه ..

— لا .. لا تتقدم .. أنسيت يا ولدي الحرام والحلال ..  
اطمأنت الآن عليك .. امض الآن ودعني أستريح .. هل نسيت ..  
تعبت كثيرا .. كثيرا .. أن لي أن أستريح .. عن أذنك ..

ومالت بظهرها في هدوء ، وأغلقت عينيها .. وعادت الى  
رقدتها في سلام !

السلام عليك يا أمي .. وعلى الدنيا معك السلام ..

وارتجفت شفتاه دون دمة ..

أعطى القبر ظهره ، حمل نفسه وسار وحيداً ، يدب على  
الطريق الضيق المترب بين الحقول .. ورأى أمامه ، على بعد  
قليل ، فلاحا يسوق أمامه بهيمتين تتودان محراثا ، والمحراث  
يشق خطا ثابتا في الطريق ..

تباطأ في خطواته ، حتى يتفادى أى لقاء أو كلام مع  
الفلاح .. يريد أن يغيب في الضمت .. كانت ظلال المساء بدأت  
تهبط على الحقول وعلى الطريق .. لكنه كان يرى قدميه تسيران  
فوق خط عميق محفور بطول الطريق ، هو الخط الذي حفره في  
الأرض ، سلاح المحراث ..

خط الحياة .. منذ آلاف السنين ..

« ١٩٦٤ »



## بحر الذنوب

كان كل خوفنا أن يمضى الأسبوع الأخير من أجازتنا  
والبحر هكذا هائج يهدر ! .

وقد ظل البحر طيلة ثلاثة أيام متوالية ، عاليا مزبدا غير  
آبه بأن لحظة الوداع تقترب ، وأنه حرام أن نقضى معه أيامنا  
الأخيرة هكذا مكبلين بالرمال ، والراية السوداء من فوقنا تخفق  
وتتلوى مع الريح العاصفة ! وكان صديقى « سعد » الذى ترك  
بيته فى قلب الاسكندرية ، واستأجر « كابينة » بالمندرة قريبا  
من البحر ليقضى فيها أجازته ، كان يتململ على الرمل ويقوم  
ويقعد ثم ينظر الى السحب المتلاحقة والطائرة رغم ضخامتها مع  
رياح الشمال الرطبة ، ويقول فى غيظ وأسف :

— مستحيل .. مستحيل يكون ده جو أغسطس .. فى  
سبتمبر البحر أهدا من كده بكثير ..

ثم جاء اليوم الرابع ..

كانت حدة الرياح قد هدا تنسبيا ، وبدأ البحر وادعا

ولطيفا وكأنه يمد يد الصداقة للمصيفين . وكان اول من صاح  
مطالباً بالنزول الى البحر هم الأطفال !

— فلنسبح الى « الصخرة » ونصطاد !!

كان احتضانهم للموج قد أوحشهم مثلنا .. وأوحشتنا  
أيضا تلك الجزيرة الصخرية المائلة هناك فوق سطح الماء ،  
بنتوءاتها البارزة ، وتشكيلاتها الجميلة الغريبة بفعل الرياح  
وضربات الأمواج على مر الزمان !

كانت هذه الصخرة والوقوف عليها أو الصيد منها قد  
تحول في الأيام الأخيرة من إجازتنا ، الى رمز للروية سعادتنا  
مع البحر . ! كانت لذة الوقوف والتمشي على هذه الجزيرة  
الصخرية تسبقها لذة أخرى . لذة اجتياز الموج ، سابحين على  
الصدر أو على الظهر ، صاعدين هابطين مع الموج .. من تحتنا  
أعماق وفوقنا أعماق .. وفي رقعة سباح قوى ماهر ، هو  
الصديق سعد ، خير نجدة اذا لاح التعب لواحد منا . !

وفي دقائق ، كان كل واحد من الأطفال الأربعة ، يلوح فرحا  
بسنارته ، وقد علق في وسطه جرابا صغيرا من النايلون ملاء  
بالطعم .. ثم .. القينا بأنفسنا جميعا في البحر ..

ربما هي آخر رحلة لنا هذا الصيف !!

واندفعنا نشق طريقنا في الموج !! .. في كل مرة يقطع فيها  
الإنسان هذه الرحلة ، رحلة الثلاثمائة أو الأربعمائة متر الى  
الصخرة ، كانت تتابني مشاعر معينة بذاتها .. !

كثيرا ما كنت أدرك بومض الخاطر ، وأنا أخطو عبر الموج ،  
ذلك الشعور الاسطوري العميق الذي يربط بين إنسان ما وبين  
البحر ، حتى يصبح هذا الرباط مصيرا وقدرنا !!

والصدقة ، كنت في تلك الأيام أقرأ « خورية البحر » مسرحية  
العظيم « إيسن » ، وأعيش مع « ايليدا » بطلة المسرحية ، تلك  
الفتاة الجميلة التي ربطت مصرها ببحار غريب ، أثر لحظة  
انسانية عميقة جياشة جمعتهما أمام البحر فارتبطا ، وكان  
قسمهما خاتمين ربطاهما الى بعضيهما بخيط رقيق دقيق ، ثم  
القا بهما في الأعماق .

كانت كلمات « ايليدا » خورية البحر تعاودنى وانا أصبح في  
البحر الأبيض المتوسط .

« لو كان الانسان قد عود نفسه على البحر منذ البداية ،  
لكان أكثر سعادة » !!

وكلمات أخرى لها ..

هذه هي الحقيقة الخفية .. وهذا هو السر الدفين وراء  
مسحة الحزن التي تستبد بالرجال أحيانا ، عندما يحنون الى  
المجهول .. الى الانطلاق .. في رحابة الكون الكبير !!

ومضيت أنظر الى الصديق سعد وهو ينساب بخفة في  
قلب الموج ، والى طفليه وطفلى وهم يدفعون سنائيرهم بأيديهم  
على الموج أمامهم وعيونهم على الجزيرة الصخرية : أليست هذه  
هى روح خورية البحر تسكنهم جميعا ؟

وانا ؟ ! ..

ان ما يدور كالدماغ في عروقى ، تلك الرغبة الحارقة المشتعلة  
على الدوام فى الخروج والانطلاق .. ولكن آه من كل هذه  
القيود التى بات الانسان يخجل من ترديدها ! ..

ذلك هو سحر الاجازة .

هأنذا في منطقة اللاقيوز .. أمامي البحر .. كل البحر  
لو أستطيع .

ومضيت أسبح .. سعد يسبقني ، والأطفال يسبقونه ..  
ودخلنا منطقة الأعماق ..

عند أول حدود منطقة الأعماق ، يهبط القلب للحظة ،  
ثم يرتفع الأوار من جديد ، مدفوعا بتلك البهجة الحسية المقترنة  
بزهوة الاحساس باقتحام الخطر ..

بعد الحدود ، هبت رياح رطبة ، فازداد ارتفاع الموج ..  
تنهت .. أهى بوارد عاصفة ؟ !

لا .. هي رقصة للموج يعلو فيها ويهبط ، فلنستسلم  
جميعا للرقصة !!

كنت قد تعلمت من سباحتي في رفقة صديقي السكندري  
وطفليه ، ما معنى تلك النشوة الحسية التي يملأ بها الانسان  
نفسه ويضمخ بها جسده وهو يسبح في البحر ، على أعماق  
بعيدة الفور . فكثيرا ما كان يلقي بنفسه في منطقة ما بعد  
الصخرة ويتوغل ويتوغل حتى يصبح نقطة صغيرة سوداء في  
عالم رحيب واسع كله خضرة وزرقة ! كنت أجفل من الدهاب  
معه الى هذا البعد السحيق ، فيقول لي معائبا : انت مش  
بتعرف تعوم ؟

فأهر رأسي ضاحكا ، فيقول : كل ما العمق يكون اكثر ،  
كل ما العوم يبقى أسهل وأجمل .

والمرة التي سبحت فيها معه فيما بعد الصخرة ، منحني  
لحظات سعادة لا تنسى .. كما أعطتني كلمة السر الوحيدة التي  
يفهمها البحر :



جِراًة القلب ..

ان لحظة خوف تهلك أعظم الأبطال ..

فلأفرح برقصة الموج ، ولا اخاف ! ..

وفقدت احساسى بوزنى ، وأنا أماشى برقصة الموج ..

والأطفال . ؟ ! ترى ماذا يفعلون الآن ؟ ! أليست مفامرة منا  
أنا صحبناهم معنا فى هذه الرحلة ! ؟ ماذا لو عدنا بدون  
واحد منهم ؟ !

غير أن نظرة سريعة منهم ، وهم يشقون طريقهم نحو الصخرة  
فى خفة ورشاقة ، دافعين سنائيرهم أمامهم أقنعتنى بأن أنتبه  
لنفسى .

ومضيت أواصل السباحة .

اجتزنا نصف المسافة .. الأعماق تزداد .. والرقصة  
تعلو . ماذا لو تعب الانسان فجأة ؟ ! .. لا .. ولماذا يتعب ؟ !  
لست فى سباق .. لا عنف فى الضربات . بل واحدة واحدة !! ..

يا لها من متعة .. متعة محفوفة بالخطر .. !

هناك تقلص العضلات ، عضلات السيقان !

وهبط قلبى ..

لا .. لا .. ساقى خفيفتان .. تذكر قصص الفرق  
هى بداية الفرق الحقيقى .. ! الرياح الرطبة تهب وتنعش  
النفس .. الموج يرقص .. وأنا مثل ريشة فوق جبال الموج ..  
سعادة تضيخ قلب الانسان .. احساس بالتطهر والاغتسال ..  
خفة فى الجسم وفى النفس .. جرثومة الجبروت لا بد يقتلها  
ملح البحر .. !

كان الأطفال يقتربون بسنانيرهم من الصخرة . حمدا لله ..  
ومضيت أتبعهم .. !! يا للغرابة ، أهنالك ثمة قربي بين الطفولة  
وبين البحر .. ؟ ! بالتأكيد .. هذه الخفة وهذه الفرحة ..  
الأطفال هم أصدقاء البحر .. وخايلنى وجه عبد اللطيف  
أبو هيف .. طفولة العالم دائما أراها فى عينيه .. ! .. نعم ..  
أبو هيف .. طفل كبير برىء .. جسده أبدا لا يثقله .. وروحه  
أيضا .. أبو هيف بلا ذنوب .. كل أبطال البحر لا يمكن أن  
ينزلوا الى البحر ووراءهم ذنوب أو أشباح تلاحقهم .. !

منذ عدد من السنين ، نزل أحد الحكام « العظماء » الى  
البحر .. مستعرضا قدرته وبراعته أمام رجال الحاشية  
« أنا لا أحكم الناس فقط .. أنا أحكم الموج أيضا » .. وراح  
يتوغل ويتوغل .. فجأة ، أحس بجسم ناعم يلمس ساقه ،  
فانتفض .. ! لابد حوت .. دعر فظيع أهوج أطبق عليه ..  
اندفعت ذراعااه تضربان فى الموج يلتمس العودة .. طاشت  
حركته .. تهدجت انفاسه .. بدأ يبلع الماء من أنفه وقمه ..  
كان وجهه ضخيم يلاحقه .. وجه يعرفه .. يقول وعيناه متالمتان  
تقطران ماء مالحا « لماذا قتلتنى .. لماذا قتلتنى » .. ؟ !  
كانت ضحية من ضحاياه ، بعثت حياة له وهو فى قلب  
البحر ! وكانت نهايته !!

المثقلون بالذنوب لا يحملهم البحر أبدا الى غاياتهم ..  
وانسا .. ؟ !

فى رحلة الأربعمئة متر .. من تحتى أعماق وأعماق ..  
ما هى ذنوبى ؟ !

وتلاحقت دقات قلبى ..

ها قد أصبحت وحيدا فى منطقة الأعماق .. سعد والأطفال

وصلوا الصخرة وأمسكوا بسنانيرهم وبدأوا الصيد .

هل لى ذنوب معك أيها البحر .. ؟ !

ولم يخالينى وجه للانتقام .. !

وجه واحد تراءى لى .. فيه الشحوب ، وألم العتاب :  
لم أرك من وقت طويل : أختى .. فى قرىتى .. بل قرىتى كلها ..  
بلياليها الخرساء المظلمة فى النصف الأخير من القرن العشرين ..  
تعاتبنى : إجازتك أصبحت تقضيها مرحا على الشاطئ ..  
إجازتك كلها ، دون يوم واحد لنا .. !

أختى ..

قرىتى ..

أنا معترف بذنبى ..

أن لم أعد اليكم .. فالموت لى .. المغفرة !

كنت قد أصبحت وحيدا فى البحر .. غير أن منظر الصخرة  
ومن عليها كان يؤنسنى .. بعد دقائق قليلة سأمسك بصخورها  
وأصعد إليها وأنضم الى موكب الصيد المرح .. ولكن ما هذا ؟ !  
لقد أصبحت على يمين الصخرة ، بعد أن كنت متجها إليها من  
اليسار .. انه اتجهاه الموج .. سحبتنى رقصة الموج شيئا  
فشيئا بعيدا عن طريقنا الأصلي !! لا يهم .. فلاأخذ أقصر  
الطرق .. ولأنشط قليلا ، ولأكف عن التفكير .. أى تفكير ..  
حسن انى وجدت نفسى بلا ذنوب .. لا ذنب لى غير أختى ..  
وقرىتى .. وعما قريب سأكفر عنه .. ها هى الصخرة أمامى ..  
قريبة .. وأنا لم أتعب .. أبسط تعب لم يصب ذراعى  
أو ساقى .. ولكن .. شيئا ما غريب يحدث .. اننى لا أتحرك  
والمسافة بينى وبين الصخرة ثابتة ..

وتنبه فى داخلى احساس عميق بالخطر ..

أنا في منطقة تيار قوى ينخدر نحوى مقبلا من حول  
الصخرة ..

سباحة الصدر الهادئة هنا لن تجدى ..

بدأت أضرب بذراعى .. ضربات مسددة قوية .. غير أن  
التيار أقوى .. الصخرة لا تقترب .. وكل ما تفعله ضربات  
ذراعى انها تحمينى من الرجوع الى الوراء !! ضربتان وثلاث ..  
وستهن ذراعى . ! أنا واثق .. لن أصل الى الصخرة ، عشرة  
أمتار .. ولكن أصبح من المستحيل اجتيازها . كلما ضربت  
بذراعى ، وجدت موجة ثقيلة مندفعة تقول لى : ابق عندك .

ستحدث الكارثة حتما !!

كنت أود أن أصل الصخرة وحدى .. هل أصر لى  
أحصل على انتصارى ..

من جديد ، رحت أضرب بذراعى .

صدنى التيار .. ابق عندك .. وهنت تماما ذراعى ..

أذن فهو الفرق لا محالة ..

عيناي على الصخرة .. سعد ينظر الى مستفسرا .. أدرك  
على الفور الخطر ..

قدف بنفسه فى الماء ..

— خف .. تعوم ..

القيت نفسى على ظهري فوق الماء .. خفيفا بلا حراك ..

تاركا جسمى للتيار .. ذراعا سعد تضربان فى الماء ..

اقترب منى ابن البحر ..



اعتدلت على صدرى ..

- ضع يدك على كتفى .. واضرب برجليك .. دقيقة واحدة وسنبعد عن مجرى التيار . !!

لاشئ في الذهن غير الوصول .. بأى ثمن لابد سنصل ،  
ها هي الصخرة على بعد أذرع قليلة ..

- ابتعدنا عن التيار ..

عادت الى النفس السكينة .. رقصة الموج اللطيفة  
تحملنا ولا تصدنا .. والصخرة تقترب .. مصطفى الصغير يصيح  
فرحاً ، وقد رفع سنارته في الهواء وسمكة صغيرة وقعت في الفخ  
راحت تنتفض في الفضاء وهي تلمع وتلمس الهروب ..

- دنيسة يا بابا .. دنيسة يا عمى ..

منحتنى صيخته القوة !!

على أية حال .. ها هي الصخرة ..

لمست بدائى الصخرة .. تشبثت بها ..

نظرت الى سعد نظرة شكر .. أما هو ، فكان ينظر لى فى  
عتاب ثم قال : أرجوك لما تحب تسرح .. تبقى تسرح وأنت  
فى بيتكم .. انما فى البحر ..

وضحك من أعماقه ..

وددت أن أبادله بضحكة .. غير أنى لم أستطع .. كنت  
لا أزال أسترد أنفاسى .. وعينى على منطقة التيار .. رهيب ! ..

ذنب أختى .. وقريتى ؟ !

ربما ..

ولن آتيك أيها البحر في العام القادم ، إلا وأنا متخفف  
من كل الذنوب ..

عماد .. الطفل الأكبر يصيح ..

— دنيسة ثانية يا بابا ..

ولمعت سمكة في الفضاء ..

وتقفز الأطفال فرحين بصيدهم العزيز ..

السمك يخرج حيا . ثم يموت . أهى بداية للذنب جديد ؟ !

ولمعت سمكة جديدة .. وانتفضت في الفضاء .. مرتعبة ..

ستموت .. وسيضحك الأطفال .. وسنأكلها في أمسية

بهيجة !

« ١٩٦٨ »

## النمل الأسود

بدأت لها المسألة أشبه بالمفاجأة ، أو لعبة لطيفة من البحر  
يستقبلها بها ! .. كانت قد أخذت نظرة سريعة من وجهها  
في المرآة ، وسوت شعرها ، غير أنها لم تكد تفتح باب العشة  
لتخرج وتلحق بزوجها حتى استقبلتها دفقة هواء شديدة ،  
فتطاير شعرها بعنف وتراجعت الى الوراء خطوتين وكادت  
تنكفىء ، وتملكتها رغبة طفلية في الضحك وهي ترى جهودها  
لتحافظ على نظام شعرها تضيع عبثا !

كان أول يوم لها في رأس البر ، ورغم أن العشة كانت  
بعيدة بعض الشيء عن البحر ، والوقت ضحى ، إلا أن الهواء  
كان يهب قويا ومنعشا .. وأحست بطراوته تنفذ من خلال  
ملابسها الخفيفة فتلامس لا جسدها فقط ، بل وروحها أيضا ،  
وابتسمت في سعادة ، وراحت وهي تستنشق الهواء بعمق ،  
تحمق بعينيها في لا شيء .. كأنها تدير شيئا في رأسها .. شيئا  
غريبا لا تكاد تصدقه !

أحقا هو شعور بالسعادة ؟ !

لم تكن تتوقع أن شعورا مثل هذا سيفمرها من أول صباح لها في المصيف ، بل وتعجبت كيف أن الاحساس بالرضى يمكن أن يفمر قلب الانسان هكذا فجأة ، لمجرد هبة هواء منعشة ، وكأن أشياء كثيفة وتعمسة لم تحملها في قلبها وهى قادمة مع زوجها الى هذا المكان !

وحانت منها نظرة سريعة الى السريرين الصغيرين اللذين يشغلان الحجرة وتنهدت ، اى ليلة كثيفة قضياها بالأمس في هذه الحجرة بعد أن وصلا المصيف ووضعوا حاجياتهما !

كانا قد هبطا « رأس البر » بالأمس في الليل ، ولم يكن يعلن عن وجودها في هذا المكان سوى أقواس النصر المضاءة بالكهرباء عند مدخلها والا صوت البحر الذى كان يتناهى الى مسامعهما من بعيد ! .. وطوال الطريق من القاهرة حتى رأس البر وهما صامتان ، كلاهما يفكر في هذا الذى حدث ، هذا الذى جعلها في النهاية تصرخ في وجهه طالبة الطلاق ثم .. كان هدوء العاصفة واتفاقهما الكئيب في بيت أمها على أن يقضيا عدة أيام في المصيف !

وهزت رأسها بشدة لتطرد الصورة عن ذهنها .. « ربما تكون بداية جديدة لحياتنا .. كفانا كآبة » !

كانت موجات الهواء لا تزال تندفع داخل الحجرة ، وابتسمت لنفسها مرة أخرى وهى تحس بأنفاسها نشطة وقوية .. وضعت كل قواها في ذراعيها الرقيقتين وجذبت الباب خلفها بقوة ، كانت صغيرة ونحيلة ، وكانت أيضا شقراء وجميلة .. ذلك الجمال الذى يعطى صاحبه سنا أصفر من حقيقته ، والمضحك أن عمرها لم يكن يزيد بحال عن التاسعة عشر ، فبدت وهى تهبط سلالا العشة قفزا وتقاوم لعبة الهواء



مع شعرها وثوبها ، بدت أقرب الى صبية صغيرة تحتاج الى صبايا لتلعب معهن ، منها الى أن تكون زوجة ، وزوجة لهذا الرجل بالذات ، الواقف هناك عاقدا ذراعيه خلفه وسط الشارع في انتظارها !

كان قد خرج وسبقها بعدة خطوات .. وبدأ بكتفيه العريضتين ورأسه الكبير مكتظ الوجه والجسم ، ورغم أنه كان يرتدى بنطلونا طويلا إلا أن ساقيه بدتا معوجتين ، وذراعيه المشمرتين يملؤهما شعر كثيف أسود وصدره بارز ومرتفع بشكل ملحوظ ، كأنه مصارع أو مدرب رياضي !

لم يكن هناك شيء في الشكل يؤلف بينهما .. ولولا وقفته ونظراته المركزة التي تحمل معنى الانتظار ، انتظارها هي بالذات وهي تشق طريقها نحوه ، لما قال أحد أن هناك ثمة علاقة بينهما !

كان شاردا .. وعيناه مزمومتان على وجوم !

ومضت تمشي نحوه بخطوات مسرعة ، حريصة على ألا تتركه وحده طويلا في الشارع ! .. وأحست بالأرض الرملية تعوق سرعتها فنظرت اليه معتدرة بوجه ضاحك ، وتجولت للحظة بعينيها العسيلتين الواسعتين في كل ما حولها ، كأنها تكتشف ولأول مرة هذا المصيف الذي دخلته بالأمس - ولأول مرة في حياتها - في الليل ! .. كان الوقت ضحى . والعالم يغمره الضياء .. وبدأ كل ما حولها خلاء في خلاء ، رغم صفوف الكباين والعشش الصغيرة الممتدة في نظام بديع حتى الشاطئ ، ولاحت لها زرقة السماء لا تختلف عن زرقة الفضاء ، وانطلقت نظرتها الى البعيد ، الى نهاية الشارع .. ولمحت تلك النقطة التي يلتقى فيها البحر بالسماء وأشباح المصيفين بملابس البحر

يروحون ويجيئون ويجرون . أحست بنشوة تملكها وجرفها حماس طفولى طاغ ، أن تقطع الخطوات الباقية على زوجها جريا ، ثم تجذبه من يده وهى تضحك ، ويجريان معا ويظلان يجريان حتى يبلغا الشاطئ ويضربا الموج بأقدامهما وهما يضحكان من قلبيهما !

كان قد مسحها سحر الطبيعة فتفتحت كل الطفولة الكامنة فيها ، غير انها حين نظرت اليه ، وجدته لايزال شاردا ، مقطب الجبين . فتنهدت ، « أنه لم ينس بعد .. ولكن ، لابد أن ينسى » .. وقررت أن تبدأ هى بالكلام . لو اقتضى الأمر أن تعتذر له ، فستعتذر رغم كل شيء ! .. يكفيها أنه هو الذى عرض فكرة السفر الى هذا المكان الجميل .

وحين وصلت مكانه لفت ذراعها بحماس حول ذراعه ، فتحرك من مكانه وسار بجوارها فى صمت فى اتجاه البحر ، وفكرت .. ماذا تقول ؟ !

كان واضحا أن روحه معقودة على صمت ثقيل ، وأيقنت ان الحاجز لايزال بينهما .. ومع هذا فقد ظلت ابتسامتها على شفيتها ، وحلا لها وهى تسير بجواره أن تستنيم لايقاع خطواتها البطيئة على الرمال .. وفكرت بقلبها المفتوح أن المشي البطيء على الرمل له جماله أيضا ، تماما مثل الجرى والانطلاق . وأغمضت عينيها لبرهة تتسمع ازير الهواء وهو يصطدم بأذنيها ، وصياح أطفال المصطفافين وهم يلعبون بمرح ، أن العالم منذ بدء الخليقة يسوده السلام ، وأن تلك هى حقيقة الحياة .. ولايد أن تكون أيضا هى حقيقة علاقتهما معا .. وأن هذا الذى حدث بينهما لم يكن الا كابوسا .. وانتهى ! .. « نعم .. كل الرجال يفارون على زوجاتهم . من اقرب حبه لى ، يفار على .. يبدو اننى فعلا تسرعت فى طلب الطلاق » .

وانتابها احساس مابر بالندم .. وضفطت بيدها على ذراعه .. وهمت أن تقول له بكل جوارحها . « أنا متشكرة ، متشكرة اوى يا حسين على الفسحة اللطيفة دى » . غير انها قوجئت بكرة صفرة تندفع اليها . كان بعض الأطفال الصفار يلعبون بها .. وبلا وعى اندفعت نحو الكرة وقذفتها بقدمها بشدة ، ثم انطلقت تضحك للصفار من قلبها ! ونظرت اليه لترى أثر لعبتها وضحكتها عليه ، صدمها جمود وجهه ، بل وخيل لها أنه يضفط على فكيه .. هبط شيء ما في قلبها واستدركت خطواتها التى كانت توشك - بلا وعى - أن تسرع وتفلت منها ، كما لو كانت تريد أن تجرى وراء الكرة وتلعب مع الأطفال .. وشردت ببصرها نحو البحر ! .. « تلك هى عقدة .. الكارثة أنك لازلت تتصرفين كطفلة .. لم تصدقى بعد أنك أصبحت زوجة ! » . ليس هذا هو بالضبط كلامه ؟ ! .. لا .. سألتصرف كامرأة كبيرة وعاقلة ورزينة .. « نعم .. لن أفعل شيئاً ولو تافها ربما يثير غضبه .. لابد أن أهيبء الجو لتصفو نفسه ، وبسرعة » ومرة أخرى لفت ذراعها حول ذراعه ، ومضيا يقطعان الطريق الى البحر ، فى صمت وعلى مهل .

كانت كل أمنيتهما أن تصل البحر وقد انقشعت هذه السحابة عنهما ! .. تلك أول مرة سترى فيها « بحر رأس البر » .. بعد دقائق ستكون هناك . واكتسحها شوق لأن ترى أمواجه وتمشى على البلاج وتستحم بنفس صافية ، لقد راح تماماً من نفسها كل شيء وانتهى ، فلماذا هو مصر على هذا الوجوم الرهيب ! ؟ .. ربما هو فى انتظار كلمة منها ترضى كبريائه . واستدارت اليه بكل وجهها دون أن تخلى ذراعها من ذراعه ، وقالت برجاء وهى تبسم مداعبة :

— حسين ؟ ! .. مش حتضحك بقى ؟ !

وابتسم ، لكن ابتسامته كانت ساخرة ، تقطر مرارة !  
ولم تياس .

- شايف قربنا من البحر ازاي .. يا الله نجرى لغاية  
هناك !

ولم يرد . رآته ينظر الى رجل يخرج من احدى الكبائن  
ويمشي في نفس الطريق متجها نحوهما .. كان الرجل يرتدى  
بنطلون شورت وفي يده مضرب ، ووجهه وسيم لوحته  
الشمس ، وحين اقترب منها رآته يسدد نظراته اليها ! ..  
ارتجفت وسقطت نظراتها كالمذعورة الى الأرض لتفادي عينيه .  
وما أن مر بهما وابتعد حتى رفعت بصرها عن الأرض وهي تلفظ  
نفسا عميقا ، وكأن كابوسا انزاح عن صدرها .

كان الرجل غريبا لم تره من قبل أبدا ، لكنه كان يبثق  
فيها بشكل وقح ، ولا يبالي بزوجها . وودت لو تختطف في تلك  
اللحظة نظرة من عيني زوجها لترى أثر نظرة الرجل عليه ! ..

وغاص قلبها وهي تراه يخرج سيجارة من جيبه ويشعلها ،  
وأطفأ الهواء أول عود ثقاب ، فأشعل الثاني بعصبية ، ولمحت  
وجهه وقد احتقن !

أحست برغبة حارة تجيش في نفسها ، أن تبكي ، وأن  
تحس بطعم الدموع في حلقها ! .. أيمن أن يطاردها ذلك  
الرعب حتى في المصيف ؟ .. الرعب الذي كانت تعيش معه في  
القاهرة ؟ !

واستبشعت الخاطر « مستحيل .. مستحيل أن يفار  
على أيضا هنا .. من نظرات المصطافين » !

لن يكون مصيفا ، بل سيكون الجحيم ، نفس الجحيم .



منذ أن تزوجته ، بل ومن أيام الخطوبة وهذا عذابها .  
غير أن غيرته هذه كانت تبدو أول الأمر شيئاً تافهاً ومحتماً ،  
أكثر من هذا كانت تتقبلها بنوع من الزهو الأنثوي كشاهد  
حي على جمالها ، وهو العاقل من كل جمال .. لكن المسألة  
كانت تستفحل مع الأيام على نحو خطير ، فبالضبط كما يختار  
الميكروب نقطة ضعف في جسم الإنسان ليمارس عليها حياته  
ويتغذى على مهل ، كذلك كانت غيرته ، تلمست لنفسها نقطة  
في حياتها ثم توقفت عندها : تلك هي قرابتها ، أو ما أسماها  
هو « علاقتها » بابن خالتها المسمى « صلاح » ، ذلك الذي يقطن  
في الشقة المجاورة لها بنفس المنزل ، وبـ نفس الدور مع عائلته ..  
والذي طالما ضحكت ولعبت معه وهي صغيرة .. وحتى بعد أن  
خطبها من أبيها المريض وتزوجها ، لم تجد في الخطبة أو في  
الزواج ما يمنعها من أن تضحك معه من قلبها ! .. وكان هو  
يزى انطلاقها هذا مع ابن خالتها ، فيحس - رغماً منه - بشيء  
ما أسود يأكل في قلبه ! .. كانت غيرته في أول الأمر مستورة  
وبطيئة ربما لأنه كان يدرك أنه لابد أن يتحكم في غيرته . فهو الذي  
اختارها صغيرة .. وهو الذي جعل الزواج منها معركة حياته في  
تلك الفترة واستطاع أن يحصل عليها بالتأثير على أبيها المريض  
قبل أن يموت .. حصل عليها وهو يعلم أنه قد سلبها من كل  
أقربائها الشبان .. فهي أجمل بنات العائلة .. وعليه اذن  
أن يتحمل متاعب جمالها .. ويغالب غيرته .

غير أن غيرته الهادئة البطيئة هذه ، كانت أفظع الأنواع ،  
عليها وعليه على السواء .. كانت بالنسبة لها أشبه بنقط  
ماء صغيرة دائمة السقوط من صنوبر غير محكم الاغلاق ..  
تسقط نقطة بعد نقطة ، وبشكل رتيب بجوار رأس إنسان مرهق  
يريد أن ينام .

أنها لا تنسى أبداً حين دعا أحد أصدقائه على الغداء ..

وجلس الثلاثة حول المائدة ، ثم قام فجأة متعللاً بحجة واهية ، وأدركت بعد لحظات أنه يقف خلف الباب ينصت الى ما عساه يمكن أن يحدث ، أو يدور بينهما من كلام !

كان شكه هذا مقلقا لسكينة روحها ، بل أصبحت تحس أنها تعيش معه في رعب دائم . . . وشيئا فشيئا اتلفت غيرته أعصابها حتى انفجرت في النهاية ، تركت له البيت وصرخت : « أريد الطلاق » . . ثم كانت جلستهم الصاخبة التي انتهت بذلك القرار الكئيب : أن يسافرا ، ويقضيا عدة أيام في هذا المصيف .

فهل يلاحقها ذلك الرعب هنا من جديد ؟

وتذكرت نظرة الغريب لها ، فغاص قلبها . . ما ذنبها هي في هذه النظرة ؟ . . ثم ما الذي سيحدث حين يصلان الشاطئ ، ويدخلان الزحام ؟

ومرت بيدها على عينيها كأنهما تزيل ضبابة تكاد تفسى بصرها . وكانا قد اقتربا من البحر . . وتناهى الى سمعها فجأة صوت الموج . ورات أنهما بدأ يدخلان منطقة زحام ، فهزت رأسها بشدة .

« سأعمل كل جهدي لأحافظ على شعوره . . سأمشي دون أن أنظر الى أحد . . سأهبط الى البحر والاعب الموج دون أن تلتقى عيناي برجل » هذه الطبيعة الحلوة تكفى وحدها لأن أنظر اليها . . يكفى ملمس الماء على جسدي . وأنا لا أعرف العوم . . سأطلب منه أن يعلمني ، وسنضحك . . سأجعلك يضحك علي . .

وتفتح وجهها مرة أخرى ، كان خاطرا كئيبا واحدا لم يروعا منذ لحظة . . ورات شابا وفتاة ، يسيران معا يتن العشش

بخطوات مسرعة ، وراهننت في نفسها انهما عريسان جديدان ..  
ورات بعيدا ، هناك في أقصى البحر ، نقطة صغيرة بيضاء  
تتأرجح ، وتراهننت مع نفسها مرة أخرى أنها لابد مركب صيد ..  
با لهم من شجعان ، هؤلاء الرجال ، وتصورت أن هناك  
عالما وراء هذا الأفق الأزرق البعيد ، وتذكرت أن الأرض  
كروية ، وأن العالم رحيب واسع لا ينتهى .. تعبأت روحها  
دفعه واحدة بالاحساس بالحب . حب كبير يشمل كل شيء .  
وجرفها شعور بالحنين لأن تفجر احساسها هذا .. استدارت  
بوجهها اليه .

— حسين .. أنت لسه برضه زعلان ؟

— أبدا .. حازعل من ايه ؟

قالها بلهجة أدركت معها على الفور أنه لم ينس بعد ..  
توقفت عن المسير . توقف هو الآخر . أمسكت بيده وعادت تقول  
ووجهها الحلو الصغير ينطق بالضراعة :

— انس بقى يا حسين .. الى فات مات .. عشان  
خاطرى ..

كانت نظراته مركزة في عينيها ، كأنما كل همه في هذا  
العالم أن يسبر أنوار احساسها .. أهى حقا صادقة فيما  
تقول ؟ .. انه يريد اليقين . وبدأت تلك الصغيرة الضارعة  
الحلوة ، التى لا يشغلها في تلك اللحظة غير رغبتها فى أن تضحك  
للبحر وتفرح معه بالحياة فى المصيف ، بدت غامضة مغلقة ،  
جوانحها تنطوى على أشياء مبهمه تحيره بل وتعذبه .

قال وفكاه يرتعشان ، مركزا عينيه فى عينيها أكثر وأكثر ..

— نقدر نتكلم بصراحة ؟ ..

## صراحة ؟

ارتبكت وشل تفكيرها .. كانت تريد أن تنهى الموضوع .  
ولكن ها هو يريد أن يبدأ من جديد .

وأغمضت عينيها للحظة ، وقالت بلهجة تدعو للثناء ..  
« صراحة إيه بس يا حسين .. عايزنى أقول لك إيه » ؟

وأربدت ملامحه . فى أعماقه ذلك الشيء الأسود يأكل قلبه ، شيء أشبه بالنمل الأسود يرعى فى جوفه ، ويجعله دائما يتساءل فى قلق .. اكان من حقك أن تتزوج بنتا صغيرة وجميلة ؟  
ما يدريك أنك من الأزواج المخدوعين !

وانفجر .

— تقدرى تقوللى طلبت الطلاق ليه ؟ ! .. هه ؟ ! ..

قالت وقد شحب وجهها فبدت كالشاهدة ، كمن تريد أن تحمل نفسها ذنوب العالم ، لتحصل بعد ذلك على الخلاص .

— غلطت يا حسين .. حقك على .. نبتدى من جديد .

ارتسمت على ركن فمه ابتسامة سخرية ، ووسع ما بين قدميه كأنما يثبتهما جيدا فى الأرض الرملية ، وقال بلهجة قاطعة :

— أنا شايف نصفى القديم أول ! .

أطرقت فى تعاسة .. قالت موافقة :

— نصفيه !

— تقدرى تقوللى .. إيه علاقتك بصلاح ابن خالتك ؟ !

وكما لو انه ألقى على رأسها بقنبلة .. فتراجعت مرتعبة



الى الوراء خطوتين وقد دوى انفجار وطاش في راسها .  
صرخت .. « أنت برضه اللي فيك لسه فيك .. مش عايز  
تصدق أبدا » .. وأحسست بالهوان .. وانفجرت تبكى ..  
« أنا مش قلتك قبل كده على كل حاجة » ! ..

وكم التقط خيطا كان ضائعا منه ، فتشبث به بوحشية  
حتى لا يضيع منه .

— أبه هي الحاجة اللي قولتيها لى ؟ !

وضربت قدمها في الرمل « أن مفيش أى حاجة .. ده ابن  
خالتي يا حسين .. ومتريية معاه من صفري .. متربيين مع  
بعض لحد ما كبرنا » !

وارتعش ركن قبه بسخرية مريرة ..

— لحد ما كبرتم ؟ ! هه ؟ .. وبرضه مش عايزة تكلميني  
بصراحة .

وبأحزان العالم كله .. « عايزنى أقول أبه بالضبط ..  
فهمنى .. أنا مش فاهمة حاجة خالص » !

وجذب نفسا عميقا من صدره ، وتراجع برقبته ورأسه  
قليلا الى الوراء ، كمن يتهاى لأن يقدفها بقنبلة أخرى .. وزم عينيه  
ليرقب جيدا وقع ما سيقوله عليها .

— أنت عارفه انه هنا ؟ !

— مين ؟ !

— حضرته .. صلاح ابن خالتك !

قالت وهي تبسط كفيها بدهشة واستغراب ، وخوف  
أيضا !

— لا ما أعرفش طبعاً !

وارتعش فكاه ..

— لا تعرفي .. أنا مش مغفل .. وأنت اللي قتلته أنا  
جايين هنا .

أجحظت عيناها في ذهول .. ولم تنطق بحرف . أحست  
ببقية حماسها للأشياء تنهار وتتداعى .. ونظرت اليه طويلاً  
وعلى وجهها الشاحب الصغير تموجت كل المعاني وتعاقبت :  
الاحتقار .. الاحساس بالغثيان .. ثم التعاسة واليأس اللدان  
لا حد لهما !

أحقاً هذا الذي يحدث ؟ !

ربما .. ربما جاء صلاح فعلاً .. أحضرته الصدفة  
انساخرة الى رأس البر !

وكما تصل المهزلة أحياناً بالإنسان الى قمته فيندفع ضاحكاً  
بتعاسة على الموقف ، ارتعشت شفاتها بابتسامة مسكينة وشبه  
غشاوة تغطي عينيها !

وصرخ .. « قولي أنك طلبت الطلاق علشانه .. أنا  
ما عنديش مانع .. بس تقولي الحقيقة » .. وهذا صوته  
قليلاً فبدأ رغم ما فيه من رنة رجاء ، أشبه بالفحيح .. « ليه  
مش عايزة تقولي الحقيقة وتريحيني .. ليه » ؟ !

وبرقت عيناه بابتسامة وحشية ، واقترب منها خطوة ،  
فارتدت مفزوعة الى الوراء خطوات .. لو تقدم منها خطوة  
وأحدة ، فسوف تصرخ ، وعبر بها خاطر مخيف ، أنه قد جاء  
بها الى هنا لينفرد بها ويقتلها ، ويتخلص منها .. ربما لو نزلت  
معه البحر لاغرقها دون أن يشعر أحد . وخيل لها أن صوت

الموج يعلو ويعلو من ورائها ، وتمثل لها البحر أشبه بفم وحش  
مفتوح . وأمواجه انياب في انتظار أن يلتهمها .

وتملكته قشعريرة خوف .. ونقلت عينيها ، بين البحر  
وبينه ، كان البريق الوحشي لا يزال يطل من عينيه .. وعبر  
بها خاطر مروع .. انها لم تر وجه قاتل أبدا .. وها هي تراه !  
ودق قلبها بسرعة .. كانت أمواج البحر تلطم في بعضها  
وتزجر من ورائها ! .. وهو .. واقف أمامها ، برقبتيه  
ورأسه ممدودة نحوها .

— قوليلي الحقيقة باقول لك !

وخطا نحوها خطوة .. قفزت من الرعب واستدارت تجرى  
في اتجاه البحر .. كان عاليا يزجر .  
شهقت وأغمضت عينيها لبرهة ..

ارتدت مدعورة تجرى في اتجاه آخر .. أحست بوقع  
قدميه على الرمل يلاحقها ..

صرخت الصغيرة الجميلة من الرعب في وجه الفضلاء  
« .. ماما .. ماما .. يا ماما » ..

وكان صوت البحر يغطي على صرخاتها ، وضجة المصيفين  
وصياح الأطفال تشيع في فضاء المصيف !

« ١٩٦٥ »

## العاصفة

ضايقه وهو يمشى .. هدوء العاصفة .

غير أنه منى النفس أن تكون مجرد لحظات ، تتجمع فيها  
السحب والرياح لتعود بعدها العاصفة وتزأر من جديد .

وليت الأمطار أيضا تسقط .

كان يريد العالم في ذلك اليوم بلا نظام ، على الأقل بغير  
نظامه المألوف . لكن العاصفة كانت قد سكنت . والغريب  
بمجرد أن نزل من القطار الى أرض الضاحية . عاد الهدوء  
فجأة ، عاد بشكل تسترخي معه الأعصاب والأنفاس .. وبدأت  
أممه « الضاحية » ببيوتها المنخفضة وكأنها في عراء ..

الهمسة تكاد تسمع ، أى سر لابد أن يكشف .. وتارجحت  
مقلتاه في عينيه .. أيمن أن يكشف سره أحد ؟ !

واللحظة أحس بالخطر ، غير أن الرغبة الجارفة أقوى ..  
تدفعه .. كالمجذوب كان يندفع ، بخطواته الكبيرة ، ورأسه  
الضخم ، يمتد منه الى الأمام ، كأنما يمشى اليها في سرداب ،



لا يرى سواها .. جسدها .. لمعة عينيها .. صفى أسنانها  
وهي تضحك .. ضغطة يدها على يده في آخر كل زيارة وتقول  
« وماتبقاش تغيب علينا كثير » .. وشكرى زوجها وصديقه  
واقف معهما يودعه هو الآخر .

اليوم يذهب الى البيت وشكرى ليس فيه .  
شكرى الزوج والصديق .. مسافر .

منذ ساعتين فقط ، عرف عفوا بالخبر . كان في مكتبه ،  
وحانت ساعة الخروج ، وسمع العاصفة تعوى خارج المبنى ،  
من الصباح وهي تعوى . وفكر في سهرة الليلة .. تذكر  
شكرى .. جليستهما في المشرب التقليدى .. أو سهرة في بيت  
الضاحية لو فضل شكرى . ومن زمن لم ير « نحوى » . هي  
الآن عاتبة عليه في نفسها .

ورفع السماعه .. طلب شكرى في عمله .. رد زميل  
« شكرى مسافر .. وحيرجع بعد يومين أو ثلاثة » .

لحظتها قفزت أمامه صورة نجوى . رآها بكل اشتهاؤه  
المكنون .. وحدها في الضاحية .. ماذا لو ذهب .. والمفروض  
انه لا يعرف أن شكرى مسافر ؟ !

وخرج من مكتبه ، لاغيا فكرة القيلولة في بيته .. وترك  
نفسه للعاصفة في الشوارع .

هي الآن وحيدة . وهو وحيد . والرجل الذى ربط بينهما  
مسافر ! أحقا لا لقاء لهما ولا كلام الا بحضوره ؟ ! لقد تعودها  
وتعودته ! أصبح هناك خيط خفى يربط بينهما ومع الأيام كان  
يقوى ، حتى أنه أحس فجأة وبالذات في آخر مرة بالكراهية  
نحوها ، وأنه لابد من الهروب .. لقد أصبح احساسه بها مقرونا  
بالحزن وبالتعاسة !

بعد آخر سهرة لهم - الثلاثة - في بيت الضاحية ، ألقى  
بنفسه وحيدا في الشوارع ، متجها الى المحطة ليركب قطار  
الليل ويعود الى بيته في المدينة . اكتسحه فجأة شعور  
بالضياع وبالوحدة . رأى قطعة من قسط الليل فأخذها معه .  
و حين أضاء النور رأى على وجهها بعض البثور ، ومع البثور  
تعاسة ، ومن فمها رائحة خمر تفوح ..

وقارن بينه وبين شكرى ، تمة حقد هائل انفجر في نفسه :  
آية ميزة يستمتع بها هذا الـ شكرى ، ليمتلك الجسد الضاحك  
البض بين ذراعيه كل ليلة بل وكل ساعة لو أراد ؟ ! بل هو الآن  
قطعا محتويها ، وهى بكل ذراتها مستسلمة له بعدوبة ..  
وباغراء !!

وتحول الحقد من شكرى اليها .. كم هى فى صميمها  
انثى بارعة ، وبالسليقة مدربة ، لست بالنسبة لها سوى  
معجب عظيم تتغذى باعجابه ! .. ان أقصى ما تعطيه لى نظرة  
أو ضغطة من كفها .. وهى الآن بكل جسدها الوردى العارى  
تأوه بين ذراعيه .. وأنا ؟ ! مع قطعة على وجهها البثور ،  
ومن فمها تفوح رائحة خمر رخيصة !

ليلتها أحس بالقرف منها ومنه ومن نفسه .. وصمم  
الاطلاق قدماء أرض الضاحية ! انها - يوما بعد يوم - تستعبده ،  
رؤيتها أصبحت جزءا من برنامج حياته ..

والنتيجة ، ان علاقته بشكرى بدأت تتعقد وتدخل فى منطقة  
مخيفة وغريبة .. بل ومحزنة للغاية !

لا .. لا بد أن يكرهها .. لتموت بذرة الحقد التى بدأت  
تنمو فى صدره نحو صديقه .. أى مرارة أن تتحول الصداقة  
الى حقد ؟ ! فلتخرج المرأة من بينهما ، ولتعد أيامها الجميلة كما  
كانت .. أيام الصداقة المصفاة . أيام ما قبل زواج شكرى .

يتواعدان على الالتقاء في مشربهما التقليدي . عالمهما الشوارع والمحلات العامة ، ويتحدثان عن عصر القلق .. هو يتساءل عن جدوى وجود الانسان في هذا الوجود .. أما شكرى فيتكلم عن ضرورة أن يكون للانسان دور في تحديد المصير ! ثم تزوج شكرى . ودخلت بينهما نجوى على هذا النحو الغريب .. كأنما كانت الضربة الحاسمة في تحديد مصير صداقتهما !

ها هي العاصفة تجرفه الى المشرب التقليدي ، لكنه وحيد ، بدون صديقه ، وعواء العاصفة يتردد في أذنيه « شكرى مسافر .. شكرى مسافر » .

بوضوح ، كان يحس بقبضة الشهوة تضغط على الجزء الأسفل من بطنه ، وشيئا فشيئا ، كانت النوبة تشتعل ، نوبة الدوار الغريبة التي تملكه حين تفزوه الرغبة في الخلاص بالانتحار أو فقدان الذات فيصبح الجنس هو الاعلان أو الضمان الوحيد للبقاء والاستمرار .. أن يفرق في صوتها .. وفي جسدها ..

« وما تبقاش تغيب علينا كثر » . لابد انها تساءلت في نفسها .. فترة القطيعة ، لم غاب كل هذه المدة ؟ ! لو ذهب اليوم ، ستفرح بالتأكيد لرؤيته ، وستسأله على الفور ، لم كانت كل هذه الغيبة . وربما سترتبك قليلا لأن شكرى غير موجود .. ولكن .. الى متى لابد من شكرى ؟ !

مرة واحدة بلا شكرى .. ونصف ساعة بالقطار ويكون هناك .. والناس لاهون بالعاصفة ، والمكنون ينفجر .. مرة في العمر ينفجر !! وشرب كأسا ، وطلب ثان ليؤكد في نفسه القرار !!

كان قد اتخذ جلسته خلف النافذة ، وراح ينظر الى

الشوارع من خلال الزجاج .. « شكرى مسافر .. شكرى مسافر » والرياح تعوى ونجرف أمامها كل ما فى الشوارع .. والناس يجرون مهرولين كأنما تطاردهم سياط ، مغلقين عيونهم كيلا يدخلها التراب !

كل الميون اليوم مغلقة ، ومنطق الحياة العادى لا وجود له .. صرخة فى أعماقه .. قم واذهب .. ومن يدريك أنها الآن لا تفكر فىك .. الجميلة النابضة .. وحدها فى الضاحية وحولها العاصفة .. وأنتما وحدكما .. وأى أصوات أو لهات أو حتى صرخات مقاومة فى البداية سيصرخ فيها : أريدك .. ادغدغ ذراتك .. أغرق فىك .. أغرق وأغرق .. وكل الأصوات .. كل الحشرات .. حشرات الاستسلام .. ما قبل الفرق الجميل .. العاصفة فى الخارج وفى الداخل عاصفة .. وهم بالنهوض .. ولكن .. هل حقاً شكرى مسافر ؟ ! اليس من الجائز أن يكون فى البيت ؟ ! كيف يعرف ؟ ! وومض فى رأسه الخاطر .. فليتأكد .. سيطلبه فى التليفون وسيغير من صوته .. وأدار الرقم ، أنها هى التى ترد .. وحين سألت من الذى يتكلم ، قال بصوته الغريب الأجش : صديق لشكرى جاء من الاسكندرية ، ويريد أن يراه ! قالت بصوت رقيق آسف : آه شكرى مسافر .. من يومين فى الاسكندرية ! وضع السماعة . كانت أنفاسه تتهدج . واشتدت القبضة على الجزء الأسفل من بطنه . استعرت النوبة فى أعماقه . هى الآن وحدها . هناك .. فى البيت الواسع .. يكاد يكون مخبوءاً وسط أشجار الحديقة الصغيرة .. والعاصفة تتلوى .. ربما هى الآن خائفة .. فيحتويها .. وكل ما يصدر من أصوات .. حتى ولو كانت أصوات المقاومة منها .. ستأكله العاصفة .. وأخيراً ستستسلم .. تتذكر رغبتها القديمة فيه ! .. نعم .. ياما التقت



عيونهما في نظرة اهتز لها كل كيانه . . ولوجود الزوج كان يرتبك  
ويخفض بسرعة عينيه ؟ فلينفجر اليوم كل المكنون . ذات زيارة  
لهم رأها خارجة من الحمام . . كاد يصطدم بها . كانت تلف  
رأسها بالفوطة ، وبعض خصلات شعرها مبلولة ومدلاة على  
وجهها . . والثوب الرقيق على جسدها ، يفسر كل الخطوط  
والأجزاء . . شهقت في خجل ، وجرت الى حجرتها . . حافية .

يوم واحد في حجرتها ويموت . والعاصفة تعوى . . في  
الداخل والخارج تعوى . . محال هذا الجسد أن يكون لرجل  
واحد . . واى رجل . . هذا المصفوط ، بساقيه النحيلتين  
كعودى البوص ، وأنفه المكور ، ونظارته الطبية البيضاء . .  
وانا . . الرجل الجميل القوى .

وطلب كأسا نالثة . . جرعا مرة واحدة ، ثم خرج الى  
العاصفة . . وركب القطار ، يتحكم في أنفاسه وعيناه  
نلمعان !!

حين هبط من القطار ، فوجيء بانتهاء العاصفة ، تسمر  
لحظة . أحيانا يكون الصمت اندارا من الطبيعة لكى تراجع  
خطتك ! . . ولكن لا . . ها هي الشوارع لاتزال خالية ، وكأنما  
الناس يخشون الخروج حتى يستوثقوا من أن العاصفة لن  
تعود !

فجأة أحس برذاذ يسقط . . نظر الى السماء الغائمة . .  
انها ستمطر . . وتتابع الرذاذ . . ولم يلبث أن انهمر . . ارتبك .  
وأسرع من خطواته . . وبحث بعينه عن تاكسى . . قليل هو  
التاكسى في مثل هذه الضواحي . . لابد أن يجرى رافعا كفيه  
كمظلة فوق رأسه . . كان المطر غزيرا . . لابد أن يجرى بأسرع  
ما في طاقته . . انه يفرق في المطر . . يفرق ويفرق . . ويلهث  
ويلهث . . تعبت يداه فوق رأسه . . هبطتا . . انهمر المطر فوق

رأسه . . نزلت السيول من شعره على وجهه . . على عينيه . .  
محال أن يستمر هكذا يجرى وسط المطر . . بعض الناس الذين  
دهمهم المطر استظلوا بشرفات البيوت . . وهو يجرى . . أحس  
بالماء البارد ينفذ من ثيابه إلى جسده . أصابته رجفة . ووجد  
كتفيه تنتفضان . . لم يعد الجرى شيئاً باختياره . . لا بد أن  
يجرى ليطرد هذه الرعشة من جسده . . البيت هناك . .  
في آخر الضاحية . . والشوارع ، في أطراف الضاحية لم ترصف  
بعد . . لاتزال رملية . . أجمل ما كان يعجبه في البيت أن الطريق  
إليه مفروش بالرمال ! ما حال الرمال في المطر ؟ !

واستمر يجرى . . بلهث ! . .

على نحو غريب كانت الرؤية تهتز في عينيه . . خيوط المطر  
أستار بعد أستار . . كالسهام تصفحه . . الشارع الرئيسي  
الطويل ينتهي . . آن له أن ينحرف في الشوارع الرملية . .  
اندفع حتى كاد ينكفيء .

انفرست قدماه في الرمال المبلولة . . لا بد أن ينزع قدميه  
بسرعة وقوة . . المطر يشتد . . المياه تدخل جسده . .  
ازدادت الرجفة . يود لو يجرى ليقاوم . . أنه ينزع قدميه  
بصعوبة من الرمل . . تعب في ساقيه . . وأنفاسه تتابع . .  
وغطى عينيه بيده ونظر إلى السماء . . معبأة لاتزال . . برق  
وشرر . . السحب تنطح بعضها وترعد . صوت الرعد في  
الضواحي رهيب مدوى . إلى أين أنت ذاهب . . لماذا أنت  
ذاهب . تعبت أنفاسك يا مسكين . وراى طفلين يتعبان تحت  
الماء ، ويتلقيان المطر في سعادة . . هو يذكر لعبته هذه تحت  
المطر . يجرى ويضحك ويعطى فمه للسماء ويشرب !!

وهنت أنفاسه . . تباطأت خطواته . . تصلبت في الرمال

وقف تحت المطر يجيل بصره .. فى آخر الشارع كان البيت .  
أشجار الحديقة تفرق فى المطر . دقائق ويصل ، لكنه لم يعد  
قادرا ، سيظل هكذا واقفا .. يفرق .. نظر اليه الطفلان فى  
عجب .. رجل يقف فى الرمل تحت المطر ولا يتحرك .. وهما  
لبعضهما .

لابد أنهما يقولان « المجنون أهه » .

ليكن .. مجنون مجنون .

واندفع على الباب .. وراح يدق ويدق .. ولكن لا مجيب .

- افتح يا شكرى .. افتحى يا نجوى ..

ولا جواب غير أصوات الرعد والمطر !!

سقط رأسه على صدره للحظات .. ثم استدأر عن الباب .  
ينزع خطواته من الرمل ، والمطر لا يزال ، ليركب القطار ..  
ويختبئ . يختبئ من نفسه !

« ١٩٦٨ »

## التفاحة

هو : أجمل يوم رايتك فيه . طوال السبع سنوات التي  
عرفتك فيها .. لم أرك جميلة مثل اليوم .

هي : ( فرحة ومندهشة ) غريبة . مع انى كنت خجلانة من  
منظرى ، وأنا آتية اليك هكذا ..

هو : بالعكس .. هذا هو بالتحديد سر جمالك .. انك لم تمرى  
على « الكوافير » قبل مجيئك .. ليس فيك شيء واحد  
مرسوم ، أو محفف .. حتى الحذاء الخفيف البسيط  
فى قدميك ، وبلا جورب .. لو كنت رايتك بهذا الشكل  
مرة ، لطلبت منك تثبيت هذه الصورة .. ألا تغيرها  
أبدا .. على الأقل بالنسبة لى ..

هي : ( بنشوة وسعادة ) ليس الى هذه الدرجة .

هو : وأكثر .. صدقيني .. ( ينظر فى عينيها بابتسامة ، متأملا  
ملاححها بشقاوة ) الآن ، أفكر أن أصف لك جمالك ..  
ولكن ( يرفع كفه كراية استسلام ) للأسف . انتهت  
العبة .. لم يعد من حقى .



هي : ( بعتاب ) تعتبرها لعبة ؟ .. ما بيننا .. كان لعبة ؟ !

هو : ( مستدركا بسرعة ) من باب المداعبة .. ليس أكثر ( يتنهد ) بالعكس .. أنا معتز جدا بالأيام التي كانت بيننا . انها بمثابة الرصيد .. رصيد الماضي .. رصيد طيب .. لا يصح أن ينفد بسرعة .

هي : الماضي ؟ ! لماذا تدخل علاقتنا في حكم الماضي ؟ ! هل لأنى سأتزوج ، تنتهى علاقتنا .. صداقتنا ؟ ! .. نحن تحدثنا كثيرا في هذا الموضوع .

هو : ( مؤكدا بحركة من رأسه ) لم أقل : انها ستنتهى . انما بالتاكيد ستتحدد أكثر .. ولنتكلم بواقعية أكثر .. كنا نعرف أن هذا اليوم قادم . وأنا فرحان جدا من أجلك . انك ستتزوجين انسانا تحبينه . غير أن هذا لا يمنع مما أقوله .

هي : ما هو ؟

هو : مهما كان حبيبك . فهو قبل كل شيء رجل . رجل مصرى وفى الغالب حمش ودماؤه شرقية حارة . من النوع الذى يغلى بسرعة ( يتصنع الخوف ) أحسن لى أن ألزم حدودى ( يضحكان ) .. والا ..

هي : ( نافية بثقة ) أبدا .. حازم ليس من هذا النوع . متحرر جدا فى أفكاره .. من أول يوم ، وهو محترم لصداقاتى وارتباطاتى .

هو : ( يضحك فجأة كأنما حبكته النكتة ) من أول يوم فى الحب . خللى بالك . وليس من أول يوم فى الزواج ..

هي : لست أفهم ..

**هو :** فرق كبير بين اليومين . ( يضحك مرة أخرى ) اسمعى .  
سأعطيك بعض أسرارى . من أول يوم فى الحب تبدو  
نحن الرجال متحررين جدا ، متفتحين جدا . واسمعى  
الصدور جدا . . فى شكل فرسان الحرية ، الداعين  
لانطلاق المرأة . أما من أول يوم تدخل فيه بيتى : فقد  
أصبحت فى حيازتى بوضع اليد . أصبحت زوجتى . .  
( تى ) . . تعرفين معنى ( تى ) هذه . . فيها ضمير الملكية ،  
انها تصبح ملكى أنا وحدى . لا شريك لى فيها . ( يبسط  
كفيه بحركة تراجيدية ساخرة ) وهكذا ينتهى عهد التحرر  
الفكرى بالنسبة للمرأة مع أول يوم فى الزواج .

**هى :** ( معترضة بشدة ) لا . . ليس هكذا بشكل مطلق .  
ما معنى ( لا شريك للرجل فى المرأة ) ؟ من أى ناحية ؟ هى  
ناحية واحدة فقط . أصبح ملك زوجى . أنا كأثنى له  
وحده . أما بقيسة ما امتلك ، فهو ملكى أنا . لا شريك  
لأحد لى فيه . . اتصرف فيه باختيارى ، بأحاسيسى  
ومشاعرى .

**هو :** لم يدخل الرجل عندنا بغداد ، هذا العصر الذهبى . .  
مازال الرجل منا يحاول أن يوسع من رقعة ملكيته . .  
ويزيد من عدد أتباعه :

بقايا العصر العبودى ، والاقطاعى والرأسمالى . . الذى  
ساد العالم كله .

**هى :** ( تهز كفها بثقة ) من يخضع ، يستحق العبودية .

**هو :** موافق بشدة . هذا هو المبدأ ( يضحك ) معركة . الحياة  
كلها معركة . حتى الزواج . لكنه معركة ممتعة  
ومثيرة : الى أى حد يستطيع الواحد منهما أن يوقف

الآخر عند حده .. أو .. الى اى مدى يجب أن يتحررا من  
بعضهما .. رغم الارتباط الأبدى . هذا هو امتحان الحب  
الحقيقى .

هى : ( ضاحكة ) أنت هكذا تخيفنى من الزواج . كنت فى اول  
الأمر تشجعنى .

هو : ( مسارعا مثبتا عينيه فى عينيهما بود ) اسمعى . لو أن لى  
كلمة واحدة أقولها لك ، بمناسبة زواجك . فهى :  
« العطاء » .. رغم كل شىء أعط .. أعطه بكل ما تملكين  
من قوة .. وصدق .. وشباب . ودماء . لا تبخلى  
عليه بلحظة صدق فى مشاعرك . لا تقتصدى فى أعطائه  
كل ما يمكن أن يسعده .. ما دمت قد اخترته من بين كل  
الملايين من البشر ، هببه كل ما تقدرين عليه ،  
بالحب الصافى يزدهر الانسان ويزهر ويطرعرع . بالحب  
يخضر عوده .. لا تخافى أبدا من العطاء .. الكرم فى  
الحب ليس مهانة ، أنا واثق انه سيبادلك العطاء .  
سيحس من خلالك بجمال العطاء . وسيعطيك لكى يضمن  
استمرار الأخذ منك . العطاء هو أول درس فى مدرسة  
الحب وأصعب درس فى نفس الوقت .

هى : ( تنهد وتسرح ) ربنا يوفقنا .

هو : لابد سيوفقك . أنا واثق منك . وستنجحين بإرادتك .  
على فكرة . أنا سعيد بك . وفخور أيضا .

هى : اخجلتم تواضعنا .

هو : ( بجدية ) أنا أقول الحقيقة . لو كل بنات جيلك هكذا  
مثلك . بتفتحك . وصفائك ووعيك . تصبح الحياة فى  
بلادنا أكثر اشراقا .. وبهجة .. و ..

هى : وانت . لو ان كل الرجال . كل الشباب مثلك . فى نيلك  
ونظافة مشاعرك . انا أيضا فخورة بك ..

هو : ليس الى حد الفخر .

هى : وأكثر .. سبع سنوات . سنة بعد سنة . يوما بعد  
يوم . كانت ثقتى بالرجال من خلالك تزداد ، وايمانى  
بالحب يتعمق . ليس بالرجال وبالحب فقط . بالحياة  
كلها .

هو : ( مغمفما مع نفسه ) الحمد لله .

هى : انا ما بدأت اتصال مع الحياة الا من يوم أن عرفتك ..  
من يوم أن رددت على أول رسالة بعثت اليك بها . انا  
فخورة بك فعلا .. وبصداقتنا .

هو : آه . ربما لا تعرفين كم كلفنى هذا . انى أبقيت على  
التفاحة نضارتها وبكارتها من أجل أول أكل شرعى لها .  
لزوجك . كثيرا ما كانت الأصابع تتحرك منى لتمسك  
بالتفاحة وأقضم فيها .. أكلها . أقرقشها .. واستمتع  
بها . لكنى كنت أجمد الحركة فى عروقى . لا بد أن ننجح  
فى التحدى وتستمر الصداقة . المثل العظيم . أنا سعيد  
لانى انتصرت على نفسى . سعيد لانى أقدمك هدية مصنونة  
لزوجك المحترم ( يضحك ) يجب أن يبرك ويؤمن انه حقا  
محترم . بشهادتى . ( ينهض من جلسته ليصلب عوده ،  
ويواصل لهجته الضاحكة ) ممتع جدا بالنسبة للرجل  
المصرى ، بل ولكل رجل فى العالم أن يكون واثقا انه الرجل  
الأول . أنت مريم العذراء قبل أن يحصل الحمل الالهى .  
( يضحكان )

( يدخل أحد زملائه .. يلحظ جو الانسجام . يخرج فى



الحال تاركاً له الجو ، يخرج بشكل كاريكاتيرى ضاحك ،  
ويغمز له بعينه ) .

هو : ( يعاود الجلوس ) مبروك . عليك وعليه .

هي : الله يبارك فيك . ومبروك عليك أنت أيضاً .

هو : ( مؤمناً برأسه بحماس ) ومبروك على أيضاً . ( تتسع  
ابتسامته ) اننى اضحك مع نفسى كلما تصورتك جالسة  
فى الكوشة ، بطرحة العروسة التل البيضاء الهفافة ،  
والتاج على جبينك ، والزغاريد من حولك .

هي : وتضحك لماذا ؟ !

هو : اضحك بسعادة . وأنا أقارن منظرِكَ هذا ، بمنظرِكَ أول  
يوم رأيتكَ فيه . من سنوات . كتكوتة . الآن . أصبحت  
عروسة ، ناضجة . وسأحضر عرسك . سأمتلىء فى هذه  
الليلة بالفرح ، وسأنسى نفسى وسأندفع ، وأقبلك من  
جبينك فوق التاج . هكذا امام الجميع .. بحماقة .  
وامام زوجك .

هي : وماذا فى هذا . لن يحدث أى شىء . قبله بريئة .

هو : رائع . دفاع عظيم . براءة . هذا هو حكمى أيضاً على  
حماقتى . أما « هو » فلا أعرف ماذا سيكون حكمه .

هي : ( مؤكدة ) براءة أيضاً . أنا واثقة . انه سيعجبك . لا بد  
ستتعارفان يوماً .. « حازم » انسان معقول جداً . وثابت  
وجاد . نحن اتفقنا على شىء أساسى . أن يكون كل  
منا واضحاً للآخر . الى أقصى حدود الوضوح . ألا يوجد  
موضوع فى الدنيا نخاف أو نتردد فى أن نتفاهم حوله .  
ونتكشف فيه .

هو : ( يزفر بابتسامة ) جيل عظيم . انبتت الشجرة . وهذا هو ما يجدد في نفسى الأمل . كرجل سياسى قديم . لم يعد له دور . عفى عليه الزمن ( يهز رأسه بشرود ) فيكم العزاء . الدور أصبح لكم . اياك أن تتركى السياسة .

هى : تتكلم كرجل عجوز ..

هو : أنا عجوز بالفعل . وهذا هو الدليل ( يشير على الشعر الأبيض فى رأسه ) .

هى : ( مسرعة ) لا . لا . الشيب ليس هنا . الشيب هنا .. ( تشير على قلبها ) واذن فانت شاب ( وضاحكة ) انت الشباب ذاته .

هو : ( متجاوبا ) الله الله مدهش . مزيد من التشجيع أرجوك .

هى : أبدا . أنا أقول الحقيقة . أنا أدركت من أين ينبع شباب الانسان الحقيقى ، قوته الحقيقية ، من عينيه ( تنظر فى عينيه ) وأنت قوتك .. وشبابك .. فى عينيك ..

هو : ( بابتسامة ساخرة ) اذن فهو شباب متعب . هاتان العينان المرهقتان . أحيانا تتعبان الى حد أن تفيم أمامهما الرؤى .

هى : وأحيانا يطل منهما البريق ( تضحك ) وعلى كل حال فهذه رجمة بنا . البريق المستمر سيكون له ضحايا كثيرة .. حاسب من فضلك .

( يضحكان . فترة صمت . تلتقى عيناهما ، تبسم وتخفض عينها فى حياء ) .

هو : ( باسقاط ذراعيه بشكل تمثيلى مرح ) اذهبى . فأنت مباركة .

هي : ( بنفس الشكل التمثيلي ) لا تذهب ، فانت صديقي  
العزيز الأبدى .

هو : أشكره ..

( ضحكة خفيفة . ثم صمت مفاجيء . يشرح هو . تتململ .  
تنظر في ساعة يدها . تضع يدها على حقيبتها ) .

هي : لا أريد أن أعطلك أكثر من هذا ..

هو : لم تعطيني عن أى شيء .. الا اذا كنت أنت ..

هي : أبدا . قلت لهم في البيت انى ساكون هنا .. وسأعود لهم  
على الغداء .

هو : عظيم . عظيم . ( يعاوده الشرود . شيء ما يشغل باله .  
ينهض واقفا مرة أخرى ) هناك موضوع أريد أن أتحدث  
فيه معك .. لأبد هذه المرة .. ( تنظر اليه بانتباه  
وفضول ) لا أظن انى سأراك بعد هذه المرة ، قبل الزواج .

هي : نتركها للظروف . وبيننا التليفون .

هو : اذن آن الأوان . لم يعد من الممكن تأجيل الكلام فيه .

هي : ( وقد اشتد فضولها ) أى موضوع ؟

( يفتح درج مكتبه ويخرج مجموعة خطابات داخل مظروف  
كبير منتفخ ويضعه أمامها على المكتب ) .

هو : رسائلك لى .. !

هي : ( بدهشة ) مالها .

هو : ألم تفكرى فيها ؟ !

هي : فكرت طبعاً .

هو : وانتهيت الى ؟ !

هي : الى لا شيء .. كل شيء سيظل في مكانه ( بجدية ) تريد أنت أن تسترد رسائلك ؟

هو : ( مرتبكا ) أنا .. اطلاقا .. انما أفكر .. من أجلك أنت .. بالنسبة لرسائلتي التي عندك . أخاف عليك منها .

هي : تخاف على من ماذا ؟ !

هو : هل ستعرضينها عليه ؟

هي : وماذا لو قرأها . ليس فيها ما يشين أو يسيء . ومع هذا ، لا أريد أن أفتح معه موضوعا كهذا .. في هذه الأيام بالذات .. لا أريد ومضة شعاع تحجب بيني وبينه .. لا دامى على الإطلاق الآن هذه الأيام .. ولكن ، مع الأيام ، قد تآلى اللحظة التي أجعله يقرأها في هدوء .. وبلا أنفعال .

هو : ( ضاحكا ) حين يكون الحب قد برد .. أقصد هذا ؟ !

هي : بالعكس .. حين يكون الحب قد تدعم .

هو : رائعة .. أنا واثق في قدرتك على وزن الأمور .

هي : هي أوراق وسط أوراق .. أوراقى كلها سأخذها معى في بيتى الجديد .. انما لن أخفيها ولكنى أيضا لن أظهرها .. سأترك كل شيء يمضى طبيعيا .. ثم .. مما أنا خائفة ؟ رسائلك مشرفة !

هو : ( ضاحكا ) أخشى ألا تكون كلها . قد يكون في بعضها حماقات ( يتحسس فجأة في الكلام ) قبل أن تدخل بوقت بسيط ، كنت ألقب في خطاباتك بشكل سريع .. قلت في



نفسى ربما ( نسبة ١٪ ) تطلبها منك يا ولد بمناسبة  
زواجها فلتتذكر ماذا كانت تكتبه لك .

هى : ( بتشوق ولهفة ) ماذا كنت اكتب ؟

هو : أشياء كثيرة . جميلة . آخر رسالة وقفت عندها ، كنت  
تكلمينى فيها عن حبك للمشى فى الشوارع بالليل ..  
وحيدة . قلت شجاعة . ورسالة أخرى تصفين لى فيها  
حياتك وسط منظمات الشباب . فى المعسكر الصيفى .  
وأخرى تقولين فيها رأيك فى مسرحية شاهدها .. حلاق  
بغداد على ما اذكر .. كان من الممكن أن تصبحى ناقدة  
فنية خطيرة .

هى : ( شبه صائحة بفرح ) ياه .. تصور .. نسيت فيما كنت  
اكتب لك .. كنت اكتب فى كل شيء .. ثمة طاقة غريبة  
كانت تدفعنى .. ما أجمل أن نتذكر .

هو : هذه هى عظمة الكتابة .. تخليد اللحظة .. تثبيتها ضد  
الفناء والنسيان .. لو قرأت انت الآن بعض هذه  
الرسائل .. ستشعرين بلحظات ممتعة وفريدة ..

هى : بالتأكيد .. بالتأكيد ..

هو : الآن أحاول أن أتذكر .. ما الذى كنت أنا اكتبه لك ..  
( وبلهجة من برق فى ذهنه خاطر جميل ) جاءتنى فكرة ..  
ما رأيك لو تبادلنا هذه الرسائل .. مؤقتا .. تعطينى  
رسائلى لفترة محدودة .. اقرأها .. أعيشها .. كيف  
كنت أفكر منذ سبع سنوات .. وأنت أيضا تأخذين  
رسائلك هذه ، تقرأينها فى ليلة أو ليلتين ، قبل الزواج  
طبعا ، ثم تردينها لى .. وكأن شيئا لم يكن .

هلى : موافقة ..

هو : وانا صاحب الاقتراح ( يقرب رسائلها منها ) تفضلى ..

هى : ( تهز رأسها بالنفى ) لا .. لن آخذها .. ان كنت انت تريد رسائلك لتقرأها فسأحضرها لك .. أما انا ، فلا .. أنا يسعدنى أن يكون معك دائما شيء منى .. أعد رسائلى الى الدرج كما كانت ، لو سمحت .

هو : ( يعيد الخطابات الى الدرج ) وانا أيضا لا أريد رسائلى . لا أحب أن ندخل الآن منطقة ذكريات .. أجل .. ليس هذا وقت بعث الماضى . أنت تبين حياة جديدة .. قفى بقدمين ثابتتين .. كونى .. انت وهو .. مثل عمودى الهيكل .. واحملا السقف معا .. ولكن لا تأكلا من رغيف واحد .. كل منكما له رغيفه الذى يأكل منه .. اتذكرين .. جبران العزيز ؟

هى : لا أنسى . أعيش به . سأأخذه معى ضمن أوراقى الى البيت الجديد .

هو : أما انا .. ( يشرد بعينه وينظر فى السقف ) فمشروعى اليوم ركوب طائرة والتنفس من على متن الفضاء . ورؤية امنا الأرض .. من فوق .. أنا ذاهب هذا الشهر الى بغداد .. مدينة السندباد . سأبدأ من الآن فى رحلة حول العالم لو أمكن .

هى : مستقبل عظيم وأعمال أعظم وأعظم . ( تنهض واقفة وتمسك بحقيبتها ) .

هو : ( يتناول كفها ) شكرا .. كنت فتاة عظيمة .. وستكونين سيدة أعظم ..

هي : ( ضاحكة وسعيدة ) ياه .. هذه الثقة أنا خائفة منها .

هو : لست خائفا عليك .. أنا واثق منك .. ( يهز يدها )  
وحافظي على صحتك .

هي : ( تضحك ) الصحة خلاص .. عجزنا .. راحت علينا .

هو : لاتزال التفاحة ، التفاحة الالهية ، كما هي .. مبروك على  
حازم طعمها . ومبروك على انا منظرها ( يضحكان )  
( تنظر في ساعة يدها ) .

هي : جاء موعد الغداء .. مع اني لست جائعة .. لكنهم في  
انتظارى .

( يهز يدها مرة أخرى ) مع السلامة - يوصلها الى الباب .  
يرقبها وهي تمضي . يعود بوجه باسم ، وخطوات هادئة .  
يقف بجوار المكتب في صمت وسكون . يخرج حزمة  
الرسائل من الدرج .. يضعها في كفه .. يتأملها ..  
يبتسم ثم يعيدها الى الدرج . ويقفل عليها بالمفتاح .  
يخبط فجأة على المكتب ، ويصيح بمرح ممزوج بأسى ) .

هو : يا أرض السندباد . يا أرض السندباد .

( لحظة صمت ثقيلة ) .

وداعا تفاحتي الالهية ..

وداعا .. تفاحتي الالهية ..

( ويعاود الجلوس الى مكتبه صامتا ) .

« ١٩٦٥ »

## كوميديا في أوتوبيس

رغم ان حكايتنا هذه بدأت من أولها مليئة بالاثارة والمفاجآت  
الا ان أحدا من الواقفين أو الجالسين بالأوتوبيس ، لم يخطر بباله  
على الاطلاق ، أن الأمر سيتطور ويتصاعد الى هذا الحد  
الصارخ في الغرابة ، حين فوجئوا بالرجل . رجل الفضيلة  
يخلع ملابسه قطعة بعد قطعة ، متحديا كل من في الأتوبيس ،  
ثم يصيح .. متحديا الجميع :

— أنا كمان حر ..

ويمضي في خلع ملابسه قطعة بعد قطعة ، عملية « ستربتيز »  
مذهلة أمام خلطة هائلة من البشر المصريين ، وعلى الصباح وهم  
لا يزالون يقولون : يا فتاح يا عليم ؟  
والحكاية بدأت هكذا ببساطة .

في إحدى المحطات الرئيسية .. كانت قد صعدت فتاة :  
كيف يمكن وصفها .. وبسرعة ؟

هل تعرفون شمس .. البارودي ؟ من منا لا يعرف أميرتنا



العربية السابقة ، ذات الشعر المنسدل على الجانبين ، والمفروق من الوسط ، والساقين الرائعتين ، وما فوق الساقين - وهذا هو بيت القصيد - أروع ، فالفستان ميكروجيب .. يكشف عن عظمة الصانع المبدع لحظة .. وعن همس الشيطان لحظة أخرى ..

الفارق بين فتاتنا والأميرة ان أميرتنا تخطر عادة في عربة صالون ، أما الفتاة فمن راكبات الأتوبيس ، وأميرتنا تحمل في يدها حقيبة رقيقة ودقيقة ومدندشة ، أما فتاة الأتوبيس فحقيبتها من ذلك النوع العملى الكبير الحجم ، والذي يعلق الى الكتف بما يوحى بأنها موظفة عصرية نشطة وغالبا في إحدى الهيئات أو الشركات المفتوحة بحكم نوع عملها على بلاد العالم .

وجه الشبه الأكبر اذن هو في « الميكروجيب » .. انما من المحال ان يقال ان فتاة الأتوبيس فقيرة الى الحد الذى رأت معه أن توفر ثمن ربع متر من قماش الفستان ، تشتري به ما هو أهم ، فلا أهم - في رأى رجل الفضيلة - من ستر تلك المنطقة التى تعودت حواء ، أو عودناها على سترها منذ آلاف السنين .

فكيف يحدث هذا .. وفي أتوبيس ؟ !

كان حظ الفتاة حسنا اذ وهى تشق طريقها وسط الزحام ، عثرت على مقعد يخلو ، فأسرعت بخفة اليه وجلست . جلست في سعادة ، انها انتصرت .. فلتت من جحيم الزحام . ستقطع الطريق الطويل جالسة مستريحة ، لا صلة لها بهذا العالم .. فلتستريح أكثر ، ولتسترخ في جلستها ، وتتسلى برؤية الشارع ، والأفشيات ، والواجهات حتى تصل في هدوء ! وحين استرخت بالفعل ممددة ساقها بقدر ما تسمح به المسافة أمامها ، رأى الأندى الواقف بجوارها حرف الفستان يتراجع

ويصعد أكثر مما هو صاعد ، كاشفا عن مساحة أكبر ،  
وأسرعت رغما عنه ، أنفاسه : من فرط العرى ، أم من فرط  
الجمال ؟ ! .. من هول الحرام ، أم من عظمة وسحر الحلال ؟؟  
واختلس نظرة من حوله ، فرأى العيون وأقربها عيون ذلك الشاب  
النحيل الواقف بجواره تكاد تخرج من محاجرها لتنقض على  
اللحم العارى المشرب بورد الشباب وعلى الصباح ، وكأنما هو  
وجبة افطار شهية والفتاة غير شاعرة بأى شيء !

بشعور حار ، كأنما اللحم العارى هو لحمه ، ويجب أن  
يستره فوراً ، أخرج منديلًا من جيبه وفرده ثم بحركة سريعة  
خفيفة انحنى وغطى به المساحة العارية ، ثم عاد الى وقفته في  
هدوء ، كأنما لم يفعل شيئاً ، أو انه فعل ما لا بد أن يفعل !

غير ان الفتاة كانت قد انتبهت منتفضه على الحركة  
وباحساس من أنها قد اهينت ، التقطت المنديل بأطراف أصابعها ،  
وبغضب رهيب ألقت بالمنديل من النافذة الى الشارع ، ثم لم  
تكلف نفسها حتى بالنظر لتعرف من يكون هذا الطفيلى السمج !

أحس الرجل وكأنما تلقى صفة هائلة وبطريقة غير  
مباشرة ، تدفقت الدماء في عروقه ، ورأى العيون التى رأت  
الحادث تنظر اليه مشدوهة ، خاصة ذلك الشاب النحيل  
ذو النظارة الطبية ، والذى راح يرمقه قائلاً بعينيه اللامعتين  
الخبثيتين : هيه .. يا حامى حمى الحرمات ، ماذا أنت فاعل ،  
بعد أن قدفت بمنديلك الى الشارع ؟ ! الأفضل لك أن تبلع  
الاهانة وتحول نظرك عن المنظر المثير وتريح نفسك ، أو تنسحب  
وتنزل فوراً من الأتوبيس ، وتدع الملك للمالك !!

غير أن المفاجأة الثانية كانت تحدث ، حين فوجئ الشاب  
ومن حوله بالرجل يخلع جاكته ، ثم يفردها ، ثم - مرة

أخرى - ينحني ويفطى بها المساحة العارية ، ويفطى الركبتين أيضا .

احمر وجه الفتاة . لكنها بجهد هائل أمسكت أعصابها ، قبضت على الجاكته ، ثم - ويعنف بالغ ، ألقت بها على أرض الأتوبيس ، وواصلت النظر من النافذة ، كأنما لم يحدث شيء على الإطلاق .

ارتج كيان الرجل . انحنى بسرعة على جاكته ليلتقطها من على الأرض وينفض عنها التراب ، وفي نفس الوقت خرقت أذنه ضحكة مقهقهة ساخرة ، ضحكة خيل إليه أن صاحبها يكاد يسقط من طوله من فرط القهقهة . . هو جاره الشاب ذو النظارة الطبية والذي كان ينظر الى ما يحدث على أنه أعظم نكته ، وأن شيئا كهذا لا يحدث الا في بلد مثل بلدنا ، بلد العجائب والمتناقضات .

صرخ فيه الرجل وهو ينفض التراب عن جاكته :

- بتضحك على ايه . . ده بدل ما تقف معاى وتقول لها تستر نفسها .

انتقل الشاب فورا من الضحك الى الهجوم ، وقد بدا من عينيه انه سيتحول الى خصم خطير .

- وأنا أقول لها ليه ؟ ! بصفتى ايه أقول لها ؟ ! دى حرية شخصية .

- حرية شخصية ؟ !

- طبعا . . مزاجها يا اخى . . ثم اذا كان ده تابعك ، بص  
الناحية الثانية !

.. وحضرتك تاخذ حريتك في البص ؟ ! يا ناس حرام ..  
كده على جهنم .. جهنم الحمرا .

وجه الفتاة كان يرتعش ، لكنها كانت مصرة على تجاهل كل ما يحدث ناظرة عبر النافذة .. بترفع ، لكن أذنيها في الحقيقة كانت مع المناقشة التي انفجرت حول « الحرية الشخصية » وارتباطها بالمجتمع وبالدنيا وبالأخرة وشظية من هنا وشظية من هناك ، حتى قارب الانفجار ذروته ، واذا رأت الرأي القائل بوجوب احترام حرية الانسان الشخصية ينتصر ، بقيادة الشاب النحيل ذي النظارة الطبية ، ارتسم على وجهها نوع من الرضا ، غير أن انفجارا آخر لم يلبث أن حدث ، حين فوجئت ، وفوجيء الجميع بالرجل يصيح غاضبا :

.. كده ! ؟ طيب .. وأنا كمان حر .

وراح وسط ذهول الواقفين والجالسين ، يخلع بنطلونه ، وفي ثوان ، كان قد خلعه ، ووضعوه هو الآخر مع الجاكته على ذراعه .

.. مش حرية ؟ ! أنا كمان حر .

وبدا كأنما يستعرض ساقيه العاريتين الضخمتين المشعرتين ولباسه الفضفاض المهرول والواصل قرب ركبتيه .

بين عالم الضحك وعالم الجنون شعرة ! ورأى الشاب ذو النظارة هذا الذي يحدث ، واذا بالدهشة التي ألجمته وألجمت الجميع للحظة تتحول فجأة الى ضحكة ، ضحكة جماعية كبرى ، فالنكتة في رأيه بلغت ذروتها .. وراح وهو يتأمل منظر الرجل يضحك ويضحك ، حتى كادت الدموع تطفر من عينيه .. وحدث هرج ومرج في الأتوبيس ، حتى أن السائق أوقف العربا وجاء هو الآخر يتفرج .. حتى الذين كانوا في الدرجة الثانية



تركوا أماكنهم ، وهرعوا يزاحمون رجالا ونساء وشبانا وبناتا . .  
يتفرجون على المنظر العجيب .

أما الفتاة ، فقد أحست أنها دخلت مصيدة ، عالما من  
المجانين . وتولاها اذ لمحت ساقى الرجل المشعرتين ولباسه  
المهرول ، وكرشه الكبير ، خوف داهم ، فانتفضت واقفة وزاحت  
تدفع كل من أمامها ، لتضل الى الباب ، وتغادر الأتوبيس . .

على غير العادة ، ولأول مرة ، لم يأبه أحد بالميكروجيب  
النسائي . تحولت الأنظار كلها الى الميكرو الرجالى ، حتى الذين  
كانوا جالسين فى الخلف تركوا مقاعدهم وهرعوا يزاحمون  
ليتفرجوا على المنظر المثير ، ورأى الشاب ذو النظارة الطبية  
أن الفاصل بين عالم الضحك وعالم الجنون مرهف ودقيق ، ومع  
ذلك ظل يضحك ويضحك مع الآخرين ، حتى اذا ما توقف  
الأتوبيس فى المحطة . . وتوقفت أيضا كل الضحكات وان  
استمرت التعليقات . . ورأى الرجل الفتاة تهبط ، ورأى فى  
نفس الوقت الشاب ذا النظارة الطبية يشق طريقه مسرعا الى  
الباب ، ليهبط هو الآخر . . خلفها ! هنا ، قفز الرجل عليه  
وأمسكه من جاكته .

— تعال هنا . . رايح فين !!

غلى الدم فى عروق الشاب . . ضرب الرجل على يده بقوة .

— أوع ايدك دى ( ثم للسائق بعصينة ) ماتمشيتش  
يا أوسطى من فضلك . دى محطتى . .

صاح الرجل فى السائق .

— أوع تصدقه . . ده كذاب . . توكل على الله يا أوسطى

( ثم للشباب وهو لا يزال ممسكا بجاكتسه بقوة ) لا يمكن

حاسيبك تنزل فى المحطة دى . آه تقلعنى بنطلونى ، وبعدين  
تنزل وراها . لا يمكن !

بين الكوميديا والمأساة خيط رفيع .. انفجر ذو النظارة  
رغما عنه ضاحكا مقهقها .

— أنا الى قلمتك بنطلونك ؟

— مش حضرتك بتاع الحرية الشخصية ، قاعد تغنى على  
البنت من الصبح .. لكن ده بعدك .

واستمات على جاكته .. فجأة . انفجر غيظ الشاب ،  
صوب لكمة الى فك الرجل ، فازداد هذا استماتة على الجاكته ،  
وهو يصرخ متوعدا . اندفع الركاب يحولون بينهما ، غير انهم  
فشلوا فى أن يجعلوا الرجل يتخلى عن جاكته الشاب خوفا  
عليها من أن تتمزق .

فجأة رأوا الأتوبيس يتحرك ، وفجأة رأوه أيضا ينحرف  
عن اتجاهه الطبيعى ، يأخذ طريقا آخر .

صاحوا جميعا عليه :

— رايح على فين يا أوسطى .. السكة كده غلط .

ولم يرد السائق ، بل ظل منطلقا .

بعد دقائق قليلة وأمام باب أقرب قسم للشرطة ، كان  
السائق والكمسارى وبعض الركاب يهبطون ، ومعهم أفندى  
ضخم وسمين ، بدون جاكته ولا بنطلون ، وفى وجهه كدمة  
زرقاء .. وشباب نحيل يرتدى نظارة طبية لكن زجاجها ملئ  
بالشروخ .

وانجهوا جميعا ، الى ضابط القسم للتحقيق .

وبدأت قمة جديدة في الكوميديا .

ام أنها تراجيديا من الأصل ، وانا اغالط ، لأجذبكم ..

واسليكم قليلا .. ثم بعد ذلك تفكرون على مهل ؟ !

« ١٩٧٦ »

## على المقعد الرخامى

فى ليلة من لىالى الصيف ، وكانت ليلة عيد ميلادى ،  
خرجت وحدى لأتمشى فى احدى الحدائق المنتشرة على كورنيش  
النيل . كان الهواء رطبا ومنعشا ، والناس فى الشوارع كثيرون ،  
لكنى كنت أحس وأنا أمشى بينهم أنى وحيد ..

هبطت من الكورنيش الى أرض الحديقة ، وعقدت ذراعى  
خلف ظهرى ورحت أتمشى فى ممراتها على مهل .. كانت الأنوار  
فيها متناثرة خافتة ، والعتمة تسود الفضاء .. لم يكن هناك  
الا نفر قليل جدا ، اثنان أو ثلاثة على الأكثر ، متناثرين متباعدين ،  
يبدون فى الضوء الخافت كالأشباح .. ساعة يظهرون وساعة  
يختفون ..

حتى الأشجار كانت صغيرة ونحيلة ، تتمايل فى العتمة  
بهدهوء غامض مع نسيم الليل ..

كانت الدنيا من حولى ساكنة صامتة .. فقط أصوات  
كالهمهمات تأتى من بعيد .. وخيل لى أننى فى عالم ، والمدينة  
كلها فى عالم آخر ، كان الصمت يطن فى أذنى ، وأحسست أن



هناك في الدنيا كائنات حية كثيرة غيرى تعيش مستوحدة في هذا الليل ، لا يحس بها أحد ، لكنها تشترك في تلك الجوقة الضخمة التى تصنع هذا الصوت الغامض المرهوب .. صوت الليل !!

لا بأس أن أحتفل ، وحدى بعيد ميلادى ..

وقد ظللت طول النهار أدير أسماء أصدقائى وصديقاتى فى رأسى ، وأبحث فيهم عن واحد أحتفل معه بعيد ميلادى ، لكنى لم أجد اسما واحدا يشير فى نفسى أى حماس .. حتى اسم « نبيلة » وقفت عنده هو الآخر كثيرا .. وتخيلت وجهها اللطيف المستطيل ، وعينيها الحلوتين الباسمتين ، برموشهما الطويلة ، لكنى لم البث أن هزرت رأسى بأسى .. لقد راحت من حياتى .. لماذا .. ؟ .. لم أشأ أن أرهق نفسى للمرة العشرين أو الثلاثين ، بالبحث عن الجواب ..

وهبت من سطح النهر نسمة شديدة ، فمال شبح شجرة قريبة منى .. أحسست برهبة ، وظللت وحدى ماشيا فى العتمة ، مطرقا رأسى .. !

ثقل على من جديد ، الاحساس بالوحدة .. لماذا أظل هكذا وحيدا .. وفى ليلة مثل هذه ، ليلة عيد ميلادى ؟ النهر نفسه ليس وحيدا .. البيوت تطل عليه من جانب ، والحدائق من جانب .. ومن بعيد .. بعيد جدا ، كوبرى تعبر من فوقه العربات ، ومن تحته تتدافع الأمواج .. ليس من موجة وحدها أبدا فى هذا النهر الكبير .. !

فجأة ، وجدتنى أتوقف ، وأحلق فى العتمة ..

لمحت جسما صغيرا مكوما وراقدا أمامى فى الممر ..  
تجمدت فى مكانى ، ورحت أمعن النظر ..  
أنه كلب ..

وجذته يضرب في الأرض بذيله ، ويمد رأسه برقبته  
نحوى ، وينظر لى . التقت عيناه بعينى . كانت عيناه تبرقان  
في الظلمة ..

خفت ..

في مرة من المرات ، سافرت الى قريتنا ، فوصلتها بالليل .  
وكان لابد لى أصل بيتى أن أقطع مسافة على الطريق الزراعى .  
وكننت أفرح بهذه المسافة القصيرة ، أحس فيها أننى انتقلت من  
المدينة الى الريف فأشم الهواء وأغسل به رئتى ونفسى أيضا ،  
واتأمل الحقول والشجر ، وأشم رائحة الزرع وأسمع الصمت  
الذى يلف الكون .

غير أنى فوجئت ليلتها بكاب يظهر فجأة أمامى في الطريق ..  
لم أهتم .. ظلمت ماشيا .. لكنى وجدته يقف في عرض الطريق ،  
ويمنعنى من المرور . ولما حملقت فيه ، تبينت الشر في عينيه .

كان ذئبا ..

عدت بظهرى الى الوراء خطوة ، فتقدم نحوى خطوة ..  
خطوت نحوه خطوة ، فتراجع خطوة .. نفس الخطوة ..

لم ينقذنى منه ليلتها الا القدر . جاءت عربة لورى . كانت  
كشافات أنوارها قوية ، وما أن أحس الذئب بالنور ، حتى قفز  
كالسهم واختفى وسط الحقول ، ورحلت أعدو أنا الآخر جريا ،  
حتى وصلت بيتى ..

تذكرت كل هذا في لحظة وأنا واقف في ممر الحديقة المظلم ،  
والكلب ينظر لى بعينه .. ويمد رأسه نحوى ، ويضرب في  
الأرض بذيله .

لماذا لا يكون ذئبا ؟ ! أو على الأقل كلبا مسعورا وشرسا ؟

لكنى سرعان ما راجعت نفسى « لا توجد ذئاب هنا » وحاولت  
أن اهدىء من روعى .. تابعت مسيرى فى اتجاه آخر ..

كنت لا ازال خائفا من لمعة عينيه وهو ينظر لى فى العتمة ،  
نظرت خلفى لأطمئن ، فوجدته يمشى خلفى .

أسرعت دقات قلبى .. ما الذى ينويه هذا الكلب ؟ لماذا  
لا يتركنى وحدى ؟

توقفت من جديد .. فتوقف هو الآخر .. وراح ينظر لى ..  
عاودتنى عيون الدئب .. تعالت دقات القلب .. لو تقدم  
منى خطوة واحدة فأصوب الى فكه ضربة مجنونة بمقدمة  
حدائى ..

استدرت .. وواصلت المسير ..  
بعد خطوتين نظرت خلفى .. وجدته لا يزال يمشى ورائى ..  
صرخت .. « امش »  
ومشى ..

تنفست الصعداء . لم يكن لدى أى استعداد لأن أعانى أى  
خوف من أى نوع فى مثل هذه الليلة .. مشيت .. وعلى مسافة  
بعيدة جلست على احد المقاعد الرخامية ..

رأيت الكلب فى العتمة يرقد .. ويمد رقبته على الأرض ..  
« ما الذى كان يريد منى هذا الكلب ؟ »

لم تمر دقيقة ، حتى لمحت من بعيد ، شابا يسير على نفس  
الممر ، مقبلا فى اتجاه الكلب .. ولم يكذ يقترب منه ، حتى  
رأيت الكلب ينهض من رقدته ، ويقف له وسط الطريق ، ولمحت  
ذيله يضرب فى الأرض ..

## توقف الشاب ..

ابتسمت .. سيحدث له بالضبط ما حدث لى .. لكنى  
فوجئت بالشاب يواصل سيره ، وحين اقترب من الكلب وجدته  
ينحنى عليه .

— هيه .. عايز ايه ..

وراح الكلب يهز له رأسه ويمسح ذيله فى الأرض ..

جلس الشاب على حافة العشب ، وخرجت من أفمه  
أصوات أشبه بالصغير .. رأيت الكلب يدخل فى صدره ،  
فراح يمسح على رأسه ويقول له بود :

— لكن انت جاي منين ورايح على فين .. ؟ .. هه .. ؟ !  
قاعد لوحذك ليه ؟

شب الكلب فجأة ، ووضع ساقيه الأماميتين على كتفيه .

— ها ها ها ...

ضحك الشاب ..

— انت باين عليك نبيه قوى .. طيب .. تعرف  
اللعبة دى ؟

ونهض واقفا ، فبدأ طويلا نجيلا ، وخصلة من شعره  
ملقاة على جبهته ، ثم أخرج من جيبه منديلا وراح يدليه نحو  
الكلب . قفز الكلب نحو المنديل . أسرع الشاب فأبعده .. وبدأت  
بينهما لعبة لطيفة ..

— تبقى جدع لو حصلته .. هه .. خد .. !

ومن جديد وثب الكلب نحو المنديل .. وانتابت الاثني  
نوبة نشاط مرحة ، وراحا يلعبان معا ويجريان ..



أحسست بفرحة دافقة تسرى في عروقي .. ها أنذا أتفرج  
في ليلة عيد ميلادي على لعبة مسلية وجميلة ، وتمنيت لو قمت  
واشتركت معهما في اللعبة ، لكنني ظللت جالسا في مقعدي  
الرخامي . خيل لي أنني لو ذهبت ، فسيراني الكلب وينظر لي  
نظرة عتاب .. وربما يتوقف عن اللعب أيضا ..

ظللت جالسا في مكاني على المقعد أتفرج .. تمنيت لو تظل  
اللعبة دائرة بين الكلب والشاب حتى الصباح ..

وسمعت دقات لنش بخاري في النهر يتجه الى بلاد مجهولة،  
التفت الى النهر . كان كل شيء فيه تلفه ظلمة الليل ..

نظرت من جديد ، فوجدت الشاب يمر بي بخطوات سريعة  
مرحة والكلب يشب خلفه ويتبعه .. ظللت اتبعهما بعيني ، الى  
أن غابا في العتمة ..

أما أنا فقد بقيت جالسا وحدي ..

على المقعد الرخامي ..

« ١٩٦٦ »

## جرح . . في وجه المدينة

للحظ الجميل - أو هكذا بدا أول الأمر - كان الجو دافئاً  
ومنعشاً وحبباً الى القلب . . أي قلب !

والسعادة بالطبع مسألة نسبية . غير أن موجة عاتية من  
البرد كانت قد اكتسحت المدينة بأكملها ، حتى لم يعد  
لأهلها - بما فيهم اللصوص والخراس - إلا أن يلتمسوا الدفء  
في أي مكان له سقف وجدران !

وقد طالت هذه الموجة أياما وأياما ، حتى خيل للبعض  
من دارسي التاريخ أن عصر الجليد قد عاد ! . . لكن القرن  
العشرين سرعان ما قال كلمته .

انتهت الموجة العاتية فجأة ذات صباح ، وحل محلها  
هواء دافئ أزرق بكر ، وحينذاك حدث على الفور رد الفعل  
الطبيعي . غشى المدينة نوع من الحماس ، واندفع الناس جميعا  
في رغبة عارمة تصل الى حد الشبق يفتحون النوافذ والأبواب  
ويخرجون ليروا الحياة ، ويتغنوا بها ، مهما كان يؤسهم  
وتعاستهم ، ولو للحظات !

غير أن « سوسن » لى تكن تعسة . العكس هو الصحيح ،  
وان كانت طبقة عميقة من الحزن بانت ترقد فى أعماقها ، فهى قد  
تصالحت معها على وجه ما . . باعتبار أن ذلك جزء من الماضى . .  
انتهت بيدها . . ولن يعود !

شاركت « سوسن » أهل المدينة فرحتهم بانتهاء الموجة ،  
حين فتحت الشرفة العالية ونظرت الى حركة الشارع وهتفت  
لنفسها : يا له من حظ جميل . اعتقد أن « صفاء » ستجىء  
فى موعدها . .

كلمتنى بالأمس فى التليفون . . أكدت الميعاد فى حالة انتهاء  
الموجة . . سيشجعها دفء الجو .

وربما كانت سوسن هى الوحيدة فى مدينتنا فى ذلك اليوم ،  
التي لم تكن متحمسة للخروج الى الحياة . . كانت تريد الحياة  
أن تدخل إليها ممثلة فى زيارة صفاء . . واحدة من صديقات  
العهد القديم . . بل هى الوحيدة من بينهن ، رغم ما اعترى هذه  
الصداقة من مرارة انتهت يوما بالقطيعة . . هذه الصداقة  
آن لها أن تعود !

أبدا لن تخاف على حياتها من صفاء !

منذ أن حصلت سوسن على الطلاق من محمود وتزوجت  
من كمال - وكان ذلك قبل موجة البرد العاتية بشهور - وهى  
مختبئة فى عش الحب معه . . ولا أحد من أهل المدينة ، حتى  
أصدق الأصدقاء ، يعرف مكان هذا العش . . ! وكان ذلك  
اتفاقهما وهى بين ذراعية . . يومها قال كمال :

- فلنولد يا سوسن من جديد . . وبأصدقاء جدد . .

قالت سوسن وهى تحقى قرعاً هب من أعماقها « لا . .  
ولا حتى أصدقاء . . لا قدامى ولا جدد . . أنا لا أريد من هذا

العالم غيرك ، وانت ؟ ! أتريد غيرى ؟ ! » .

— ما أريده .. قبله .

— قبله نسيان ماضينا .. كم تألنا يا حبيبى .. كم أكره كل يوم مر بى قبل أن أعرفك !!

وبهذه القبلة التى أشعلت الحريق فى جسديهما المشتاقين قالتحما لاطفائه ، اتفق الحبيبان على اعتزال الماضى . فأمام قسوة التجربة الخطيرة التى اجتازها كل منهما ( سوسن تركت زوجها وابنتها .. وكمال ترك زوجته وابنه ) أمام قسوة هذه التجربة التى تحديا فيها سلطة المجتمع وعواطف الأبوة والأمومة ، اندفعا نحو بعضيهما ملتحمين فى وحدة نفسية عارمة أفقدت احساس كل منهما بنفسه وأذابته فى الآخر . وقد زاد من التحامهما تلك الموجة العاتية من البرد ، حتى تحول عشهما المختبئ فى قلب المدينة الى ما يشبه الجب المسحور فى روايات ألف ليلة وليلة .

غير أنه فى لحظة من لحظات هذه الوحدة ، وهى غارقة فى حضنه تكاد تدخل بكل كيائها داخل كيانه :

— كمال ..

همهم لها مبتسما بعينييه :

— لقد كلمت « صفاء » فى التليفون .. وستزورنى بعد غد !

هب من رقدته ، واتسعت المسافة بين عينيها وعينييه .

— هذا اخلال بالاتفاق .. تريدان اثاره الماضى ؟ !

أسرعت دقات قلبها اقترعة .

— الماضى ؟ !



أى ماض يقصد ؟ .. هل عرف شيئاً ؟ ! .. لا ..  
لا اظن .. أنا أقرأ عينيه .. مستحيل .. لقد كان هو ختام  
هذا الماضى .. ختام التخطيط المر من أجل البحث عن حبيب ..  
هذا التخطيط الفظيع ، والذي يبدو لى الآن بشعاً ، لا يدري ،  
ولا يصح أن يدري عنه شيئاً ..

أهى لعنة الماضى تثور بهذا الاتفاق مع « صفاء » لتأتى  
وتزورها فى بيتها . فى مخبأ حبها ؟ ! .. لا .. ولا حتى صفاء ..  
لا بد أن يبقى الماضى ميتاً بكل أشباحه .. حتى الشبح الطيب  
« صفاء » .

— أنا آسفة يا كمال .. سوف ألقى الميعاد .. مازال  
أمامنا وقت !

ونهضت من جواره على السرير قاصدة التليفون .. غير  
أنها توقفت على صوته .

— كيف أخذتما هذا الميعاد ؟

— بالتليفون !! أنت تعرف صفاء . حدثتك عنها كثيراً . أنا  
أثق فيها وأحبها . قلت لنفسى ، لتكن صفاء صديقتى الوحيدة .  
أنت يا كمال تخرج الى عملك .. ترى الناس ، وتحدث معهم ،  
يحكون لك وتحكى لهم .. أما أنا ..

وكما لو أنها أدركت فجأة ، ذلك المعنى الخطير الذى يطل  
من كلماتها لأول مرة منذ أن تزوجا ، فاستدركت بسرعة .

— لا .. ولا حتى صفاء .. سألقى الميعاد الآن .

امتدت يدها الى التليفون ، غير أنه اعترض قائلاً :

— لا .. لا داعي .. فلتأت صفاء ، ما دامت هذه رغبتك .

وقبل رغبتك ، مدمت تشقين فيها ، أهلا وسهلا .. أنا لا أمانع  
أن تكون لك صديقة ! ..

حينذاك سطع وجهها بفرحة رآها كمال تلتهم في عينيها  
وكل خلجات وجهها ..

ـ الحقيقة أن هذا الموضوع مهم .. يجب أن نتحدث  
فيه ، ننتهى منه أيضا !

قالت وقد ماودها الفرع الخفى ، وبكل طاقتها حاولت أن  
تتحكم فيه :

ـ أى موضوع ؟

ـ خوفنا من أصدقاء الماضى بل ومن الماضى كله ! لقد  
وجدتني منذ أيام أفكر : أى ماض هذا الذى نخاف منه ؟ ..  
ماضيك مع زوجك .. وماضى مع زوجتى .. ما الذى يخيف فى  
هذا ؟ القصة انتشرت ولاكها الناس جميعا حتى ملوها ..  
ما الذىبقى حتى نخافه ؟

لا يا عزيزتى .. نحن أقوى من هذا الماضى ، بدليل أننا  
واجهناه وتجاوزناه .. ذبل الجرح يا عزيزتى ومات .. ماذابقى  
على موعد صفاء ( ونظر فى ساعة يده ) كلميها .. وأكدي عليها  
المجئ .. أما أنا فسأرتدى ملابسى وأخرج الى عملى .. وربما  
أعود قبل أن تنتهى من زيارتك ، وأقضى معكما بعضا من الوقت  
هيا .. كلميها !

وربت بكفه على خدها ، ثم مضى نشطا الى حجرته ليرتدى  
ملابسه .. أما سوسن ، فقد بقيت واقفة بجوار التليفون وقد  
امتلات روحها بخوف فظيع !!

كلمة واحدة تدور فى رأسها وتلف كاعصار هائج ..

« الماضى .. الماضى » كم ترتعب من نطقه لهذه الكلمة !!  
هو يقول : يجب أن نكون أقوى من الماضى ، أحقا هو  
قادر على هذا ؟ !

نُدت عن صدرها تنهدة حارة .. ساخرة .. مسكينة  
« لو أن الانسان منا يولد على السعد والهناء من أول يوم » !  
قلبي يحدثنى أن شيئا ما مروعا يمكن أن يحدث ! سوف ألقى  
زبارة صفاء .. صفاء هى الجانب الحلو النقى .. من الماضى ..  
سيثور الجانب الآخر .. من يدري !! بشكل ما قد يثور ..  
أمنية .. وفانى ، وكاميليا ، ومرفت .. وبقية الشلة . أخطرهن  
مرفت .. يكفى أن يعرف أنى كنت صديقة لمرفت ، لتبدأ  
أول طوبة فى بيتنا تنهار ! انها الآن تبحث عنى .. أنا واثقة انها  
تسأل الآن عن بيتى كل الناس !! .. ألم تكن صديقتى ؟ !

وغاص قلبها ، أحست به يهبط مع أنفاسها فى بئر عميقة .  
هذه الفضيحة التى طلقت مرفت على أثرها ، وقراها الناس  
بما فيهم كمال ! يومها أشار لها على الجريدة قائلاً وقد انقلبت  
سحنته « حادث فظيع . ايمكن أن تصل البشاعة الى هذا  
الحد بالانسان ؟ ! »

وهزت رأسها بشدة تطرد أشباحا تلاحقت فى رأسها !! كم  
كان حظها عاثرا .. المسكينة .. ضبطها زوجها متلبسة  
بخيانتة .. طلاق المسدس أخطأت قلبها ، واستقرت فى ذراعها .  
فضيحة بشمة . كان يمكن أن تحدث لى ، وأنا فى تخبطى فى  
البحث عن حبيب .. عن حبيبى !

وشهقت رغما عنها .

— الحمد لله .. الحمد لله .. الماضى يجب ألا يثور ..

ولا حتى الجانب النقي الحلو منه . ورفعت سماعة التليفون ،  
وطلبت صفاء .

— صفاء .. أنا آسفة جدا جدا يا صفاء .. ظرف ضروري  
وطاريء اضطرني ..

.....

— ماذا ؟ ! ( وقفز الرعب من عينيها وتلفتت حولها  
لتطمئن أن كمال لا يزال في حجرته ) مرفت ؟ ! في الطريق الى  
بيتى .. الآن ؟ ! مستحيل .. مستحيل يا صفاء . من أعطاه  
العنوان ؟ أنت الوحيدة في هذا العالم التى أعطيتها عنوانى ..  
وتهاوت يدها بسماعة التليفون وقاومت حتى لا تسقط من  
الدوار .. نعم .. لا بد أن تتماسك .. وبسرعة .. لم تسمع  
شيئا . لم يحدث أى شيء . لو لمحها الآن كمال بطرف عينه  
من بعيد ، لقرأ كل ما في نفسها دون أن تنطق بحرف .. إنه  
متخصص في قراءة عينيها وافكارها ، بداية الكارثة .

لو عرف طرفا من ماضيها قبل أن تلتقى به .. « آه ..  
يا طفلى النقية الندية » هذا هو نداءؤه الحبيب لها باستمرار ..  
« أنا فعلا نقية .. وندية . أنا لم يعلق بجسمى ولا بروحى شيء  
ممن عرفتهم قبلك ، من نوبة الهستيريا يستيقظ الانسان ،  
خفيفا ، نقيا ، ناسيا كل شيء ، كانت نوبات هستيريا وأصابتنى  
ذات يوم معك ، لكن بعدها كانت اليقظة الأبدية ، وعلى يدك ..  
لا .. سأقاتل بوحشية . ستستمر اليقظة .. أبدا لن تضيع منى  
يا كمال !

سمعت وقع أقدامه ، فبرقت عيناها بفكرة ، فكرة ذكرتها  
بأساليب تلك الحياة السرية والفوضوية التى كانت تحياها قبل أن  
تتعرف به ، انفلتت الى الحمام ، وقفلت على نفسها الباب ..



— سوسن .. أنا نازل يا حبيبتي .

ومن وراء باب الحمام ، وبكل حبها الذي تخاف عليه من الضياع .

— مع ألف سلامة يا حبيبي .

— كلمت صفاء ؟

بلا أبسط لجلجة ..

— نعم .. وفي الطريق الآن .

— جميل .. وربما أعود قبل أن تخرج .. سلام .

لم تخرج من الحمام ، الا بعد أن سمعته يقفل خلفه الباب . كانت أنفاسها تتدافع ، ودقات قلبها تتوالى .. حمدا لله أنه خرج ولم يرها .. ماذا بالضبط سيكون الموقف بينها وبين مرفت ! ؟ .. باختصار — يجب أن تقطع أمامها مثل هذه الزيارة مرة أخرى . انتهى الماضي . انتهت أيام الشيلة والهستيريا والجنون . لم يعد من شيء يجمعهما « اتركيني لحياتي يا مرفت .. أرجوك .. انسى أن لك صديقة اسمها سوسن . أنا لم .. أنا أقصد .. أنا حياتي بدأت ..

أما أنت ..

وانتفضت فجأة على صوت الجرس يملأ رأسها ويملأ البيت . اندفعت الدماء في عروقها . أنفاسها تحولت الى لهاث .. خطت الى الباب . لا يصح أن يراها أحد واقفة ببابها . أمسكت مزلاج الباب .. جذبت نفسا عميقا .. يجب أن تتمالك أعصابها .. من الممكن أن تصل الى ما تريد بالحسنى ، وان لم تصل ..

ومرة أخرى رن الجرس .

وفتحت ..

كانت مرفت تقف بالباب .

الماضي كله يقف بالباب !!

— أهلا يا مرفت

ومدت لها يدها بالسلام .

كل حرف من كلماتها ، وكل مليمتر من حركتها كانت بحساب . لا صد ولا ترحاب . غير أنها وجدت دموعها تتساقط منها بلا وعى ، وهى ترى مرفت تلقى بنفسها على صدرها . كل القديم بينهما فى لحظة واحدة ثار .

واشتبكا فى عناق .

— قلبت عليك المدينة ، سألت عنك أمينة ، وفافى ، وكاميليا ، والتي لم أسألها عنك ، وجدت عندها العنوان . صفاء !

— قالت لى الآن . بالتليفون . كنت ( وخطر لها خاطر تعلقت به ، ووجدت فيه — مؤقتا — بر الأمان ) كانت ستزورنى الآن ( ونظرت فى ساعتها ) غير أن ظرفا طارئا حدث .. ويجب ان أخرج الآن .. زوجى كمال فى انتظارى ..

« تعالى » وأشارت لها بالدخول .

قالت مرفت وهى تطوى مدخل الشقة الجميل بنظرة :

— حسن انى رأيتك .. يكفينى من هذه المرة اننى عرفت بيتك ، والأيام طويلة .

( وثأهدت ) أأعرفين . نيتك جميل . وهذه الفائزة . .  
آه . . من يوم أن عرفتك وانت تحبين الجمال . كمال لابد  
جميل . . سمعت أنه جميل !

وضحكت سوسن ضحكة متهافئة ولم تعرف على أى جملة  
فما قالته ترد ! الجملة التى عقلت بذهنها :

ـ يكفينى من هذه المرة أنى عرفت بيتك ، والأيام طويلة !  
معنى هذا أنها تعتبر صداقتهما مستمرة ! وهذا هو  
المستحيل . . فلتدخل فى صميم الموضوع .

ـ منذ متى خرجت من السجن يا مرفت ! ؟ . .

ـ أنا لم أسجن . كانت أياما على ذمة التحقيق ، وتنازل  
محمود عن دعواه . وحين خرجت طلقنى . العالم كربه . .  
سبىء . . لم يعد لى فى العالم الا أنت . . أنت التى تفهميننى  
جيذا يا سوسن !

ـ تشرين شايا . . أم . .

ـ لا . . ولا أى شىء . . يكفينى أنى رأيتك ! بالأمس كنت  
أفكر فى الانتحار ( وضحكت ضحكة مرهقة ) ولكنى قلت : فلاؤجل  
الانتحار حتى تنتهى موجة البرد الفظيعة . . وهذا الصباح  
خرجت الى الشارع ، فاذا بالجو دافىء ولطيف . . والشارع  
حتى الناس ، منظرهم فيه جميل . . ومرة أخرى وجدتنى أؤجل  
الانتحار ، وقلت لنفسى ( وضحكت ضحكتها المسكينة مرة أخرى )  
سأنتحر بعد أن أرى صديقتى سوسن وأهنتها . ثم نهضت واقفة  
فى عصبية ، وعيناها تنتقلان بين الفريجيدير الذى يتصدر  
الأنترية ، واللوحات التى تزين الجدران . . والستائر الحمراء  
الغامقة التى تعطى العين راحة وسلاما .

— يبدو أنني لن انتحر يا سوسن .. بيتك هذا جدد في  
نفسى الأمل .. ( وعاودت الجلوس ) أثت محظوظة .. فليزدك  
الله . كان من الممكن . وسكتت ! ..

رغم أن سوسن كانت تفهم ما تعنيه وسكتت عنه ؛ إلا أنها  
أرادت أن تستوثق من دخیلتها ..

— كان من الممكن ماذا .. ! ؟

— كان من الممكن أن يحدث لك ما حدث لى . ألم تكونى  
تفعلين ما فعلته ؟ !

الماضى يهب .. ها هى تتكلم بصراحة .. لا .. فلا أقفل  
الباب فى وجهها بشدة ومن الآن .  
وبنبرة جاسمة متزنة :

وما الذى كنت أفعله ؟

— يا سوسن .. لا داعى لتقلب الماضى . جميل منك أنك  
نسيت كل شىء . هذا فى مصلحتى كما هو فى مصلحتك .. بيتك  
الجميل الهادىء هذا لا يصح أن يدور فيه مثل هذا الكلام !  
وجالت بعينها مرة أخرى فى المكان .. وبدأ أنها استنامت  
للجو وللظلال ..

— بيتك هذا ، هو الذى ربما يمنعنى من الانتحار !

ارتج على سوسن . كان الخناق من حولها يضيق ، وأمام  
عينها صورة كمال ، لا تبارحها .. ماذا لو جاء الآن وراها ،  
وعرف أنها تصادقها .. صاحبة الفضيحة التى نشرتها الجرائد  
فى صدر صفحاتها فى أحد الأيام ! هه ، ماذا تعنى هذه  
الصداقة التى كانت معقودة بينهما .. قبل أن تعرفه ؟



— مرففت يا حبيبتي . أريد أن أقول لك شيئاً .. ولكن ..  
ولكنى لا أعرف .. كيف أقوله لك ؟

ونحمت مرفت للهجتها .. الصداقة ستعود ..

— وهل بيننا سر !! ؟ ..

ونفضت سوسن ودارت حول نفسها .

— لا أدري كيف .. أنت .. ربما لا تعرفين أن كمال  
قرأ حادثتك مع ..

— كل الناس قرأوها .. وأنا مفترضة أن كمال قرأها  
قبلك !

— اذن ماذا سيقول حين يراك معى هنا .. فى بيته ..  
ويعرف اننا كنا صديقتين ؟ !

— سيقول ماذا ؟

— قولى أنت ..

— لا .. قولها أنت . كونى صريحة يا سوسن . لا تريدنى  
أن أدخل بيتك مرة أخرى .. أليس كذلك ؟  
وطأطأت سوسن برأسها .

— أنت تعرفين مدى حبى لك يا مرفت . ولكن .. ها هو  
الوضع أمامك .. تصرفى كما تشائين !

على شفتى مرفت ارتسمت ابتسامة ساخرة متوحشة ،  
والتمع فى عينيها بريق رهيب ..

— حتى أنت يا سوسن .

— أنا لم أقل شيئاً !

— لا .. قلت كل شيء ! لقد فكرت في هذا وأنا في الطريق اليك .. كانت كل البيوت قد أقفلت أمامي .. قلت هذا هو البيت الوحيد الباقي .. اذهب الى سوسن .. سوسن هي التي تقدر ظروفى .. سوسن كان يمكن أن يحدث لها ما حدث لى ، لولا الحظ خدمها ( وضحكت فجأة ضحكة ساخرة مريرة ومخيفة ارتعبت لها أعماق سوسن ) ولكن .. ها هي المعلمة .. معلمتى فى الخيانة ، تطردنى من بيتها !

صدمت الكلمة أذن « سوسن » .. فتحفزت لى تلطمها بكلمة توقفها عند حدها ، غير أن منظر تحفزها أثار مرفت ، فاقتربت منها وفى عينيها بريق الجنون .

— أريد منك كلمة واحدة : نعم ، أو لا .. أنا .. قبل أن أعرفك . هل كنت قد خنت زوجى ؟ !

— ليس لى الآن شأن بهذا الكلام .. كل انسان مسئول عن نفسه .

فقهقتهت مرفت فى سخرية .. قهقهة عالية هستيرية .

— تهربين الآن بنفسك .. هه ؟ بعد أن خربت بيوتنا .. أنت التى حرضت كل من عرفت على هدم حياتها ، ولم تفلت منك غير صفاء ، ولهذا كنت تسخرين منها .. الآن تريدین صداقتها .. أنسيت موقفك منها والذى تبعناك جميعاً فيه « صفاء هذه لا تنفع فى شلتنا .. انها تحب زوجها .. العبيطة .. الآن هى صديقتك .. تعرف بيتك ونمرة تليفونك أما نحن .. أما أنا بعد .. فتحت لى الطريق .. بعد أن قضيت على تطردينى من بيتك .. هاهاهاهاهاه .. ولكن هنا أبعد هذا عن شاربك الذى

كنت انتفه لك بالجلالة وانت تختلسين المواعيد مع كل من كانوا  
قبل كمال .. المسكين المخدوع فيك ؟ ..

هنا انشق قلب سوسن عن صرخة وحشية بشعة : اخرجني  
يا حقيرة .. هذا البيت لو اقتربت منه فسأقطع رجلك ..  
اتسمعين .. أنا لست خائفة منك .. ولا من تهديدك .. كل  
ما عندك قوليه .. أنا لا أخاف .. لا أخاف .. ولا حتى من  
كمال . أتفهمين ..

واشتعلت عيناها بغضب الوحوش .

— قلت لك اخرجي .. اخرجي .. اخرجي ..



خرجت مرفت من هنا ، والتفتت سوسن خلفها ، وأنفاسها ،  
تلهث اثر حركة خيل اليها أنها سمعتها ، واذا بكمال ، واقف  
بالباب . باب الصالون .. بنفس ملابسه .. ! كيف حدث  
هذا ، كيف عاد ودخل دون أن تحس به .. لا بد نسي شيئا ،  
وعاد ليأخذه .. ليس هذا هو المهم ..

كان واقفا متخشبا كتمثال .. صفرة الموتى دبث فيه ..  
لا حركة ولا كلمة .. فقط ينظر في عينيها .. ومن نظراته ،  
وارتعاش فكيه .. أدركت أنه سمع كل شيء ..

انكشف السر ..

وتبارزت نظراتهما . صليل صممت عاصف يقترب ..  
عيناها تقولان ألف شيء .. أولها « يا خادعة » أبدا لست  
طفلتى النقية الندية » .

عيناها مع اللهاث المتابع المتصاعد بجنون من صدرها :  
هيا احسم موقفك .. قل ما تريد .

ونطق بوجه جامد صارم :

— أنا خارج ..

واشاح بنظراته عنها ، واتجه نحو الباب .

طاش عقلها . قفزت واعترضت طريقه .

— ابق هنا .. لا تتحرك .. العذاب البطيء محال !

ايضا لم يتكلم .. عيناه في عينيها تصعقان النور المرتعش  
في نظراتها .

صرخت .

— قبل أن تخرج ، طلقني .. ألم تعرف كل شيء !!

وارتسمت على ركن فمه ابتسامة وحش مطعون ..

— هكذا ببساطة ؟ اطلقك .. بعد هذه الخديعة الكبرى ؟

( وهز رأسه بسخرية ميتة ) استريحى قليلا .. وفكرى في  
نفسك .. ثم .. اطلقك .

وكوحش يهجم على وحش آخر :

— اسمع . لا أنت . ولا أى انسان آخر في هذا العالم ،

سأمكنه من تعذيبى ! اتفهم ؟ قدمى من الآن على قدمك ..

تنفصل .. يكفينى منذ أن تزوجتك .. لا .. بل منذ أن عرفتك

لم أنظر الى رجل واحد .

وبابتسامة ساخرة مريرة ..

— الخداع مرة أخرى ..

صرخت في وجهه :



— اخرس .. اياك ان تنطقها امامى .. وان شئت محاسبتى  
فمن يوم ان عرفتك !

— من يوم ان عرفتك وانت تخدعيني .. نعم .. لماذا  
لم تقولى لى شيئا عن ماضيك هذا ؟ هه ؟ لماذا لم تقولى لى  
ان زواجنا بدا بلعبة الخداع ؟

وصوبت عينيها فى عيتيه :

— تعتبر حبنا كان خداعا ؟ من كان فينا يخدع الآخر ؟ هه !

تكلم يا من تريد ان تأخذ دور الطاهر النقى .. ألم تكن  
تعرف انى اخون زوجى وأنا بين أحضانك ، وقبل أن يتم  
الطلاق ؟ هه .. ألم تكن خائنا أنت الآخر لزوجتك وانت بين  
أحضانى وقبل أن تطلقها .. !

ماذا تسمى كل هذا ؟ أنا الخائنة : وانت الشريف ..  
القديس .. !

انعقد لسانه ونحطت عيناه :

— ما فعلته معك قبل طلاقى لم يكن خيانة .. اليس كذلك ؟ !  
لكنها الحقيقة .. لقد بدأت حياتك معى بالخيانة . وكنت سعيدا  
بذلك .. لقد كنت اتخبط .. واوصلنى التخبط اليك .. القيت  
بشبكةك البارعة فاستسلمت لك ودون حب . نعم .. هى  
الحقيقة .. الأيام الأولى ، لم يكن بينى وبينك حب . لكنى كنت  
أقول لنفسى : ربما .

وحين تحققت المعجزة ، وحدث الحب — سواء اعترفت به  
الآن أم لم تعترف — اعتبرت أن المعجزة معجزتك .. انك الرجل  
الوحيد الذى انقذنى .. ( واقتربت منه أكثر وأكثر ) هل نسيت ؟  
ألم تكن تسهر مع زوجى ؟ ألم تأكل معه ، كما يقولون ؟ عيشا

وملحاً .. وويسكى أيضاً .. ومع هذا كنت تختلس النظرات  
منى وهو بجانبك .. كنت تضغط على يدي بشدة فى كل سلام  
وهو يقف معنا يودعك !

وبعد هذا .. أنا الخادعة ..

أنا الخادعة .. أيها القديس .. الشريف .. هيا ..  
طلقنى .. لقد حدث ما كنت أتصوره مستحيلاً .. لا مفر !!

كانت دماؤى قد هربت تماماً منه .. الدوار لف رأسه ..  
ولا جملة استطاع أن يجدها لينطق بها .. دخلت حياته بشكل  
كاسح ، وها هى تخرج من حياته كعاصفة هائجة .. وكلماتها  
كاللطمات ، تلطم بها نفسها قبل أن تلطمه ، كما لو أنها الانتفاضة  
التي تسبق الرقاد الأخير .

نعم .. لا مفر ..

الطلاق .. الهزيمة الكبرى .. زوجها .. زوجته ..  
الناس .. المدينة .. ولكن ..

أى خداع ؟

حدث هذا كله قبل أن أعرفها .

وبعد أن عرفتها .. ما يدرينى :

وصرخت : لن أحتمل أبداً صمتك معى لحظة .. هذا  
السكين الذى تدبحنى به وتذبح نفسك .. محال .. لم يعد  
أمامنا سوى الانفصال . انظر الى عينيك فى المرآة .. هذا  
الشك الذى بدأ يلعب ببريقهما سيصبح أبدياً .. هو الموت  
بالحياة .. وأنا لا أحتمل أبداً ، أبداً ..

وأجهشت بالبكاء .

أما كمال ، فقد انهار على نفسه . لم تحمله ساقاه .  
جلس على أقرب مقعد . لم يكن يستطيع .. الكلام ..  
ولا الحراك ..

وأغمض عينيه ..

نعم .. الطلاق ..

مهما يكن من شيء .. فهو الطلاق .

وأحس بدقات قلبه تضعف .. وانفاسه تتباطأ .. وفتح  
عينيه ورؤيته .. لكن ذلك لم يجد في شيء ..

.. - سوسن ..

ونظرت اليه من خلال الدموع .

- ارتدى ملابسك ..

وحين استدارت ، انفتح جرح في قلبه .. جرح سيظل  
طول العمر يبحث عن طبيب .

(( ١٩٥٩ ))

## ما نملكه نحن الفقراء

لى طريقتى الخاصة من أجل أن اكون ثريا .. واسع الثراء ..

طريقة تمكّننى من امتلاك أكبر قدر من ثروات هذا العالم وروائعه ومدهشاته !! .. وقد اكتشفت هذه الطريقة لنفسى بعد أن ثبت وبشكل قاطع ، أنى فاشل فى عالم المال والأسواق ، وأن جوادى دائما فى هذا السباق خاسر .. وقد أسر لى جوادى معزيا ومشجعا : لا عليك أيها الصديق .. ان كنت قد خسرت بى فى هذا المجال ، فمن الممكن أن أنطلق بك فى مجالات أخرى وتكسب . أجل . لا تحبس قدراتى فى مجال واحد .. وصحت فلسفته ..

.. فقد بدأت إنطلق واحلق ، شاعرا بأنى امتلك واحدا من جياذ الأساطير !! .. فى الصباح الباكر ننطلق الى الأطراف لأرى قرص الشمس يبرز بتؤدة وجلال من خلف الجبل ويفمر العالم وقلبى بأشعته الذهبية .. أهرع الى نهر النيل ، أجمل أنهار العالم واغترف من موجه وأنسامه ، فأحس بالحياة تدب فى الصدر بعد الموات !



أخذ حبيبتي خلفي وانطلق بها الى غابة « الأورمان »  
ونجلس على ضفة بحيرة صغيرة تموج بزهرة اللوتس .. زهرتنا  
المصرية الفاتنة العتيدة !

أنام في السادسة أو السابعة مساء ، واصحو في منتصف  
الليل بتوقيت القاهرة ، فاذا بالمدينة عالم آخر مختلف تماما عن  
عالم النهار .. فسيحة الشوارع .. مهددة للأعصاب ، تسمع  
فيها حتى الهمسات .. وأركان وشواطئ لموسيقى البرنامج  
الثاني والأحلام ، وتصيح حبيبتي بالنشوة ، لو كانت معي ؛  
ما أكثر ما في هذه الحياة من أشياء رائعة الجمال !

ثم ننشئ - ان كنا في آخر الشهر - نتناول سندويشات  
من الفلافل ، وبعد دقائق مع أنسام الليل تكون المعدة قد هضمتها ،  
وأضحك وأقول لها : ان من أعظم وأروع ممتلكات الإنسان ،  
أن يكون لديه معدة سليمة .

وقد علمني جوادى أيضا ، حقيقة هامة من حقائق الملكية :  
ليس شرطا لكى تكون المالك ان تكسب ممتلكاتك كلها فى بيتك  
أو فى خزانتك ، بل الأفضل والأجمل أن تكون موزعة على مساحات  
أوسع وأرحب من هذا العالم .

وقد كان من حظي أنا وحبيبتي أن سكنا فى أحد الأدوار  
العالية . ولذلك ، فى يوم أن استقبلتها فى « بيت العمر » وبعد أن  
طفنا معا بأشياءنا وممتلكاتنا الصغيرة ، أخذتها الى الشرفة ،  
وقلت لها وأنا أشير على قباب القلعة وجزء من قمة الجبل ،  
وسحابات مشعة وملتهبة بألوان الشفق : وهذه أيضا من  
ممتلكاتنا !

وقد انفعلت لحظتها حبيبتي ( ولحسن الحظ أنها هى

الأخرى رومانسية ) وقبلتني من خدي وقالت : وهذا الخد أيضا  
لى .. فقبلتها من قمها وقلت : وهاتان الشفتان ملكي ..

وامتزجنا ..

أجل يا جوادى العزيز .. ما أكثر ما يمكن أن يمتلك  
الإنسان فى هذه الدنيا !!

وقد علت ضحكاتنا السعيدة ذات ليلة ، حين فوجئنا  
بممتلكاتنا الجميلة تزداد واحدة ، كنا نجلس فى شرفتنا الصغيرة ..  
فى الظلمة نرى بالقلب ملامحنا ، حين فوجئنا بناقلة أمامنا -  
كانت دائما مقفولة - تفتح وتضاء .

ومن الوهلة الأولى أدركنا أن ساكنين جديدين قد استأجرا  
هذه الشقة فوق السطح ، وأنهما « عروسة وعريس » ابتهج  
قلباننا .. ها قد أصبح المنظر أمامنا يضم حياة جديدة . فالسطح  
الذى كان فارغا دبّت فيه الحياة ، بهجة اثنين يبدآن بالحب والفرح  
طريقهما فى الحياة .. كانت المسافة بين نافدتنا والسطح بعيدة  
لا تسمح بالتعارف ، فاكتفينا برؤية المنظر الجميل !

كان المشهد يزداد جمالا يوما بعد يوم ، فقد رأيناهما  
يزرعان حديقة على السطح ويبنيان تكسية خضراء ، وحين هل  
الربيع ، ماج السطح أمامنا بمختلف ألوان الورود والزهور !

قلت لحبيبتى ونحن نستمتع بالمنظر الجميل : وهذه  
الحديقة من ممتلكاتك أيضا .. هل يستطيع أحد أن يمنعنا  
من الاستمتاع بجمالها كل صباح !

قالت ضاحكة : دون أن ندفع مليما واحدا .. ليتنا  
نتعرف عليهما .. لنشكرهما !

كنت أعشق منظرهما ، وهما يرويان الزرع كل صباح ،

ويقطفان الزهور ويجريان خلف بعضهما ، ويتواثبان . وفي بعض الليالي ، كانا يدعوان أصدقاء و صديقات ، وتزدان التكميبة في الليل بأنوار حمراء وزرقاء وصفراء . ويموج السطح بأغان وضحكات تصلنا من على البعد ، فنحس بها دعوة لنا لتجديد الحب . . وللتفاؤل وللثقة بالنفس وبالحياة .

و ذات ليلة ، انتفضت أنا وحببتي على صرخات ألم تمزق سكون الليل . . فتحنا النافذة ، نسمع ملهوفين في ظلام الليل البهيم . . كانت الصرخات تتوالى وتتصاعد . .

قالت : امرأة تلد . . يارب تقوم بالسلامة .

وانكمشنا في بعضينا ، كأنما نلتمس من بعضينا الأمان وقد شممنا من نوع الصرخات رائحة خطر يحوم حول المكان .

أجل . . فحين حل الصباح ، كانت الصرخات قد توقفت ، لتحل محلها أصوات ملتاعة أبشع . . هل يكن أن يصدق العقل البشرى ما يحدث ؟ كانت حببتي تدق على صدرها وتنشج .

لقد ماتت . . ماتت العروس وهى تلد .

فلتنطفئ شمس هذا العالم . .

وبالفعل . . حل الظلام على النهار . .

لم نر النافذة تفتح بعد ذلك . . ويوما بعد يوم ، كانت أشجار الحديقة تعف والألوان تدبل هى الأخرى وتموت .

وأخسنا أن أشياء جميلة فى نفسينا هى الأخرى تموت . . ضاعت منا أجمل الممتلكات .

وأنا أصبحنا . . فقراء .

## قوة الجذور

— معايا الفل والياسمين ...

طرق النداء سمعها وهى تسير .. بدا لها غريبا ، ومدهشا  
وله رنين . لكنه بدا فى نفس الوقت كخدعة ، أو كأغنية جميلة قد  
تضلل القلب الوحيد . الحزين .

— يا عاشقين الفل والياسمين ..

كان المنادى بائع زهور يدفع أمامه عربة خشبية صغيرة  
بعجلتين ، مليئة بأصص فخارية مزروعة بمختلف أنواع الأزهار ،  
ما أن برأتها حتى تذكرت على الفور حوض زرع فى شرفة شقتها .  
خاليا منذ شهور . كان منظر هذا الحوض الخالى يعمق الحزن  
فى قلبها لهذه الغيمة السوداء الثقيلة التى هبطت على حياتها  
مع زوجها . أصبح كل منهما يحس أن حياتهما معا بائت بهذا  
الحوض الخالى . كان ذلك كئيبا ومروعا ، بعد أن كان مزروعا  
بالأشجار يفوح بالخضرة ويطرح الأزهار ، أصبح خاويا . الا من  
الطين الذى جف وتشقق . لم يعد أحد يهتم أن يسقيه بعد أن  
خلع هو بيديه شجرة الفل التى كانت مزروعة فيه !



لقد فوجئت بذلك ذات يوم ، فأحسيت كأنه قطع شرياناً من جسمها . . كأنه يرمى بها هي نفسها بعيداً عنه وعن البيت وعن حياته كلها ، قالت لحظتها بمزيج من الحزن والغضب : لماذا خلعتها ؟

ببساطة شديدة وكثيبة قال : لم يعد فيها فائدة . لم تعد تزهر . سأبحث عن شجرة جديدة أزرعها .

لم ترد بكلمة . لم تدافع عن شجرتها التي كانت . . قالت في نفسها : ليست الشجرة فقط هي التي كانت . كل شيء كان . ( وشدت نفسها من صدرها بتحد وكبرياء ) وليكن بعد ذلك ما يكون . . لقد جفت شجرة حياتنا هي الأخرى . . فلنكن واقعيين !

كان الوقت صيفاً . . وفاتت شهور الصيف دون أن يأتي بشجرة جديدة ، وبقي الحوض خاوياً . . جافاً . . تزداد الشقوق فيه وتتعمق فيتعمق في روحها الحزن والتشاؤم والاكتئاب . غير أنها كانت سرعان ما تطرح برأسها بشعرها الطويل الناعم إلى الخلف في ثقة وتحدي : لم لا ؟ كل شيء يتغير . لا يصح أن يخيفني ما يحدث . لا يصح أن نخدع أنفسنا أكثر من هذا . . هو نفسه قالها مرة : « نحن لم نعد نحيا إلا بقوة دفع الماضي . . أما الحاضر . . فقد جفت شجرته » . كان شجاعاً فقالها . . سأكون أشجع وأقولها : الطلاق . نضع الحقيقة في عين الشمس . وفي عيون كل الناس . ولن أعبأ بأي شيء غير الصدق . . أن نذهب بالموقف إلى أبعد حد . . نتفق على الفراق . . ذلك هو الامتحان : أما أن يكون الفراق أبدياً . . وأما أن نتزوج من جديد . . وأزف إليه مرة أخرى ، بكل العشق القديم والجديد .

— يا عاشقين الفل والياسمين .

مين يشتري مين ؟ !

— بكم شجرة أفل دى يا عم ؟

— ما تفلاش على الناس الطيبين .

... لم تشأ أن تساومه على الثمن . شجرة فل مثل هذه مترعة  
بالزهور فى وقت مثل هذا لا تقاس قيمتها بالمال . انها  
تساوى الكثير . أكثر مما يتصور هو .. لو طلب منها أكثر  
مما معها ، فستطلب منه تأجيل الباقي . لا .. لا . النقود لن  
تكون المشكلة . المشكلة من يحملها ، ويذهب بها الى البيت .  
الى الشرفة .. ويزرعها .

... فها ان القدر حين يعد ، يحقق وعده بيسر وسهولة . فلم  
يأت عصر ذلك اليوم ، حتى كان ذلك البستانى المتجول قد جاء  
البيت بالشجرة فى الميعاد الذى اتفقا عليه وزرعها فى الحوض .  
واختلج قلبها بالفرح وهى ترى لأول مرة بعد شهور طويلة ، الطين  
الجاف وقد ارتوى بالماء واختفت كل الشقوق ، وانتعش قلبها  
بالمثل .

فى ذلك اليوم كان زوجها مسافرا .. سفرة قصيرة ..  
وحين عاد فى اليوم التالى ، رآته يدخل صامتا ، جامد الوجه  
كالعادة . وتبادلا كلمات السلام التقليدية .. ثم اتجه مباشرة  
الى حجرته الخاصة ليقلعها عليه .. ويواصل كل منهما  
حياة التفرد والاعتزال التى اتفقا عليها .. لكنها وجدت نفسها  
تقول له :

... فيه حاجة جديدة .. جيتها البيت .. من غير اذنك !

شئنا في شجيرة .. انه ..

— ادخل البلكونة شوف .

من الوهلة الأولى ، خمن ما فعلته . وصح تخمينه . .  
فرح في سره . فرح لأنه مازال — رغم البعد — يفهم ما يدور  
بأفكارها . . وفرح أيضا أنها لاتزال تحمل في قلبها ، حس  
الأمل . . وحب البيت والمحافظة على جماله .

« هذا البيت لا يهون على واحد منا أن يهدمه » . استيقظت  
عواطفه . قاوم بشدة . اكتفى بالابتسام :

— شجرة جميلة فعلا . كويس انك جبتها فلة . بدل  
الفلة اللي ماتت .

قالت : هي الحقيقة ما ماتتش . . انت اللي قطعتها !

هل تدينه ؟ لكن لهجتها كانت هادئة ، فيها الود أكثر مما  
فيها من عتاب . . ومع هذا فقد أحس بالالتهام .

قال : يعنى أنا اللي بأقطع . . وانت اللي بتزرعى ؟ !

بدا على وجهها الألم : لا . . مش قصدى . . دى صدفة . .  
وأنا ماشية في الشارع ، لقيت راجل يبيع فل وياسمين اشتريتها  
منه . منظر الحوض فاضى ومشقق ماكنتش طايقاه !

— وأنا كمان طبعاً .

التقت عيونهما في نظرة سريعة هربا منها الى الشجرة . .

كان بدء الربيع . . موسم تفجر الحياة . . ورأيا الشجرة  
الجديدة المزروعة تموج بعشرات الزهور . . رقيقة ناعمة  
بيضاء . . ومطرها يفوح .

انتعش الحنين في قلبيهما . ربما شيء بسيط مثل هذا  
يحرك الركود ويروى الشقوق . . غير أن خفقة الأمل هذه كانت

مثل طائر غريب مر مسرعا فوق صحراء وسرعان ما خلفها وراءه  
لوحشة الصمت وجفاف الحياة !

يوما بعد يوم كانت القلة تتراجع ومعناها يذوب .. وعاد  
الصمت والخواء يثقلان على البيت بأشد مما كان . وسرعان  
ما أيقنت من خدعة الرموز .. « كثيرا ما تضللنا الرموز . لقد  
زرعت هذه الشجرة رمزا لانعاش الأمل . ولكن ها هي نفسها ،  
مع فصل الخريف تسير بالتدريج في طريق الجفاف ، وبعض  
أعوادها تعرى من الأوراق وتموت » !

غار في نفسها الاحساس بالتشاؤم ، وتأكدت القيمة  
السوداء !

يومها .. وقفا في الشرفة ، بلا اتفاق ، وحانت منهما نظرة  
الى الشجرة .. حينذاك أدرك كل منهما نفس المعنى الذى أدركه  
الآخر دون أن يتحدث به . كانت الطبيعة تؤكد الموقف بينهما  
وتعريه مع سحب الخريف .. وقتامة الألوان . وقال كل منهما  
لنفسه في لحظة واحدة : أجل .. حتى الحب يمر بالفصول  
الأربع .. الحب أيضا يشيخ .. الحب كائن حي .. يسرى عليه  
ما يسرى على الكائنات من ميلاد ونمو .. وفتوة .. ثم شيخوخة  
يعقبها الفناء .. لم لا نعترف بالواقع .. ونعلن الانفصال ؟ قد  
يكون في الانفصال الشفاء . الانفصال ولو لفترة .. هذا الالتصاق  
الطويل الطويل .. التصاق الجلد بالجلد ، والأنفاس بالأنفاس ..  
يسد المسام ويورث الاختناق . فلنتحرر . نفصل الجلد عن  
الجلد ، والأنفاس عن الأنفاس . ولكن : هل لديهما الجرأة على  
اتخاذ القرار ؟

شهور عصيبة مرت .. تتراوح بين لون كابة الخريف ،  
ولون وهج النار الذى يشعلها التمرد على أن يكون الحنين الى  
الحب الذى كان . هو قاتل الانسان .



مرت شهور الخريف .. وكان كل منهما يرقب وحده  
الشجرة في السر .. ويرى فيها طالع العلاقة بينهما .. كأنما  
يستشيران النجوم .. ماذا يفعلان ؟ هل يصرخان ويفعلانها ،  
ويحققان الانفصال .. بل صراحة : الطلاق ؟

وتجمعت كل كآبة الخريف ذات يوم واطلت من الشجرة .  
كانت معظم الفروع قد جفت وتحولت الى أعواد جافة ينطق  
لونها بالموت .

ورأيا ، في هدوء شديد ، ان الشجرة والطبيعة تشير عليهما  
بالحل السليم :

الطلاق .

وفعلها في هدوء .

أزمة المساكن ؟ .. ليكن .

البيت الواحد أصبح بيتين .. الجلد انفصل عن الجلد ..  
والأنفاس ابتعدت عن الأنفاس .. وبدأ لكل منهما أنه يتنفس  
بشكل أقوى وأعمق .. حقا .. لقد كان فيما فعلا انقاذا لهما ..  
كان الحب بينهما على وشك أن ينقلب الى كراهية .. ليس  
أشجع في العالم من أن ينقلب الصديقات الى خصمين .. والحبيبان  
الى عدوين .. وحينما كانت جرثومة الكراهية تتحرك ، كان  
جمال الماضي وروعته يقفان بقوة ضد الجرثومة ليقتضيا عليها .

تنفصل المسام عن المسام ، والأنفاس عن الأنفاس .. لكن  
الأرواح لا تنفصل . اتاحت الحرية لكل منهما أن يطير بعيدا ..  
بعيدا .. يعود أو لا يعود .. يغير الحب بآخر أو لا يغير .. أصبح  
المالك لقلبه فلمن يعطى القلب الجديد .. مع العام الجديد ؟

كان شهر ديسمبر يتجه مسرعا الى نهايته . قادتها قدمها

الى الشرفة ذات صباح ، تريد أن تملأ صدرها بهواء طازج .  
انها منذ حوالى أسبوعين لم تخرج الى هذه الشرفة . وتذكرت  
فتجاة .. صاحت تعاتب نفسها .

— آه .. لم أرو الشجرة .

وتوجهت بنظراتها اليها . ندت عنها صيحة فرح عظيم ..  
فوجئت بمنظر غريب أبهج قلبها : كان فرعا جديدا قد أنبثق  
منها .. نبت من قلب أسفل الجذع وانطلق يشق طريقه الى  
الوجود .. كان قويا وممتدا وفياضا بالخضرة والحياة .. كأنما  
يتهيأ لأن يصبح جذعا مع الجذع القديم .

وجرت اليه .. تحتضنه بعينيها .. بقلبها .. آه ..  
وما هذا أيضا ؟ عدة فروع أخرى تبرغ وتطل .. وتتهيأ بدورها  
للمنو والانطلاق .

هبت انسام منعشة .. تحركت مياه البحيرة الراكدة ..  
وأحست بالميلاد فى كل شيء .. فى الزمان .. وفى الأشجار ..  
وبدا لها أنها تقف على اكتشاف رائع .. ها هو الميلاد يحدث  
فى الشتاء حيث يظن الناس أنه فصل الجفاف والموت !

ترى .. هل رأى هو هذا الفرع الجديد ؟

وأحست بثمة حركة خفيفة . كان واقفا ينظر .. أشارت  
بلا ومى على الفرع الوليد وقالت .. بابتهاج هادئ :

— هل رأيت ؟

أسرع مقتربا من الشجرة .. أحس أن فروعا تنبثق فى  
قلبه .. وتصبح شرايين خضراء .. وقال بفرح كبير : ليس  
فرعا واحدا .

وراح يعدد الانبثاقات الكثيرة الجديدة في الشجرة :

كانها زحف الحياة ..

والتقت نظراتهما ..

قالت : لأن الجذور سليمة .. وقوية .

قال مؤكدا بثقة : كنت أوالى ريتها .. رغم البرد الشديد .

امتزج بريق عينيها ببريق عينيهِ .

— تحب هذه الشجرة ؟

— لست انت التى اشتريتها ؟

— وانت الذى رويتها .

تحرك فجأة كل الحنين .. منذ متى لم يلتق الجلد بالجلد .  
والمسام بالمسام .

امتدت يداهما الى بعضهما .

قال : اعظم الأشجار هى التى تولد فى الشتاء .

قالت : شجرة الحب أبدا لا تشيخ .

غمغم : انها تغير جلدها .. لحاءها .. ولكن ل ..

غمغمت : لتولد فيها الخضرة من جديد .. وقريبا ..  
ستمتلىء بالزهور .

قال : أوحشنى العطر الجميل .

واندفعوا الى عناق عظيم .

الجلد فى الجلد .. والأنفاس فى الأنفاس .

## البحر يكشف كل الأقنعة

بشكل لا ارادى ، وبقوة عدم التصديق لامكان ان يحدث هذا ، وجدتنى بالخيال ، أخلع عن المرأة ثيابها . كان ذلك هو الشيء الوحيد لكى أتأكد انها هى ! فقد بدا الأمر لى أشبه بالصدمة ، أو اننا فى دنيا الحوادث والخرافات ، حيث نرى الكائنات وهى تتشكل وتتحول من نوع الى نوع ببساطة : البنات يصبحن جنيات ، والجنيات يصبحن بنات . وقد ساعد على ذلك وجودنا على شاطئ البحر . على البلاج . ومهرجان الصيف قائم على قدم وساق . أقول رحت بسرعة الخيال أنزع عن المرأة ثيابها الغريبة . . البالغة الغرابة ، وكأنها طبقة قشرية نبتت لها وأدخلتها فى عداد الكائنات الأخرى ، فلم يكن يبدو منها - وهى السائرة على البلاج ، غير عينيها الواسعتين ، وأنفها الدقيق ، وبالكاد فمها . أما الباقي فقد اختفى : ثنا الوجهه على الأقل ، مع الوجنتين والشعر الكستنائى الطويل والأذنان الجميلتان وعنقها البض حين كانت ترفع الشعر ، واختفى أيضا بقية الجسد الطويل المتناسق المشدود ، ذلك الذى كان بالمأبوه كل صيف ، يشع حياة وجمالا وانطلاقا . . على الرمل . . وفى البحر . . أمام عيوننا . .



هذا الجسد الآن ، يغلفه ثوب طويل فضفاض يتدلى حتى يتلامس مع الرمل مخفيا القدمين ، وان كان القدم بعد الآخر يظهر - بالضرورة - عاريا واضحا بكل جماله ودقته ، وهى تنزع خطواتها من الرمل ، متقدمة نحونا ، ثم تقول لى معاتبه ..

- أهكدا .. لا تعرفنى على الفور ؟

وانقذت الموقف صديقتى المتمددة على الرمل بجوارى ،  
صائحة بى ..

- نانى .. أهى اول مرة تراها بهذه الملابس ؟

صحت غير مصدق : نبيلة ؟

واوشكت أن أقول .. رافضا : مستحيل . غير أنى أمسكت  
نفسى عن جرح مشاعرهما ، غير قادر فى الوقت نفسه على كتم  
دهشتى ..

- او لم تكن عيناك لما عرفتك ( ثم متعمدا الاسراع بلدعة  
سخرية خفيفة - كتسجيل لوقف ) ما هذا الذى فعلته  
بنفسك ؟

شدت قوامها الطويل الرائع ، بوجهها نصف المقنع ، او شبه  
الملثم ، وقالت معتزة :

- ألم تعرف انى حججت هذا العام والحمد لله ؟

- آه . عظيم . مبروك ، ولكن ، هل من الضرورى أن  
يخفى الانسان نفسه بعد أن يحج الى بيت الله ؟

شمخت بوقفها ونظرت فى صميم عينى ..

- انا لا أخفى نفسى . انا أخفى المناطق الحرام من  
جسمى ..

قلت باسماء : لكنك لم تستطيعى اخفاء أجمل ما فيك .  
عينيك .

اهتز شعاع عينيها واضطرب . غير أنها سرعان ما تجاوزت  
ضعفها الأنثوى والانسانى ..

— العينان ليستا عورة . العين نافذة الانسان على الدنيا  
ليرى منها الحرام والحلال .

— ليس بالعين فقط نعرف الحرام والحلال . بالقلب أيضا  
نعرف ..

هزت رأسها ، ضائقة بكلامى ، بل بدا لى أنها ضائقة  
بأى كلام ..

قلت : ستكون لنا جلسة .. أرجو .. نناقش فيها ..  
ما الحرام وما الحلال !

عاودها الشموخ المزوج بالتحدى ..

— مستعدة . وان كان الايمان لا يحتاج الى مناقشة .

قر فى نفسى ان جلسة نقاش أو جلستين لن يجديا معها ،  
فهذا الذى حدث فى حياتها انقلاب ضخم ، ولا يمكن أن يغبر  
منها الا انقلاب آخر مضاد . « نانى » التى ما كنت آراها  
على البحر الا وهى تجرى وتقفز وتلاعب الموج . هوايتها التصدى  
للموجة العالية ثم الروغان منها بالمروق داخلها كأنها سمكة  
« دنيس » طويلة ممشوقة ، ثم الاستمرار فى السباحة غوصا  
تحت السطح لمسافة طويلة ، ثم نفاجأ بها خارجة من تحت الماء  
بوجهها المشع المندى وخصيلات شعرها المبتلة المتناثرة ، وتضحك  
وتلوح لنا بذراعيها الجميل الأبيض . وأحيانا كنت أخاف  
الذهاب اليها خشية الفرق فى المناطق البعيدة العميقة ، وأنا فى

رحاب جمالها ، لكنى كنت أتذكر براعتها فى السباحة « وانها  
لن تتركنى أغرق .. سيعطينى جمالها طاقة كبرى للحياة  
وللنجاح ، فأسرع - انا والآخرين - مستجيبين لشارتها وننطلق  
اليها ونسبح ونمرح فى البحر جماعة ، لكنها دائمة واسطة  
العقد ، وقائدة اللعبة المرحية ، لعبة السباحة فى المناطق العميقة،  
حيث اغراءات العمق والصفاء والبعد عن ضجة الشاطئ والبلاج .  
ثم حين نتعب ، ولم تكن هى تتعب أبدا ، نعود . تتقدمنا « نانى »  
مسرعة بحنين رائع للعودة الى الشاطئ . ورغم أنها كانت فى  
الثامنة عشر ، وزوجة ، ولها طفل ، إلا أننا كنا جميعا - وأولنا  
زوجها - نعاملها كطفلة ، حتى فى عرى جسدها ، وما أغرب  
الجسد الانسانى الجميل المتفجر بالشباب وبالحياة حين يعطى  
البراءة ..

ها هى البراءة تدخل قفص الحرام والحلال . من الذى  
ادخلها ؟

وتذكرت زوجها : قلت وأنا أشير على قناعها ..

- اعتقد أن الأستاذ « سيد » راض عن هذا وسعيد  
جدا به !

ران الفضب على الجزء الظاهر من وجهها وقالت :

- ليس هذا هو المهم . أنا .. سعيدة بهذا . أنا التى  
أريد هذا ..

ضغطها على كلمة « أنا » أفهم معناه : ليس زوجها هو الذى  
فرض عليها ارتداء هذا الزى ، إنما هى .. التى قررت ..  
هى .. مازالت - كما كانت - مالكة أمرها وصانعة حياتها  
وما يحدث فيها من تغيرات !

قلت مثيرا القضية التي تهمنى في تلك اللحظة : معنى هذا  
انك لن تنزلى معنا البحر اليوم لتستحمى !

ندت عن عينيها نظرة استنكار : اعزى جسمى ؟ امام كل  
هؤلاء ؟ ( وأشارت بنظرتها على زحمة المصيفين ) حرام .

مرة أخرى دوت في اذنى كلمة « حرام » دخلت منطقة  
« التابو » . والتابو الآن هو جسدها الجميل . وتنقلت عيناى  
بين جسد صديقتى الممدد بجوارى على الرمل ، مرتدية مايوهها  
« الهيلانكا » المحبوك عليها ، وقناع نانا وعباءتها الطويلة .

— افهم ان تطلى ثوبك بعض الشيء . ان تجعليه فضفاضاً،  
ولكن وجهك ، ما ذنبه . تخفينه وتحرمين بشرتك من الشمس  
والهواء . . من النعمة . .

— الشمس والهواء في بيتى ، حيث لا يوجد أحد غريب .  
أمشى عارية في الشقة لو أردت .

— وحبك للبحر . وبراعتك في السباحة ، ولعبك مع الموج .  
انتهى كل هذا ؟

اتسع الاستنكار في عينيها : من قال هذا ؟ لا أحد يستطيع  
أن يأخذ منى البحر أو يحرمنى منه . ولكنى حين أحب أن أعوم ،  
أخذ قارباً أنا و « سيد » . ونذهب بعيداً عن الشاطئ . .  
الى ما بعد الصخرة ( واتجهت بعينيها الى جزيرة صخرية صغيرة  
وبعيدة بعض الشيء ) هناك ، أقفز من القارب وأسبح . . لا أحد  
الا ، أنا وسيد . . والماء هناك . . فى المناطق العميقة جميل .  
السباحة هناك متعة . . انت تعرف . .

قلت بحماس ، مستعيدا الذكرى : آه كم عملاً هناك ،  
وكم ضحكنا . وكنا دائماً جماعة . كنا نستمتع بالسباحة العظيمة



هناك . هذه حقيقة . السباحة في المناطق العميقة رائعة . .  
بالتأكيد . . ولكن . .

ولم أعرف بماذا أكمل . فقد حدث فجأة ثمة اختلال في تفكيري ، وفقدت تتابع الصور ، وتناثرت الأشياء وتجمعت دون أن يحدث لها ترتيب جديد . والأكثر من هذا أن خيالي الجامح رسم صورة رهيبة تخلصت منها بقوة وسرعة . فقد رأيتها - ناني - وهي تفرق فيما بعد الصخرة ، في المنطقة العميقة ، و « سيد . ف » زوجها واقفا فوق الصخرة ، ممتلئا بالرعب . غير قادر على انقاذها ، أو ربما هو راغب في حقيقة أعماقه أن ينتهى منها .

ولوحشية الصورة ، كفت عن الاستمرار في الحديث معها ، وربما أيضا - وهي الدكية اللماعة ، أحست من خلجات وجهي ، انى غير راض عن هذا التحول . ورغبة منها في تجنب إثارة ما قد يزعج سلامها النفسى ، ردت على دعوتى بالجلوس . .  
معتذرة . .

- اننى ابحث عن « حودة » تقصد « أحمد » . . طفلها الصغير .

ومضت مبتعدة ، تخب في الرمال بقدميها الحافيتين وثوبها الطويل ، ثم اختفت في زحام المصيفين . وقالت صديقتى وهي تعاود التمدد على الرمال الدافئة :

- أرايت كيف تتطور الأحداث ؟

قلت : النتيجة الطبيعية . ومازلت أذكر أول مرة رأيتهما معا فيها . . أوشكت لحظتها ان أسأل : أهى ابنته ؟ !

قالت صديقتى : مازال الرجل في بلادنا يملك أسلحة

الخدیعة ، كى یستمر فی السلطة . فبعد أن أحس « سید . ف »  
أنه بنفسه وأمواله وعربته لم یعد قادرا على مواصلة سلطانه .  
وأن الزمن ضده ، فالعمر یتجه به الى الغروب ، أما هی فشبابها  
یزداد تفجرا . . فقد لجأ الى . .

ولم تكمل ، فقد وجدتها تهمس لى : ها قد جاء .

ورأیته قادما یرتدى بنطلونا صیفا وقميصا من الحریر وقد  
شمر عن أكمامه . وفى قدمیه صندل ینزعهما من الرمل مع كل  
خطوة ، ویبحث بعینیة . . طبعا عن نانى . .

وعادت صدیقتى تهمس فى أذنى : رأیت الرجل . ماذا صنع  
فى نفسه . لقد صبغ شعره !

استشارتنى الملاحظة والمفارقة . فقد بدا الرجل بالفعل ،  
مع شعره الأسود اللامع ، ووجهه المتفجر بالحمرة ، كأنه قد  
صغر عشر أعوام . وهى « نانى » كبرت عشرة أو عشرين عاما .  
أذن فقد اكتملت اللعبة : أخفى هو الآخر وجهه الحقیقى ،  
وأصبحت الآیة معكوسة !

وتمنیت لو أصبح علیه : أیها الألعابان . لعبتك مكشوفة !

ولمحنى انا وصدیقتى فأقبل نحونا بحماس ، ینزع قدمیه ،  
وقبل أن یصل الینا كان یسأل ان كنا رأینا « المدام » ، وأجبناه  
ونحن ننهض ونسلم علیه بأنها كانت معنا منذ دقيقة ، وأشرنا  
له على اتجاه سیرها . فاستأذن ومضى مسرعا لیلحق بها . .

ثعلب ماکر . علمه اللعب فى السوق وصفقات الاستیراد  
والتصدير کیف یلعب بنائى ویصوغها كما یرید .

قالت صدیقتى : ما یفیظنى منها أنها تدعى أنها فعلت ذلك

باختيارها .. ( وببسمة سخرية ) وهل يدخل أحد الصندوق  
باختياره ؟ .

قلت مؤكداً : أوزوريس .. دخل الصندوق باختياره .  
رغم انه كان مليئاً بالشكوك !

شوحت بيدها : هل ستحولها الى دراما .. نحن لن نحمل  
أوزار الآخرين على اكتافنا . قم وانهض . هيا . نسبح بعض  
الوقت . أوحشني الماء .. ها هم الأولاد والبنات يلوحون لنا في  
البحر . ينادون علينا .. ( وقفزت واقفة على الرمل بقوامها الممتلئ  
الرشيق وفردت ذراعيها ) : الحياة للحياة . وتسابقنا الى  
البحر .

هكذا انسلخت « ناتي » عن مجموعتنا المرحية ، أصبحت  
سيدة هادئة وقور ، تجلس تحت المظلة ، بتلافيف ثوبها وقناعها .  
لا يبدو من وجهها غير العينين والآنف ، وبالكاد الشفتين ..  
وبشكل تلقائي ، فقدت هذه الأجزاء مقاييس جمالها في نفسى ،  
وتخيلتها امرأة مصابة في حادث وربطوها في الجبس ، لكنهم  
لن يفكوا الرباط أبداً ..

أخرجتها من فكرى . بل كنت أحياناً أتعمد اشعارها انى  
أهملها . تمنيت لو اننى أملك توقيع عقوبة ما عليها . جزاء لها  
على انها باعت حياتها ، وأنها - دون أن تدري - خانت أخطر  
معركة يخوضها الانسان في بلادنا ، وهى معركة التطور . لكنى  
أعدت نفسى من القسوة . فصفقة بيعها تمت من يوم زواجها .  
انها فى الحقيقة لم تفقد حررتها ، لأنها لم تكن يوماً حرة فى صنع  
حياتها ..

وخفف من وقع « حادثتها » ان البلاج كان قد ضم أجيالا  
جديدة منطلقة ومحبة لحياة الصيف والسباحة فى البحر والانطلاق

الى المناطق العميقة ، ولم تختف روح البهجة من مجموعتنا .  
وفكرت : ان التطور أقوى . واذا كان البعض يسقط في الطريق ،  
فلا أهمية كبرى لذلك . ها هم شبابتنا وبناتنا ، في عمر  
الورد ، معرضين أجسامهم للهواء وللشمس ، والصبيان بعضهم  
شعره أطول من شعر البنات . وبدأ التناقض واضحا بشدة .  
وأنا أنقل بصرى بينهم وبينها ، وهى جالسة على الرمل ، في  
القوقعة ، تنظر بعيون شاردة ذاهلة . . وانطلقنا في البحر نسيح  
ونضحك ونملأ الفضاء بهجتنا .

بمرور ذلك الصيف ، فقدت حكايتها غرابتها في نفسى .  
لا سيما أن ظاهرة النساء والفتيات المقنعات بدأت تتزايد . ولم  
أكن أفسر هذه الظاهرة إلا بأن دولة الرجال تخشى من دولة  
النساء القادمة الزاحفة . وقلبها كوميديا ساخرة مع صديقتى  
وتركنا البحر وعدنا الى القاهرة لأعمالنا . كان شبحها يعاودنى  
بين الحين والآخر ، ثم نسيتهما تماما . الى أن عدنا في الصيف  
التالى ، الى نفس منطقة البحر والبلاج التى تعودناها .  
فوجدتها . . كما هى . . بالقناع والثوب الفضفاض . وفى تلك  
المرّة ، خيل لى أنها ولدت هكذا ، ونسيت تماما صورتها  
الأولى . . بالمايوه . وقر فى نفسى ان « نانا » الأولى ماتت فى  
صباها أو غرقت فى البحر ، فى المنطقة العميقة وانتهى الأمر ،  
بل وفقدت أى انفعال بها . اللهم الا اننى كنت اتجنب النظر  
اليها ، فقد كانت تمثل لى الهزيمة والاستسلام للشعالب الماكرة  
العجوزة !

غير أن أكثر ما كان يثير حزنى وأسفى ، هو ابنها الصغير  
« حودة » أو « أحمد » كان هو أكثر الخاسرين من هذا الانقلاب  
الذى حدث فى حياتها . فكم رأيتها تصطحبه الى الماء وتعلمه  
كأنها أخت كبيرة تلعب معه . وقد تعلم السباحة مبكرا ، وأصبح



« مجنون بحر » ، ومع هذا فقد اتفقت معه اتفاقا صارما ألا ينزل الماء إلا مع أبيه . ولهذا فقد كان الصغير معظم الوقت جالسا الى أن يأتى أبوه الذى كثيرا ما كان يسافر بعربته لتأبئة أعماله .

أقول تراجعت من نفسى تماما مع الأيام ، الى أن كان هذا الصيف ، على نفس الشاطئ . وجدتني أسأل عن كل الأصدقاء والصدقات ، إلا هى . . لم تخطر على بالى . غير أنى فوجئت بصديقتى تقول لى وفى عينيها فزع :

— سمعت شيئا غريبا وفظيعا الآن — « سيد . ف » غرق .

صحت بفرغ : تقولين غرق ؟

أحسست بشعر رأسى يقف . اختلطت المشاعر فى نفسى : بشاعة الاختناق تحت الماء . . الرعب . . والنجدة . . حيث لا نجدة . .

— كيف . . حدث هذا ؟

— تفاصيل لا أعرف . يقولون انه غرق منها بعد الصخرة . ذهب بها الى هناك كالعادة ، لتستحم بعيدا عن العيون ، غرق منها .

— غرق منها ، أم هى التى أغرقته ؟

ورأيت نظرات اللوم فى عيني صديقتى . .

— حرام عليك . هذا اتهام فظيع . أرجوك لا تنطق به أمام أحد . .

هزنى هذا النبأ هزا عنيفا ، حتى أنى بقيت عدة أيام أخاف النزول الى البحر وشبح سيد . ف يطاردنى وهو يصارع

فيختنق ويفوص بالتدريج الى أعماق البحر ، وسيطر على خيالي المشهد التراجيدي الرهيب . أبيع عمري وأعرف ما الذي حدث فيه . . وكيف حدث ؟ لا أحد يعرف تفاصيله الا هي . . فهي الشاهدة الوحيدة على ما حدث في منطقة المياه العميقة البعيدة . وفكرت في زيارتها في بيتها . لكني لم أجرو . ان يقوم الانسان بدور المحقق في موقف مفاجع مثل هذا .

واذ كنا في الصيف كالعادة ، طلاب لحظات مرح وسعادة ، وكرنفال المصيفين والمصيفات على الشاطئ ، وأجيال جديدة نتابع . . صيفا بعد صيف . . سخاء الحياة وعنفوانها . . فقد تراجع من نفسي شبح الموت ، وانطلقت مع أصدقائي وصديقاتي نعب من بهجة الحياة على البحر بكل ما نملك من شغف وحنين . . فكلنا يأتي هذا الشهر من الصيف لبعث من جديد . يفسل نفسه من ركامات التعب ، واللهاث ، والاختناق داخل المدن ، ويتمنى لو يصبح هذا الصيف بداية جديدة على نحو ما لحياته .

وكنت قد تعودت في العصارى أن أخرج وحدي وأقطع مسافة طويلة على الكورنيش ، املاً صدري بأمواج الهواء ، وأرى قرص الشمس وهو يغرب . كانت تلك قمة متعتي . وكانت متعة درامية . فقد لاحظت ان أعظم مهرجان من الألوان للشمس . . ألوانها الحسادة والصريحة والمتوهجة ، هو الذي يسبق غرقها في البحر . ثم بدأ شيء غريب يحدث لي مع هذا المنظر كل يوم ، والشمس تفوص أمامي ، كنت أجدني اتلفت في اتجاه الصخرة أياها ، ويعاودني منظر « سيد . ف » وهو يفوص ويفرق . وناني في القارب ، أو تسبح بجواره ولا تستطيع أن تنقله ، أو هي التي تفرقه . . فيفوص الى القاع . . مع الطحالب والأسماك . وبدأ هذا الخاطر يزعجني . وكان هذا الانزعاج يتصاعد في نفسي الى حد القشعريرة ، حين أمر على مكان الصخرة في الليل . . في الظلام . .

وأفكر : هنا جريمة قتل لم تكتشف بعد ! ونائى هى  
القاتلة ! لو قابلتها فسوف الملح لها بهذا الاتهام وأرى وقعه عليها .  
سأراه فى عينيها اللتين لم تخفهما وراء القناع .

وما أغرب ما يحدث أحيانا فى الحياة . أن تفكر فى انسان  
وترسمه بخيالك ، فاذا به هو نفسه ، بلحمه ودمه أمامك .

تسمرت قدماى اذ فوجئت بها .. نائى .. مقبلة فى اتجاهى  
فستان أسود طويل .. والوجه .. قمر فى حداد .

والتقت نظراتنا . أدركت انى وقفت من أجلها . ران على  
شفتيها ظل ابتسامة امتلأت بالأمل .. وأنا أسلم عليها .

— هل تصدقين اننى كنت أفكر فيك فى هذه اللحظة .

— فى إنا ؟ ( وتنهدت ) جميل أن يكون فى هذه الدنيا  
أحد يفكر فى .

قلت مندفعاً وبحماس :

— أنت .. يا نائى .. تستحقين أن يفكر العالم كله  
فيك .. أنا شخصياً لا أكف عن التفكير فيك . لم اقل لك  
« البقية فى حياتك » . كنت أضعف من أن أقولها لك . لا أدري  
لماذا . وللحظة أحسست بالندم . فقد أربد الهدوء الذى كان  
يكسو وجهها ، وأغمضت عينيها للحظة ، كأنما تبعد صورة ..  
وزفرت : مرسيه . الله يبقى حياتك .

واذ بدا أن لقاء الصدفة على وشك أن ينتهى ، قلت  
متشئشاً :

— لم نجلس معاً منذ وقت طويل . منذ كم صيف !

— هذا صحيح . زمن طويل ( وشردت بعينيها )

قلت متشجعاً : ثاى . اذا لم يكن وراءك الآن شىء  
سيحول مجرى التاريخ ، فأرجوك ، اقبلى دعوة منى على فنجال  
شاي ، أو قهوة .. تغير طعم الصيف كل تلك السنوات  
بدونك .

ابتسمت بمرارة : أنت روائى .. وخيالك أحبه .

— اذن فقد قبلت دعوتى . هيا الى اقرب كازينو .

تنهدت . وأشارت بيدها موافقة . وسرنا صامتين على  
مهل . ما كان يخطر ببالى أو ببالها ، أن اقرب كازينو ، هو  
ذلك الكازينو الذى يطل على الصخرة ومنطقة المياه التى فرق  
فيها زوجها .. كان قريباً جداً منا .

وخيل لى ونحن نتجه اليه أنها ستصرخ فجأة فى وجهى ،  
حين تنبهه الى ذلك : أيها المخادع . أيها المتوحش . لماذا  
هذا المكان بالذات . ثم تجرى منى هاربة !

غير أنها كانت تصعد سلالم الكازينو فى هدوء وصمت  
بجوارى . وكانت ترفع ذيل فستانها الطويل كى لا تتعثر فيه .  
وأوشكت أن أقول لها : كفى هذه الملابس .. حركتنا فى  
الحياة ، يجب أن تكون منطلقة وخفيفة .

غير أنى أمسكت نفسى . يجب ألا أتسرع بأى كلام يمس  
صلب الموقف .

فقد كانت قضية خلع القناع مرتبطة فى نفسى بحادثة  
الفرق على نحو ما .. اننى داخل على غابة انسانية ، وليس على  
جلسة بحرية رومانسية ، وبعد لحظات ، بعد هذه الانحناءة  
الأخيرة فى السلم الصاعد ، ستجد نفسها للفضاء والبحر ،  
وبالذات المنطقة التى حدثت فيها المأساة ، وسأضع عينى فى



عمق عينيها واكتشف كل الأسرار .. وأسرعت دقات قلبي : تراها  
نسيت الموضوع ، أو الفته .. وخف أثره في نفسها والزمن  
أبو النسيان ؟ !

وفوجئت بها ، أول ما انتهت من السلالم ، تستند على  
حاجز خشبي ، ثم تعطي وجهها لموقع الصخرة في منطقة المياه  
العميقة .. مكان الحادث .. ترى أى شريط من الصور  
يتراءى لها .. الحقيقة التي لا يعرفها شخص في العالم غيرها .  
وتفرست بقوة في وجهها .. بروفيل وجهها ، لأعرف بالضبط  
بأى مشاعر تواجه الموقف . ذكرى الموقف . لكن قناع الوجه ،  
مع وقفها الجانبية كان يساهم في اخفاء الحقيقة عني .  
وللحظة راودتني فكرة ان المجرم يحب ان يحوم حول مكان  
جريمته . قلت قاطعا الصمت ، لكي تنظر لى بكل وجهها  
واكتشف الحقيقة من عينيها .

هنا وقع الحادث . أليس كذلك ؟

أغمضت عينيها . وامسكت الحاجز بيديها ، كأنما  
تخشى السقوط . أسرعت فسندت ظهرها بأطراف أصابعي .  
- تعالى نجلس في الشرفة . أو ان شئت نترك هذا  
المكان . نذهب الى كازينو آخر .

تدت عنها زفرة طويلة .

- بالعكس . أنا أحب أن أجلس هنا . وأنظر الى هذا  
المكان الذي فرق فيه .. هل كان يمكنني انقاذه من الفرق ؟ ..  
لم يكن ممكنا .. أبدا .. لم يكن ممكنا !

كانت تكلم نفسها أكثر مما تكلمني . وتوقعت أن تنفجر  
بأكية ، لكنها أخرجت - بدلا - تنهدة حرقت قلبي بصدقها .

- هو الذى أفرق نفسه . هو الذى أفرق نفسه ( وفجأة انفجرت باكياً ) كان يريد أن يفرقنى معه . لو كنت أعطيته يدي لكان أخذنى معه الى القاع وغرقت معه . وكان يمكن أن أفرق معه . كان يمكن . ونفرك معا .. ولكن ممدوح الصغير .. لمن أتركه فى هذا العالم المتوحش .. العالم البشع ؟

وانسالت دموعها ..

- عالم بشع .. هذا العالم بشع ..

- لا .. لا يا نانى .. واسمحي لى . فالله لا يخلق عالماً يشعأ . البشر .. بعض البشر هم الذين يصنعون هذه البشاعة .. تعالى نجلس قليلاً .. هنا ..

وأمسكت عفويا يدها ، أسلمت يدها ليدى . وسرنا الى الشرفة .. جلسنا .. طلبنا كوبين من الشاي .. الصخرة أمامنا .. والشمس .. يا لها من صدفة غريبة .. كان قرص الشمس يغطس فى البحر .. يغطس ..

- كنا نسبح كالعادة . ربطنا القارب فى الصخرة . فى ذلك اليوم كانت انتابتنى حالة حماس غريب للسباحة .. رغبة عارمة للانطلاق فى البحر .. أود لو أذهب الى الشاطئ البعيد الآخر .. فعلى قدر حرماني من السباحة معكم بالنهار .. كنت اضرب وحدى فى الموج وأدخل فى الأعماق . أعماق الأعماق .. وكان يصيح على وهو يتبعنى : كفاية يا نانى .. كفاية . فأقول منتشية : ليس أجمل من السباحة فى المياه العميقة .. أنا استمتع بما لا يستمتعون به .. هؤلاء الخوافون الذين يسبحون بجوار الشاطئ . فى المياه الضحلة .. تعال .. تعال واستمتع معى ..

وفجأة .. اذ به يصيح على . والدعر في عينيه ، ويثوح  
بيديه .. شيء ما يمسكنى من قدمى ..

وانطلقت اليه ..

كان يفهق : انقذيني .. هاتى يدك .

وصرخت فيه مشجعة : امسك نفسك . لا شيء  
يمسك بك .

— بل وحش يمسك بى ..

انتابتنى قشعريرة خوف رهيبة : انت تتوهم . استلق على  
ظهرك وارخ أعصابك واترك نفسك للموج . انت تعرف .

— أنا غير قادر . انه يجذبني الى اسفل . هاتى يدك ..  
الا تريدان ان تنقذيني ؟

وأعطيته يدي . فاذا بى فى لحظة واحدة تحت سطح الماء  
والماء يدخل فمى ، وهو متشبث بى . ورأيت الحقيقة واضحة  
أمامى تحت السطح ، فلا وحش ولا شيء على الإطلاق يمسك  
به . وكنت أحاول الصراخ عليه : أنت تتوهم .. لكن الماء  
كان يندفع الى فمى ، ويداه تمسكان أكثر بى .. فاختنق وأغوص  
معه .. يريد ان أغرق معه .. لا .. وبالفزع من الموت اختناقا  
نزعته يدي من يديه .. نزعته بعنف .. خلصت نفسى منه .  
أصبحت خفيفة ، واستطعت أن أطفو الى السطح . حيث لم  
يكن غمرى فى البحر . والقارب بعيد لا يزال مربوطا الى الصخرة .  
رحلت أسبح بقدر ما بقى لى من قوة — حتى وصلت القارب .  
وارتميت فيه .

وسكتت . فخیل لى ان الموج فى البحر أمامى سكن . ثم  
عادت الأمواج تضرب وتزمجر حين قالت : البعض يقول اننى

الذى أغرقته : ولو كنت أنا التى غرقت ، وهو الذى عاش  
لقالوا إنه هو الذى أغرقنى ؟ كأن أحدا منا كان لابد أن يفرق  
الأخر . ما رأيك أنت ؟ !

— رأى ؟

ولم أجد كلاما . بل لم يكن لى أى رغبة فى الكلام . كنت  
ماخوذا بالحكاية .. المشهد .. واللهجة . والصدق الطاقح  
من وجه جميل مغلب يطمح للخلاص .. وأحسست برعدة  
اذ رأيت القرص فى تلك اللحظة .. قرص الشمس .. القوس  
الأصفر الأخير منه .. يفوص فى الماء ..

قلت ، مشيرا على القرص : أترين ؟ الشمس اختفت ..  
لكنها فى الصباح ستطلع من جديد .. أكيد ستطلع من جديد ..

واختلج شعاع عينيها ، بل وكل وجهها بفرحة ، وهمت  
أن تقول شيئا ، لكن موجات هواء قوية هبت من البحر ورأيتها  
ترفع يديها وتمسك بالقناع لتمنعه من الطيران . أما أنا ، فقد  
رأيت — بعين الخيال — رأيت القناع الذى لم يكن مثبتا جيدا  
وقد طار مع الهواء وظل يطير حتى سقط بعد الصخرة .. فى  
نفس المكان وغرق فيه .. بينما خصنلات شعرها الكستنائية  
الناعمة تحررت وراحت تتراقص مع موجات الهواء . وعادت فى  
عيني .. طفلة البحر الرائعة .. قائدة مجموعتنا المرحية أيام  
الصيف ..

(( ١٩٧٨ ))



## هولاكو . . والطفلة

كل شيء واى شيء فى هذا العالم كان يمكنى احتماله  
فى تلك الليلة الا دموع « زينب » زميلتى فى العمل ، وهى تنظر  
لى بعينيها الجميلتين المحمرتين ، تنظر لى معالبة وهى تنشج ،  
كأنى أنا المذنب . . كأنى أنا الذى أصدرت القرار الرهيب بكل  
ذلك الخصم من مرتبها البسيط المحدود . . دفعة واحدة . .  
كأنى أنا الجزار الذى هو بسكينه الباتر بلا رحمة ، وقد تركزت  
كل سعادته فى أن يرى الدماء تنزف أمامه . . وضميره فى غاية  
الارتياح والسكينة .

كانت تنظر الى أنا بالذات ، من خلال دموعها ، نظرة  
ساخرة تقطر مرارة . . مرددة أمام كل الزملاء والزميلات ،  
كلماتى التى كنت أرددها بثقة وقوة ، ونحن نتحدث فيما بيننا  
عن مظالم هذا الرجل : « فلنشق بالعدالة الطبيعية . . وأنها  
لا بد يوما آتية » .

وقد خطر لى لحظتها أن أندفع عليه مقتحما مكتبه ،  
واتحول أنا الآخر الى جزار وأشهر عليه سكينى ونتبارز . . غير

أنى كنت أعلم سلفاً أنى فى هذه المبارزة سأكون أنا الخاسر .  
فأحد أمرين : أما أن أوجه اليه ضربة واحدة صائبة أتوجه  
بعدها من تلقاء نفسى الى السجن لأدفن فيه بقية حياتى ،  
وأما أن أتعل فى المبارزة ، فيطعننى هو فى النهاية بسلاح  
السلطة الباتر : فصلى .. أو وقفى عن العمل ، حينذاك سيكون  
الجنون وتغطى الدماء وجه العالم !

طاطات راسى أمامها خجلاً . ان طوفانا من الكلمات  
المتحمسة المتفائلة لن تمحو روح الشر من العالم ، والعدالة  
الطبيعية لا بد لها من سلاح عات تشق به طريقها ، وتعيد الصفاء  
الى العيون الباكية !

وطالعتنى عينها الواسعتان برموشها الطويلة المنداة  
بالدموع .. والتى ياما تغزلت فيهما ببراءة .. ممجداً فيها  
روح البطولة والمرح التى تواجه بها مشاكل حياتها كزوجة  
بسيطة تناضل مع زوجها - البسيط أيضاً - كي يحققا  
لنفسيهما ، ولطفلتهم الصغيرة ، معجزة إيجاد شقة صغيرة ..  
وحياة شبه آمنة فى غابة هذه المدينة . انما الرائع فيها ، أنها  
كانت ماضية فى تحقيق المعجزة بروح المرح . كانت مثل زوجها  
تعمل فى الصباح . وكذلك فى المساء ، دون أدنى شكوى  
أو ضجر .. وكانت بطولتها تتبدى لى فى المساء .. كل مساء ،  
وأنا أراها قادمة للعمل ، وفى يدها ابنتها الصغيرة .. اذ كيف  
تركها وحيدة فى البيت ولا شغالة أو قريبة . لا حل أمامها  
الا أن تصحبها معها كل مساء ، وتجلسها بجوارها على أحد  
الكراسى ، فتمثل الصغيرة لجستها ، وتتفرغ الأم لالتها  
الكاتبه .

كان أروع ما فى الطفلة ، أو أغرب ما فيها ، وهى ابنة  
السادسة .. الهدوء الذى يطبع تصرفاتها ونظراتها الرزينة

العاقلة . . كأنما هي الأم ، والأم بمرحها هي الطفلة . كانت تدرك جيدا أن وجودها في هذا المبنى وفي هذا الوقت خطأ وظيفي ، وعليها إذن أن تلزم غاية العقل والهدوء ، وتميت في نفسها كل رغبات الطفولة في الجرى واللعب والصياح والقفز من مكان الى مكان !

إذن ما الذي جعل طفلتنا العاقلة في تلك الليلة تتحرك من مقعدها دون أن ينتبه اليها أحد ، ثم تخرج من الحجرة بهدوء شديد ، وتترك نفسها لقدميها تتجولان بها على غير هدى . . ثم لتجد نفسها - بحجمها الدقيق الصغير - دون أن ينتبه اليها أحد . . تدخل إحدى الحجرات الفخمة الواسعة . . دون أن تدري أنها حجرة مكتب الرئيس الأعلى للعمل .

كان الرجل جالسا الى مكتبه يقرأ في بعض الأوراق ، وكالعادة ، كانت إباحورة المكتب هي الوحيدة المضاءة . أما بقية الحجرة فمعتمة ، وأطنان من الصمت تثقل جو الحجرة . أحس الرجل فجأة بثمة حركة خفيفة في الحجرة ، كيف لم يدق السكرتير قبل أن يدخل ؟ رفع رأسه ، وإذا به يرى في العتمة كائنا صغيرا دقيقا يتحرك في اتجاهه . ومن المؤكد أن الطفلة كانت تنظر اليه والى عالمه بابتسامة ممزوجة بالاستغراب والفضول ، الا أن رعبا ساحقا غزا نفسه ، فتراجع فزعا في جلسته . وتصور الطفلة في العتمة جنا أو عفريتة أخذ شكل قزم صغير . فوقف شعر رأسه وتلاحقت أنفاسه ولم يتمالك نفسه فمضى يصرخ ويصرخ مستغيثا بصوت عال . وأذ فوجئت الطفلة بمنظره المفزع وصرخاته المرتعبة ، انتقل الرعب اليها هي الأخرى ومضت تصرخ وتصرخ . وامتزجت صرخات الاثنين وعلت على نحو جذب كل العاملين والعاملات في المبنى الى الحجرة ، ودخلوا جميعا . . مروعين ليروا المنظر العجيب !

وما أن رآها الرجل ، وفي مقدمتهم سكرتيره الذى أسرع وأضاء بقية الحجرة ، حتى أحس بالأمان ، وبدأ يسترد أنفاسه الداهية . أما الطفلة ، فقد كانت ماضية فى الصراخ وفى البكاء ، ولم تتوقف حتى رأت أمها تندفع إليها وتصرخ فى وجهها . تكاد تمزقها - ايه اللي جابك هنا يا مجنونة ؟ !

حل صمت مروع على الجميع ، تركزت النظرات على الرجل الضخم الكبير ، كان شاحب الوجه . . مفكك الاوصال ، متداعيا ، أسرع سكرتيره ليساعده على الجلوس ، أشار معترضا بكفه . . وبصوت كالفحيح ، أمر الجميع بالخروج .

- اتفضلوا . . كلكم .

وفى الصباح بعد ليلة مليئة بالتعليقات على ما حدث ، ومحاولة تفسير كل ذلك الرعب الذى ملأ قلب هذا العملاق من تواجد طفلة صغيرة معه ، فوجئنا وفوجئت ( زينب ) وهى محملة بأطنان من الاحساس بالخوف والندم ، بقرار الخصم الرهيب من مرتبها الضئيل ، وانذار للجميع بعدم تواجد أى عنصر غريب ، حرصا على حسن سير العمل ، وكانت دموع زينب ، ونظراتها المعاتبة لى ، ساخرة من كلماتى المتحمسة عن العدالة الطبيعية ، الا اننى لم البث أن عدت أقول فى نفسى : أجل . ان ما حدث دليل على وجود العدالة الطبيعية . الا انها لا تقتص من أمثال هؤلاء الرجال ، الا على مراحل ، وأحيانا على صورة طفلة صغيرة أو كائن صغير ، يظهر لهم فى العتمة . . فينكشفون على حقيقتهم . .

حقيقتهم الهشة !!

(( ١٩٧١ ))



## أغنية اليمام

شفتى لها نافذة تطل على سطح الجيران • على السطح تسكن  
يمامتان كنت استمتع بمنظرهما كل صباح : استيقظ كمادتى قبل  
طلعة الشمس ، فى غبشة البكور ، والهواء لا يزال نقيا نديا ، املاً  
صدرى بالهواء الطازج ، وأرقب مطلع قرص الشمس من خلف جبل  
المقطم ، فأرى اليمامتين تتلاعبان على السطح ، تقفزان ، تطيران  
تحطان ، تتوشوشان ، تتطاردان ، تتناقران ، تتناغيان ، تتماسكان  
•• الانثى تتدبل وتراوغ ، والذكر يصر •• يترصّد ويلف ويدور •  
ثم فجأة ومن الخلف •• من فوق •• ينقض ، يحط على الظهر ،  
تستسلم الانثى ، تحلوا لها لعبة الاستسلام • اه : ما أجمل الحب بعد  
طول المطاردة •• ثم ينطلقان محلقين فى فضاء المدينة •

وكثيرا ما كان يحل عليهما أصدقاء آخرون ، يمام وعصافير  
وحمام ، فيتحول السطح أمامى الى ملعب صباحى مرح سعيد  
لتشكيلة جميلة من الطيور ، ثم لا يلبث هؤلاء الاصدقاء ان يرحلوا ،  
وتعود اليمامتان الى ثنائيتهما وقد ازدادا اقترابا وتوحدا •• ا

كنت اعتبر سكن هاتين اليمامتين احدى نعم الحياة على ،

وكننت ادعو فى سرى ألا يغيرا هذا السطح ، فاسطح المدينة كلها  
مبسوطة أمامهما ، وتستطيعان التغيير لو شاءتا ، لكنى أدركت أن  
اليمام من أكثر الطيور وفاء للمكان وتمسكا به !

وكثير ما كنت أسمع صوتيهما ، بالذات أوقات الضحى ، وأنا  
داخل شقتى ، اسمعهما يهدلان بنغم شجى رقيق ، فأعود ذاكرتى الى  
أيام طفولتى فى القرية ، حين كانت أمى تنبهنى الى صوت اليمام  
قائلة :

— هل تعرف ماذا يقول ؟ وحدوا ربكم • وحدوا ربكم •

منذ طفولتى وأنا أحب جدا أغنية اليمام •• الا اننى فوجئت فى  
ضحى أحد الايام ، بصقرين يتواجدان على السطح • نفس السطح  
الذى تسكنه اليمامتان ، هبط قلبى خوفا عليهما ، خاصة وأنى لم  
أر أحدا من الطيور الاخرى أصدقاء لعبة الصباح • وقدرت أن هذه  
الطيور ، حين فوجئت بالصقرين ، تركت السطح على الفور هاربة  
من شرهما ، وبقيت اليمامتان بجوار عشهما •• لا مفر !

تصاعد خوفى عليهما • اننى أعرف طبع الصقور ، انها مغرمة  
بالنهب ولها مخالب تجرح • واليمام وديع ورقيق ، ومشغول بالحب  
وبدعوة التوحيد ، ولن تنبت له مخالب يدافع بها عن نفسه !

وددت لو معى بندقية وأطلق عيارا أخيف به الصقرين ، لكنى  
فكرت ان الفرع سيعم السطح ، وستكون اليمامتان أول الراحلين !

قلت لنفسى : قد يتعايشون • فالخلاء وهذا السطح مثل كل  
السطوح ملك لجميع الطيور ، ثم لماذا أكره الصقور ؟ انها رواسب  
منذ أيام الطفولة ، حين كانت لعبتى صيد أفراخ الصقور من  
أعشاشها فتعضنى ، وهى صغيرة ، بمناقيرها الحامية دافعا عن

نفسها !! الآن على ان اتخلص من هذا الشعور ، فأحب الصقور  
كما أحب اليمام ، وأوسع من دائرة الحب فى قلبى !

وقد أسعدنى هذا الفكر المتفائل ، حين لاحظت شيئاً غريباً  
ومثيراً يحدث • الصقران واليمامتان بدءوا يتقاربون ويتعايشون •  
أكثر من هذا ، بنى الصقران لنفسيهما عشا على السطح وسكننا  
فيه دون أن يحدث شيء يعكر صفو المكان !

هتفت فى سرى : يا للمعجزة ، وتمنيت لو تأتى الطيور  
الأخرى ، أصبحوا لعبة الصبحاح ويتفرجون على المعجزة التى  
تحدث ، ويجربون مع اليمامتين معايشة الصقور ، إلا أن الطيور  
ظلت على تباعدهما وحذرهما ، وبقيت اليمامتان وحدهما مع  
الصقرين . !

لكنى مع الايام ، كنت لاحظ شيئاً غريباً يحدث ، كان لعب  
اليمامتين وغناؤهما وتواجدهما بدأ يقل ، والأغرب أن أنثى  
اليمام أصبحت تتواجد مع أنثى الصقر • تنجذب الاثنتان الى  
بعضهما وتتبادلان الحديث بحماس وشغف !

تمنيت لو أوهب معرفة لغة الطيور ! ترى ماذا تقول كل منهما  
للأخرى ؟

وايقسمت فى نفسى : لا بد أنهما تتناقلان الاخبار والمعارف  
والخبرات ، وبذلك تزداد اللفة وروح التعايش !

وقد توقعت أن تنشأ صداقة مماثلة بين الذكرين ، ذكر اليمام  
وذكر الصقر ، إلا أن التقارب بينهما لم أراه أبدا يدخل فى مرحلة  
الصداقة ، وفكرت : لا بد أن هذا يرجع الى حذر ذكر اليمام واحساسه  
بمسئوليته عن تطور الموقف ! أو •• ربما الى عقدة النقص النابعة  
من احساسه بضعفه ويماميته أمام قوة الصقر وشراسته ، كان -

فى بعض اللحظات - يغمرنى احساس عميق بأن ثمة معركة مقبلة بالحثم ، وان على اليمام أن يستنبت لنفسه ، مقابل مخالب الصقر ، أسلحة أخرى يضرب بها وقت الحاجة . . ولكن . . أية أسلحة يمكن أن يتسلح بها هذا الطائر الوديع الرقيق البسالغ الرقة . . أية أسلحة !؟

كنت أراه يأخذ جانبا ويرفع منقاره الصغير ويصيح بأغنيته أو بدعوته : وحدوا ربكم ، فتسرع اليمامة وتصبح معه حتى وهى بجوار الصقرة : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم .

أيمكن أن تكون هذه الاغنية هى سلاحهما ؟؟

ويبدو ان الصقر لم يكن يحب هذه الاغنية ، فقد كانت تند عنه حركة عصبية ، وينبش فى الارض مثيرا بعض التراب ، فتسرع اليه أنثاه منبهة ، فيتوقف فى الحال عن النبش وينظر فى وجوم وعيناه تلمعان . ترى . . هل هناك فرق بين اناث الصقور وذكرها ؟؟

كنت كثيرا ما استغرق فى عالم الطيور هذا وأراقبهم وهم يتصرفون وأتخيلهم أيضا يتكلمون ويتحاورون والطريف أيضا أنه كان عندى منظار مكبر ، كنت أستعمله بحذر شديد لأرى تفاصيل ملامح الصقرين واليمامتين ، فأرى بالفعل ان الطيور تفرح وتحزن وتغضب وتبتهج وتنفل وتخطب أيضا مثلنا نحن البشر !!

وقد فوجئت ذات يوم بحادث غريب يحدث : فقد رأيت اليمامة واقفة على سور السطح مع الصقرة ، ثم فجأة طارتا معا . . أما الذكران فقد بقيا وحدهما على السطح ، متباعدين كالعادة !

شغلتنى هذه الظاهرة : كيف تترك اليمامة وليفها . وتطير مبتعدة عنه مع صقرة ؟! قلت ياسما : انها قدرة الاياث على التعارف



والتحالف ضد الذكور ، يلتصق القوة من ترابطهن ، ويروحن عن النفس أيضا !

غير أن المسألة تطورت فيما بعد الى ما هو اخطر . كان ذلك احد أيام الصيف الحارة ، ساعة من ساعات القيلولة ، تلك التي تتجبر فيها الشمس فتهمد الكائنات وتدوخ وتسكن حركتها وأصواتها . وأصاب المدينة مس من هدوء شامل عميق . فجأة سمعت الاغنية : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم .

آه . . ما أجمل صوت اليمام مع هدوء المدينة الشامل العميق ! شرعت منظارى ورحت أرقب خفية ، وجدت الذكر هو الذى يغنى ويدعو . . أما اليمامة فكانت راقدة بجواره فى العش ، ومنقارها فى صدرها ، تكاد تخفيه داخل ريشها . انها لا تغنى معه !

ويبدو أن ذكر اليمام أحس - مثلى - بغرابة صوته منفردا ، فنظر اليها . . كانت مغمضة العينين ساكنة ، لابد أنها من شدة الحر فى غفوة . توقف عن الغناء احتراما لراحتها وحرصا أيضا على صحتها ، فهي أصبحت تجهد نفسها كثيرا فى الطيران والتجوال مع انثى الصقر ، غير أنه لمحها فجأة تفتح إحدى عينيها نصف فتحة . حينذاك فكر انها استيقظت فعاد الى الغناء بحماس : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم . . لكنى فوجئت بها تنظر اليه بعينيها الاثنتين ولا تغنى معه . . نظر اليها مستغربا مستنكرا :

- لم لا تغنين معى ؟

نظرت اليه بنصف وجه : انى متعبة !

- الغناء يمسح عن القلب التعب ، وقد انتهزت فرصة هذا الهدوء لنغنى ويسمع الكل دعوتنا .

بدا عليها المضجر : وما الفائدة ؟ كلها ساعة ويعود الزئير .  
أريد أغنية يسمعها الكل رغم الضجيج .

بدا عليه الاستغراب : أية أغنية تريدان ؟ نحن نغنى  
ما نستطيع .

— بل نستطيع الكثير ، لكننا فقدنا الرغبة فى التغيير ، فقدنا  
الطموح .

ركزت منظماى أكثر عليهما . يا لها من معركة تحدث بين  
أنثى الإمام وذكرها ، مثلما تحدث كثيرا بين أناث البشر وذكرهم .

ولأننى مع ثورة المرأة فى عالم البشر ، ومع التمرد والتغيير  
بشكل عام ، فقد تعاطفت لحظة مع موقف الإمامة . أجل . . هذا  
العصر . . عصر الضجيج والزئير يتطلب أغنية أقوى . . أغنية  
تجلجل وتدق أجراس الخطر . . غير أنى مع اكتئاب ملامح  
الإمامتين ، تذكرت أن موقف الإمامة الجديد هذا ، جاء مقترنا  
بمصاحبة الصقور ! لابد إذن من التوقف والتحذير : انت تدخلين  
فى منعطف خطير . وارتباطك الزائد بهذه الصقرة هو السبب !

ند عنها صوت غريب . هو خليط الموار والقرقرة : اسمع . .  
اياك أن تمس صديقتى بكلمة .

— أو تصادقين الصقور ؟

— وأصادق الجن والعفاريت . . أنا أكثر ذكاء وعقلا . .  
وعيناى وسط رأسى .

— انت لا تعرفين ماذا تريدان .

— بل انت المغرور . . انت الذى تريد أن تظل محتفظا  
بسيطرتك وعلويتك من فوقى . . ولكن لا . . انتهى هذا الزمن !

كانت تفرقر بحدة وعصبية • وراعنى انى رأيت ملامحها وقد  
اتخذت للحظة ، شكل الصقور •• هل يمكن يا الهى ؟ !

ورايتهما فى لحظة يكادان يشتبكان ويتنافران ، ثم اذا باليمامة  
تطير مبتعدة عنه وتحط على السور • طار وحط بجانبها ، ضاقت  
بوجوده بجانبها وابتعدت عنه فى غضب •

— لم تعودى تطيقين وجودى بجوارك ؟ اذا سأترك لك العش  
وأعضى •

— بل أنا الذى سأتركه •

— لا أنا الذى سأتركه ، لتعيشى فيه بحريتك •

واندفع طائرا مبتعدا •• ولم يلبث أن اختفى ! ورأيت اليمامة  
تترنح للحظة كأن زلزالا أصاب قلبها ، وأن أركان حياتها توشك على  
الانهيار ، وأوشكت على الصراخ : لا يا يمامى •• عد الى •• فلا  
حياة لى من غيرك •

غير انها تماسكت وقاومت صرختها ، ثم شمخت بصدرها  
ومنقارها : لا •• لن أموت بدونه •• أنا قـادة على الحياة من  
غيره •• سأثبت هذا له وللجميع •

وجهت منظارى الى الصقرين فى عشهما • كانا ينظران اليها  
بتعاطف شديد ، واقتربت منها الصقرة وقالت •• بهدوء وسخرية :

— يا لهم من مغرورين هؤلاء الذكور • يحسبون اننا لا شىء  
بدونهم •

قالت اليمامة وقد بدا عليها عدم الموافقة :

— لا اظن ان القضية هى قضية ذكور وإناث • ولا اظن ان

صقرك هذا يعاملك بمثل هذا التعالى والعنجهية .. القضية هي  
الاحساس المتبادل بين الاثنين بالمساواة .

قالت الصقرة مقرقرة بضحكة ساخرة : لا يايمامتى الرقيقة ،  
ان حب التسلط والوصاية شئ فى دم الذكور ، كل الذكور ، فى  
اليمام أو الحمام أو الصقور ، ولا تؤخذ الحرية منهم الا هبشا  
وبمعركة ( ونظرت الى صقرها ) اليس كذلك يا صقرى الحبيب ؟

قال الصقر مداريا غيظه بابتسامة : لكنك لم تفرضى على  
شيئا ، وحريتك فى التنقل والطيران بكامل رضائى .

— أه .. ولكن لاتنسى ان رضاك هذا لم يأت الا بعد معارك  
كثيرة بيننا ، حتى اقتنعت أنت بحريتى الكاملة فى الطيران ، وفى  
المبيت أحيانا بالخارج .

— تقصدين انك اقنعتنى بالقوة ؟

فأسرعت الصقرة وقالت برقة خبيثة : القوة لك يا عزيزى ..  
لا نقاش فى هذا ، انما الميزة التى فىك عن بقية الصقور انك متقدم  
فى فكرك ، متحرر من تلك العقيد التى تملأ الذكور ، أنت صقر ولا  
كل الصقور .

شمخ الصقر بمنقاره وقال لها بلهجة أمرة : اذا طيرى  
واحضرى لى شيئا اتغدى به ، فأنا اليوم متعب ، وأحس بثقل فى  
جسمى .

ندت عن الصقرة قرقرة ساخرة وقالت مبتسمة :

— اللعب غيرها ..

قال الصقر مستغريا :

— ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تنقل نظراتها بينه وبين اليمامة :



- تريد أن تبعدنى لتنفرد بهذه اليمامة الجميلة .. بعد أن تركها صاحبها .

فوجئت اليمامة بهذا الذى سمعته ، تولاها خوف ممزوج بالاشمئزاز .

قالت للصقرة بغضب : هل تتهمين زوجك ، أم تتهمينى أنا ؟  
- مالك أنت وهذا يا عزيزتى ؟

- ان كنت لا تثقين فيه ، فالمفروض ان تثقى فى أنا . ان المسئولية فى هذا كما تعرفين تقع على الانثى ، أكثر مما تقع على الذكر .

### قررت الصقرة بضحكة

- ذلك قد يصح يا عزيزتى فى دنيا اليمام ، أما فى دنيا الصقور ، فيوجد عندنا شىء اسمه الاغتصاب .

وفجأة اذا بذكر الصقر ينتفض ويفرد احدى جناحيه بغضب ويهوى به على الصقرة ، فصرخت من شدة الألم . غير انها لم تلبث أن نفشت جناحيها وأطل من عينيها بريق مخيف ، ثم انقضت عليه وراحت تكيل له ضربات متوحشة مجنونة ، واشتبك الاثنان فى معركة رهيبة تعالت فيها صرخاتهما وصياحهما ، تملك اليمامة احساس بالهول وبالفرع وهى ترى المعركة الوحشية بين الزوجين تتصاعد والدماء تسيل منهما ، ولم يتوقفا الا بعد ان عجز كلاهما عن الحركة !

كان قلبى مع اليمامة . وتمنيت لو يجهز الصقران على بعضهما فى هذه المعركة ويخلو السطح منهما الى الابد ، الا اننى فوجئت بالصقرة تبسم لليمامة وتقول لها وهى تلهث : لا تنزعجى

يا حبيبتي • هي معارك خفيفة ندد بها الملل ، الحياة تحتاج دائما الى تغيير ، أليس كذلك يا صقري الحبيب ؟

قال بصوت متحشرج : هو كذلك •• يا صقرتي الحبيبة •• لقد حركت هذه المعركة أطرافى التى كادت تتيبس من قلة الصراع وانعدام المعارك ،

ـ هل سمعت يا يمامتنا الرقيقة ؟

وفوجئت باليمامة تنطلق طائفة مبتعدة ، رحت أتابعها بمنظاري حتى اختفت • تراها انطلقت لتبحث عن وليفها وتعيده الى عشها ؟

عدت بمنظاري الى الصقرين ، فوجدتني أمام مفاجأة أخرى أكثر بشاعة • فقد انتهز الصقران غياب اليمامتين عن عشهما وراحا ، رغم جراحهما واجهادهما ينبشان فى العش ويذروانه فى الهواء •

قالت الصقرة وهى تعاني من الالمها : اننى متعبة ، وانت مازلت تعرج • فلنؤجل العملية حتى شغائنا •

ـ لا تضخمى من العملية ، نظرة واحدة منى أو منك اليها تجمد الدماء فى عروقها • هيا نواصل الهدم لنبنى مكانه عشا آخر يناسب أولادنا القادمين •

ـ قد تعود ومعها زوجها •

ـ هو ذكر جبان • وسيرضى بالامر الواقع ، بل سيفرح بذلك ويأخذها ويبحثان لنفسيهما عن سطح آخر وعش آخر •• هيا •• لا تترددى •• ان السعادة تنتظرنا وتنتظر أولادنا فى العش الجديد •

عاودها الحماس : نعم .. وسنبنيه على طريقتنا • يصبح  
عشا للصقور •

وراحا رغم أوجاعهما يذروان أوراق العش وأعواده  
الطرية الرفيعة • امتلأ صدرى بالضيق وبالغضب • لسوف أبحث  
عن طوبة أو حجر أو أى شىء والقسى به عليهما فيبتعدان خوفا  
وتتوقف العملية الكريهة • • إلا أننى ويا للفرحة ، لمحت اليمامة  
عائدة ترفرف ملهوفة على عشا ، وما أن رأتهما يذروان العش فى  
الهواء حتى صرخت فيهما :

— ما هذا الذى تفعلان ؟

التفتا إليها ، دون أن يبدو عليهما أى أثر لصرختها ، ثم مضيا  
فى عملهما • اندفعت عليهما ل تمنعهما ، رمقتها الصقرة بنظرة  
غاضبة وفردت إحدى جناحيها مهددة : هذا السطح كان سطحنا ،  
قبل أن تبنيا عشكما فيه !

— كذب • • كذب • • أنتم لصوص • • مغتصبون •

— اصرخى كما تشائين • • والافضل أن تغنى لنا أغنية  
اليمام !

— أنتم وحوش ، مخربون • مغتصبون •

ولم يأبها لصرخاتها ، بل مضيا يذروان ويهدمان ، وفجأة ،  
رأيت ذكر اليمام وقد عاد وحط على أرض السطح وراح ينظر الى  
ما يحدث بغضب وارتعاب •

صرخ وهو ينبش فى الأرض : كفا عن هذا الذى تفعلان •

توقف الصقر لحظة عن الهدم ، ونظر اليه ساخرا متلمظا :  
انت لا تعرف ماذا حدث اثناء غيابك ، لقد استضافت وليفتك ذكرا  
آخر ، فغضبنا لكرامتك •

صرخت اليمامة : كذاب .. لا تصدقه .. انها يدعيان ملكية  
السطح ، انهما لا يريدان هدم عشنا فقط ، بل وحياتنا أيضا .  
اندفع ذكر اليمام نحو الصقرين . مبقيا مسافة قصيرة بينه  
وبينهما .

صاحت اليمامة :

– خذ حذرک منهما .  
– اننى أحذرکما من نتائج ما تفعلان .  
– ها .. وما الذى ستفعله ايها الطائر الهزيل . ياطائر الحب  
والتوحيد .

– سوف نهدم عشكما مقابل هدمكما لعشنا .

توهجت عيون الصقرين ببريق مخيف :

– اذن لا مفر من محوكم من الوجود .

قالت اليمامة : هذا خير من أن نفقد عشنا ونحن أحياء . هيا  
يا يمامى اتركهما يهدمان العش ، ولنهدم نحن عشهما .

وطارت اليمامتان وحطا على عش الصقرين وراحا ينكشان  
فيه بمخالبهما الصغيرة . حينذاك انتفض الصقران غضبا وتركيا  
عش اليمامتين وطارا عائدين الى عشهما ، فى نفس اللحظة طارت  
اليمامتان ثم حطا على السور ووقفا يترقبان أى هجوم آخر . كان  
الصقران ينظران اليهما وقد بدا الاجهاد واضحا عليهما .

قالت اليمامة ليمامها .. هامسة منبهة : انظر كيف يلهثان ،  
انهما خارجان لتوهما من معركة كادا يقتلان فيها بعضهما .  
فلنرمقهما . نحاورهما ونستنفد قوتهما .



— حذار أن يمسك أحدهما بواحد منا •

— المهم أن نبقيهما بعيدا عن عشنا •

كان الصقران قد تحاملا على نفسيهما واندفعا طائرين في هجوم غاضب على اليمامتين الواقفتين على السور ، غير أن اليمامتين ، في آخر لحظة ووفق الخطة ، انطلقا كالسهم مبتعدين .. فحط الصقران على السور وقد ازداد لهماثهما •

قال الصقر وانفاسه تتوالى : حسن أنهما تركا السطح نهائيا ، فلنواصل هدم عشهما ولن نبقى منه هذه المرة أى أثر •

قالت الصقرة : لكنى مجهدة • وانت ، لقد عادت جراحك تنزف من جديد •

قال بغضب : اياك ان تظهرى أية علامة للضعف • لو عادا فسيكون مقتلهما •

واذ راحا يواصلان هدم العش ، فوجئا باليمامتين وقد حطا من جديد على عشهما وراحا يهدمان فيه •

صرخ الصقر : لن تفلتا منا هذه المرة •

واندفع الذكر منقضا على الذكر ، والانثى على الانثى ، الا ان اليمامتين كانتا منتبھتين ، واستطاعا في آخر لحظة أن يراوغا ويفلتا ، وان مست كليهما ضربة قاسية •

— احتملى يا يمامتى •

— لو مت ، لن أتراجع •

وحطا مرة أخرى على السور ، وراحا يرمقان الصقرين

الذين بدا عليهما الاجهاد . كانت أنفاسهما متدافعة . . . ولهاثما  
يكاد يسمع .

قال اليمام : أرى انهما لم يعودا قادرين على مطاردتنا  
بالطيران . . .

قالت اليمامة : سيطارداننا على الارض .

– جاءتني فكرة . آه لو نفعلها .

– نفعل ماذا ؟

– كومة التراب هذه . نقف فوقها . ثم نستدرجها اليها ،  
وبمجرد أن يقتربا منا ، نملأ عيونهما بالتراب .

– فكرة عظيمة . . . ليتها تصح .

– هذا يعتمد على يقظتنا . هما بالقوة ، ونحن بالحيلة ،  
أن نصيبهما بالعمى ، ثم ننهال عليهما !

كان اجهاد الصقرين وضعفهما ، وجراحهما النازفة ، مشجعا  
لليمامتين على أن يواصلتا التحدى ، فراحا يناوشان الصقرين  
ويسخران منهما ثم يروغان كالبرق الخاطف .

– فلننفذ الخطة .

وحطا فوق كومة التراب وراحا ينظران الى الصقرين بسخرية  
وتحدى . امتلأ الصقران بالغضب ، وهما بالطيران لكنهما احسا  
بأجنحتهما تخونهما .

قالت الصقرة : انهما يستنفدان قوتنا بالطيران ، لم أكن أدري  
ان اليمام له كل هذه السرعة .

قال الصقر فى غيظ وهو يلهث : كلما صغر حجم الطير ، كلما  
ازدادت سرعته فى الطيران .

– وفى المراوغة وفى المحاورة فى الجو •

– اذا فلنستدرجهما الى الارض ،ضربة واحدة قاضية تجهز عليهما •

قال الصقر لذكر اليمام : انت يمام جبان ، لو انك حقا شجاع ، ابق فى مكانك ولا تطير •

– بل انت الجبان •• انت وهى •• ونحن نتحداكما •• سوف نبقى فى مكاننا ولن نطير •• فلتأتيا الينا ، لو كنتما حقا شجاعين •

اندفع الصقران يحجلان ويعرجان •• حتى اذا ما اقتريا من كومة التراب ، انهالت عليهما اليمامتان بالتراب وقد سددتاه الى عيونهما • صرخ الصقر من الالم : عيناي ، عيناي ، لم أعد أرى •• وصرخت الصقرة متخبطة : لا •• لا تستخدمنا هذا التراب •• هذه ليست طريقة شريفة فى الحرب وفى النزال •

لم ترد اليمامتان ، بل تشبث كل منهما بموقفه ، وكلما حاول أحد الصقرين أن يفتح عينيه ليخلصهما من التراب اسرعا وملأها بحفنة جديدة ، حتى عجز الصقران عن الحركة ، وراحا يترنحان ويصرخان وهما لا يريان أى شىء •

وعلى الفور انقضت عليهما اليمامتان ، وراحتا – بحذر – تنقران فيهما بكل الغضب الذى يملؤهما ، متجنبين خبطات أجنحة الصقرين الهوجاء العمياء •• فى تلك اللحظة كان زوج آخر من اليمام يمر فوق السطح ، فنادت عليهما اليمامتان : تعاليا ساعدانا ، كانا يريدان اغتصاب عشنا •• فضربناهما •• انظرا •

وان رأيت اليمامتان الواقدتان حالة الصقرين تشجعتا •• وبكل الكراهية القديمة فى صدور اليمام نحو بطش الصقور

وعدوانها ، انقضا مع اليمامتين ، وراحا ينقران فى الصقرين . حتى  
أعجزوهما عن أية حركة . . ثم بعد قليل توقفت أنفاسهما عن  
الخفقان ١

شعت البهجة فى العيون . . كانوا جميعا يلهثون . . لكن  
السعادة سرعان ما امتصت كل التعب ، وكل الاجهاد . . وكل الحزن  
أيضا . . ومضى الجميع يبنون عش اليمام ويعيدوه كما كان . .  
وأجمل . .

وتماست الاجنحة والمناقير . . كل وليف مع وليفته ، وراحوا  
يغنون معا أغنيتهم الجميلة ومناقيرهم الى السماء : وحدوا ربكم  
وحدوا ربكم .

وعان السطح أمامى ملعبا ومزارا للصداق من اليمام والحمام  
والعصافير . . وامتلا قلبى بالبهجة . . والحكمة أيضا .

د ١٩٧٧ ء



## الطبقات العليا والطبقات السفلى

لا بد أن العنوان ٠٠ عنوان الدرس ٠٠ هو الذى أوحى للبنت أن تلقى فجأة على مدرستها هذا السؤال الذى بدا خارجا عن الموضوع ، وهو يشرح للفصل درسا فى الجغرافيا كتب عنوانه على السبورة منذ قليل : الطبقات الهوائية العليا للجو .

ورغم ان الاستاذ يحيى - وهو اسم المدرس - كان فى تلك اللحظة يحل طبقات الجو فى المناطق العليا ويرجعها الى عناصرها الأولية من اكسوجين وأزوت وعناصر أخرى ، الامر الذى كان يذهب بشاعرية العنوان ، الا أن الطالبة وهى فى السابعة عشرة من عمرها وجدت نفسها تحلق فى عوالم بدت جميلة وغامضة ومثيرة . وفكرت بنشوة ممزوجة بالحيرة : ياله من كون عجيب . كيف أفهم هذه الدنيا ؟

كان المدرس مستغرقا فى شرح الموضوع . والبنات يتابعون شرحه . كان قياضا . وكان مرتبا فى كلامه مثلما هو مرتب فى هندامه . بعوده المتوسط النحيل . وعينيه الواسعتين بالمعرفة وبالتجربة . وبعض شعيرات بيضاء فى الفودين ، وتذكرت أنه

تزوج هذا العام واشتركت مع زميلاتها في شراء هدية له . .  
وفكرت : لابد أن الاستاذ يحيى هذا يفهم الحياة على الأرض مثلما  
يفهم الحياة في الطبقات العليا للجو . . و . . وفجأة . رفعت  
أصبعها واندفعت قائلة له بحماس وود : أستاذ يحيى . . أيه رأيك  
في الحياة ؟

كان السؤال مفاجئاً . أحدث نقلة كبرى في مسار تفكيره ،  
غير أن المفاجأة الأكبر له كانت في البنت نفسها . تلك التي لم يكن  
يحس بها من قبل إلا كوجه من الوجوه . أو كرقم من الأرقام .  
هاقد جاء الدرس الذي جعل صوتها ينطلق ، ووجهها يتحدد في  
عينيه أكثر من بقية الوجوه . بل ويصبح أكثر جمالا وتعبيراً .  
انتابته دفقة سعادة . كل الآبار تتفجر . ولكن لكل بئر لحظة  
وميقات . وطريقة للاكتشاف . . وفكر . مع ابتسامة ملأت كل  
وجهه ، أن يقول لها : « نحن في حصة جغرافيا ، ولسنا في حصة  
فلسفة . فلنؤجل الكلام عن الحياة الى ما بعد الحصة » . إلا أن  
الحماس واللهفة على وجه الفتاة ، وشيئا آخر رآه يحدث لبقية  
البنات حالما لقت عليه السؤال . . كأن موجة هوائية منعشة هبت  
على الفصل ، وكان اليوم بالفعل حارا والنوافذ مفتوحة . . وباب  
الفصل أيضا . . على أمل نسمة . . تفتحت الوجوه واشترأبت  
الاعناق وتركزت العيون عليه . ومع اللهفة والحب اللذين أحسهما  
في هذه النظرات ، أحس بالخطر التقليدي . ذلك الخطر الذي يحسه  
المدرس أو الخطيب أمام التلاميذ أو الجماهير . فاما أن يرتفع  
بكلماته في عيونهم الى أعلى ، أو يسقط في نظرهم ويخيب الرجاء  
. . هل هو حقا له رأى في الحياة ؟ والمهم هل يستطيع التعبير عنه  
لهؤلاء البنات . . وكلهن في الربيع . . من سن السابعة عشرة الى  
سن العشرين أو أكثر بقليل . . كيف يقول . . والى أى مدى يمكن  
أن يقول . وتنبيه - كأنما لأول مرة - أن باب الفصل مفتوح . ومرت

بخياله صور لوجوه كئيبة .. قديمة وحديثة .. لكنه أبعد ما بقوة :  
لن أغير منهجى فى الحياة !

طوال السنوات التى عاشها مدرسا .. وفى كل المدارس التى  
تنقل بينها ، ومنهجه الذى يتبعه ، والذى جر عليه كثيرا من المشاكل ،  
هو ربط دروسه بالحياة ، وعقد صداقة بينه وبين الاولاد .. بنين  
وبنات .. « ولقد تزوجت » لم انجب بعد ، لكنهم مثل اولادى ..  
كلهن بناتى . ومن حقى ومن حقهم على أن يعرفوا رأى فى الحياة «  
.. داخله احساس بنشوة . وأن بثرا بداخله يريد أن يتفجر ..  
يقول لنفسه مثلما يقول لهم .. كانت النظرات متركزة عليه فى  
لهفة .. فاندفع قائلا .. بلا أى تحضير :

— رأى فى الحياة ؟ ( واستعان على البداية بإشارات من  
يديه وإيقاعات جسده الرقيق النحيل ) أنا شخصيا أحس أنى محظوظ  
أنى جئت الى الحياة . حتى لو كنت جئت الى الحياة على شكل  
طائر .. أو .. حتى على شكل سلحفاة .. المهم أنى حى وأمتلك  
عناصر الحياة . فما بالكم وقد جئت على أرقى صورة وهى الانسان  
.. أن يكون الواحد منا انسانا ، هذا فى حد ذاته شىء عظيم .  
أن نحس بالسعادة أننا ننتمى الى بنى الانسان . ولأن أجمل وأرقى  
ما فى الانسان هو عقله ، فان سعادتى ، أعظم سعادة لى ، هى  
الأوقات التى أعيشها بعقلى . أما الأوقات التى أعيشها بحواسى  
وغرائزى ، فمهما كان فيما من سعادة ، فهى سعادة تشترك معى  
فيها الحيوانات والنباتات . لكن السعادة الأعظم أن نحيا  
كإنسانيين .

من اتساع نظرات البنات الى المدى الأخير .. ومزيج  
التعبيرات التى رأها على الوجوه الغضة .. الاعجاب والدهشة  
والاستمتاع بالمتابعة .. أحس بطاقة كبرى وبرغبة أكثر فى أن  
يواصل .. ويستمر .

انما ( ولوح باصبعه محذرا بجدية ) يجب ألا يكون الانسان مسرفا فى التفاؤل .. لقد علمتنى تجربتى مع الحياة ان كل شىء له مقابل . كى يحدث التوازن . ذلك التوازن والتناسب الذى رأيناه منذ قليل ( وأشار على السبورة ) يحدث فى الطبقات الجوية العليا .

اننى حين أحس بالبهجة فى وقت من الاوقات ، أقول فى نفسى : سوف يأتى وقت الألم . واذا أصابنى ألم ، أقول : سوف يأتى وقت البهجة . الحياة قائمة على الاضداد وعلى المتناقضات .. وهذا سر حيويتها وديناميكيته .. انما ( ولوح مرة أخرى محذرا باصبعه ) يجب ألا نكون نحن مصدر الألم للآخرين . بل بقدر الامكان مصدرا للسعادة والبهجة وتخفيف الألم . انما أيضا ، وهذه نقطة أخرى بالمقابل . يجب ألا نخاف الألم أو نكرهه بشكل مطلق .. هناك ألم عظيم ومقدس .. مثل ألم الأم وهى تعطى للحياة مولودا جديدا . ومثل الألم الذى يحس به المحارب الجريح وهو ينزف فى معركة يدافع فيها عن وطنه . هى الحياة كما رأيتها .. أعظم الأعمال والانجازات تأتى دائما مقترنة بالألام . فهل نخاف الألام ؟ ان جمال السكون لا نحس به الا بعد انتهاء العاصفة .. صحيح أم لا ؟

وازداد النبع فى داخله تدفقا : « المهم .. ان نحيا الحياة ..

وبصوت جماعى موحد : صحيح يا أستاذ . صحيح .

— نحياها كيف؟ كل بطريقته . والعظيم هو من يكتشف لنفسه طريقا جديدا . سكة جديدة . والألا .. فما الفائدة للحياة اذا كان الجديد يأتى بنفس شكل القديم ؟! لا تصدقوا ان التاريخ يعيد نفسه .. واذا أعاد التاريخ نفسه فى بلد من البلاد ، فان هذا يعنى أنه يعيش فترة تخلف وارتداد الى الوراء .. لا تصدقوا ان التكرار يعلم



الحمار .. الحمار يظل حمارا .. لأنه يقبل التكرار .. نحن نستعبد  
الحمار بالتكرار » .

أسعدته الضحكة العالية التي انطلقت عالية من صدورهن ،  
وبدا الجو أكثر انعاشا .. والمهنة أكثر جمالا .. ماذا يقول أيضا  
لعمر-الورد ؟ .. » ان ندرب أنفسنا على اكتشاف المجهول ، والا  
نخاف .. ان ننمى فى أنفسنا روح المغامرة من أجل الاكتشاف ..  
أما الخوف .. وأما التجمد الذى يعمق روح الجبن فى  
الانسان فهو .. » .

ولم يكمل .. لقد أحس بشيء ما غريب يحدث لنظرات بعض  
البنات . فأدرك على الفور من اتجاه النظرات أن هناك شخصا ما  
عند الباب .. وتظر .

كانت الناظرة واقفة .. شبه متخفية .. وتتسمع باهتمام ..  
وحين وجدته كف عن الكلام ، دخلت الفصل بهدوء شديد .. ورغم  
أنها لم تلق بأية تحية ، فقد وقفت لها الطالبات كتحية تقليدية ..  
أشارت لهن بالجلوس . كانت تقاوم رغبة فى فكها .. وقالت  
بنظرة ينطلق منها الشرر :

— اذن فهذا هو الذى تعلمه للبنات ؟ تحرضهن على القيام  
بالمغامرات . ( وضغطت على أسنانها ) اذن فكل ما سمعته عنك  
صحيح .

كان قد افاق من المفاجأة . قال وهو يتماسك ، وقد داخلته روح  
التحدى : ما الذى سمعته عنى ؟

— لم أسمع عنك شيئا . لكنى الآن سمعت منك .. بأذنى هاتين  
.. وهؤلاء أيضا يشهدن ( وأشارت على البنات ) .

وأوشك أن يقول شيئاً لكنه فوجيء بالبنت التي كانت قد ألقت عليه بالسؤال تنتفض واقفة وتصرخ فيها برجاء :

ـ لا .. لم يحدث شيء .. أنا التي سألته : ما رأيك في الحياة ؟

ازداد الشرر في عيني الناظرة ، وقالت للبنت متهمكة :

ـ ورأيي في الحياة أن تقوم البنات بمغامرات ؟

ـ ثم صرخت فيه بكل قوتها ، عامدة متعمدة كي ترهب البنت وتخرس أي لسان .

ـ اننى أمنعك من التدريس . ليس فقط في هذا الفصل . بل في مدرستي كلها .

قالت هذا وفوجئت بنفس البنت تضرب الدرج بيدها بعنف وتصرخ : لا .. وإذا تركنا الاستاذ يحيى فلن أبقى في هذه المدرسة !

وانتقلت صرختها الى كل البنات الأخريات :

ـ نعم . لو ترك الاستاذ يحيى المدرسة ، فسنتركها نحن أيضا .

ـ وإذا رأيت البنات ينهضن واقفات ، أحسست كأن جيشاً سيهجم عليها ويفتك بها .

ـ وتحرضهم أيضا على التظاهر ضدى ؟ إذن سترى .

وخرجت مسرعة .

حط على الفصل هدوء ثقيل الوقع . البنات عاودن الجلوس والنظر بعيون دامعة الى الاستاذ يحيى . قوة هائلة ملأت نفسه . قوة الحب والصدق تهزم قوة الظلم والجهل .

لكن ملامح الناظرة .. وكلماتها .. وأشباح الهوة الجديدة

بدأت تلوح له .. وشد نفسا عميقا . لو حدث فسيقفز فوقها مثلما قفز من قبل على كل الهوات السابقة .. ألم يكن يقول لهن هذا ؟

وفوجيء بالبنت الاولى تقول وهى تمسح دموعها ؟

— اكمل لنا يا أستاذ .. اكمل ..

أرتسمت على شفثيه ابتسامة نابغة من القلب ، وان اختلطت بالمرارة .. قال وهو يمر بعينيه على وجوههن جميعا: بعد ما حدث ( وهز رأسه مع تنهيدة ) على أى حال .. عظيم هذا الذى حدث . لقد رأيتن بعيونكن كيف يخاف البعض من أن تتفتح العقول على حقائق الحياة فيفقدون السيطرة على الناس . فلتبق عقولنا مفتوحة على كل ما يحدث فى الحياة .. وما يحدث فى الطبيعة .

ألا نخاف من أى شيء .. حتى من الشر . ألم أكن أقول لكم اننى ساعة البهجة ، أكون فى انتظار لحظة الألم ؟ ( وابتسم ) فلنعد الآن لو سمحتم - الى درسنا الاصلى ( واتجه بعينه الى العنوان المكتوب ) الطبقات العليا للجو » .

( واتسعت ابتسامته ) ننسى الطبقات السفلى بعضا من الوقت . انتبهن معى لو سمحتن .

وعاود شرح الدرس ..

.. .. ..

وكان يدرك أنه الدرس الأخير له .. مع عمر الورد ا

(( ١٩٧٩ ))

## هو الذي سقط

يحكى أن سلطاناً منحه الحياة خاتماً مثل خاتم سليمان ، فامتلاً بالفرح والنشوة وانطلق يمارس قدراته الخارقة ، فاجتاح في أيام قليلة بلاداً كثيرة وضمها إلى ملكه ، لم يعد سلطانه بفضل هذا الخاتم مقصوراً على البشر وما فوق الأرض ، بل امتد أيضاً إلى الجن والطير حتى بلغ متن السحب !

صباحاً سلطاننا هذا من ثومه ذات صباح ، فوجد أن خاتمه قد سقط من أصبعه ! حينذاك ندت عنه شهقة كاد قفصه الصدري ينخلع معها ، وقفز من رقدته وراح يبحث عن الخاتم .. أولاً بين ثنانيا الفراش والاعطية ثم في كل الأركان وجنابات الغرفة ، فلم يجد له أثراً !

وقد خطر له من أول لحظة أن يصيح بأعلى صوته : «خاتمي ، خاتمي» .. فيهرع الكل من انس وجن وطير ونمل ويبحثون معه عن الخاتم ، لكنه سرعان ما تنبه إلى معنى خطير ، فما يدريه أن هؤلاء جميعاً ما زالوا حريصين على بقاء الخاتم معه ١٩ . ليس من الجائز أن ينتهزوها فرصة ويعلنوا تمردهم عليه .. يسترد الكل



حريته ٠٠ بل وقد يحدث الأكثر هولا : لو أن واحدا من الشياطين  
عثر على الخاتم ٠٠ لسوف يخفيه فى أقصى بقاع الأرض أو فى  
أعمق أعماق البحر ، ثم يطلق ضحكاته المجلجلة ساخرا من السلطان  
الذى فقد مصدر قوته ! ثم يبدأ فى استعماله ضده !

لا ٠٠ لن يصيح ولن يهمس ٠٠ ولن يجزع هكذا بسرعة . ان  
مجرد الجزع على وجهه سيكشف السر للطيور حين تأتية بعد قليل  
لتلقى عليه تحية الصباح وتضع نفسها تحت أمره ٠٠ وفى مقدمتها  
الهدد ٠٠ ذلك الصديق العزيز حقا ، لكنه الثرثار المغرم بحكى  
غرائب وعجائب القصص ٠٠ وهل هناك قصة أعجب وأكثر إثارة  
من هذا : ان يفقد سيده السلطان العظيم خاتم ملكه !؟

فليهدأ نفسا ، ويفكر على مهل : كيف ، حدث هذا ؟! أيمن أن  
يكون قد فقدته ليلة الأمس فى تلك السهرة الحافلة الرائعة عند  
لاميس ٠٠ فى جناحها ؟! ( ومر برأسه خاطر كئيب مفزع ) أيمن  
أن تكون هى التى فعلتها ؟! تسلبه قوته وتنتقم مما كان فى  
البدائيات الأولى معها ٠٠ حين اجتاحت جيوشه بلادها ، وكان أسير  
أبيها ، ثم استقدامها على بساط الريح ، وفى غمضة عين بنى لها  
جناحا ذهبيا فى بستان قصر ٠٠ ثم اطلق أبيها من الأسر وأعادته  
الى بلاده حاكما كما كان ٠٠ مقابل بقائها معه مليكة وعشيقة ؟!

أيمن أن تكون قد حانت ساعة الانتقام ؟! غير أنه من رأسه  
نافيا بشدة : لا ٠٠ لا . ليلة الأمس بالذات تساقينا أروع كنوس  
الحب ، وكنا نطير سويا من فرط النشوة ؟! ثم الأهم من ذلك  
أننى خلعت الخاتم من أصبعى قبل أن أدخل جناحها ، وأعطيته  
لوصيفتى المخصصة لتلك المهمة المقدسة ٠٠ ثم بعد أن انتهت الليلة  
أخذته منها ولبسته . اذكر ذلك جيدا ٠٠ والأكثر من ذلك أنى وأنا  
أدخل أصبعى فيه كنت أحس بصعوبة ، حتى أن الوصيقة قالت لى

باسمة : يبدو انك سمعت بعض الشيء يا مولاي !! فكيف اذن يكون  
قد سقط من أصبعي ؟ ولقد عدت مباشرة الى جناحي وصعدت الى  
سريري ونمت على الفور . . فإين يمكن أن يكون سقط ؟!

« تراه سقط في الممر الواصل بين جناحها وجناحي ؟! وحين  
استعاد منظر الرمال التي تفرش الممر ، غاص قلبه وهو يتصور  
الخاتم وقد غاص في قلب الرمل واختفى . . قهل يجمع كل رمال  
الممر ويكومها ثم يغربلها ؟! أنه بذلك يكشف السر ويذيعه . . ثم ،  
ما الضمان أن الخاتم سقط منه فعلا في هذا المكان ؟!

وأحس بخلط في ذهنه وأطرق في تعاسة . . ما العمل ؟! كيف  
أتصرف ؟!

— مولاي لا تجزع . ان لك أصدقاء يظهرون وقت الشدة ا  
رفع رأسه بلهفة : من ؟ الهدهد ؟

— أجل . . صديقك الذي عاصر مجدك ، ويعز عليه زوال  
هذا المجد ! اطمئن يا مولاي . فالخاتم لم يضع ا  
اصطفقت في قلبه أمواج الأمل وصاح به : أين هو . يا صديقي  
العزیز ؟

— في مكان أمين . لا تخف .

— اذن فأسرع باحضاره . لا تضيع وقتا . أنت تقدر معنى  
ما أقول .

— مولاي لا أحب هذا القلق على وجهك العظيم . ففي دقائق  
سيكون معك ا

بذل السلطان طاقة لكبرى لكي يبدو مقماسكا . . فرك كفيه من  
السعادة وقال : لا أعرف كيف أشكرك أيها الهدهد . لسوف ترى

حين تعيد الى الخاتم اى خير سيفمرك • بل تستطيع من الآن  
أن تطلب ما تشاء • • مهما كان هذا الطلب • • سوف أحققه لك •  
أطلب أيها الهدهد •

– ولسوف أطلب يامولاي ، لكن ليس الآن • انما بعد أن  
يعود لك الخاتم • وأنت فى عز احساسك بسلطانك وقوتك !

– أعرف انك لست انتهازيا أيها الهدهد • • ومن أجل هذا  
اعتبرتك أصدق أصدقائى من بين كل أهل المملكة • • هيا لا تضيع  
وقتا • • طر واحضر لى الخاتم • • هيا أيها الهدهد قاوم حبك للكلام •  
سوف تتكلم كثيرا بعد ان يعود لى الخاتم •

– نعم أيها السلطان • • بيننا كلام كثير لابد أن يقال • •  
فلنؤجله كما سأل طلبى • • استأذنك •

وفرد جناحيه فجأة وطار • • ولم تمض أكثر من دقيقة بدت  
كالدهر بالنسبة للسلطان ، حتى كان قد عاد والخاتم يبرق فى  
منقاره •

هل السلطان فرحا وتناول منه الخاتم وعلى الفور ادخله فى  
أصبعه •

واختلطت سعادته بنوع من القلق حين رأى الخاتم لا يدخل  
أصبعه الا بصعوبة ، لكن ذلك على أية حال ادعى الى الطمأنينة •  
وما أن دخل الخاتم بالتمام وأحس به ملتفا بأحكام حول أصبعه  
حتى صاح واثقا منتشيا •

– الآن أطلب أيها الهدهد • • مهما كان طلبك • • تعال أولا  
أعانقك وأشكرك •

واذ رفع كفيه ليتناول الهدهد ويعانقه ، فوجيء بشيء رهيب

انخطف معه قلبه .. ووجد نفسه يصيح على الهدهد فى فزع .  
وهو يريه لكفه .

ـ الخاتم سقط .. مرة أخرى سقط . مرة أخرى سقط .

\*\*\*

كان لسقوط الخاتم على هذا النحو الغريب والمثير وقع  
الزلزلة .

اكتسحه خوف ساحق ممزوج بالتشاؤم وفكر بأن هناك بالقطع  
روحا شريرة تسعى لسلب الخاتم منه ، واسقاطه هو نفسه من على  
عرشه !

ومع ان الخاتم كان واضحا يبرق على البساط قرب قدميه ،  
الا أنه خشى ان تجذبه الروح الشريرة وتبتلعه الى جوف الأرض .  
فأسرع منكفئا بكل وجهه ويديه على البساط ، وفى ثوان كان  
الخاتم فى يده .. يقبض عليه بقوة . لكنه لم يفكر هذه المرة فى  
الاسراع بلبسه .. فما الضمان ألا يسقط مرة أخرى ،  
وقد يكون فيها الضياع الابدى ؟! فهل يظل ممسكا به .. أم يضعه  
فى أحد جيوبه أو فى أحد ادراجة ويقفل عليه ؟! ولكن ما معنى هذا ؟  
هل سيتخلى عن لبس الخاتم ؟!

واستهول المعنى فتوجه الى الهدهد مستنجدا .

ـ أرايت أيها الهدهد ماذا حدث ؟ ! ثمة روح شريرة تتأمر  
ضدى .

قال الهدهد بهدوء : بالقطع يا مولاي هناك روح شريرة تسعى،  
والكثيرون يقولون بهذا من زمن !

لـ تنبه السلطان : « كثيرون » .. ومن زمن ؟ اذن فكنت تعرف  
وتكتم عني ؟!



- أعرف يا مولاي .. لكنى كنت أنتظر وقوع البرهان !!

- أى برهان ؟

- البرهان الذى يقنعك انت يا مولاي قبل ان يقنع الآخرين !

- يقنعنى بماذا ؟ تكلم بسرعة !

- سوف أتكلم يا مولاي .. ولكن بشرط .. عفو مولاي ،  
ليس شرطاً وإنما هو طلب . الطلب الذى وعدتني به أثناء الضياع  
الأول للخاتم ، لكنى أجلته حتى يعود الخاتم لك .. فهل يمكن أن  
أتقدم به الآن والخاتم معك ؟ !

- بالتأكيد أيها الهدهد ، أطلب ما تشاء ولا تتردد .

- حريتى يا مولاي !!

- حريتك ؟ ( كان وقع الكلمة غريباً على اذن السلطان ) وهل  
أنا عاملتك أنت بالذات كعبد ؟ ومع هذا فلن أجعل من ذلك الآن  
موضوعاً للنقاش ، من الآن أيها الهدهد أنت حر .

صفق الهدهد بجناحيه سعيداً طروباً : أشكرك يا مولاي  
أشكرك ( ثم ضم جناحيه وقال بجديّة ) الآن أستطيع أن أتكلم دون  
خوف أو وجل . أجل يا مولاي .. فالأحرار وحدهم هم الذين  
يقولون الصدق والحقيقة مهما كانت مرارتها على النفس .. أما  
العبيد والاتباع فلا يقولون إلا ما يتجاوب مع غرور أسيادهم وملوكهم ،  
حتى ولو كان فى ذلك مصرعهم والقضاء عليهم !

ازداد توتره .

- اذن فأسرع بهذا الصدق ولا تخفى شيئاً .

- كنا نتكلم يا مولاي عن وقوع البرهان . الحق ان الانسان  
هو الذى يسقط أولاً ، ثم بعد ذلك تسقط منه أشياءه !

تنبه السلطان لخطورة ما يقال •

– ماذا تعني أيها الهدهد ؟ تكلم بشكل واضح ومباشر •

– وكذلك في دنيا الإبطال يا مولاي • البطل يسقط أولاً ، وبعد ذلك يسقط منه خاتمه !

اصطفقت أمواج الغضب في صدر السلطان ، ومع هذا جاهدتها •

– هل تعني أنني سقطت أيها الهدهد !؟

– مولاي أطمح في مزيد من رحابة صدرك •• اننا الآن بصدد انقاذ المملكة •

– تكلم أيها الهدهد • هات كل ما عندك •

– لقد تغيرت ، فأحس الخاتم بالاغتراب معك • لم يعد يحس بالطمأنينة معك !

تسارعت أنفاسه :

– الى هذا الحد أنا تغيرت !؟ كيف !؟

– مولاي أدارت الانتصارات والنجاحات رأسك ، فأصبحت تمشي فخوراً في موكب ذاتك ، ولم تعد تتحمس إلا لمن يدورون حولك ، يسبحون بعظمتك وبعجائب قدراتك !!

تصاعد الغضب مرة واحدة الى رأس السلطان وقال مستنكراً :

– هراء وادعاء هذا الذي يقال ، أنني لا أكف عن التحدث والتسبيح بعجائب الاله وقدراته •  
أ

– مجسدة فيك أيها السلطان ، فأصبحت عجائب الاله هي

عجائبك أنت ، ومن صنعك ، وليتها بقيت كما كانت فى البدء ، من أجل مسرة أهل المملكة • لكنك حولتها الى مسراتك أنت • • وبعد ذلك لا يهم أى شىء • الشرير يا مولاي يفتخر بشهواته !

قاوم السلطان بشدة غضبه • بل من بشاعة الاتهام احس أن ركبتيه تتخلخلان ، فأصبح كل جهاده ان يتماسك •

— أنا شرير أيها الهدد ؟ اذن فأقم الدليل على هذا •

— كنت يامولاي خاشعا متواضعا • • تخالط المساكين وتجالسهم • • وكنت أسمعك تقول : مسكين يجالس مساكينا • الآن فلم تعد تجالس الا أصحاب وصاحبات العروش !

— أه تقصد لاميس • • اليس كذلك ؟ لاميس لم تعد صاحبة عرش • لاميس أصبحت زوجة وجارية لى باختيارها • • هى وشعب أبيها !

— ليس بالاختيار يا مولاي • دعنا لا ننسى البداية • لقد حاربت أباهـا وهزمته • ثم استقدمتها بسحرك وتزوجتها وفرضت الصداقة على شعبها ، فتظاهروا بالاستسلام وبالرضا •

— تقول تظاهروا ؟! لكل هذه السنين يتظاهرون ؟!

— الشعوب يا مولاي غضبها مستتر وطويل المدى •

— انت تخرف أيها الهدد • وليتك كنت بالامس معى عند لاميس لترى السعادة التى كانت تسبح فيها معى وأغنيتها الحزينة على الايام التى لم ترنى فيها •

— ربما يا مولاي • • انما • •

— ليس هناك ربما • • بل هو اليقين أيها الهدد • انما هو عيبك الذى أعرفه عنك • ثرثار محب للكلام ولتأليف الروايات • •

لكنى احذرك • أتريد أن تقنعنى بأن هناك فى المملكة من يردد كلامك هذا ؟! لو كان هذا حقا ، لكنت قد سمعته • أنت تعرف أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء الا وتنقله الريح لى على الفور • ( وتذكر فجأة ان خاتم الملك ما زال فى قبضته ، فأسرع بلبسه وأطمأن لأحكامه حول أصبعه ) اننى أسمع كل شيء أيها الهدد • أسمع حتى دبیب النملة على بعد ، ولهذا فكل ما قلته هو من أوهامك • • ومع هذا ، سوف التمس العذر • • لأن • •

وتوقف فجأة عن الكلام ووجد نفسه يصرخ متأوها من ألم شديد داخل أذنه • • فاندفعت يده ، ماذا أصبعه الى مكان الألم ، غير أنه سمع صوتا يدوى داخل أذنه : مولاي • استحلفك بالله ان تبعد بطش يدك عنى !

أحس بدوار فى رأسه ، وقاوم احساسا بالترنح •

— من الذى يتكلم ؟

— أنا النملة يا مولاي !

لم يصدق ما يسمع • • رغم أنه واثق من أنه يسمع • كيف تجرؤ نملة ؟!

— وما الذى جاء بك الى داخل أذنى أيّتها النملة ؟

— لتسمعنى يا مولاي ، فمنذ زمن طويل ونحن النمل نشكو اليك وننادى عليك لكنك لا تسمعنا ، فقرر أخوتى النمل وفادتى اليك حتى نضمن وصول شكوانا !

أزداد الدوار فى رأسه ، وتملكه احساس بالمهانة • • أوصول به الأمر الى هذا الحد أن يقرصه النمل فى أذنه لكى يسمعه ؟ والتقت نظراته بنظرات الهدد •



كان حال الهدهد يقول : ذلك برهان آخر يا مولاي • لكنه لم ينطق بها !

— والآن لم يبق لي شيء يقال يا مولاي • استأذنك • ( وفرد جناحيه استعدادا للطيران ) •

— الى أين ؟!

— الى حيث تشاء حريتي •

اضطرب السلطان ، وداخله حزن عميق مختلط بالغضب •

— وتتركني أيها الهدهد ؟ في موقف كهذا تتركني ؟

— مولاي لقد ظهر كل شيء ، ولم يعد لي أي دور • • الدور

الآن هو دورك أنت وحدك • • استأذنك • لقد أوحشتني حريتي •

وتجمع في ذاته ناشرا كل جناحيه استعدادا للانطلاق ، غير

ان السلطان صرخ عليه بغضب •

— لا أيها الهدهد • لن تطير الآن • واياك ان تفعلها •

تجهم الهدهد ، وتجمد في وقفته •

— مولاي يسحب عني حريتي ؟

— أنا لا أسحبها • لكني أوجلها •

— اذن فأنت تنقض وعدك يا مولاي •

أحس بالاهانة • • صرخ فيه :

— أو تجرؤ على قولك هذا ؟ أهذه هي أول تباشير الحرية ؟

لا أيها الهدهد • ولا تحسب اني وصلت الى هذا الحد من الضعف

والاستسلام والبلاهة • نعم • فأنا أعرف ما هو أول شيء ستفعله

بحريتك • ستدور في البلاد وتحكى عن النملة التي قرصت السلطان  
في أذنه •• السلطان الذى لم يعد يسمع الا صوت نفسه •• اليس  
هذا هو كلامك •• لا أيها الهدهد •• لن تبارح هذه الايام قصرى !  
هذا أمر • هل تسمعنى ؟

أطرق الهدهد برأسه حزينا ممثلا وغمغم فى سره :

حتى حرية طائر صغير أصبح يخاف منها • ( ثم رفع صوته  
بعض الشيء ) ذلك برهان آخر يا مولاي •• لماذا أصبح الخاتم  
لا يبقى فى أصبعك !

صرخ فيه مستنكرا ، ومشيرا بكل ذراعه ، عارضا عليه كفه  
المزين بالخاتم : لن يسقط الخاتم منى بعد ذلك أبدا • هل تسمعنى •  
لن يسقط أبدا • وسأضرب كل روح شريرة تسعى للتأمر ضدى ••  
سأخرج الآن وأعلن هذا لكل أهل المملكة •

لم ينطق الهدهد بحرف • تذكر الجملة : الشرير يفتخر  
بشهواته •• تداخل فى نفسه خوفا • غير أنه لم يلبث أن لمح شيئا  
مثيرا يحدث. بينما السلطان ينزل ذراعه الى جانبه • رأى الخاتم  
ينزلق من أصبعه ويسقط دون أن يحس به •• صاح رغما عنه :  
— مولاي • مولاي أنظر الى أصبعك •

واذ نظر السلطان الى كفه فلم يجد الخاتم تملكه الذعر  
والهلع :

— ما هذا ؟ الخاتم سقط • مرة ثالثة سقط !؟

وفى تلك المرة ، لم ينكفىء بسرعة ليلتقطه ، بل ظل يحدق فيه  
وهو ملقى على الأرض دون أن يقوى على النطق بكلمة •• كان  
يحس من أعماقه بأن الذى سقط ليس الخاتم •• بل هو ••  
هو الذى سقط !

(( ١٩٧٨ ))

## سباق مع القدر

لا شيء فى تلك اللحظة كان يستطيع أن يوقفنى ، الا حادثة  
تطيح بحياتى ، أو جنية تصعد من قلب النهر ملوحة لى بذراعيها  
تنادينى ، أو موكبا لشخصية كبيرة توقف بمرورها حركة المرور كله  
فاتوقف أنا الآخر بالتالى ! شيء من ذلك النوع لم يحدث ، ومع هذا ،  
فقد وجدتنى ، اذ لمحتهما فجأة يسيران على الكورنيش ، قرب مرسى  
« الفونتانا » للقوارب ، اليد فى اليد ، كعروسين ، لا بل كخطيبين ،  
وكانفجار النبع ، شع فى رأسى « الحادث » .

أحمد .. وكاميليا ؟

صحت فوراً على السائق .

— أقف هنا يا أسطى .. لحظة واحدة من فضلك .

على صوت الفرملة ، التفتا ، وما ان رأيانى ، حتى هتف  
الاثنان فى لحظة واحدة بأسمى .. وعناق حار لأحمد ، وسلام  
أكثر حرارة ، يعوض العناق ، لكاميليا .

— رغم أنى مسستعجل جداً ، قلت لايمكن .. لازم أسلم

عليكم .

في عينيها الصافيتين العسليتين وكانفجار النبع أيضا ، شع  
الحادث ، مازال السر بينى وبينك ياكاميليا محفوظا بين الجوانح •  
لم أبح لأحد •• ولن أبوح ••

— تسمعوا تأخذوا نمرة التليفون • لازم نقعد •• كام سنة  
دلوقت يا أحمد !

— من سنة ٥٥ • شوف يبقوا لكام ١٩

وأنا اعطيها رقم التليفون ، ضاحكا وسعيدا ، ثم ألوح  
مودعا •• وأعود الى التاكسى •

حقا •• كم سنة ١٩

يغمض الانسان عينيه أحيانا ليرى ! مهما بدت الايام أحيانا  
مجذبة ، فقد عشنا أيها الأصدقاء زمنا ! كأننا مررنا بعصور  
وعصور ، انما فى ذلك اليوم بالذات ، حيث بدا القدر مؤلفا لأعقد  
المواقف ، وليتصرف الانسان •

ذلك اليوم ، والمشهد تحت سفح القلعة ، داخل قفص كبير  
مهول من الحديد ، هو « سجن مصر » انما القفص فى ذلك اليوم  
كان فى عيوننا جميعا بلا قضبان ، سواء الذين جاءهم فجأة ، أمر  
بالإفراج أو الذين اشتد بالتالى عندهم الرجاء ، كنا جميعا نغنى  
ونرقص وننشيد •• وأنا وأحمد ، نتبادل نظرات الفرح ، وعهد  
باستمرار الصداقة : لمدة عامين فى حجرة واحدة عشنا ، وفى ليلة  
واحدة قبض علينا ، وفى ليلة واحدة يفرج عنا ، وحتى وهم يحتفلون  
بنا ، جلسنا بجوار بعضنا !

أكذب ان قلت انى كنت فرحا لأحمد ، أكثر مما كنت فرحا



لنفسى ، وانما فرحتى بخروج أحمد كانت فرحة مضاعفة فما أكثر  
ماخيلنى وجه كاميليا ، مشعا بالفرح ، وهى تراه - فجأة وعلى  
غير انتظار - داخلا عليها : أحمد . . عريسها التى لم تعش معه  
أكثر من شهر واحد ، ثم جاء . . زوار الليل . واختطفوه ، وفى  
الغياهب ضاع منها زما . كانت مثل ايزيس تبحث عنه فى كل  
مكان ولا مكان ! . وفى آخر مرة رأيته فى إحدى الزيارات ، من  
خلال الاسلاك ، كان صفاء عينيها العسليتين قد شابته حمرة البكاء :  
ضيق فى العيش ، وضيق مع الأهل ، واليأس فوق بعضه أمواج  
وأمواج من الظلمات .

ما أروع شعاع الشمس ينبثق ثاقبا من قلب الغمام . وانظر  
لأحمد من جديد ، جالسا كالعريس فى قلب الاحتفال وقد ارتدى -  
لأول مرة مثلنا - بدلة التى كان قد خلعها على باب السجن منذ  
سنتين ، ومع النظارة الطبية التى تزين وجهه الدقيق الجميل الحليق  
عاودنى منظر « المعيد » بكلية الآداب ، الأنيق الوديع . واضغط  
على يده ، مؤكدا فرحتى من جديد : ستخرج الى الشوارع . .  
والزحام والمسارح والسينمات . . ونهر النيل . . و . .  
- ولا تنسى ان تدعونى ، على أكلة سمك مشوى ، من صنع يد  
كاميليا بالذات .

- وعد منى أيها الصديق . . أول أكلة سمك ، ستكون لك ،  
وبك وقبل ان ينقضى أول اسبوع ( ويضحك ) أيها الأعزب الشريد .  
على الدوام ! اطمئن . . سنزوجه فى الحال .  
ونضحك .

- رقصة اخيرة ايها الاصدقاء .

ونحن نصفق على ايقاع الرقصة مع المصنفين ، ونغنى ،

فوجئت بيد أحد الزملاء تضغط على ذراعى ، ثم تجذبتى برفق  
وهدوء ، ثم ، بصوت هامس اثار هواجسى ، فضلا عن ملامح  
وجهه المنقبضة ..

— تعال .. عايزينك بسرعة .

— فيه ايه ١٩ الغوا أمر الافراج ؟

— أحمد جاله جواب من مراته ، وطالبه منه الطلاق !

كمطربة نزلت على راسى .. وجدتنى اترنج .. وعلى وشك  
السقوط رافضا التصديق وقد تملكنى رعب فظيع .

— مستحيل .. مستحيل .. كاميليا ، مش ممكن .

( وفى سخريه مرة ) — حثقرا الجواب دلوقت .. مش عارفين  
نقول له ، أو مانقولوش !؟

انتابتنى رغبة جارفة فى أن أعود الى « أحمد » واحتضنه  
فى حناياى احميه من الضربة التى جاءت من أقرب الاقربين ..  
واتلقاها بدلا منه .. غير ان زميلى كان يحث الخطى ويقول : لازم  
نناقش الموضوع بسرعة .. قبل ما تخرجوا .. نعطيه الجواب أو  
مانعطيهموش ؟

من تقاليد الحياة المعترف بها فى السجن فى تلك الايام ، ان  
جميع الخطابات كانت تفتح بمعرفة اثنين « موثوق بهما » يقرانها  
قبل ان يتسلمها اصحابها حرصا على « الأمان » !

أى فاجعة ، أو ضحكة مججلة ساخرة يطلقها القدر فوق  
رعوسنا فى هذا اليوم .. بل وفى هذه الساعة بالذات .. ساعة  
الفرح .. ليضعنا فى الامتحان وليرى : كيف يتصرف الانسان !  
غامت عيناي .. كيف يا كاميليا . كيف توجهين كل هذه

الضربة لأحمدك الوديع الرقيق ؟! أما كنت قسادة على مقاومة  
اخطبوط اليأس ولو بضع ساعات أخرى ويتأخر الخطاب ؟

ودون حتى ان اقرأ الخطاب ، صحت : لا .. مستحيل نقول  
له . مستحيل نقلب الفرع محزنة ، مش بالنسبة له بس ، بالنسبة  
للجميع .

كان الزميل الثالث يجلس فى أحد الأركان ، جلسته  
القرفصائية المعتادة ، نقطة الارتكاز فى وجهه شارب كث غزير ،  
وعينان صقريتان يتكلم بهما معظم الاحيان ، ويقول ما لا يريد ان  
ينطق به اللسان !

نطق فى هدوء : اسمع يا زميل .. الموضوع ده موضوع  
خطير .. قبل ما نتناقش فيه .. لازم نرمى العواطف بعيد !

ادركت على الفور رأيه ، هممت بالاعتراض .. اسرع معترضاً  
بكفه :

— اعطنى فرصة اقول رأيى أنا كمان .. أنا عارف اد ايه  
وقع الخبر حقيقى مؤلم .. لكن حياتنا ايه غير الألم ومواجهة  
الصدمات ؟! دى دروس لازم نتعلم منها .. ودرس النهاردة من  
أخطر الدروس . لازم يتعلم منها الجميع : المكافح ، لا يصح أنه  
يتجوز الا واحدة مكافحة زيه . لازم أحمد يواجه نفسه بالحقيقة  
دى قبل ما يخرج .. أحمد انسان نادر وعظيم وما يصحش يربط  
نفسه بانسانه ضعيفة زى دى .. ثم مين عارف ( والتمعت عيناه )  
يمكن تكون متأمرة مع البوليس بشأن تحطمه !

اشحت بوجهى من فظاعة الاتهام ومن قسوة المنطق . كرهت  
« رتم » صوته الهادئ المثير .. شحبت رومانتيكية الكفاح فى  
نفسى ، صحت رافضاً ، ومعترضاً : ايا كان .. أنا شخصاً غير

موافق انكم تعطوه الجواب .. نسيبه يعرف الحقيقة منها هي ..  
أو .. سييوني اتصرف انا .. انا خارج معاه ، مش حاسيبيه .  
حاروح البيت معاه !

رفع الزميل الآخر يده مؤيدا وقد رأى شبح الفاجعة ينزاح عن  
جو الاحتفال .. وقال :

— أنا موافق .. وبناء عليه ، نقطع الجواب !

قال ذو الشارب الكث .. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة  
الخاضع على غير اقتناع :

— اتنين .. ضد واحد .. اذن فأنا خاضع للاغلبية .

ورحنا نمزق الخطاب نتفا صغيرة بينما كانت ضجة الرقصة  
المرحة الأخيرة تصل الى ذروتها ، فاندفعت الى جوار أحمد ،  
أصفق مع المصفيين والمغنين لكن قلبي من الداخل كان يدمى بالسر  
الحزين !

●  
فى الشوارع كان أحمد مبهورا بالحرية ، وكان يقول : لو  
ان لى جناحين واطير بهما لأرى كاميليا بسرعة .. وكنت أقول  
له فى نفسى لو ان لك جناحين لفكرت فى قصهما .. ان يجب ان  
يحدث شىء قبل ان تراها وتراك .

ونبتت الفكرة :

— ايه رأيك يا أحمد .. آجى معاك .. اسلم على كاميليا  
ونشرب فنجال شاي بيتى وبعدين ..

ودون ان أكمل ، وبحماس شديد وهو يحتضننى بحنان :  
يا سلام ، وتسهر الليل مع بعض و ..



— لا ٠٠ سهرتك الليلة معاها ، وأنا سهرتى ٠٠ فى القاهرة  
العظيمة ٠٠ الليلة القاهرة كلها حقيقى ملكى ٠٠ أنا العازب الشريد  
على الدوام ٠

وضحكنا ٠

حين دخلنا الشارع واقتربنا من البيت ٠٠ كانت خطواته  
تسرع ٠٠ أما أنا فكان قلبى يخفق ، وازدادت الخفقات سرعة ٠٠  
وأنا أرى طفلة صغيرة تطل من احدى النوافذ وتصيح بل وتصرخ  
فرحة مهللة :

— أبيه أحمد ٠٠ أبيه أحمد ٠

ولوح لها بذراعه ٠٠ لكنها فى لحظة كانت قد اختفت ٠  
قال أحمد : دى اخت كاميليا ، كويس انها تقول لها ٠٠ عشان  
تخفف وقع المفاجأة !

وبدأنا نصعد السلالم ٠٠ ودقات القلب تتصاعد وتتصاعد  
٠٠ فى منتصف السلالم فوجئنا بالصغيرة قد وصلت إلينا قفزا ٠٠  
واحتضنها أحمد ، ومضى يقبل فيها بل ويقفز بها فى الهواء ٠ هنا  
انتهزت الفرصة ٠٠ ومضيت اصعد ودقات القلب تزداد تصاعدا ٠٠  
وعلى باب الشقة ، رأيت كاميليا واقفة شاحبة الوجه مصفرة تكاد  
تسقط ٠٠ اسرعت هامسا : اطمئنى ٠ الجواب ماوصلوش ٠٠ قريته  
٠٠ وقطعته !

اتسعت عيناها ٠٠ فرحا ، وبمعجزة هائلة قاومت نفسها من  
أن تعانقنى ٠٠ !

بعد لحظات ، كان أحمد يصعد حاملا الطفلة ٠٠ ورأيت

كاميليا تقفز اليه فاردة لكل ذراعيها .. كل نفسها والدموع تنهمر  
من عينيها \*

— أحمد \*

— كاميليا \*

وعناق .. يندر ان يحس بجماله ويهجته ، اثنان من البشر !  
وفي لحظة ، كنت قد اختفيت ، تاركا لهما الليلة ، ومضيت  
اجوس وحدي .. انا الشريد الأعزب .. فى شوارع القاهرة \*

« ١٩٧٦ »

## الخروج من المربعات الضوئية

حين قذفوا به الى الزنزانة وأغلقوا عليه بابها ، ظل واقفا  
يتسمع وقع الأحذية الثقيلة ، وهى تبتعد بالتدريج ، تصك فى رأسه  
اضعاف ما تصك الكعوب الحديدية فى بلاط صالة العنبر الجهم  
الكبير وعادت الكلمات تطرق فى رأسه وتدوى .

— سنتركك لنفسك ساعة ونعود . خير لك من الآن أن ترحم  
نفسك . ساعة ونعود .

تحسس « الحبة » فى جيبه السرى ، أعلى سرواله الداخلى .  
الشيء الوحيد الذى أبقوه من كل ملابسه ، ثم ألبسوه بدلة السجن .  
ذلك هو المهم : فلتت « الحبة » الصغيرة . . حبة الخلاص . انها  
من الدقة ، بحيث فانت عليهم فى التفتيش ، وانها أيضا من النعومة  
بحيث لا تحتاج الى ماء لبلعها . لحظة واحدة ، وبحركة خاطفة ،  
وينتهى كل شيء ، كل شيء !

— أجل . لن أمكنهم لحظة من تعذيبى . لن أمكنهم منى .

وفكر ان يخرج « الحبة » من مكنها ، ويتأملها . . يتها  
نفسيا للانتحار . . للحدث العظيم : أن يقتل الإنسان نفسه بنفسه

• • باختياره ، لكنه أجفل • سقطت يده الى جانبه • لم تأت اللحظة الحاسمة بعد • • بقيت له فى الحياة ساعة بلا تعذيب ، فليعيشها • • وبهدوء ، كانت انقاسه لاتزال تتدافع ، وأحس بخلخلة فى ركبتيه ، وتنبه - كأنما يرى لأول مرة - أن الزنزانة بها سرير • جلس على حافة السرير •

عاوده الصوت : أجلس واسترح على السرير • مدد ساقيك واسترخ بأعصابك ودعك من هذا الجنون • فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة • • اللطيفة • • نحن لا نريد بك أنت شخصا أى سوء ! هب واقفا كالمسوع • التصق بظهره بالحائط ، وراح ينظر الى السرير :

- هذا أول اعدائى : هذا جزء من الخطة اللثيمة لاضعافى • لن أنطق بحرف مما يريدون • والموقف فى يدى • ( وعاد يتحسس الحبة ) •

وحانت منه لفظة حذرة الى العين السحرية التى تتوسط الباب الضخم الكاليج • ربما يتجسس الآن أحدهم عليه • أعطى ظهره للباب • وقعت عيناه على الكوة العالية الصغيرة ذات المربعات الحديدية السوداء ، تتسلل منها أشعة ضوء باهتة ومتهاكة لاتكاد تصل الى أرض الزنزانة السوداء • • الأسفلت •

جال بعينه فى فراغ الزنزانة • فراغ يمتد مستطيلا الى أعلى وإلى أسفل • • كجب عميق محفور لدفن الاحياء الموتى ، وسرت فى جسده قشعريره • عاد ينظر الى الكوة • خلف المربعات الحديدية السوداء مربعات ناعمة زرقاء • هل يمكنهم أن يحبسوا السماء هى الاخرى ؟ اختفت المربعات السوداء والزرقاء ، ورأى شوارع وميادين وحدائق ونافورات وبيوتا • • بيوتا دافئة بالحنان • استقرت عيناه هناك على شقة صغيرة • • لها شرفة أصغر • •



لكنها على أية حال كانت تسع وقفتك مع الصغيرة وانت تشير لها  
على اسراب الحمام ، وقت العصارى ايام الصيف ، وتحكى لها  
بحنين عن الطيران .. لسوف تطيرين معى يوما الى بلاد العالم .

ـ فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة . تستطيع ان تكون معها  
بعد ساعة .

سقط الطائر فى الفخ ووقع .

مز رأسه بعنف . اسراب مذعورة من الحمام تتخبط :  
ورأى بقية الرفاق بعد الضربة ، مذعورين لحظات ، يغيرون  
مواقعهم بسرعة . ثم .. لابد انهم الآن لائذون باحدى مكانهم  
السرية ، وأيديهم على قلوبهم فى جميع الاحتمالات . بل فى احتفال  
وحيد .

ـ ماذا لو ضعف واعترف ١٤

ـ وهم يحسبون بالأرض تهتز من تحت أقدامهم ، وسيلجأون  
معه بالتاكيد الى التعذيب الرهيب .

وينطلق صوت « عاكف » مستنكرا .. ومدافعا .

ـ لا . لن يعترف . انا واثق بالذات هذه المسرة . انتم  
لاتعرفون . أنا الوحيد الذى يعرف . لقد حسب حسب هذه  
اللحظة ، فأخذ معه سلاحه !

ثم يخبرهم بالسر العجيب . السر الذى ضحك عليه أول الأمر  
ثم عاد بايمان يباركه وهو يخطه على ظهره بود : رومانسى حتى  
فى الكفاح لقلب نظام الحكم .

سيخبرهم بالحكاية من أولها : حين ابلاغته التكليف بالمهمة  
لم يتردد للحظة ، بل تلقاها بفرح . قلت انتظر قليلا . وشرحت له

خطورة العملية • أن هناك احساسا بعدم الطمأنينة على المطبعة •  
ان ضرب المطبعة يعنى ضرب قلب الحركة فى الصميم • لابد من تغيير  
مكانها بسرعة • لم نجد خيرا منك ليقوم بالمهمة • هل تساعدك  
ظروفك هذه الأيام ، أم نسندھا لغيرك ؟ فكر الليلة ، وقل لنا غدا  
فى الصباح •

— لماذا الصباح • المسألة لا تستدعى • أنا الذى سأقوم بها •  
الغريب أنه ، وهو يؤكد قبوله للمهمة — لا يزال يذكر ، فى  
نفس تلك اللحظة ، دأهمه احساس عميق بأنه هذه المرة واقع •  
من فترة غير قصيرة ، وهو يحس بذبذبات غريبة فى الجو من  
حوله • هل بدأوا يتنبهون اليه ؟ أم هى غريزة الدفاع عن النفس  
ولابد مع تصاعد العمليات والصدام أن يتصاعد أيضا حذره ؟

وحين شد « عاكف » على يده ثم مضى عنه وانفرد بنفسه ،  
وراح يستعد نفسيا للمهمة ، وجد الخاطر مرة أخرى يدأهمه • ويلح  
عليه : ماذا لو وقعت فعلا هذه المرة ولجأوا معك الى التعذيب ؟  
لقد حرقوا المدينة ، فهل يصبح كثيرا عليهم حرق انسان ؟ كيه  
بالنار • التعذيب البشع البطيء • اقشعر جسده • مرت بخياله  
قصص التعذيب البشعة • ثم قصص السقوط الابشع : الذين  
كانوا ابطالا ، ثم بالتدريج ، ومع نقطة الماء النازلة بهدوء وانتظام  
فوق الرأس • الرأس المخلوق الأخضر ، بالضبط فوق المنخ •  
نقطة ، نقطة ، الى ان يتم التفكك والانهيال فالاعتراف الكامل أو ••  
•• فالجنون المطبق !! وهؤلاء الذين أرقدوهم ممددين بظهورهم على  
الأرض ، وبالشوم الضخم على بطونهم • ضربة واحدة على البطن ،  
على الامعاء • شهقة واحدة ويعقبها الصمت الأبدى •

هل تعجلت فى قبول المهمة ؟ وتذكر فجأة نوبة الآلام التى

تنتابه في « الغضروف » بين الحين والآخر : اذن فالضرب على البطن أهون .

وأحس كأنما الضربات نازلة بالفعل مرة على بطنه ، ومرة على ظهره ، وراح يتلوى .

ـ لا . لا على الظهر ولا على البطن . لمن أسمع بشيء من هذا ولو للحظة . هنا الموت انتحارا أفضل . . . ينقذ الانسان نفسه وشرفه . لحظة واحدة وينتهي كل شيء !

وقرر .

نظرات الدهشة وعدم التصديق التي ارتسمت على وجه صديقه الطبيب ، حين ذهب اليه في بيته لا في عيادته . . وفاجأه بطلبه :

ـ أريد نوعاً من الحبوب ، اذا تناول الانسان منه حبة واحدة سقط على الفور ميتاً . . في هدوء . . بلا ألم ولا ضجيج !

ما زال يذكر النقاش الحاد الذي جرى بينه وبين صديقه الطبيب ، الى حد تهديده الجاد بالقطيعة : أنت تعرف جيداً حبي للحياة ، حبي لابنتي وامراتي . . حبي للوجود في حد ذاته . . هل تتصور انى سأفرط في حياتي بسهولة ؟ ولكن افترض انهم لجأوا معى الى التعذيب وانت تعرفهم . وتعرف أيضاً مأساة الغضروف عندي . . ماذا لو انهالوا عليه بالضرب ؟ تظن انى سأحتمل عليه ضربتين ؟ هنا الخوف يا صديقى . . فأنا بشر ، بشر وقد انهار . . وتتساقط منى الكلمات والاسرار . . ويضيع كل شيء . . يضع الرجل بضياح شرفه ، عند تلك النقطة تصاعد بينهما النقاش وازدادت حدته : الحياة أم الشرف ؟ لو تعارض الاثنان : حياة الانسان مع شرفه ، أيهما تفضل يا صديقى الطبيب ؟! ثم

أن المسألة ليست مسألة شرفى فقط .. الكفاح .. لا بد أن يتصاعد  
وأن نضمن استمرار صعوده .. أنت نفسك لا تكف عن السخط  
والشكوى . أنت نفسك قلتها أكثر من مرة : الحل الوحيد هو الثورة  
.. هاهى قوى الثورة ماضية ولكن فى الخفاء .. اذن ساعدنا على  
أن نبقى أقوياء ، أو نموت شرفاء !

رائع يا صديقى الطبيب انك اقتنعت فى النهاية ، ولو أنك  
لم تعطنى سوى اسم الحبوب ، ثم قمت أنا - بطريقتى -  
بشرائها .

الآن .. لا بد أنك تعاني حالة ندم ، لو حدث وتناولت «الحبة»  
ومت ، ستحس ، أمام حزن الصغيرة وأمها ، أنك أنت القاتل ،  
وربما أنت الآن أيضا خائف . أن يأتى ذكر اسمك على نحو ما فى  
القضية : لا يا صديقى الطبيب العزيز ، ذا الوجه الوسيم الأبيض  
المضىء . اطمئن واحداً بالآ . لو حدث . فاعلم أنك أنت الذى  
ساعدتنى على أن أموت رجلاً ، فما الرجل يا صديقى .. يارجل  
التشريح ١٩ هل هو مجموعة خلايا وغدد وعروق وشرابين وأمعاء  
وعظام وكيس من الجلد الرقيق يجمع كل هذا ١٩

الرجل قيمة يا صديقى .. الانسان قيمة يا صغيرتى التى كنت  
دائماً احدثك عن الطيران .. وحكايات البطولة ا لو حدث ، فسيحدثك  
الرفاق من بعدى عن طيران الروح ، فليست المادة فقط هى التى  
تطير ، بل الروح أيضا ، وتحلق .

- ولم لا تضع كلامك هذا تحت بند « الانانية » ؟ اتظن أن  
هذا سيكون عزاء للصغيرة .

- نعم يا بابا .. أريدك أنت . أريد كفيك وحضنك وكلماتك  
ولعبك معى فى الحديقة الواسعة المطلة على نهر النيل !



• أنا أيضا أريد يا صغيرتي • بل اشتاق • • اشتاق •  
ولكن • •

• تستطيع أن تكون معها بعد ساعة • استرخ • • وفكر على  
مهمل •

عاودته وجوه العسكر الخشنة المظلة الجهولة • والضابط  
الطويل النحيل ، ذو الأهداب المنتوفة • العيانان ثعبانيتان ، ومع هذا  
في حركة الجسد رقاعة كريهة توحى بشر مستطير ، ثم وهو واقف  
على الباب •

• تذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية ، ولا بد أن يعرف كل  
من له صلة بهذه المنشورات ، وأين تطبع •

• ضربة كبرى للكفاح وللرفاق سنكون ، وسأكون أنا  
الضارب لا الملك •

• ساعة ونعود ، لقد اعذر من أنذر •

ورأى أبواب جهنم تفتح ، صرخ في أعماقه •

• الا التعذيب الجسدى • الا الضرب على الغضروف • •  
نقطة ضعفى • • اه لولا الغضروف •

وتقلص كل كيانه فى وقفته ، كأنما التعذيب الحقيقى بدأ •  
لا • • لن أحتمل • • لا مفر من أن • •

فجأة • شد قامته وأرهف أذنيه • • الكعوب الحديدية مرة  
أخرى ، وثمة همهمات تقترب • الوحوش قادمون • فلأخرجها  
يسرعة • اتناولها فى لحظة وينتهى الأمر •

تخشب يدها الى جانبيه • • ذهبت نظراته الى مربعات  
الضوء •

— لا .. ليس هكذا بسرعة .. أنه الموت يحدث مرة واحدة ،  
أجله الى اللحظة الحاسمة ، الى اللحظة التي تحس فيها أنك غير  
قادر على الاحتمال .. وانك أصبحت تماما على شفا الانهيار ، فى  
تلك اللحظة تستطيع أن تقفز طائرا منهم الى هوة الموت بارادتك ..  
والموقف فى يدك .. الموت فى جييك • تستطيع أن تستدعيه فى أية  
لحظة .. بمشيئتك .. و .. وبعد أن تكون قد صيبت عليهم اللعنة ،  
نعم .. وأعلق دمي فى رقبتهم .. لا يمكن أن أعفيهم من مسئولية  
موتي •

الخطوات تعلو وتدوى .. كل شىء هنا يضاعف من بشاعة  
الصوت : الاسلاك والبلاط والاحجار والأسفلت وأسياخ الحديد ،  
والعنابر الثلاثة القريبة • كل عنبر بثلاثة ادوار ومئات الزنازين •  
لكنهم القوا به فى زنزانة بعيدة منفردة ..

الخطوات وصداها تعلو وتقترب تختلط فى رأسه وتتخبط ،  
ورأى الباب يفتح •

ودخلوا عليه ..

الضابط ومجموعة العسكر •

بحركة تلقائية ، لکن يتحسّن سلاحه ، وضغط يده على  
موضع الحبتين •

— هل أنت متعب ؟

قالها الضابط وقد لمح حركة يده بنظرة صقرية .. مستريية •  
— لا ..

وأسقط يده فورا الى جانبه .. وأسرعت دقات قلبه ان رأى

الضابط يقترب منه ثم يمد يديه ويتحسس حول خصره بحذر • هل سيكتشف الأمر ؟

ـ أنتم قوم خطرون • لا أمان لكم •

ـ فتشناه جيدا يا سعادة البية •

أحس بارتياح عميق ••

كان يظن انى أخفى مسدسا ، نعم •• أنا أخفى مسدسا ولكن  
من نوع آخر •• وأحس بلسعة حزن • سأقتل به نفسى ، ولا أستطيع  
للأسف ان أقتلكم به ••

ـ هل استرحت جيدا ؟

ـ نعم •• ( غمغم بها ) •

ـ اذن فأنت مستعد !

ـ لماذا ؟

ـ تقول لنا •• كل شيء !

ـ أنا لا أعرف أى شيء •

ولج فكى الضابط يرتعشان رعشة خاطفة • والعسكر ، فدت  
عنهم حركة الاستعداد للانقضاض • كلاب صيد تستعجل صدور  
الإشارة ••

ـ لآخر مرة أقولها لك •• أعقل وتكلم •• أنت لاتعرف

ما الذى سيحدث لك •

ـ أرح نفسك وأرحنا ، يا مغفل ••

صرخ أحد العسكر فيه •• ورأى شومة تهتز •• وأخبرى

ترتفع فى الفضاء • وأحس بأنفاسه تذهب ، ماكان يجب أن أوْجل •  
كنت زمانى انتهيت •• ومع هذا فالموقف فى يدى •

— ماذا قلت ؟ •• لاتريد أن تتكلم ؟

— قلت لك لا أعرف أى شىء ••

وبابتسامة بشعة ، مع رفعة حاجب •

— هل تظن نفسك بطلا •• أو زعيما ؟

— أنا لم أقل أى شىء !

— لم تقل ، ولكنك تتصرف •• هه ؟ لقد حاولوا من قبلك  
وخرجوا ساجدين ••

قال فى عمق نفسه ، الآن أريد أن أموت • الآن حل وقت  
الموت ••

— يبدو أنك من الصنف اللئيم • لكننا نعرف كيف نتعامل  
مع صنفك !

هل يمد يده ويخطف الحبتين ؟ فى نفس اللحظة كانت  
الإشارة قد صدرت ، وحدث الانقضاض ، أحس بذراعيه تلتويان  
فجأة الى الخلف بشكل وحشى ، وخيل اليه مع الألم الصارخ أن  
الذراعين ستنفصلان ، أو انفصلتا عن الكتفين •• ثم بضربة يد  
هائلة — بسيفها — على عنقه •• خرجت منه شهقة •• كأنها النفس  
الأخير • أحس أن العنق طار من فوق الكتف ، وانسان العين قفز  
من محجره ، ودارت به الدنيا رأسا بلا جسد ، أو جسدا بلا رأس •  
غير أن الدورة سرعان ما توقفت • وأحس بارتجاجة ضخمة فى  
بطنه ، ضربة حذاء فى البطن فأنكفا صارخا على الوجه ، غير أنه  
عاد فوجد نفسه يرتد الى الخلف اثر ضربة فى الظهر ، تبددت معها  
شظايا الوعي الباقية • وسقط على الأرض بلا حراك •



— أنه يتنفس • أليس كذلك ؟ رشوا عليه بعضا من الماء ، من هذا الجردل •

ومع اندلاق الماء على الوجه الملتصق بالأرض •

— هذه عينة أولية • • يا بطل !

ومع احدى شظايا الوعي التى كانت تروح وتجيء : لا خلاص الا بالموت السريع أو أتكلم وينتهى الأمر • لابد أن ينتهى هذا العذاب على أى وجه • وفكر أن يدس يده بسرعة ويخرج الحبة ويبتلعها ، لكن العيون الشرسة واقفة له بالمرصاد • • سيحولون دون أية حركة من اليد ، بل ان اليد نفسها والذراع • • أين هما ؟ وجاؤا أن يجرب الاحساس بوجوده الجسدى ، ليتأكد من انه لا يزال على قيد الحياة • • ومضى يتأوه •

— اذن فقد أفقت • • عظيم •

وفوجيء بقبضة تجذبه جذبا من شعر رأسه الى أعلى ، ووجد نفسه معلقا يتطوح •

— هذا الشعر الناعم لن نحلقه لك ، بل سنقتلعه من جذوره •  
خصلة خصلة • • أيها المسلول الابله •

وعادت الركلات واللكمات والضرب بالهراوات •

— كل هذا فتح شهية لا غير • • أما الأكلة نفسها ، فلم تبدأ بعد • • أنت لا • •

ولم يسمع بقية الكلمات • أصبح جثة فى أيديهم تروح وتجيء وفق ايقاع الضربات •

— ابعدوا عن الرأس • انزلوا الى أسفل •

— اتركوه •

تركوه • سقط •

— شيلوه • • وارموه على السرير •

ورفعوه من على الأرض ، وألقوا به على السرير •

— هذا يكفي الآن •

ثم خرجوا • وقفلوا عليه باب الزنزانة •

شيئا فشيئا كان يعود اليه وعيه • أولى علاماته أنه رأى  
سقف الزنزانة ، والحوائط ، ثم المربعات الضوئية • وخيل اليه  
أول الأمر أنه في قبضة لكابوس ، أو حلم فظيع ، لكنه أحس بسيخ  
محمى يخترق غضروفه والألم يخرج من الرأس • • بل من العينين • •  
صرخ ! وحاول أن يرتفع بظهره قليلا عن السرير ، فقد يخف الألم •  
انبعثت منه صرخات الألم • ترك نفسه ذرات مفتتة على السرير • •  
وانتابته رغبة شديدة في البكاء وفي النواح • لقد انهالوا على  
نقطة ضعفه • على عموده الفقري • كم فقرة من الفقرات بقيت  
مرتبطة باختها ؟ وأحس بشيء ما ثقيل على الشفتين ، عند ركني  
الفم • رفع يده بجهد هائل يتحسس قمه • أحس بشيء لزج • وحين  
نظر في يده ، رآها ملطخة بالدم • استبشع المنظر •

— متوحشين • • متوحشين •

— قلت لك اعقل وتذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية • ولو  
فشلت أنا معك ، فسيبحث لك برجال من عنده • رجال مخصبسون  
لهذا • رجال خرس • • مخصيون • هل تعرف ما الذي سيفعله معك  
هؤلاء المخصيون ؟

وانتابته رعشة ، مع رغبة في الغثيان • يعرف ماذا يفلعه  
العجز الجنسي عند بعض الرجال • • لا • • ليس عجزا • • بل  
بقرا • • يتحولون الى اكلني لحوم البشر كتنعويض •

— لا .. لم يعد لى احتمال ذرة من التعذيب أكثر من هذا .

وتملكته رغبة فى النواح : المخصيون يا امرأتى .. وقد  
لا أصلح معك ان عدت لك حيا . انهم يودون ابادة الرجولة فى  
البشر ، بعد أن أفقدوهم اياها ..

هل يصبح للحياة طعم بعد ذلك ؟

أحس بالمهانة .

وان لم يفعلوا بى هذا ، فساخرج محنى الظهر . تفتت عمودى  
المقرى . لن أصلب عودى وأنا أسير مثلما يفعل الرجال ، بل  
والأطفال ! سأمضى بقية حياتى طريح الفراش ، وان سرت فمحنى  
الظهر ، واذن ما معنى الحياة . ومضى يتأوه .

— هناك حقا شيء فى العالم يستحق أن يعذب الانسان نفسه  
من أجله كل هذا العذاب ؟ ( لكلمات الطبيب تعاوده ) أكان عنده  
حق ؟ .. ولماذا تتحمل أنت أوزار التاريخ . لماذا ؟ وانت كنت  
تؤمن حقا بالتطور التاريخى ، وأنه قانون الحياة الطبيعى وان  
النصر فى النهاية للشعوب ، فلماذا هذه العجلة ؟ لماذا تضع نفسك  
فى منطقة الاحتراق ، بينما الآخرون يتفرجون ثم فى النهاية يأخذون  
هم الثمرة والضوء ؟ .. تقول انك تتعجل التاريخ ؟ بل قل انك  
تتعجل موتك . ولن تخلف ضوءا للصغيرة وأمها ، بل حزنا مقيما ..  
أجل يا صديقى الطبيب . وكنت ضحوكا معهم ، فرحا بالحياة ،  
سعيدا بتلك الهناءات الصغيرة ، تصنع بعرقك ويديك عالما جميلا .  
وكانت الحياة يمكن أن تمضى جميلة وبسيطة ، وتطور الحياة  
يمضى الهوينى ، لو لم أقابلك يا « عاكف » . فى البدء قاومتك بعضا  
من الوقت ، ثم أخيرا وجدتنى أنا الذى أجرى وأبحث عن مناطق  
اللهب . استهوتنى حياة الخطر العظيمة .. أصبحت تلك هناءاتى  
السعيدة . أجل يا عاكف .. لست انت المسئول . بالعكس . انت

فتحت لى بعض الأبواب المقفولة منذ الاف السنين ، فمضيت افتح  
باقى الأبواب .. بانبهار .. بابا بعد باب .. مفتونا بسحر  
الاكتشاف ، وان عالما جديدا رائعا ، يمكننا صنعه لا لصغيرتى  
فقط ، بل لكل الصغار .. بل ولكل الناس .

.. اكان كل ذلك غرورا .. وهما بالبطولة ؟ .. ( ومضى يتقلب  
فى حمى الألم ) وبعد قليل سيبتعدون وربما يأتى المخصيون ..  
لو فشلنا معك فسيأتى لك الحرس .. المخصيون !

سوف يأتى الدور عليهم .. لم أعد بقادر . لم أعد بقادر .  
اسياخ الألم . وسقطت من عينيه دمعتان .

— اما الاعتراف الفورى ويكفون عن هذا الجنون — أو  
الانتحار الفورى وقبل ان يجيئوا ، فيجدوننى جثة هامدة بلا  
احساس .

القرار السريع . لابد من قرار سريع .

الانتحار هو الخلاص الوحيد . وبجهد هائل كاتما صرخات  
الألم ، استطاع ان يدس أصابعه فى المكنى السرى ، واخرج الحبة .  
احس بها ملفوفة داخل ورقتها الصغيرة المزخرفة . تدافعت انفاسه .  
أطبق كفه على الورقة ووسد ذراعه بحركة سريعة الى جانبه . ربما  
رآه واحد منهم يراقبه من العين السحرية . وضع كل وجوده فى  
اذنيه . لم يسمع صوتا .. الآن .. فى هذا الهدوء العميق الشامل ،  
سينتظر اى حل الوقت . لحظة واحدة وينتهى كل شئ . ورأى  
نفسه ممددا محمولا داخل نعش ، ورجال من أهل الخى يحملونه على  
اكتافهم متجهين الى المقابر .

.. لا حول ولا قوة الا بالله . يقولون انه انتحر من كثرة  
التعذيب ..



— بل يقولون انه انتحر قبل ان يبدأ التعذيب ، ليتجنب  
التعذيب •

— أما كان قادرا على أن يتحمل ! تعالوا وانظروا نوع  
التعذيب •

ورأى الصغيرة وأمها فى السواد • الصغيرة أيضا تلبس  
السواد ، وتصرخ مع أمها فى التياح •

ورأى الرفاق يسرون وسط الجنازة ، منكسى الرؤوس  
بالحزن الجليل •

— بابا •• لماذا تركتنا يا بابا • لمن تركتنا يا بابا ؟

أما كان قادرا على أن يتحمل • كان لابد ان يتحمل •

— لكنه لم يعترف •• قلت لكم انه لن يعترف •

يا عاكف •• يا صديقى قبل ان تكون رفيقى الحبيب •• لماذا  
لاتبتسم لى اهل انت غاضب منى ؟

عاكف يصرخ •

— أجل •• لا تنتحر •• اياك من الانتحار •• لابد أن تحتمل  
•• أو على الأقل أجل انتحارك الى لحظة اليأس المطلق •• آخر  
ذرات اليأس الكامل •• مازلت قادرا على الاحتمال •• مازلت  
قادرا ••

— والخرس يا عاكف •• والمخمس •• الآن الموقف فى  
يدى • قد يفلت الأمر منى بعد هذا •• بعد قليل قد افقد القدرة عليه  
•• ويتم السقوط •• أنا لا أهرب •• أنا أحافظ عليكم •• أنا •

وأحس فجأة بكل وجوده المتهالك ينتفض وتعالى دقات قلبه  
كالطبل • سمع وقع الكعوب الحديدية تصك فى بلاط العنبر • ها

قد عادوا • وستفتح أبواب جهنم من جديد • أسرع ورفّع يده  
بالورقة •• الى مستوى عينيه •• رمقها بنظرة ذاهلة • أحس بها  
ترمقه : ولماذا تتعجل ؟ لماذا ؟ الآن أصبحت فى يدك • بين أصابعك  
أصبحنا الآن مسيطرين على الموقف • فى أية لحظة يمكن • واذن  
فانتظر • وأنا معك •• سأرحمك فى الحال • وقتما تشاء •• المهم ان  
تكف عن الرعشة ، شدد قبضتك على ، أكاد أسقط منك على  
الأرض •

— وتسقط جميع الأشياء •• بل انى موشك على السقوط ••  
لم أعد بقادر • ( وازدادت الرعشة ) •

— عظيم •• احس بقبضتك تزداد قوة •• وحينما ينتهى  
التشريح ويكتشفون ذراتى ، سأقول لهم : قاوم حتى المنتهى •• حتى  
النهاية • اياكم ان يلومه أحد على الانتحار •

— لم •• لم •• لم أعد قادرا ، أخاف ان •

وانقطع هذيانه • فتح الباب ودخلوا • نفس الوجوه • لم  
يأت المخلصيون •• سوف يأتون بعد ان يفشل هؤلاء •• ولكنهم  
سيأتون ليجدونى ميتا •

واستطاع أن يرى ابتسامة كريهة متزلقة على فم الضابط •

— هل أخذت راحتك ؟

لم يرد •

— أمازلت مصرا على انك بطل ؟ ( وصرخ ) انطق • ليس  
عندنا وقت !

— ماذا أقول ؟ !

— اعترف بكل شيء •

— أنا •• لا أعرف •• أى •• شيء !

ارفعوه من على السرير ، وارموه فى الأرض ،

وأحس بمخالب تطبق على بطنه . ثم بجسده يرتفع فى الفضاء  
ويسقط على الاسفلت ، اشتعلت النار فى بدنه . . . تأوه صارخا بلا  
وعى .

- اقفل فمك هذا . . النجس . اياك ان تخرج اى صوت ،  
أربطوا رجليه ومدوه .

- لا . . لا . . لاتفعلوا هذا .

- تكلم . . ونحن لانفعل أى شىء !

- انا . . انا .

واستماتت يده على الحبة ، بل ان كل وجوده تركز فى كفه .  
فليتداعى كل جزء فيه الا هذا الجزء . . يجب ان يظل محتفظا بها  
حتى اللحظة الأخيرة . مازال فيه بعض عروق قادرة على الاحتمال  
. . والاهون ان يضربونى على قدمى . . بدلا من الضرب فوق  
المغضروف . . لكنهم كانوا قد انقضوا عليه وربطوا رجليه بحبل  
ورفعوا قدميه الى أعلى .

لم يأت الألم طافحا من القدمين ، بل من كل ذرة فيه . . طفحت  
منه صرخة العذاب .

- متوحشين . . متوحشين .

قهقهة الضابط : نحن متوحشون ؟ نحن ارحم من غيرنا بكثير ،  
لم يأت لك المخصيون بعد !

صرخ : بل انتم المخصيون . . وانت المخصى . نعم انت  
المخصى !

كأنما حدثت صاعقة في الجو . ارتعب لها الضابط وارتعد معه كل اتباعه ، وتوقف الضرب رغم أنه لم يحدث أمر بذلك وبصوت كالفحيح ، انما اختلطت به غنة رقاعة .

— ماذا تقول؟! نحن .. مخصيون؟! أنا .. مخصى ؟

وفجأة ندت عنه قهقهة بشعة ، تبعها قهقهة اتباعه .. كانوا جميعا يقهقهون ساخرين .

— نحن مخصيون ؟ .. ويقهقهون .

ورأى الضابط يضع يده فوق أعلى فخذه .

— هل أخلع .. وأريك ؟

— ليس شرطاً . ان تكون ذكراً . انما .. انت .. مخصى الرجولة . مخصى الرجولة . كلكم مخصيو الرجولة !

— كأنما ارتجأه كبرى حدثت في الكون .. لم ينتظروا الأمر .. إنهالوا عليه مرة أخرى بجنون .

— مخصيون يا أولاد الكلاب .. مخصيون .. مخصيو الانسانية ..

واستمات على الحبة .

كان قد بدأ ينسى الضربات ، ويركز بقدر ما يستطيع في الحبة وطاف به للحظة شعور سعيد : لقد قال مالم يريدوا ان يقوله .. والآن سيفسد عليهم ايضاً متعة التعذيب .. يا حبوب الخلاص . يا حبوب السعادة .. الآن حل الوقت . سابتلعك في لحظة وينتهي كل شيء .. وشرع يحرك يده ، أحس فجأة بشعور غريب .. حتى انه لم يصدق .. الضربات لم تعد تؤلم . حدث خدر عجيب في كل جسده ، هل ماتت الخلايا فلم تحس بالضرب الا كايقاع بعيد ..



واحس برأسه ، وكله ، يطير ٠٠ وان له أجنحة ٠٠ هل عبرت جسر  
الألم ، جسر العذاب عبرته ٠٠ وراح يتتبع الضربات تنهال عليه ٠٠  
أجل ٠٠ لا ألم ٠٠ واذن فلماذا الانتحار ٠٠ وانفجرت أصابعه عن  
الحبة ٠٠ كان يخيل اليه أنه لا يزال محتفظا بها ، لقد سقطت منه  
من زمن بعيد ٠

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، جن جنون الضابط واتباعه  
فمضوا يلهثون وهم يضربون ٠٠ وخيل اليه أنه يطير من المربعات  
الحديدية ، ليست حديدية ٠٠ بل ضوئية ٠٠ السماء فسيحة وعريضة  
وأرض البشر تموج بالحياة ٠٠ والصغيرة ٠٠ والحببية ٠٠  
والرفاق ٠

واختفت المربعات الضوئية ٠٠ واطبق الظلام ٠

لكن حبة صغيرة على الأرض ٠٠ كانت تشع بالنور وبالحياة  
٠٠ وسط كل هذا الظلام ٠

« ١٩٧٩ »

## الأمـل . . والجـرح

خرجت من بيتى أعدو فى الشارع بكل سرعتى ، كنت أرتدى  
بيجامة النوم ، لكنى لم أعبأ . لم تكن هناك لحظة تحتمل تغيير  
ملابسى . كان المهم أن الحق به .

كنت قد رأيته فجأة وأنا راقد فى سريرى ، مستيقظا لتوى من  
النوم . يمر مسرعا أمام النافذة . كتلة مجسمة . برداء فضفاض  
كأنه أجنحة . وكان لحركته خفق طائر مهيب من طيور الاساطير .  
أحسست بصوت قدميه المسرعتين على أرض الشرقة ، كأنه موجة  
بحر فى لحظات المد .

دق قلبى بالفرخ ، وانتفضت من على السرير ورحت أعدو فى  
الشارع كى الحق به ، أمسكه بكل ذراعى وأتشبث به . أعانقه بكل  
الحنين والشوق : ألا يعرف انى من زمن طويل وأنا فى انتظاره ؟  
فلماذا لم يتوقف لحظة عند نافذتى . . بابتسامة لا أكثر ، وتلويفة  
بالذراع : ألى اللقاء .

ويواصل جولته فى المدينة .

مضيت أعدو . كان الشارع طويلا . . وخاليا . تراه وصل

الى نهايته ودخل شوارعاً آخر ٠٠ أم دخل أحد هذه الشوارع الجانبية الصغيرة التي تقضى بدورها الى شوارع أخرى كثيرة ؟

لم يكن هناك وقت للتردد ٠ فالتبع احساسى ٠ لمع خط من الضوء فى رأسى ٠ هو بالقطع سيمر على نهر النيل ٠ أول شيء يفعله العائد الى مصر بعد غيبة طويلة يذهب الى ضفة النهر ويأخذ نظرة يروى بها عطش الغربة الطويل ٠٠ أه لو الحق به هناك ٠٠ أخذ يده فى يدي ونهبط جرياً ٠٠ نضحك مرحاً ٠٠ ونفسل وجهينا سوياً بماء النيل ٠ نفترف بقبضاتنا ونشرب ٠٠ ما أخرج أجسامنا وأرواحنا الى طمى ٠٠ الحياة ٠

انحرفت مندفعاً فى اتجاه النهر ٠٠ أعدو بكل قوتى حتى وصلت الكورنيش ٠ لم يكن هناك أحد على الإطلاق ٠ ليس غير الأشجار ٠٠ وضوء ما بعد الفجر الفيروزى يكسو الفضاء ، ومجرى النهر ، والعمارات العالية المطلة على الجانبين ٠

وفكرت : هذا هو غرب المدينة ٠ ربما فضل ، بقوة الشوق ٠ أن يبدأ جولته بناحية الشرق : القلعة والمقطم وزينهم وباب الشعرية والمقابر ٠٠ مقابر الخفير والوزير والسيدة نفيسة ٠٠ لا ٠٠ لا أظن أنه يتذكر الموتى أول لحظات الوصول ٠ أم أنه الوجدى بالتاريخ يولد فى النفس أيام الاغتراب ؟ يقولون أن جذور الوطن تمتد أكثر فى قلب الانسان وهو بعيد عنه ٠ وكلما طال البعاد كلما نمت وامتدت فى قلبه الجذور ٠

فلأواصل العدو فى أى اتجاه ٠٠ سوف أترك حركتى لقدمى ٠٠ الدخول أكبر عدد من الشوارع والحوارى والميادين ٠ ولو استدعى الأمر أن أدق على أبواب بعض البيوت سادق عليها واسأل عنه ٠

مضيت أعدو ٠٠ توقفت فجأة وأنا أتأوه وانحنى على قدمى وأمسك بها ٠ أخرجت قطعة زجاج صغيرة مسنونة ٠ ورأيت الدماء

تنزف من قدمي • لم أعبأ • ليس هناك وقت أضيعه في تضاميد الجرح • لو قابلته فهو الذي سيضمد جرحي • وجميل أن يعرف أنني نزفت دماء لكي أراه • ليس دماء فقط ، بل نزفت شهورا وأعواما من عمري • ومضيت أعدو • خفت سرعتي بعض الشيء • وكنت أعرج ناظرا في كل الاتجاه • يشبق الشوق • لو اصطدم به في أية لحظة ، وأعيش زخم العناق • أملاً به روي ، وخلاياي • انتبهت فجأة على يد تمسك بي من الخلف بقوة وعنف

— أعطني بطاقتك •

كان واحدا من عسس الليل •

قلت وأنا أحاول أن أخلص نفسي من قبضته ••

— بطاقتي •• تركتها في البيت •

— اذن أمامي الى قسم الشرطة •

لم أكن أريد أن أجرح اللحظة • قلت متجاوبا :

— أمامك الى قسم الشرطة •

وسرنا • في الطريق سألني : اسمك •• وعملك ؟

حين قلت له أسمى وعملى • توقف عن السير وارتسمت على وجهه الدهشة المتزجة بالرغبة • أسرعت قائلا :

— لا تظنني مجنونا • كان الأمر لا بد أن يسبب على هذا

الوجه ، لم يكن هناك وقت لاغير ملابسى ولا حتى لارتداء حذائى • كان لا بد أن أجري بسرعة لألحق به •

سألنى ودوائر الشك تتسع في عينيه : من هو ؟

بماذا أجيبه ؟ لو قلت له الحادث بالضبط لن يفهمنى • فليكن

كلامى معه •• بالرمز •• قلت له : انه •• ابني • منذ سنوات وهو



غائب عني • ولم أكن أعرف له أرضا • • واليوم رأيته • لمحته يمر  
مسرعاً أمام النافذة ، فجريت ملهوها في الشارع لألحق به •

قال مستنكراً بغضب : أي ابن هذا الذي يمر على بيت أبيه بعد  
غياب طويل كما تقول ولا يدخله ؟

اختلط الخيال بالواقع ، والحقيقة بالرمز •

قلت متنهدا من أحشاء القلب : الحق انى أنا المستول • لقد  
ربيته على انه ابن للعالم أكثر من كونه ابناً لى • • كما أفهمته أن  
تحولات رائعة تحدث للكائن الحى ، وأن الانسان يمكن أن يوهب  
قدرات الطيور • وصحت معه المعجزة • انطلق يعيش أولاً كابن  
للعالم ، وليس فقط كابنى • وما هو اليوم بعد أن عاد بعد الغياب ،  
يعيش أولاً كابن لصر • • يجوب أفاقها • يحتضنها • • يحتويها •  
ثم بعد ذلك يأتى الى أبيه • ويحتضنه • • يا له من عناق سيكون •

وزادنى الشوق انفعالا : اننى • • منذ لحظة رؤيته ، وأنا  
أتنفس ببساطة • أحس أن عنصراً جديداً حلوا أصبح يسرى فى  
الجو ، وأن الهواء خف وزنه • • وأن • •

ولم أكمل • • كان قد بلغ بى التأثير أن تهدج صوتى ، وقاومت  
دمعة أحس بها الشرطى • • فقال لى :

أسمع • أنت فى حالة غير طبيعية • وستتعذب كثيراً لو ذهبت  
بك الى قسم الشرطة ، وسأتعذب أنا أيضاً معك ،! امض الآن الى  
بيتك • فلو كان اسمك وعملك حقاً كما تقول ، فماذا سيقول الناس  
عندك ؟ • • ها هى المدينة صحت والناس ملأوا الشوارع •

وانتبهت • كانت المدينة قد بدأت ملحماتها الجهنمية اليومية  
المألوفة • وأدركت حالى ، وأنى بالبيجامة ، وحافى القدمين • •  
والقدم اليمنى تنزف •

تداخلت فى بعضى • سحبت نظراتى عن الناس والاتوبيسات  
والعربات والموتوسيكلات •

التمست طرقاات جانبية • سرت بجوار الجدران • وصلت  
بيتى • لحسن الحظ لم يكن البواب موجودا • ولا أحد من السكان ،  
لحظة دخولى •

دخلت حجرتى • ربطت جرحى • عدت الى سريرى • واصلت  
رقدتى كما كنت •

كان جرح قدمى يؤلمنى • لكن ثمة نشوة كنت أحسها فى  
الآلم ، وأنا أنظر عبر زجاج النافذة ، مستعيدا ومثبثا المنظر فى  
حدقة عينى •

أجل •• من هنا مر •• بعينى الاثنتين رأيته •• يا لمنظره  
المهيب • بردائه الجليل •• كالومض •• كخفقة طائر من طيور  
الأساطير •• أو كموجة البحر ساعة المد •• أما كان عليه أن يتوقف  
لحظة بنافذتى لحظة واحدة أتملى فيها وجهه ، وتلتقى البسمتان •

ابتسمت وحدى متنهدا •

ليس هذا هو المهم •

المهم أنه عاد •

المهم أنه الآن يجوب المدينة •

وضعت يدى على الجرح •• ورحت أنتظر ••

(( ١٩٧٩ ))

## ذو القرنين

وقع « الشيطان » فى حب رسامة جميلة ، فماذا يفعل كى يكسب قلبها ؟

ذهب الى شيطان الفن ورجاه باسم الأخوة الشيطانية ان يمنحه موهبة الرسم كى يرسم لها لوحة تدير رأسها ويكسب بها قلبها . . غير أنه فوجئ بشيطان الفن يضحك مقهقها ساخرا ويقول: او تظننى شيطانا بحق مثلك ؟ لا . . ياذا القرنين . حقا ان عنصر النار هو الذى يجمع بيننا ، لكنك النار التى تحرق وتدمر ، وأنا الجذوة التى تضىء وتشع وتلهم . لقد أسمونى شيطانا من باب التجاوز ، من فرط دهشتهم لما أوحى لهم به من روائع . انما أنا « ملك » ( بفتح اليم ) ملك عظيم أيها الشيطان . . تذكر هذا .

أحنى له الشيطان رأسه خشوعا وولاء وعاود رجاءه : اذن فتكرم على أيها الملك وأعطنى من جذوتك . لسوف تفعل بهذا فعلا عظيما . . ستقلل من عدد الشياطين شيطانا . . وتزيد من عدد المحبين . . محبا . . عاشقا .

ابتسم الملك وقال له منبها : وماذا انت فاعل فى قرنيك ؟ اعلم  
انك تجيد اخفاءهما مثلما انت الآن فاعل ، فماذا لو ظهرا فجأة فى  
جبهتك وانت واقف معها ؟

قال الشيطان وهو يدعك جبهته الناعمة اللامعة بشدة : لا .  
لن يظهر بعد اليوم . فقد اجتثتتهما من جذريهما . اطمئن . سوف  
أبدأ بالحب حياة جديدة . فقط امنحني هذه الموهبة .

قال الملك : ولكن لماذا موهبة الرسم بالذات ؟ لانها رسامة ،  
تريد أن تكون رساما مثلها ؟ أن الناس لا يستهويهم الا الأشياء التى  
لا يملكونها .

قال الشيطان بحماس وتوتر : هذا صحيح . فلتعطينى .  
ماذا تعطينى ؟ اه . . اعطنى موهبة الشعر وأصبح شاعرا . الشعر  
ساحر القلوب الأعظم .

ابتسم الملك ابتسامة ذات مغزى وقال له :

— اذهب . . فأنت شاعر . . ولنرى .

\*\*\*

للحظ كانت الرسامة قد أقامت معرضا لرسوماتها فى إحدى  
صالات المعرض المعروفة وسط المدينة . واليوم يقيمون احتفالا  
بمناسبة افتتاح معرضها . وعلى الفور رسم خطته وشروع فى  
تنفيذها : انتظر حتى انتهت كل الكلمات التى قيلت تحية لها  
ولأعمالها ، ودخل هو مستأنذا خجولا . . بقصيدته . فأحدث جوا  
رائعا فى الحفل . ووجدت الرسامة نفسها مندفعة إليه لتشكره .  
فقال لها أنه هو الذى يشكرها فهو من زمن كان قد توقف عن قرص  
الشعر وجف احساسه بالجمال ، واذا بجمال خطوطها واللوانها  
وتعبيراتها ، يفجر فيه النبع الراقد ، والشعر يخرج منه بلا شعور .  
ازداد انفعالها وأمسكت بكفيه متأثرة ! حينذاك نظر فى عينيها وقال



بصوت مرتعش : ان قصيدة أخرى تولد الآن فى قلبى ، فهل تتكرم  
المهمة العظيمة بسماعها بعد انتهاء الحفل ؟

ـ ولماذا بعد الحفل ؟ تعال بعيدا عن هذه الضجة واسمعنى  
أياها .

وخرجا من صالة العرض .

\*\*\*

لم تمض أيام حتى كانت قصة الحب بين الرسامة المشهورة  
الجميلة ، وهذا الشاعر الموهوب المجهول ، هى حديث أهل الفن . .

فهى لم تنس فقط معرضها ، بل نسيت أيضا أصدقاءها  
وصديقاتها . فرح البعض لها ، لأنها وجدت الحب الذى يروى قلبها  
وحزن البعض الآخر لأن هذا الحب جاء على حساب فنها . .  
وصداقاتها ، لكنها لم تكن تشعر بهؤلاء وهؤلاء . كانت تعيش فى  
الحب بكل ما تملك من صدق وحنين واشتياق مع هذا الذى يتفجر  
شعرا من مجرد لمسة من يدها ، أو من نظرة من عينيها . ابهجها  
هذا الشعور الذى لم تحس به من زمن طويل . . الشعور بالبهجة  
وحب الحياة . . وأن طاقات بداخلها تدعوها للجري والرقص  
والانطلاق . . وكأنما ارتدت الى أيام الطفولة . . أه . . كم هى  
الحياة حلوة وجميلة معك يا شاعرى الحبيب .

أما هو . فكان يمارس مع نفسه نشوة الشعور بالانتصار .  
لقد استطاع أن يحتويها الى الحد الذى نسيت معه كل شيء . .  
حتى فنها . . وراحت تتعبد فيه .

قال لها : انت من زمن لم ترسمى . أوحشنى منظرك وأنت  
ترسمين .

• احتضنته بحنان وقالت : سأعود الى الرسم • وسأبدأ بك • •  
سأرسمك •

وتسرعت تعد أدواتها بحماس •

بناء وعى ، رفع يده ومر بأصابعه على جبهته • يطمئن لعدم وجود القرنين ، ثم قال منتشيا سعيدا : هذا مجد عظيم لى •

— اجلس هنا • أمام النافذة • فى الضوء •

ارتعشت أعماقه لكلمة « الضوء » • عاوده الخوف من أن تكشف الأشعة آثارا قديمة خفية لموقع القرنين فقال لها :

— عيناى تتعبان من الضوء • ( واستدار بوجهه عن النافذة )  
أرسمينى فى لوحة يكون عنوانها : الرجل فى الظل •

قالت وهى تمسك برأسه وتدير وجهه نحو النافذة •

— لا • • بل سيكون عنوانها « الحب فى الضوء » ابقى هكذا  
أرجوك •

جلس وكل وجهه مغمور بالنور • غمست ريشتها فى ألوان الزيت، وبدأت ترسمه • فوجئت بأحساس غريب ينتابها • كانت تحس بأصابعها تفتقد خفة الحركة وليونتها وانطلاقها • وجدت نفسها ترسم ببطء • ومشاعرها وهى تختار الألوان غير مؤكدة • أحست بالحزن • • أن يحدث لها هذا من أول لوحة ترسمها لحبيبها : يبدو أننى نسيت الرسم •

والقت بالفرشاة جانبا وبدأ عليها الإحباط الشديد •

أحس بانزعاج هائل • واستدار سريعا بوجهه عن الضوء •  
تراها أحست بشيء ؟

لقد سمع أحد المحتفلين بها يوم افتتاح معرضها يقول عن

فئها : انها لا ترسم ما ترى • انها ترسم ما تحس • انها لا تتوقف  
بريشتها عند بشرة الانسان ، بل تدخل الى اعماقه وتكاد تحس  
بشرايين دمائه ..

تراها أحست بالقرنين اللذين أخفاهما في أعماقه ؟  
قال لها وقد قرر أن يتخلص من حكاية رسمها له : فلنؤجلها  
عدة أيام ..

قالت بحزن ممزوج بالغضب وبالتحدى : لا .. بل عدة  
ساعات فقط • هيا نخرج ونقابل بعض الاصدقاء والصديقات • ذلك  
ما سيحرك الريشة والألوان في يدي • من يوم ان انقطعت عنهم ،  
وأنا لم أرسم خطا واحدا •

تجهم : أم من يوم ان أحببتني ؟

- ما هذا الذي تقول ؟ أنت أيضا منذ ان انقطعت عن  
أصدقائك الذين لم أرهم حتى الآن ، وقصائدك بدأت تقل • الفن  
ياخذ لهيبه من الاحتكاك بالآخرين •

- بدأت تضجرين مثني •

- لا تقل هذا أرجوك • اياك ان أسمعها منك مرة أخرى •  
أنا أجدد حبي لك بالخروج الى الحياة • عندي اقتراح •

- ماذا ؟

- ان نزور بعضا من أصدقائك انت • ليس ضروريا ان  
نزور أصدقائي • وأصداؤك سوف يصبحون أصدقاء لي •  
ما رأيك ؟

أحس بضبابية تملأ رأسه • قال مسرعا • رأسمنا على  
شفتيه ابتسامة حماس مفاجئة :

• لا أعرف مكانا الآن لأحد من أصدقائي • فلنزر أصدقاءك  
انت • تهلل وجهها : سنزور استاذي الذي اكتشفني وقدمني  
للحركة الفنية • لابد أن أعرفك عليه • أنا واثقة أنك ستحبه •

\*\*\*

كان الاستاذ يعيش وحده في بيته • كتب وأوراق ولوحات  
وأصواء هادئة مرسلّة من أباجورات متناثرة في الاركان • وحين  
رأها أول ما فتح لهما الباب تندفع في حضنه وتقبله ، ويقبلها هو  
أيضا ، أحس بالغيره تلسعه • وبثمة صهد يخرج الى خلقه من  
جوفه • فرغم أن الأستاذ يكبرها بما يقرب من عشرين عاما إلا أنه  
بدا له بشعره المفضفض الهائش وصدره المفتوح ، ووجهه المشع  
بالثقة والمرح والفرح ، بدا له كثور وحشى ضخم •

« كان يجب أن يعمل حساب وجودي فلا يقبلها أمامي •  
حيوان » • وتزايد الصهد في جوفه « هذه العلاقة الحميمة بينهما  
يجب أن تنتهى • تبترا ! » •

وأحس فجأة بالنفخ في جبهته • نغزات أوشكت ان تتحول  
الى طرقات فامتلا بالفرع من أن يندفع القرنان ويظهران أمامها وأمام  
استاذها فأسرع بسحق مشاعره • أنه يعلم جيدا أن ظهور القرنين  
مرتبط بتحريك الكراهية بداخله •

رسم على شفتيه ابتسامة واسعة وهي تقدمه الى استاذها ،  
فسلم عليه بحرارة • • وقبله أيضا • • ثم لم يلبث ان فوجىء  
بمجموعة من الاصدقاء والصدىقات يأتون الى الاستاذ ويمتلأون  
البيت ضجيجا وضحكا ومرحا • • ليس هذا فقط بل رأهم كلهم  
ياخذونها بالاحضان ويقبلونها وتقبلهم • وإذا بوجهها يتورد  
وحراكتها تشع بالانطلاق والحيوية • أحس بالخطر • أن تجد كل  
هذه السعادة والبهجة مع آخرين غيره • هو يريد لها هو وحده •



لسوف يعيدها الى حظيرته من جديد • ولكن بعد أن تنتهى هذه  
الزيارة • سوف أبدأ عملى •

كان يدرك خطورة المهمة التى هو مقبل عليها • انها مهمة بذر  
الكراهية فى نفسها نحو أستاذها وأصدقائها وحتى أيضا صديقاتها •  
كان كل نضاله أن يستثير فى نفسها الشعور بالكراهية نحو من  
تحبهم دون أن يتحرك القرنان فى داخله •

وبدا له أنه نجح فى ذلك حين وجدها تقول له ذات مساء  
بإكتئاب ••

— لم أعد أستريح مع هؤلاء الناس • لم أعد أحس بأنهم  
يحبوننى مثلما أحبهم • خلاص • قررت ألا أرى أحدا منهم • يكفينى  
من الحياة أنت والرسم • لن يكون لى عمل فى الحياة سوى أن  
أحبك •• وأرسم ••

• هيا أرسمك •

رغم أن قلبه زغرد بالفرح لنجاح خطته ، إلا أنه أحس بالخوف  
وهى تقول له :

— اجلس كما كنت ، فى الضوء ، أمام النافذة •

— ليس هذا وقت الرسم يا حبيبتى •

قالت مقاطعة ، وقد تلبستها شهوة عارمة لكى تضرب بفرشاتها  
وترسم •

— بل هو الوقت • والضوء فى أشد حالات حدته • أريد أن  
أرى حتى أدق شعيرات أنسجتك • كل ما بداخلك أريد أن أحسه •  
أريد أن أعوض فشلى السابق فى رسمك • اجلس •

وصاحت فيه الى حد الصراخ ( اجلس أرجوك • واترك نفسك  
على طبيعتك • فقط أنظر لى • أريد أن أرسمك وعيناك فى عيني •

واند مضت تضرب بفرشاتها بقوة على اللوحة ، راسمة فى  
البدء محيط الوجه الخارجى ، كانت تنظر فى وجهه وقد احتشدت  
كل طاقاتها الروحية • فجأة • وهى تنظر فى عينيه • اذ بها تحس  
بأن أصابعها تتوقفان منها ، واحساس غريب يداهما ، ثمة تموجات  
غريبة فى عينيه • ليس معنى واحدا مؤكدا • ليس فقط فى العينين ،  
انما ثمة تقلصات تحدث فى الجبهة ، كأنما ارتفاعات وانخفاضات  
• • مرة تظهر ومرة تختفى • • واستنكرت مع نفسها ما ترى : أهى  
أوهام الفن ؟ أم انها فقدت لياقتها الفنية وانتهت كفنانة ؟ !

وصرخت فى أعماقها : لن أفشل أمامه • • كرسامة • الموت  
أفضل • لن أفشل معه • • وارتفعت يدها بقوة الفرشاة وكأنها  
تشهر سيفا تقاتل به ضد الفشل •

— أرجوك • أعطنى عينيك • خذ راحتك تماما •

— أنا مستريح •

وراحت تضرب بألوانها بقوة • كان خليطا هائلا صاخبا من  
المشاعر • واخافه منظرها وهى تنظر فيه • لا حب ولا كراهية •  
بل حالة غريبة • تراه شيطان الفن • أو « ملكه » قد تلبسها ؟ هذا  
اللعين ساءزمه • • وأحس بنظراتها تخترق عينيه لترى الأعماق  
وعاودته المقولة « انها لا ترسم ماترى ، بل ترسم ما تحس » •

وجز على أسنانه : لا • القرنان فى الداخل • فى أعماق  
الأعماق • استعملهما فى الوقت المناسب • لم أجتثهما كما قلت  
لك أيها الملك اللعين • أنا لا أرمى بسلاحى الوحيد الذى انتصرت

به • لقد خلصتها من أصدقائها •• وأحبائها •• وأصبحت لى انا  
وحدى •• ولسوف انتصر أيضا هذه المرة •

ورسم على شفتيه ابتسامة يدارى بها آلاما فى داخله ••  
أما هى • فقد توقفت على الرسم وراحت تنظر اليه وهى لاتصدق •  
وتعالت دقات قلبها • كانت ترى شيئا رهيبا يحدث • نتوءان  
تبرزان لحظة بلحظة من جبهته •• وهو لا يحس بشيء •• ما  
هذا ؟

وكتمت شهقة : انهما يكبران •• يكبران •• أصبحا قرنين •  
امتألت بالهلع • رمت بالفرشاه وهى تصرخ • وولت هاربة •

« ١٩٨٠ »

## الميلاد

رأيت نفسي حاملة نعشى وسائرا نحو القبور • كنا فى غيشة  
البكور ، ولا قدم انسان أو حيوان تدب على الأرض • الكل  
فى هجة النوم الأخيرة • لم أكن أقصد ألا يرانى أحد بنعشى •  
أئننى لا أتصرف فى الخفاء • لكنى قصدت ان أنفذ قرارى بسهولة •  
ألا يناقشنى أحد فيما اتخذت من قرار !

كان سور المقابر يلوح من بعيد • • هناك على الضفة الأخرى  
من الترعة وسط الحقول • مضيت أغذى الخطو بثبات وهدوء !

لفت نظرى فجأة ، قرص الشمس الذهبى وهو يبزغ ويطل  
وليدا على الوجود • ابتسمت فى نفسى وشددت من قبضتى على  
نعشى : أئننى أموت مع ميلاد يوم جديد • ذلك هو المغزى العميق !

كان ضوء الشمس حادا ، لكنه غير مؤلم ، والافق ممتدا  
ورحيبا وناعم الزرقة ، وحقول القمح المزروعة منذ وقت قريب ،  
ما رأيتها أبدا بكل هذه الخضرة الصافية المترعة ، وهذا التماوج  
الراقص لأعواد القمح مع النسيم ، وفكرت أن الطبيعة تودعنى  
بمنظر جميل ، قلت : شكرا ايتها الحياة التى انطلقت فى رحابك كل



كل هذه السنين .. شكرا .. ووداعا .. فلكل رحلة نهاية .. هذا هو القانون .

كنت أود أن أقول كما يقول المحبون لحظة الفراق : « والى اللقاء أيها الأحباب » .

لكنه الفراق الأبدى هذه المرة ، والصمت العميق الهادئ المريح .

وداعا اذن يا حقول القمح ، ويا أشعة الشمس ، ويا بروتينات الأرض ، ويا ذئاب البر ويا عرائس النهر . وداعا يا كل شيء .. وداعا يا قانون الجاذبية الذى ينتظم ويضم كل عناصر الكون ، فلقد حاولت أن أبقي جزءا من الدورة . حاولت بكل ما منحتنى الحياة من قدرة . لكن القدرة نضبت مرة واحدة ولم أعد قادرا على الحصول حتى على شرف المحاولة . بل أن المأساة وصلت الى قممتها حين رأيت الدورة نفسها فقدت حيويتها ومعناها .. أصبحت الحركة تأكيدا للثبات وللسكون . ليس الآن أعظم من شرف الموت . وداعا فقد سئمت وأصبحت فى حاجة الى الراحة العميقة .. الراحة الأبدية بجوارك أيتها الحقول ، ويا أيتها الأشجار الشاخصة الهاجعة .

وتنبهت فجأة الى أننى واقف بنعشى وأتكلم مع عناصر لا تنطق . ولأننى كنت قد تعودت الحديث مع النفس طويلا فى الأيام الأخيرة فقد جذبت نفسا عميقا وقلت بحزم : هذا هو آخر الانفاس ، وآخر الكلام مع النفس ..

لقد انتهت الرحلة !

وعدلت من وضع النعش على كتفى ، وبمضيت مواصلا السير  
فى اتجاه القبر • غير اننى فجأة وجدتنى أتوقف على صوت :  
- دقيقة • • لو سمحت •

رحت أنظر حولى باحثا عن مصدر الصوت ، لكنى لم أر أثرا  
لإنسان غيرى •

وهم اذن ما سمعت • واندفعت مواصلا السير • غير ان نفس  
الصوت عاد • • بغضب وحسم : قلت لك انتظر • مثلما استمعنا  
اليك ، يجب ان تستمع الينا • • !

وان ايقنت ان الصوت ليس وهما ، بل بالتأكيد حقيقة ، واذن  
فهو صادر من عالم الخفاء • • تجمدت فى مكانى • • هاجمنى  
خوف كاسع غريزى أوقف حركة جسمى وعقلى • لكنى سرعان  
ما تنبهت لسخرية الموقف وخطورته وقلت لنفسى : انت سائر الى  
الموت • فلماذا • • ومن ماذا الخوف ؟!

يا له من تراث ثقيل وكريه ذلك الذى اسمه الخوف • • يظل  
يلحقنا حتى ونحن سائرون الى قبورنا • ( وازدادت قبضتاي قوة  
على نعشى ) هذه هى اللحظة التى يجب ان أرى فيها نفسى فوق  
الخوف • ان الذين اختاروا الموت ، لا يصح ان يخيفهم من الحياة  
أى شئ !

- نشكرك انك استجبت ووقفت • ( واحسست بابتسامة ود  
فى الصوت ) وما دمت قد قررت الموت ، فهى ليست بكارثة أو جريمة  
لو أضفت الى عمرك بضع دقائق • • نتكلم فيها •

كان القمح النابت هو الذى يتكلم • لم أتعجب • فقد كنت منذ  
قليل أكلمه وأناجى خضرته وأودعه •

- وفيما تريد ان نتكلم ؟!

– أنزل نعشك أولا الى الأرض .. لكى تتكلم براحتك ؟

ازددت تشبثا بنعشى وقلت :

– لقد أصبحت لا أتكلم براحتى ، الا اذا كنت حاملا نعشى .  
وأحب أن انبهك الى حقيقة هامة عنى ، وهى أن عهد المناقشات قد  
انتهى من حياتى .. وشيئا آخر أكثر أهمية : فلو كنت تفكر فى  
اقناعى بالعدول عما أنا ذاهب اليه فالأفضل أن توفر جهدك ..  
وشكرا على مشاعرك الرقيقة . لقد حسمت القضية .

قال ساخرا :

– حسمتها بالهروب .. أليس كذلك ؟ الحق كان يجب أن  
تكون خجلا من نفسك !

استفزتنى العبارة .. واللهجة ..

– ولم اخجل ؟

– الهارب من الحياة يجب أن يخجل من نفسه !

انطلقت منى ضحكة مقهقهة ساخرة تردد صداها فى فضاء  
الحقول ووصلت الى سور القبور وقلت : قديمة .. قديمة .

قال بدمشة : ما هى القديمة هذه ؟!

– نعمة الاتهام بالهروب . فلم أكن لحظة اتخاذ القرار بطلا  
أو حتى جنديا فى معركة ثم هربت منها . إنما الحياة بالنسبة لى  
أصبحت دورة عقيمة ، والخجل الحقيقى كان هو أن أبقى مستمرا  
على قيد الحياة . لا تسلى أرجوك عن تفاصيل . لقد ناقشت  
قضييتى طويلا وحسنت أمرى : الموت الآن بالنسبة لى هو الشجاعة  
.. وهو الشرف وهو أعظم المواجهات !

( ندد عنه ضحكة ساخرة مستهزئة ) ..

- تتكلم عن المواجهة ثم تذهب الى الموت • انك حقاً  
لتضحكنى !

قلت مستهزئاً باستهزائه :

ذلك لأنكم معشـر النباتات قمة فرحتكم فى مجرد التواجد  
بالحياة ، يزرعكم شخص ويخلعكم آخر ، ولا لوم عليكم ، فأنتم  
لا تعرفون شيئاً عظيماً اسمه « ارادة الحياة » وحين تنعدم هذه  
الارادة يبقى شىء اسمه « ارادة الموت » • ان نحيا باختيارنا  
وارادتنا • فان لم • فبارادتنا واختيارنا نموت • وهذا هو صميم  
موقفى • اظنه اتضح الآن •• ولن ازيد •• معذرة •• سلام ••

كنت قاطعاً فى لهجتى فلم يعاود الحديث • داخلنى نوع من  
السرور • من المؤكد أنه اقتنع بكلامى ، ولـسـوف يبارك ميـتتى  
العظيمة ، ويكون من الشاهدين •

وعاودت الانطلاق بنعشى بثبات ويقين •

غير انى ما كدت أقترب من السور حتى فوجئت برجلين يظهران  
بغتة ويعترضان طريقى •

كانت هيتئهما غريبة ، واسنانهما بالذات كريهة •• وتوجست  
من التآرجح السريع لنظراتهما • كانا يريدان الاطمئنان لعدم وجود  
أحد غيرنا فى المكان • وفكرت على الفور أنهما لصان • ولكن ماذا  
سيسرقان منى ؟ كل الاشياء تخلت عنها ، ولم يبق لى غير روحى ،  
وروحى هى الأخرى حالا ساتخلى عنها !

غير أنى فوجئت بهما يمدان أذرعهما الأربعة نحو النعش  
ويقولان :



– عنك أيها الرجل الصالح • لابد أنك تعبت من حمله • نريد  
أن نكسب ثواب مساعدتك !

ودون أن ينتظرا منى ردا أمسكا بالنعش من حوافيه الأربع •  
قفزت متراجع بالنعش الى الخلف وصرخت فيهما : لا • لا • ثوابكما  
أن تتركاني حاملا نعشى • لست متعبا • أشكركما •  
بدا عليهما الضيق • تبادلا نظرة • قال أحدهما :  
– فلتسمح لنا اذن بثواب المشى فى جنازتك •  
وأردف الآخر :

– ان جنازة بلا مشيعين شئ يثير الحزن والأسى •  
لم تكن فى لهجتكما ذرة صدق • بل وازدادت ريبتى • قلت  
ولهجتى يختلط فيها الغضب بالتوسل :

– لكنى ، ومعذرة ، أريد هذا • لا أريد أن يمشى أحد فى  
جنازتى • كل واحد منا يصنع جنازته كما يشاء • أتركاني وحدى  
لو سمحتما •

عابذا تبادل النظرات • قال أحدهما للآخر وقد كثر عن  
أسنانه الكريهة :

– هذا الأسلوب لا يجدى معه • فلننته من الأمر بسرعة •  
وبحركة خاطفة انحنى وجذبني من أسفل ساقى ، فوقعت أنا  
والنعش على الأرض • صرخت وأنا احتضن نعشى بقوة •

– لماذا تفعلان هذا ؟ ما الذى تريدانه منى ؟

– نريد هذا النعش !

تأكد احساسى • انهما لصمان • وعلى أبشع مستوى •  
يسرقان نعوش الموتى •

وها هما يريدان اغتصاب نعشى منى .. !

تعبأت روحى بالكراهية . ورأيت زحف المهالة يدب الى صدرى  
لو أن هذا حدث فعلا .. تختتم حياتى بهزيمة .. حتى نعشى  
لا أستطيع المحافظة عليه . صرخت لا .. وألف لا .

تحولت أسنانهما الى أنياب .

ـ أيها الأحق ( وشهر واحد منهما مدية حادة فى وجهى  
وقال ) يجب أن تدرك حقيقة وضعك . نحن اثنان .. وأنت واحد ..  
وأعزل . يجب أن تسلم فوراً .

ازددت احتضانا لنعشى : لا . لست وحدى .. نعشى معى  
.. ولست بالاعزل . نعشى هو سلاحى . أتفهمان . نعشى هو  
سلاحى وسأحاربكما به !

كشرا عن أنيابهما البشعة وفى لحظة كانت المعركة قد نشبت  
وثارت من الأرض سحب التراب ، وأنا ممسك بنعشى . وإذا  
بالنعش متينا وراسخا بين قبضتى ويئز فى الجو محدثا ذبذبات  
كهربائية مخيفة . كان فى لحظة درعا يتلقى عنى الضربات ، وفى  
لحظة أخرى سلاحا .. عمودا .. جذعا .. يوجه الضربات ..  
أعنف الضربات .

وإذ أصاب كل منهما من النعش ضربة دوختهما فتمايلا وراحا  
يترنحان ، زغرد قلبى بتباشير النصر ، وبدأ لى النعش الذى كان  
منذ قليل دليلا للموت ، أصبح رمزا للحياة ..

وأحسست بشحنات تتفجر من داخلنى وتتوالى .. كانت  
أنفاسى تتدافع .

ـ أه .. لطالما استرخت عضلاتى أيها الكلاب حتى تشحمت  
ويبست .

الآن تندفع الدماء في عروقي .. ولاحظت ان المزرع في الحقول يرقب المعركة بلهفة ، فتضاعفت قوتي ، وعلت صيحات الحرب ، وأنات الألم الوحشية .. ثم في لحظة بدا لي أن قواي نفدت ، وأنى على وشك السقوط الأخير بنعشي .. غير أن سمعت أعواد الزرع تصيح على .. تشجعني .. ليست أعواد القمح فقط، بل أعواد القطن والأذرة وقصب السكر .. ليس فقط الزرع .. بل بشر أيضا ، فتيان وعرائس جاءوا ليشاهدوا رجلا يحارب بنعشه . لست بطلا في مسرحية بل بطلا على مسرح الحياة . رجل كان يحمل نعشه ليودع الحياة ، فاذا بالنعش بين يديه سلاحا يصرع به اللصوص والطغاة .

ورأيت الكل يصفق لي .  
كان اللسان قد سقطا على الأرض بلا حراك ..  
وقفت التقط انفاسي .. وأسترجع ما كان ..  
كان سور المدافن قريبا مني .. والنعش ملقى على الأرض .  
— لا .. ليس الآن .  
وأعطيت ظهري للقبور .  
ورحت أخترق الحقول .. متجها الى البيوت .

« ١٩٨٢ »

## البرغوث سفيراً

كل شيء فى ذلك اليوم ، كان يقول بأنه الرجل الوحيد ..  
الرجل المتفرد .. الرجل الذى اختارته الأقدار لكى تتجه اليه كل  
الأضواء - بجوار ضوء الشمس - أضواء كاميرات الصحافة  
والتليفزيون .. وكذلك ميكروفونات الاذاعة ووكالات الأنباء !

ولم يكن فى الأمر أى اصطناع أو مبالغة ، فهو القائد الذى  
يعود الى وطنه بعد أن انتصر على الأعداء فى أخطر وأشهر  
معركة .. وهامى الجماهير منذ الصباح ، بعد أن انتشر خبر  
وصوله ، تزحف اليه فى بيته الصغير المطل على الميدان تهتف  
باسمه .. ياللسحر الذى يحدثه فى النفس الهتاف .. نشوة الطائر  
المرفرف بأجنحة هائلة فى الفضاء .. والقامة ، قامته ، يحس بها  
قد ازدادت واستطالت ، وأن البشرية تبدأ من خلاله عصرا  
جديدا !! انه يحس مع زحف الجماهير واستمرار هتافاتها أنه  
يتعرف على نفسه لأول مرة . يكتشف ذاته : كأنى كنت غائبا  
عن نفسى ، والآن رأيته .. عرفت .. من خلال أصواتهم وهتافاتهم  
.. اه .. ما أروع أن أصدق هذا الذى يقال . بل يجب أن أصدقه .  
فها أنا أسمعته خارجا من القلب .. صادقا حارا .. » يارسول



الأقدار ، يامنقذنا ، يامزيل العار عنا ٠٠ ، والتهافتات متواصلة .  
كلما خفت حدثها فى مكان ، تجددت وتعالى فى مكان آخر من  
الميدان ، تستعجل خروجه كى يطل عليهم ٠٠

لا بأس أن تطول اللحظة . فهاهم يحولون التهافت الى  
أغنيات ، والأغنيات الى رقصات صاخبة مائجة بالفرح ، بينما هو  
فى الحمام يغتسل ٠٠ وبعد الحمام يرتدى أجمل ملابس ٠٠ الملابس  
التي تقتضيها اللحظة التاريخية ٠٠ وثمة جوقة كبيرة تحيط به  
وتشرف على عملية ارتداء ملابس بهماس بالغ ٠٠ الا أن زوجته  
- ذات الوجه الفائق الجمال ، كانت هى التي تختار من الثياب ومن  
الألوان هذا ، وتستبعد ذاك ، بصوتها الأمر الحاسم ، متصرفة  
كزوجة البطل ، ولا بد أن تطمئن بنفسها تماما على منظره العام ،  
وهو يخرج الى الجماهير ٠٠ وتنثنى عليه فى حب ودلال عميقين ،  
ثم تهمس فى أذنه : « أتعرف فيما أفكر الآن ؟ فى أول يوم رأيتك  
فيه ٠٠ أول لحظة ٠٠ كان عندي حق أنى وقعت فى حبك من النظرة  
الأولى ٠٠ الآن أغار من التهافتات ٠٠ أغار من هذه الجماهير المتلهفة  
لرؤية طلعتك » .

- سيدى ٠٠ وفد من بلاد كاف نون الشقيق يريد مقابلتك  
لتهنئك .

- سيدى ٠٠ خمسة سفراء من بلاد الشرق والغرب ، وصلوا  
فى لحظة واحدة .

قال فى ضيق : وهذه الجماهير التي تنتظرني من الصباح  
الباكر ؟

- سيدى ٠٠ كلما طال الانتظار ، ازداد الحب واشتعلت  
الأشواق .

– انهم من فجر التاريخ ينتظرونك • لن يؤثر فى الأمر أن  
يطول انتظارهم ساعة أو ساعتين أكثر !؟

فى تلك اللحظة سمع ضجة صراخ عالية ، وثمة صوت شاك  
باك يناديه ويستغيث باسمه • • نظر مستغربا • • مستفسرا •

– سيدى • • لاتبالى • • منذ انتشرت أخبار النصر والمجانين  
بك كثيرون •

– ماذا تعنى !؟

– رجل فلاح يدعى أنه قريب لكم • ويدعى أيضا أنه كان  
صديقا لكم من أيام الطفولة ، وهو يبكى بشدة كى يراك ويسلم  
عليك • •

ثار فضوله ، واتجه من فوره الى الرجل ، وما أن رآه ،  
بجلبابه البلدى الفضفاض ، وطاقيته الصوف المغزولة ، وذلك  
« السبع الأخضر » المدقوق بالنار على أعلى صدغه الأيمن ، حتى  
عرفه على الفور ، وصاح عليه باسمه : خضر عبد الحميد خضر !؟  
كيف أنت • • وكيف أحوال البلد ومن فيها • • جميعا !

– آه • • يكفيهم فخرا، أنك ابن بلدهم !

وفرد له كل ذراعيه فى اشتياق وحب ، وفرد له هو الآخر  
متأثرا ذراعيه والتحما فى عناق حار ، وانفجر الفلاح فى البكاء  
فرحا هو يحتضنه بقوة ويربت عليه •

– يالى من محظوظ • • جئت هذا الصباح من البلد لأقضى  
مشورا • • فلما رأيت المظاهرات فى الشوارع وسمعتهم يهتفون  
باسمك ، أحسست كأنهم يهتفون باسمى أنا • • أنت تذكر طبعنا أيامنا  
معا فى البلد • • آه ما أكثر ذكرياتنا وحكاياتنا • •

– لم أنس شيئاً يا خضر .. غير أن الظرف الآن كما ترى  
لا يسمح بتذكرات .. سوف يأتي الوقت فيما بعد وتذكر ..

وتوجه الى الجوقة بنظرة خفيفة على أثرها اندفعوا على  
الفلاح جاذبين اياه من ظهره .. ثم أخرجوه برفق عظيم !!  
كان على البطل أن يخرج الى الجماهير !!

\*\*\*

قبل أن يخرج الى الشرفة ببرهة ، سبقه الى الميكروفون أحد  
أفراد الجوقة ، صائحا معلنا وصوله .. وما أن أطل عليهم ، حتى  
تأججت الساحة واشتعلت الحناجر بجنون الحب تهتف ، وعشرات  
الألوف من الروءوس والعيون اشرأبت اليه ، وكل واحد يود لو  
يطوله ويأخذه في صدره ويحتضنه ، أحس بقوة هائلة تصطفق  
داخل صدره ، وأن ثمة أبراجا بنيت وهو واقف فوقها .. وفكر مع  
نفسه : كيف كنت غافلا عن نفسى كل هذا العمر !؟ لا على .. يولد  
الأبطال بين يوم وليلة ، هكذا يقول التاريخ عنهم .. يكون عصر  
الفراغ .. والعدم .. ثم يأتون هم ، فيعطون المعنى للزمان والمكان  
ويمملأنهما – ويتم الاحساس بالوجود !!

وانذ هو سابح فوق أمواج النشوة ، طائرا محمولا على محفة  
من أجمل الهتافات والتحايا والقبلات والورود الطائرة اليه فى شرفته  
على أجنحة الهواء ، والنسيم فى تلك الليلة عذب ورائع ، فلا حر  
ولا برد « كأن الأقدار ترسم لى حتى درجة حرارة الجو » ..

وبينما هو فى هذه النشوة ، اذا بشيء غريب جدا ومتناقض  
تماما مع طبيعة اللحظة يحدث له .. لقد أحس فجأة بأن شيئاً ما  
صغيرا جدا يلذعه قرب ابطه .. لذعات ليست بالقاسية لكنها  
سخيفة جدا ومقلقة وتدعوه لأن يهرش مكانها .. فهل يعقل هذا !؟

هل يصح للبطل الواقف كالأسطورة فى عز مجده أن يهرش !؟ ..  
وليتها هرشة واحدة يقوم بها سرا ؟ بخفة ولباقة دون أن يلحظ أحد  
وينتهى الأمر ، الا أن اللذع كان مستمرا وبطريقة أدرك معها فجأة  
أنه برغوث !! ورأى أن الموقف فيه بعد مضحك ساخر ، فلا شيء  
يحرره الآن من حماقات هذا البرغوث التافه الحقيق الا أن يترك  
الاحتفال والجماهير معذرا للحظة ، ويدخل الى حجرته ويغير  
ملابسه ويعود بسرعة ، الا أنه استبعد الفكرة بشكل قاطع : على  
أن احتمل .. لقد احتملت أهوال المعارك ، أفلا احتمل سخافات  
برغوث !؟ .. ولكن ( وقفز أمامه السؤال ) من أين وكيف جاءنى  
هذا البرغوث رغم أنى استحمت منذ قليل وغيرت ملابسى  
الداخلية !؟ .. آه .. تذكرت .. هو ذلك الفلاح اللعين المدعو  
خضر عبد الحميد خضر وهو يعانقنى .. انتقل منه البرغوث الى  
فى بساطة ، دون أن يدري أنه بذلك يفسد على جلال اللحظة  
التاريخية ومتعتها ..

خاطر كالومض كانت تمر مختلطة برأسه ، بينما كان واحدا  
من أفراد الجوقة يلقي كلمة يقدم بها للخطبة التى سيلقيها بطل  
الأبطال .. وثمة صمت مطبق عميق فى انتظار كلمته .. كانت عيناه  
حينذاك على كتلة الجماهير الهائلة المتلاصقة .. رعوس .. رعوس  
.. وعيون .. عيون .. لا يمكنه أبدا التوقف عند أحد معين منها  
وفجأة ، ومن قلب كل هذا البحر الهائج المائج ، اذا بوجه بالذات  
يتحدد أمامه ، واذا يعينى هذا الوجه ، رغم أنهما فى نهاية الصفوف  
الخلفية ، تصلانه وتصلطمان مباشرة بعينه .. أحس بثمة رجة  
داخلية هائلة قاومها بسرعة وقوة ، وأسرعت دقات قلبه :

— هاقد ظهر ، رغم أنه كان قد اختفى \*

وحول بسرعة عينيه عنه ، والا فلتت منه اللحظة التاريخية ..  
ودخل على الفور فى خطبته .. ومن أول جملة نطق بها تأججت



الجماهير بالحماس والتهبت الألف بالتصفيق ، إذ ذاك استرد ذاته  
كما كان ، قبل أن يرى الوجه والعينين ، حتى أنه نظر إليه ليراه مرة  
أخرى ، لكنه لم يعثر عليه .. كان قد اختفى من جديد .. «أو ..  
ربما كنت اتخيل .. أو .. فرط حساسية منى » !

واستغرق تماما فى خطابه . عاوده فيض النشوة والاحساس  
بظمة البطولة وجلال التفرد ، دون أن تشوبه لحظة تشويش أو  
قلق ، ومضى متدفقا ومتجليا فى القاء خطابه .. مؤكدا أن اليوم  
علامة يبدأ بضوئها تاريخ وعصر جديدان فى حياة الشعب العظيم !!

ولولا أنه كان قد مرت عليه أيام طويلة دون أن يحظى بقسط  
وافر من النوم ، لكان قد ظل هكذا حتى الصباح بين الجماهير ،  
يمارس هذه النشوة التى ما بعدها نشوة ، وخاصة أن البرغوث  
كان قد كف تماما عن مناوشته ، أو .. ربما تركه ومضى !! لكنه  
كان مجهدا وتذكر احتفالات الغد التى تنتظره ، والتى ستكون بمثابة  
التتويج .. لا بد أن يكون فيها على أكمل صورة ، وأطيب مزاج  
.. فليخطف ساعتين أو ثلاثا ، يغلق فيها عينيه ، ورأسه ، ويستغرق  
فى نوم هادئ عميق ..

- ويأيتها الجماهير الحبيبة .. غدا نلتقى من جديد .

\*\*\*

ما أن دخل حجرتة حتى أعلن عن احتياجه للنوم ، واحترم  
الجميع ، وأولهم الزوجة هذه الرغبة .. قالت له هامسة وعلى  
وجهها آيات الرضا : «كنت أحب أن نجلس معا ، هذه الليلة بالذات  
بعض الوقت .. مجرد الجلوس لا أكثر .. أفرح بك .. وأعبر لك  
عن مشاعري .. أه .. كم كنت رائعا ..

تمدد على السرير بكل جسده الضخم واسترخى : حقا !؟  
كيف !؟ احك لى ، الى أن أنام !

وبدأت تحكى ، بكل الحب والحماس ، غير أنه لم تكد ثمر  
دقيقة واحدة حتى كان قد سقط فى جب النوم العميق ، حينذاك  
نهضت وأطفأت نور الحجرة ثم أغلقت بابها بهدوء شديد .. وحل على  
البيت وعلى الكون سكون عميق !

هى نصف ساعة ووجد نفسه صاحيا .. ويهرش بعصبية ..  
تحت إبطه .. وعلى الفور أدرك - رغم أنه كان فى نصف أو ربع  
وعيه ، أنه : البرغوث اللعين !

وأوشك باللاوعى أن يصرخ ، إلا أنه ، بجهد شديد أمسك  
نفسه : بطل الأبطال يصرخ شاكيا من برغوث !؟ .. ثم فى وجهه من  
يصرخ ويصيح !؟ .. « الذنب ذنبى .. أنا الذى تركت نفسى لهذا  
الفلاح اللعين المدعو « خضر » لياخذنى فى صدره ويعانقنى ..  
قدفعت ثمن بساطتى وانسانيتى .. لقد أفسد فرحتى مع الجماهير  
وهاهو أيضا يفسد على ساعات نومى .. أم .. تراها مؤامرة !؟  
وتولته رعدة مفاجئة ، فقد تراءى له الوجه الذى طلع له  
للمحظة من بين الجماهير ثم اختفى - هاهو يطلع له مرة أخرى ،  
مختلطا بوجه « خضر » ، دون أن يعرف أن كان يبتسم له أو يكشر  
عن أنيابه .. هل هناك علاقة ما بين الاثنين !؟ وهز رأسه بشدة ،  
مبعدا الصورة .. الصورة المختلطة .. وتدافعت أنفاسه ..  
« كنت قد نجحت فى إبعاد شبحه طوال المدة السابقة ، وهاهو وجهه  
يعود ، متخفيا ومختلطا بوجه خضر » .. وفكر فى استدعاء هذا  
الخضر واستجوابه ، ورأى فى ثورة غضبه أن الأمر قد ينتهى  
بتعليقه فى فرع شجرة .. وأزعجته الصورة ، أن يكون أول أعدائه  
من أبناء بلده .. وتذكر صورة الخضر وهو يفرد له ذراعيه ودموع  
الفرح فى عينيه : « لا .. لا .. لا .. خضر يحبنى .. خضر رمز البساطة  
والصفاء والنقاء .. وإن كان قد جاءنى حاملا برغوثا ، فلم يكن  
ذلك بقصد منه ، إنما هى البلدة التى مازالت مليئة بالروث

والتلال والقاذورات .. بعثت به الى لكى تذكرنى !! يالها من طريقة  
سخيفة بل وشريرة .. كم أنا متعب بسبب عدم النوم .. أيها  
البرغوث ابتعد أرجوك .. ان غدا يبدأ عصر جديد ، ليس لى وحدى ،  
بل للوطن كله .. وليس من المعقول أن يفسد مسيرة التاريخ  
برغوث !

ولم يجد مفرا من أن ينهض ويخلع ملابسه قطعة قطعة ،  
بحرص وانتباه شديدين ، مستعدا للانقضاض على البرغوث فى أية  
لحظة ، مثلما انقض على خصمه الخطير وأجهز عليه .. هنا طالعه  
الوجه من جديد ، فأسرعت أنفاسه وتولته الرعدة الداخلية .. ووجد  
نفسه يسأل نفسه :

— هل حقا أنا الذى أجهزت عليه ١٩ ( وعادت اليه الصورة  
مجسمة ) لقد رأى بأم عينيه أحد جنوده الصغار وهو ينازل القائد  
الأكبر لجيش العدو .. كان الاثنان محصورين فى خندق ، والمعركة  
بينهما على أشدها وفجأة وبفعل ضربة من الجندى رأى الخصم  
يهوى مجندلا على الأرض مضرجا فى دماءه .. بينما الجندى  
استلقى منكفئا ببطنه على الأرض يلهث ويسترد أنفاسه المتقطعة  
.. وقف مذهولا مبهورا بما حدث .. وأوشك أن يصيح على جنديه  
الصغير صيحة الفرح والنصر ، الا أنه تجمد فى وقفته ، والصيحة  
أيضا تجمدت فى حلقه .. اكان يحدث نفسه بحرقه : أه لو أننى كنت  
فعلتها .. كنت أتمنى أن أكون أنا الذى ظفرت به .. أية ضجة  
وتهاليل وأفراح واستعراضات كانت ستحدث .. وساورته أمنية  
حارقة جارفة : لو تتوقف أنفاس هذا الجندى الصغير .. يموت  
بسرعة ومع سره .. وانحنى عليه ورفع من رأسه ليعرف بالضبط  
حالته .. حينذاك فتح الجندى الصغير عينيه ونظر اليه ، هى نظرة  
واحدة ممتزجة بابتسامة خابية ، ثم أغلق عينيه من التعب وعاد  
انكفائه الأرضية !



فى تلك اللحظة سمع ضجة آتية من بعيد ، ولم يلبث أن لمس عددا كبيرا من جنوده قادمين .. وعلى الفور أمسك بجثة العدو وراح يجرجرها حتى أبعدھا كثيرا عن الجندى الصغير ، ووقف على رأسها يلهث لھاث الخارج من معركة رهيبة .. وما أن وصل الجنود ورأوه واقفا معفرا يلهث ، وقائد الأعداء صريعا غارقا فى دمائھ ، صاحوا صيحة هزت أرجاء المكان : الله أكبر يا بطل .. بطل الأبطال أنت .. الله أكبر .. الله أكبر ..

حملوه على أعناقهم وساروا به هاتفين مهللين !!

احتلته سعادة كبرى ، أن مخططه الذكى البسيط نجح بكل هذه السهولة وهذه السرعة الخاطفة ، دون أن يقول هو أى شىء ، انما هم الذين قالوا وقرروا وفرضوا الأمر .. غير أن شعورا آخر بالتوتر والتحفز كان يتصادم فى داخله مع الشعور الأول .. كان خائفا من ذلك الجندى الصغير أن يفوق وينهض ويلحق بهم ، ثم يصرخ عليهم بالحقيقة !! .. تراه يجرؤ على ذلك ؟! لم لا .. وهو الذى واجه ونازل قائد الخصم الأكبر وصرعه .. و .. فجأة تولته رعدة هائلة أوشك على أثرها بالسقوط من على الأكتاف ، لولا أن الأذرع كانت ممسكة به بقوة ! لقد رأى الجندى الصغير وقد راح يشق طريقه مترنحا بين كتلة الجنود المحيطة به حتى تجاوزهم ، وأصبح وجهه لوجهه : تلاقت عيناه بعينيھ .. وأدهشه جدا أن الجندى كان يلوح له بذراع جريحة ويهتف مع الجنود : الله أكبر .. الله أكبر ..

لحظتها تمنى لو يهبط من على الأكتاف ويأخذه فى صدره ويحتضنه ، الا أن هذا قد يثير التساؤلات .. وقد ينكشف السر على نحو ما !! .. هذا الجندى لابد من تصرف ما .. معه !! كيف وأنا لا أعرف حتى اسمه !؟



وسرعان ما تبخرت هذه المشاعر المتناقضة وتبددت مع اندفاع المظاهرة • والجندى نفسه تراجع وضاع فى المظاهرة • الا أنه بعد قليل وجد نفسه وهو محمول على الأعناق ، ينظر فى كل الاتجاهات باحثا عنه •• لكنه لم يجد له أثرا !! فاستراح لذلك ، لكنها راحة مشوبة بالقلق •• أن تنكشف الحقيقة على نحو ما •• فى أية لحظة « آه •• من يأتينى بهذا الجندى !؟ لا بد سأحصل عليه بطريقتى » !

وترأى له الجندى قائلا فى مسكنة وضراعة : أرجوك اتركنى فى حالى ، وسيبقى السر فى بئر ، وحتى لو قلت ما حدث ، فلن يصدقنى أحد ، بل وسيكون مصيرى مستشفى المجانين •• لا تقلق •• والمهم أننا انتصرنا •• ان الوطن انتصر •• !!

حل عليه بعض الهدوء •• بينما كان ماضيا فى خلع ملابسه ، قطعة قطعة ، متربصا بالبرغوث ، ورأى المرأة قريبة منه ، فذهب اليها ووقف أمامها • ولاحظ أن « ••• » ليس متسقا فى هذه اللحظة مع قامته الشاهقة ، فاسرع يخلق باب الحجرة بالترباس ، ثم استند بظهره على الباب وقد شغلته حكاية عدم الاتساق هذه •• لقد واثقه فكرة سببت له قدرا كبيرا من الانزعاج •• فحتى لو كان اتساق فى أعضاء الجسم ، فليس هناك اتساق بين كل هذا الجسم الضخم ، وهذا النصر العظيم الحادث •• و ••

وانتفض فجأة على دقائق خفيفة بباب الحجرة ، صاح بغضب وعصبية : ماذا تريدون !؟

— لا شيء ياسيدى • فقد لاحظنا أن الحجرة مضاعة لمدة طويلة ، بينما أنتم فى حاجة الى النوم •

بتر الحوار : أعرف كل شيء • ( وخفف من عصبية )  
لا تقلقوا • كنت أقرأ فى بعض الأوراق •  
والآن سأعود النوم •

كان قد غير كل ملابسه الداخلية ، وعاد الى سريره واسترخى  
ثم مد يده وأطفأ النور . هذه الهواجس يجب أن تتوقف ، وليسبح  
كل شيء فى الظلام . كل شيء : الحجرة ، والجمجمة ، والخيال  
أن يتلاشى بالنوم لبعض الوقت . ينسحب احساسه عن الواقع  
الموجود ويصبح فى مكن . فى قوقعة مهما علت بها الأمواج  
وهبطت ، الا أن ما بداخلها فى مأمن ، حتى يستعيد قواه ، ثم يخرج  
الجان أو العملاق من القمقم !

كان قد وصل الى حالة قصوى من الانهك الجسدى والنفسى ،  
وفكر مشجعا نفسه : ها قد غيرت كل ملابسى الداخلية ، وتحررت  
تماما من البرغوث للاستسلام للنوم . استعيد أصوات الهتافات ،  
وصوت الأمواج البشرية الزاحفة المشرئية نحوى . . . وأنام عليها . .

واستلقى بكل جسمه ، فاردا كل ذراعيه باسترخاء وأغمض  
عينيه ، مهينًا نفسه ليدلف الى جوف القوقعة ، الا أنه وجد نفسه  
ينتفض بحركة عصبية ، وأصابه ، رغما عنه - تهرش . . . وكان  
الهرش هذه المرة . . فى الفخذ !

آه . . عاد البرغوث اللعين بعد أن اختار لنفسه مكننا آخر !  
وكنتم صيحة كادت تكون بالكية : لا . . ليس هذا بالأمن الطبيعى . .  
كيف عاد البرغوث رغم أنه غير ملابسه ؟ أم أنها مجموعة براغيث  
نقلها الى هذا الجلف خضر ؟ ! وبالألوعى طار به الخيال الى تلك  
الأيام التى كان مصاحبا فيها خضر باستمرار . . وقفز أمامه وجه  
خضر . . ضاحكا . . لكنه لم يكن يضحك عليه - بل كان يضحك له  
مداعبا : أهكذا . . من برغوث يحدث لك كل هذا ؟ ! أخذها لعبسة  
يارجل . . اعتبر الحادث من باب الفكاهة والمزاح . . أنسيت حسك  
العالى فى هذا المضمار . . ياما . . كانت لك حكايات فى هذا الباب  
. . وياما كانت لك عمايل لم تكن تعملها الا من أجل أن تضحك

وتضحكنا ٠٠ أما الضحية فأمرها الله !! ٠٠ هل نسيت يوم أن كنا  
نستحم في البحر وتسللت أنت خارجا وأخفيت ملابس أحد الأولاد  
المستحمين ثم عدت دون أن يشعر بك أحد ٠٠ ويالها من ضحكات  
ضحكناها حين خرجنا من الماء ورحنا نتفرج على الولد العريان الذي  
لا يجد ملابسه ، ثم بعد قليل ذهبت أنت واحضرتها له ٠ متمما لعبة  
الضحك والاضحاك !! ٠٠ وأكنت تحب أن تجمعنا حولك في الليل  
وتحكي لنا عن مغامراتك مع البنات والنساء ، وكنا نتشكك في سرنا  
فيما تقول ، الى أن رأيناك تستولي ببراعتك على عقل أجمل امرأة  
في البلد ، وجعلتها تتطلق من زوجها ٠٠ حامد النجولي ٠٠ الذي  
على أثر المهانة ترك البلد واختفى ولم يره أحد بعدها ٠٠

— من قال لك انى اختفيت ؟ !

وانتايه رجفة هائلة ، حتى أنه انكمش في نفسه ، وأحس  
بأنفاسه تنسحب منه ، فقد رأى وجه ٠٠ « حامد النجولي » ينقض  
عليه ، ضاغطا على أسنانه ، في غل دفين : « اتحسب أنك فلت منى ؟  
لا ٠٠ لقد جاء الوقت ٠٠ وانه يمهل ولا يمهل ٠٠ لسوف أدمرك كما  
دمرت حياتي ٠٠ يامن تغربت عن وطنى بسبب غدرك ونذالك و ٠٠ »

وهز رأسه بعنف طاردا الشبح عنه ، لكنه رأى وجه خضر  
مازال يطل عليه ٠٠ ويبتسم بصوت كالفحيح : أيها اللئيم ٠٠ الآن  
أدركت أنك متآمر ٠٠ هي حملة تقودها على ٠٠ أيها الحقير القافه  
٠٠ أنت والبرغوث واحد ٠٠ لكنى سأهزمكم جميعا ٠٠ جميعا ٠٠  
وراح يجاهد ليمسك بأنفاسه ! ) ٠٠

كان قد وصل الى درجة قصوى من التفكك وانعدام التوازن ٠  
ومضى يتسمع أنفاسه وهى تروح وتجيء ٠٠ « لا بد أولا من قتل  
البرغوث ٠٠ لكن المهم أولا هو الإمساك به ٠٠ وقبل الإمساك به  
رصد حركته وضبطه ٠٠ و ٠٠

وتنبه فجأة الى ما هو فيه - راح ينظر الى الصورة من أعلى ،  
فوجد بطل الأبطال الذى هازال دوى الهتاف باسمه يحدث طنيناً  
وذبذبات فى الجو ، يطارد برغوثاً ، ولا يستطيع الإمساك به ..  
وأحس بالخجل الشديد .. الخجل من نفسه .. هاهو مرة أخرى  
يبدأ خلع ملابسه ويتعري .. وهذه المرة لن يقف أمام المرأة ليرى  
عدم الاتساق العضوى .. هذا عدم اتساق تافهة ، وليذهب كل من  
يهمه هذا الأمر الى الجحيم .. هناك عدم الاتساق العام ، وهو  
الأبشع والأخطر .. المشكلة الآن كيف يتخلص نهائياً من البرغوث .

- « لا حل الا أن أخلع ملابسى ، واستلقى عارياً .. العرى  
الكامل هو الطريق الوحيد للنوم » .  
وفعلها ..

تمدد بجسده العارى على السرير ، مطمئناً الى أن باب الحجرة  
مقفول بالترباس . وحيث أن الجو لم يكن برداً ولا حراً ، فقد تسرب  
اليه - مع الارهاق ، شعور ناعم عذب وجميل . وفكر : لو أظلم  
هكذا ، بكل هذه الراحة الكاملة الناعمة .. أجل .. لا أريد  
مهرجانات ولا متافات ، فكلها قائمة على كذبة كبيرة ، ولسوف تظل  
هذه الكذبة تثقل على حتى أموت .

ورأى نفسه ، وهو بين اليقظة والنوم ، يقف فى الشرفة ويخطب  
أيها الناس .. انتباه .. أن لنا أن نعرف اللعبة أو الخدعة التى  
كثيراً ما يسير بها التاريخ .. خدعة البطولة والأبطال المتألهين  
الذين يحركون بقدراتهم السحرية ومواهبهم النادرة مسار التاريخ ،  
بينما هم فى الحقيقة لصوح ، سارقون لشجاعة وعظمة وتضحيات  
الأبطال الحقيقيين الصغار .. أبناء الشعب الغلابة .. الصامتين  
العظام .. نعم أيها الناس ، واسمعونى جيداً .. لست أنا البطل  
فى هذه المعركة .. البطل الحقيقى هو فتى أثر التراجع والاختفاء ..  
ودعونى أحكى لكم تفاصيل الـ ..



ولم يكمل ، فقد انفجرت فى وجهه عاصفة رعدية من الرفض والاستنكار .. وكانت الجوقة هى أول من أثار العاصفة ، وفى الحال تبنتها الجماهير : لا .. لا .. ليس اليوم يوم التواضع وانكار الذات ، واننا لنعرف سلفا أفكارك عن الشعب وحبك لأولاد البلد وأبناء الشعب الطيبين ، ولكن أن يكون هذا الحب طريقا لكى تتخلى عن المسئولية التى تنتظرك السنوات الطوال ..

فى تلك اللحظة وجد نفسه ينتفض بفعل قرصة من البرغوث اياه ، رغم أنه كان عاريا بالكمال والتمام . قفز جالسا وراح ينظر فى غيظ . مدققا فى كل اتجاه . لكنه لم يلمح شيئا فى الفراش ، كما لاحظ أن انتفاضته هذه المرة جاءت خفيفة ، وأن الاحساس بالقرصة أصبح ضعيفا ، أضعف بكثير من المرات السابقة ..

كان ثمة خدر شديد ، من فرط الانهاك والتعب ، قد احتل رأسه وكل أطرافه . وبدأ يستسلم ، مهيئا نفسه للذع البرغوث دون أن يهتز أو يقاوم .. ورأى - بخياله المرهق - زوجته تميل عليه وتستتر جسده العارى ، ثم تهمس له مشجعة :

- أتعرف بماذا أصبحوا ينادوننى ؟ .. زوجة البطل ..  
زوجة الزعيم اليس ذلك يسعدك ؟ !

- كيف لا يسعدنى ؟! على الأقل يخفف عنى هموم عدم الاتساق .. لكن اتساقا آخر أهم وأخطر هو الذى يجب أن يشغلنا ..  
ولسوف أحدثك فى هذا المعنى .. بعد أن ..

كان الخدر الناعم الشامل قد احتواه ، وطاب له الاستسلام التام . وشيئا فشيئا ، مع فرط التعب ، وتجلط الاحساس ، سقط فى البئر ، وراح يهوى الى القاع ببطء سحري شديد ..

وحين استيقظ صباح اليوم التالى ، كان قد نسى كل شيء ، وراح بمساعدة الجوقة التى تشرف عليها زوجته ، يرتدى أجمل ملابس ، ويستعد بشغف لتلقى هتافات الجماهير ..

(( ١٩٨٩ ))

## الباب والوهم

هذا يوم يمكن أن يصبح تاريخيا ، لو صحت الأحلام :  
قالت الفتاة لنفسها وقد انتهت من ارتداء ملابسها ووضع الحسرات  
خفيفة لماكياجها ، متهياة للخروج ، وصدرها يضج بالانفعال .

وحين رأت أمها ، صاحت عليها ملتمسة بركتها : ادع لى  
يا أمى . . ادع لى . . أن يفتح لى الباب . . بسطت الأم كفيها  
وراحت تدعو بحرارة أن يفتح لها الرب كل الأبواب ، ليس فقط باب  
« الأستاذ » . وأوشكت أن تكمل الدعاء : « ويرزقك بابت الحلال  
الذى تجدين معه الهناء وراحة البال ويرحمك من كل هذا الجرى  
وكل هذه المعاناة » ، إلا أنها كتمت فى نفسها هذا الجزء الأخير من  
الدعاء ، ليس فقط لأن البنت أصبحت تغضب الى حد الثورة من  
الحاحها على موضوع الزواج ، معتبرة ذلك مساسا بكرامتها  
وكبريائها ، وتهديدا لمشروع حياتها الذى رسمته بعد أن تخرجت فى  
الجامعة ، أن تصبح كاتبة وصحفية ، وهامى لاتزال فى أول الطريق ،  
وانما أيضا لأن الموضوع الصحفى الذى تخرج اليه اليوم ، يبدو  
بالنسبة لها ، هو الأمل والمستقبل . . وأن هذا الباب الذى ترنو لأن  
يفتح لها هو باب الحياة ، ودعتها بقبلة حنون ، مواصلة لها الدعاء  
بفتح الباب !

أتوبيس أم تاكسى ؟! أيهما يأتى أولا ساركبه • المهم أن أصل الى بيته فى الميعاد •• كان الشارع مزدحما ومتكدسا بالعربات وبالناس وبأصوات الكلاكسات • كما أن الجو كان حارا ومشبعًا برطوبة خانقة للأنفاس ، الا انها لم تعب •• وفكرت باسمه أن اختيارها كان موفقا ، حين لبست صندلا خفيفا ، وينطلون « جينز » وقميصا شمريت كميته ، وضمت خصلات شعرها وربطتها على هيئة ذيل الحصان ! •• ذلك يخفف عبء المعاناة •• وان كانت أية معاناة تقابلها اليوم لتهون أمام خطورة وجلال المهمة الذاهية اليها •• تلك المهمة التى لم يسبقها أحد اليها ، حتى لتبدو أشبه بالمغامرة • وهامى تندفع بجسارة وثقة للقيام بها •• حوار مع أستاذ ومفكر عظيم ، اشتهر بنفوره من عالم الأضواء والنجومية ، ورفضه القاطع الباتر لأية أحاديث للصحافة أو الأذاعة أو التلفزيون ! وقد سطعت الفكرة فجأة فى ذهنها بينما هى تقلب فى موسوعته الضخمة الشهيرة بأجزائها الثلاثة عن علم الحضارات الانسانية • والمعروضة فى أحد أجنحة معرض الكتاب الدولى •• واذ وقعت عينها على عنوان الجزء الثالث : الانسان •• بين القمة والسقوط •• اشتعل خيالها ، وتملكتها رغبة أججتها ، ليس فقط حاستها الصحفية ، بل أيضا - وهذا بعد هام جدا فى شخصيتها وتركيبتها - موهبتها الأصلية كشاعرة ، تلك الموهبة التى فتحت لها وهى لاتزال طالبة بالكلية ، أبواب النشر فى بعض المجلات ، ثم زكتهما - بعد أن تخرجت - للعمل بهذه المجلة •• تملكتها الرغبة فى أن ترى هذا الأستاذ •• صاحب هذه الموسوعة ، وتدير معه حوارا حول هذا العنوان : الانسان حين يصعد ، والانسان حين يسقط •• كيف •• كيف يا أستاذى ؟! والا يمكن للانسان أن يتجنب السقوط ؟! ولكيلا يكون الحوار ذهنيا ومجردا وفوق مستوى القراء العاديين ، فلن نتركه يحلق فى الماضى ، عبر مراحل التاريخ ، بل ستدفعه بذكاء

الى حياتنا اليومية المعاصرة ، بتناقضاتها ، وأزماتها ، وتفاصيلها الصغيرة الواقعية !

لحظتها طارت فرحا بالفكرة فرحتها بهبوط الوحي عليها بقصيدة شعر جديدة .. وما أن عرضتها على رئيس التحرير ، حتى التمعت عيناه أعجابا وحماسا وقال : فورا .. نقيدها ( ثم بدا عليه الجدية وكأنه يتكلم فى قضية مصيرية ) سيسجل لك التاريخ - لو نجحت - أنك أول من أنزل النسر من عليائه ، وجعلت سكان القمم يتحدثون مباشرة مع الجماهير .. والتهب حماسها ، وتلبستها روح التحدى والاصرار !

وها هو الاصرار يتأكد فى نفسها لحظة بعد لحظة ، وهى تحس بخيوط العرق تسيل على جسدها ، ثم وهى ترفع حقيبتها وتغطى بها رأسها تفاديا من ضربة شمس .

ولابد أن منظرها هذا هو الذى أثار عطف أحد سائقي التاكسى فتمهل وهو يمر بجوارها ، ولاحظت أن معه راكبين . لا يهم .. صاحت عليه باتجاهها .. توقف . ركبت .. ومضى التاكسى يشق طريقه فى قلب الزحام !

لحسن الحظ أن المقعد الخالى كان بجوار السائق .. تنهدت بارتياح .. وانطلقت بخيالها خلف مايمكن أن يكون .. طارت بأجنحة الأمل .. ورددت فى سرها بابتهاال : آه لو يفتح لى الباب « وأغمضت عينيها عن الزحام ، متناسية الحر .. والعرق » لو يفتح لى الباب .. تنفتح الدنيا .. يظهر قرص الشمس .. يبدو النسر الذهبى الرابض فوق القمة .. يرمقنى .. تعلو دقات القلب .. أخطو بجسارة « فجأة توقف خيالها . قالت لنفسها بفرح : « هذا مدخل قصيدة . فلأخرج ورقة وأسجلها ، ألا أنها استبعدت الفكرة .. ليس اليوم يوم الطيران بالشعر .. اليوم يوم المواجهة مع الواقع .. الواقع الصعب .



لم تكن هذه أول مرة تقطع هذا المشوار قاصدة بيته ..  
ذهبت إليه مرة منذ يومين تستطلع وترتب للأمر .. وأحست من  
الملحظات الأولى بمدى الصعوبة .. حين قال لها البواب العجوز ذو  
الشعر الأبيض : نعم .. هو يسكن هنا .. لكنه لا يقابل أحدا أبدا  
قالت باصرار مهذب : أعرف .. ومع هذا عندي أمل .. لبيتك  
تساعدني ..

تأثر الرجل بلهجة رجائها ، وكانت صاحبة وجه بشوش :  
أساعدك كيف يا ابنتي .. هذه طريقته منذ جاء وسكن هنا ، منذ  
أكثر من خمسة عشر عاما .

- أعرف يا عمي .. أعرف .. ولكن اسمح لي أن أحاول ..  
وقلبك معي ..

تحركت عاطفة الرجل .. ودحا لو يساعدها .. أو على  
الأقل يشعرها بأنه متعاطف معها : هي طريقة واحدة .. ليس هناك  
غيرها .. ربما .. سألت بلهفة : ماهي ؟

اكتبى له ورقة بما تريدين .. ودسيها له من تحت عقب الباب  
فربما يا ابنتي .. ربما ..

وفعلت بالنصيحة .. كتبت له ورقة مهذبة بطلب اللقاء ،  
وحددت له موعدا بعد ثلاثة أيام ، راجية العفو عن هذا التحديد ،  
فلا وسيلة أمامها غير هذا ، ودست له الورقة من تحت عقب الباب .

تراه قرا الورقة ؟! يقينا قراها .. المهم أن يرق قلبه ويستجيب  
.. ويفتح لها الباب !

استبشرت من أول لحظة وقف فيها التاكسي أمام البيت ..

فقد رأت البواب العجوز جالسا على دكته الخشبية ، كما لمحت بائعة ليمون كانت قد رأتها فى المرة السابقة ، جالسة على الأرض وأمامها قفص الليمون . . غمرتها موجة تفاؤل ، وفكرت بحب : سأشتري منها بضع حبات وأجزل لها العطاء بقدر مايمكننى . . ولكن بعد أن أخرج من عند الأستاذ .

واتجهت مباشرة الى البواب محيبة ومسلمة ، ثم سألته ان كان الأستاذ بالداخل ، هز رأسه بالإيجاب وقال : « نشفى عرقك أولا يا ابنتى . . ثم بعد ذلك حاولى » . . وأوشكت أن تقول له : ليس هذا وقت تجفيف العرق . . الا أنها أحبت روحه الأبوية . . اخرجت منديلها من حقيبتها وراحت تجفف عرقها ، وعيناها على الباب !! جميل أنها وصلت بالمضبط فى الميعاد . . والأجمل أنه يسكن الطابق الأرضى . . وخطت بهدوء الى الباب . . سمعت البواب يغمغم خلفها : « ربنا يقدرك يا ابنتى » . . رددت لنفسها « يارب . . يارب قدرنى » .

كانت قد لاحظت فى المرة السابقة غرابة شكل الباب . . كان أقرب مايكون الى باب القلاع : كتلة خشبية هائلة مصمتة ليس بها من علامة سوى ثقب صغير للمفتاح . . الأمر الذى جعلها تفكر بأنه خلع الباب الأصلى وأتى بباب آخر من تصميمه هو ، بحيث يحقق فكرة القلعة والاحتماء !! وابتسمت لنفسها مبهورة بالفكرة : ذلك دليل العبقرية . . أجل . . العباقرة العظام لابد أن يدفعوا عن أنفسهم وعن رسالتهم ضد هجوم جحافل المتطفلين الذين أصبحوا يملأون الساحة الثقافية والصحفية . . وخاطبته فى سرها ، بابتهاال: أنا لست منهم . . أرجوك . . وليت كانت بالباب عين سحرية لترانى منها وتدرى ذلك بلماحيتك وفطنتك . . فأنا فتاة جادة ، وشاعرة قبل أن أكون صحفية ، وأقدر جيدا أهمية خلوتك ، وقيمة كل لحظة من وقتك .

ومضت بحماس تفحص بنظراتها ما حول كتلة الباب ، باحثة  
عن جرس لتضغط عليه وتعلنه بوصولها ، الا انها لم تجد أى شىء  
.. الجدران مثل الباب مصمتة .. لامفر اذن من الطرق بيدها على  
خشب الباب !

وفى البدء كانت تنقر بأصابعها ، نقرات خفيفة مهذبة .  
حريصة على ألا توحى له بأى ازعاج أو جرح لعالم السكينة الذى  
يعيش فيه ، الا أنها لم تلبث أن اكتشفت ، أن نقرات أصابعها لا تكاد  
تحدث أى صوت بسبب غلظة الباب ، فلجأت الى الطرق بكل كفها ،  
ملتزمة الرقة والتعبير عن الاجلال والاحترام .. ولكن .. لارد ولا  
جواب .

تراه يسمع ولا يعبا ؟ ولم تشأ أن تتصور الجواب بالايجاب ،  
وقالت لنفسها : يجب أن أكون أكثر حسما وشجاعة ، فأشدد من  
وقع الضربات .. فريما . الاصرار يلين قلبه ويقنعه بجدية الطارق  
ويفتح الباب .. على الأقل ليعتذر .. أو ليؤجل لى اللقاء الى يوم  
آخر .. انه أولا وقبل كل شىء انسان .. ولابد أن قلبه أكبر وأوسع  
من موسنوعته الضخمة عن علم الحضارات وتاريخ الإنسان !

واذ مضت تطرق بكل كفها بعزم وقوة ، أحست فجأة بالألم ،  
ينبعث من منطقة الرسغ .. وأوشكت أن تصبح متأوهة ، لكنها كتمت  
الصيحة ، متناسية الألم ، ومضت تدق باليد الأخرى .. ولكن أيضا  
لا مجيب !

حط عليها شعور ثقيل بالكآبة والاحباط .. وبالمهانة أيضا  
هنالك أحست بدبيب الكراهية يتسلل الى نفسها نحوه الا أنها  
استتكرت بشدة هذا الشعور : يجب أن أكون عادلة .. فليس هو  
المسئول عما يحدث . أنا المسئولة . أنا التى استرسلت فى الحلم

وفى التمنى وحددت له موعد المقابلة دون أن أخذ رأيہ . . ولكن كيف كان يتأتى لى غير هذا !؟

— «يعجبنى فيك اختيارك للصعب» عاودها صوت رئيس التحرير وملامحه المتحمسة . سيسجل لك التاريخ — لو نجحت — أنك أول من أنزل النسر من عليائه . . و . . وعز أن تعود اليه فاشسلة ، فمضت باللاوعى تواصل الطرق على الباب بكفها الموجوع . . فجأة اذا بصرخات استغاثة عالية تشق سمعها وتهز كل كيائها ، وقد خطر لها اللحظة أن هذه الصرخات تنبعث من داخل شقته ، الا انها سرعان ما أدركت أنها صادرة من البيت القريب المقابل ، كما ميزت فيها أصوات أطفال يبكون ويصرخون فى زعر وهلع . . اندفعت الى الشارع لتستطلع الأمر ، فرأت رجالا يهرولون وهم يصيحون فى نفس واحد : حريقه ياناس . . حريقه ياناس . . سقط قلبها الى قدميها ، وامتلات روحها بالخوف وبالتشاؤم . . ورأت كل النوافذ والأبواب تفتح والسكان جميعا رجالا ونساء وصبيانا وبنات يطلون أو يخرجون مندفعين الى مكان الحريق . . لكما رأت الأبواب العجوز يهرول ، وبائعة الليمون وقد خلعت طرحتها ووضعتها فى القفص ومضت تهرول صائحة ، استر يارب . . استر على عبيدك يارب .

وتأكدت الكارثة حين رأت السنة من الدخان تخرج من احدى النوافذ وتراقص ببشاعة فى الفضاء . . تسارعت أنفاسها مع رغبة فى البكاء . . ماذا يمكن أن تفعل . . كيف تساعد !؟ وصرخت تليفون للمطافىء . . أين أقرب تليفون !؟ ووجدت نفسها تتجه بنظراتها الى باب الأستاذ ونافذته . . الآن لابد سيخرج ، أو على الأقل يفتح النافذة لينظر ويستطلع أمر هذه الكارثة أو المأساة التى تحدث بجواره .

لابد من تبليغ المطافىء . . عادت تصيح على من حولها . .



بلغناها .. لكننا لن ننتظر حتى تصل .. المهم أن نسرّع  
بانقاذ الطفلين وأمههم .. ارتعش قلبها للصورة ..

واصطدمت برجال ونساء وصبيان يحملون أواني وجرادل  
مملوءة بالماء لينقضوا بها على النار .. وأضناها أنها لا تقوم بعمل  
تشارك به على نحو فعال ، فدخلت أحد البيوت وراحت تساعد في  
ملء الأواني بالماء .. وتصورت في لحظة أنها تفاجأ بالاستاذ وقد  
حمل أحد الأواني المملوءة بالماء ، أو يشارك على نحو ما ، إلا أنها  
سرعان ما نسيت ونسيت الموضوع الذي جاءت من أجله .. نسيت  
الصحافة والشعر وعلم الحضارات ، ولم يبق في ذهنها وأنفاسها  
اللاهثة غير شيء واحد .. انقاذ الطفلين وأمههم واطفاء الحريق  
تشارك بقدر ما تستطيع .. فجأة وجدت قلبها يزغرد فرحاً ، فقد رأت  
البعض ، ومعهم البواب العجوز ، يحملون سيدة مغمى عليها ،  
وعرفت أنها أم الطفلين : الحمد لله .. الحمد لله .. كل شيء بعد  
ذلك يهون ، .. وأغرورقت عيناها بالدموع !

كانت ملحمة اطفاء الحريق مازالت دائرة ، فمضت تنظر بقلق  
الى النافذة التي تخرج منها السنة الدخان .. ولاحظت أنها تهدأ  
وتخف بالتدريج حتى انعدمت وتلاشت تماماً .. نجح الناس في  
اطفاء الحريق !

هدأت دقات قلبها ، وراحت تتنفس بعمق وارتياح .. كانت  
تحس بنوع نادر من السعادة لم تذقه من قبل أبداً .. لأول مرة ترى  
الناس وهم يتجمعون ويتكلمون ويواجهون معا أبشع أنواع الخطر  
وينجحون ، وجميل أنها شاركت ولو بالروح !! وانتبهت فجأة على  
البواب واقفا بجوارها ، يلهث بهدوء وعلى وجهه آثار الحريق ..  
اندفعت عليه .. تود لو تعانقه .. صاحبت بكل ما في داخلها من  
انفعال : انتم عظماء .. وانتم .. أنت رجل عظيم ..

— العظمة لله يا ابنتي .. كان لابد من هذا ، والا فالنار كانت

ستأكل الجميع ، تذكرت الأستاذ . . قالت وهى تكاد تصرخ :  
وكانت ستأكله هو أيضا ، ومع هذا لم يخرج . . لم يفتح حتى  
النافذة . . هل أنت متأكد أنه فعلا بالداخل ؟!

هز رأسه بالإيجاب ، وقد ارتسمت على شفقيه طيف ابتسامة  
توحى بالسخرية وبالمرارة .

مشغول يا ابنتى فى أوراقه وكتاباتة .

دقت الأرض بقدمها غاضبة : أية كتابات يا عمى . . ملعونة  
كل كتابة تنزع من الانسان انسانيته .

وعاودت النظر الى الباب المغلق . . كان لايزال شاهقا  
ومصمتا . . وأصمما . . أحست نحوه بكراهية عميقة . . واجتاحتها  
رغبة جارفة فى نسفه وتحطيمه . . وتصورت ماذا لو حدث هذا !!  
لن تجد خلفه غير خرائب وقبور وجردان . . ارتعدت للصورة .  
غمرها احساس بالخوف وبالحنن وبالرثاء !! أعطت للباب ظهرها . .  
رفعت يدها بالتحية للبواب . . ثم مضت مبتعدة تشق طريقها غير  
عابئة بالحر وبالزحام .

كانت قد تحررت من وهم كبير . .

« ١٩٨٩ »

## الخماسين

باحساس مفعم باللحظة .. لحظة تحقيق الحلم .. الحلم  
الذى ياما عاشته فى الخيال سنوات .. ومن أجله خاطرت وعانت  
وضحت بالكثير ، وماهى الآن تراه حقيقة مجسدة ومصقولة لايحكم  
مكوناتها غير قوانين الجمال ، وانها لتود الآن لو جاء كل أهل الذوق  
وأهل الفن ليروا .. ويتفرجوا : لكانها ليست شقة اثنتا وفرشتها  
لتعيش فيها ، بل كأنها .. « جاليرى » .. معرض مقتنيات .. كل  
قطعة منها جديرة بالوقوف والتأمل .. وانها لمستعدة عن كل قطعة  
أن تحكى قصتها وتاريخها !

أجل .. هنا .. كل شيء ، فى إطاره الجمالى ، له قصة  
وتاريخ !

وضحكت فى سرها .. « ذلك يرضى أهل الشكل وأهل  
المضمون » ..

بفعل الفرع أخذ طعم الانتصار لم تكن تكف عن الحركة ..  
حركة دائرية حول نفسها .. وكانت أحيانا ترفع ذراعيها .. بكفيها  
.. فكانت فى دورتها تشبه راقصة باليه .. وفى دورتها البهيجة

كانت تمر ببصرها على الأشياء .. على اللوحات المعلقة على  
الحيطان .. على قطع الأثاث الخشبية التي تحقق فيها عنصر القدم،  
مع صيحات الفن الحديث !! .. أوه .. كم كلفها كل هذا !؟ ..  
لكنه يستحق ! ( وطردت نفسا عميقا من صدرها )

الآن تستطيع أن تهجع وتهدا .. وتقضى الأيام والليالي في  
هذه الشقة .. مستمتعة بجمالها .. لاتريد من الحياة أكثر من هذا  
.. ذلك هو كان خيالها .. وماهى قد استطاعت ترجمة الخيال الى  
حقيقة !!

غير انها ، فى دورانها حول الاشياء وحول نفسها ، كانت  
نظراتها تتمهل عند آلة التليفون : هذه لحظة لاتحتمل الوحدة ..  
بل أن كل تلك المشاعر المتوهجة يمكن بعد قليل أن تستنفد نيرانها  
وتتخمد وتنطفئ .. لابد أن تكلم أحدا تنتقل اليه الحرارة ..  
يتقبلها فرحا ويشتعل بها هو الآخر ؟؟

وقبل أن تفكر : ترى من يكون !؟ .. وجدته يطل عليها بعينه  
.. باسم .. مهنتا فى صدق وشفافية !!

وفكرت : هل هو الذى يقتحمها ؟؟ أم هى التى تستدعيه  
بخيالها ؟؟

وحدثت نفسها « اننى أظلمه .. فهو لايعرف أى شىء عن هذه  
الشقة .. ولايعرف أى شىء عن حياتى منذ أن انفصلنا .. بل انه  
سافر وترك البلد .. اربع سنوات وهو مغترب .. لم يعد الا منذ  
شهور .. فكانت الصدفة هى التى جمعتنا فى ذلك الحفل .. غير  
أنه كان لقاء خاطفا .. لم يشف الغليل .. فلا انا عرفت شيئا عن  
حياته .. ولا هو عرف شيئا عن حياتى .. كانت قصة حب ودخلت  
ذمة التاريخ !!



فلماذا هو بالذات تريده ان يكون أول من يرى الشقة الجديدة  
وتسمع منه كلمات التهنية والاعجاب ؟!

وتنهدت : لأنه كان أول رجل استوعب مشاعري .. وبجواره  
نسيت كل العالم .. و ..

— واذن لماذا طلبت منه الطلاق ؟! تذكرين أنه ياما ناشدك أن  
تتعلقى وتنسى فكرة الطلاق هذه .. كان يقول لك يمكن أن يعيش  
كل منا بعيدا عن الآخر ، ولكن بدون طلاق .. هذه الكلمة الكريهة  
لايصح أن تطبق علينا .. لكنى ركبت رأسى .. كنت أريد أن أكون  
أنا .. وحدى .. بدون أحد .. بدون رجل .. ومع هذا أمتلك  
العالم .. والمصير .. والرجال يدورون حولى .. ويكون لى بيتى  
الخاص .. عالمى الذى ينتمى لى ، وليس للرجل الذى أنا انتمى  
اليه !!

وهاهى قد حققت كل هذا .. دخلت كل هذه المعارك وانتصرت  
فيها .. وانها الآن لفى غاية السعادة والفرح .. ولكن .. مابالها  
تريد شهادة بهذه السعادة وهذا الفرح .. والأعجب .. انها لاتريد  
هذه الشهادة الا عنه هو ؟!

يقولون ان السباح العالمى ، قاطع المسافات الكبيرة ، وعابر  
الامواج والدوامات المهولة ، يقولون أن أكثر مايدفعه ويملاه بكل  
طاقات الحماس والتحدى ، ليس فقط منظر الجماهير التى تنتظره  
بالهتاف والتصفيق ، انما لابد أن هناك وجها بالذات .. وجها واحدا  
متميزا عن آلاف الوجوه الأخرى .. يتخيله بانتظاره .. النظرة  
الواحدة منه .. تساوى آلاف وملايين النظرات والبسمات .. انه  
وجه الحبيب !!

وغمغمت مع نفسها : هل ترانى مازلت أحبه ؟! .. لكننى أنا  
التي طلبت الطلاق .. وياطالما ناشدنى بأن انسى طلبى هذا لكنى  
أنا التى اصـرـرت .. ؟! ماذا يعنى هذا ؟!

يعنى انى حقيقة أحبه .. وأنها كانت تجربة امتحان اختبرت فيها  
نفسى وعواطفى .. وماقد اكتشفت أننى حقا احبه .. وأنه هو  
الشخص الذى سأقضى معه بقية العمر .. فى هذه الشقة الجميلة  
.. أه .. ما أجمل هذا ..

واندفعت الى التليفون وأدارت القرص .

– ألو ..

– ألو ..

فرحت .. انه صوته .. تفاءلت وبكل طاقة الفرح

– مساء الخير يا حمدى .

– من إ؟ كاميليا إ؟ معقول إ؟ .

– ولماذا غير معقول إ؟ أم تراه أنت شيئا .. لامعقولا إ؟

– بالعكس .. من ناحيتى أنا شيء طبيعى جدا .. انما ..  
ربما المفاجأة .. أربع سنوات الآن .. وثلاثة شهور .. كانت أعدها  
منذ قليل ..

– طمانينى .. كيف حالك ؟ !

– تغيرت أشياء كثيرة يا حمدى .. ومعها حدثت تغيرات فى  
الانسان .. تغيرات جذرية وعميقة .. يحسها الانسان ولكنه قد  
لا يجد تفسيراً لها .. قلت لنفسى : مع من أتكلم فيها .. على راحتى  
.. ودون أدنى حرج .. ولكنك أنت أول انسان خطر لى ..

– ذلك شيء يسعدنى .. شيء أفخر به ! .

– وأنت إ؟ كيف حالك إ؟

– حالى أنا إ؟ ( وضحك ضحكة صغيرة ) حسب الرد

التقليدى ، أنا بخير .. والحمد لله .. أما الرد الحقيقى ، فيحتاج  
كلاما كثيرا .. المهم الآن هو انت .. احساسى يقول بانك جيد  
سعيدة .. وأراهن على ذلك !!

ضحكت عاليا : كسبت الرهان .. ؟!

قال متحمسا : ماهو الرهان ؟!

– زيارة منك لشقتى الجديدة ..

– شقة جديدة ؟! هذا خبر عظيم .. عظيم جدا .. مبروك ..

– الله يبارك فيك .. وهذا مادفعنى لأن اكلمك الآن .. أن  
تكون أنت أول المفتتحين لها .. وأسمع رأيك فيها ..

– ذلك شئ يسعدنى بحق ..

– مارأيك لو تأتى الآن .. أن لم يكن لديك شئ سيقير  
مصير العالم ، تعال .. الليلة .. أرجوك .. لن تندم بأى حال ..

– أمام كلامك هذا ، سأنسى كل شئ .. مصيريا كان أم  
غير مصيريا ، وسأتى .. صفى لى العنوان .. وسوف أتى فى الحال

\*\*\*

داخلها اضطراب عظيم .. وأسرعت ، أول ما أسرعت ، الى  
المرأة .. تطمئن على منظرها .. لقد أوشكت أن تقول له ألا يأتى  
الآن .. بل يعطيها ساعتين أو ثلاثة تعيد فيها رسم جمالها .. أنها  
لا بد أن تكون هى نفسها ، مثل الشقة وما فيها ، جميلة .. بل تكون  
هى التحفة الحية الأولى فى المكان .. ألا أنها خشيت لو طلبت منه  
هذا الأرجاء القليل فى المجرى أن يلغى الفكرة نهائيا من رأسه .. أو  
يرجئها الى يوم بعيد .. وهى تريده هذا اليوم .. هذه اللحظة ..  
وفكرت :

لقد عرفنى فى جميع أحوالى .. رآنى فى لحظات ازدهارى  
واشراقى ورآنى فى لحظات كآبتى وذبولى !! .. أجل .. فليأت فى  
الحال ..

ومضت تجرى بعض خطوط ولسات فى الوجه ، وبالأذات حول  
العينين .. وهالة خفيفه خضراء تقابل خضرة عينيها .. و ..  
خصلات شعرها ، تعقدها بالطريقة التى كان يحبها .. كان يعشق  
رقبتها كلها مكشوفة .. على طريقة نفرتيتى « تراه مازال يذكر ! »

ومضت أمام المرأة ترسم نفسها بعينيها .. وخطر لها أن أهم  
ما يجب أن تقوله له ، بعد أن ينتهى من جولته بالشقة ، أو ربما خلال  
الفرجة ، لحظة أحد التعليقات له على قطعة ، أو لوحة ، أو خط ،  
أو لون .. خطر لها مع الحماس أن تقول له خلاصة مشاعرها  
وعواطفها فى السنوات الأربع الماضية .. سنوات الانفصال : أنها  
وقد رأت عشرات الرجال ، وحاولت جادة فتح قلبها من أجل أن  
تعيش قصة حب جديدة .. إلا أنها لم تستطع .. لم ينجح أحد من  
كل هؤلاء الرجال .. ولم تنجح هى نفسها ..

ليس ذلك هو البرهان الأكيد على أنه .. ما يزال ، كما كان  
.. حبها العظيم .. الأوحده ؟ ! .. ولو نظر لها بمرارة متذكرا  
الأيام التعيسة .. وإنها هى التى كانت مشبعة للحرائق ..  
ستخفص عينيها معترفة بأنها هى التى كانت حقا المسؤولة عن كل  
ذلك .. لكن شفيعها أنها كانت تريد أن تتأكد من عواطفها ..  
عواطفها التى أحست بها تجف معه فى فترة وتتييس .. ولم تر  
حلا فى نظرها غير الانفصال والطلاق .. كى تتأكد من حقيقة  
مشاعرها !!

وماذا لو أنه لم يقبل هذا المنطق ؟ بل ماذا لو استفزه الى  
حد الغضب فيندفع مهاجما اياها .. وقد تقلبت عليه مرارة ومهانة



مشهدهما الأخير .. وهو يبكى حبه بالدموع .. وهى واقفة كالحجر  
الأصم .. مصممة على طلبها .. بحجة الصديق مع نفسها : يوما  
ترين الطلاق هو الصديق مع نفسك ، ويوما ترين الرجوع هو الصديق  
.. لا يا عزيزتى .. لا .. هذا القلب فى المشاعر اكرمه ..

وهزت رأسها بشدة ، حتى أن بعض خصلات شعرها الملمومة  
انفكت وتبعثرت على كتفها .. لاتريد لخيالاتها أن تصل الى هذه  
المنطقة الكثيرة .. أجل .. اليوم فرح .. والمناسبة فرحة .. وكل  
شئ يدعو للفرح .. ولو حدث أثناء الفرح أن انسابت الدموع ..  
لو أن الحنين فى قلبها اختلط بالندم .. لو أنها أجلسته على هذا  
المقعد ، ثم جلست على الأرض بجوار قدميه واحتوت ساقيه ..  
وقبلت ركبتيه ، لن تجد فى ذلك أبسط مس بكبرياتها .. فليس فى  
الحب كبرياء .. و .. ودق جرس الباب ..

لم تلحق حتى أن تلم شعرها من جديد .. أسرع .. وفتحت  
الباب .. وكان هو ..

من اللحظة الأولى ، ندت عنه صيحة اعجاب : الله .. أحب  
المدخل الواسعة .. مساحات الفراغ .. كنت واثقا .. أعرف ذوقك !  
لو تركت نفسها لمشاعرها فى هذه اللحظة لاندفعت عليه  
وقبلته .. من قال ان هناك طلاقا حدث بيننا ؟ لا .. لا .. كان  
كابوسا وانقضى ( واستبد بها الشوق ) ما أجمل أن نعود كما كنا ،  
زوجين حبيين يعرفان كيف ينسجان معا أروع وأعذب اللحظات !  
غير أن شيئا جامدا خفيا أحسسته فى نظراته ، وفى شدة قامته ،  
أوقفها ثابتة فى مكانها !! ورغم هذا ، فقد فرحت بهذه المشاعر  
واستبشرت .. « ذلك يسعدنى .. رأيك انت بالذات يا حمدى » ..

صاح فجأة بفرح ، وقد توقف أمام إحدى اللوحات .. صورة  
فوتوغرافية لتمثال : أما .. عظيم أنك مازلت تحتفظين بهذه اللوحة

٠٠ جميلة ٠٠ موحية ( وغمغم باسمها ) : الخماسين ٠٠ لابن مصر  
العظيم ٠٠ مختار ٠٠ اكم اعشقها ٠٠ فما بالك بالأصل ٠٠ التمثال  
نفسه !!

- تذكر !؟ ٠ ( قالت بطرب ) يوم أن رأينا التمثال معا أول  
مرة ٠٠ في متحف مختار بحديقة الحرية !؟

ندت عنه تنهدة مسموعة أفحمت أية كلمات ٠٠ وكانت الصورة  
قد امتصته واستغرقتة ٠٠ بتفاصيلها وايحاءاتها ، وخيل اليه أنه  
يدرك اسرار الخلق فيها لأول مرة ٠٠ هذا الاحساس بجبروت  
العاصفة ، والمتجسد في الاختباء هربا وطلبا للأمان ٠٠ بل خيل  
اليه أيضا أنه يسمع صفير العاصفة وولولاتها ٠٠ لكان كل شيء  
يوشك أن يقتلع من أساسه ومن جذوره ٠٠ المباني والأشجار  
والانسان أيضا ٠٠ وفكر والصورة تأخذ بتلابيبه : ما أظف العاصفة  
حين تهب على المرء وهو في العراء ٠٠ في خلاء ٠٠ لا يجد الا نفسه  
يلوذ بها ٠٠ ينكمش مختبئا داخل نفسه ٠٠ ينكمش وينكمش متلمسا  
أبعد وأعمق جذور قوته كي يبقى ٠٠ ويعيش ٠

وفكر في سره : أن ما حدث بيننا كان اشبه بالخماسين ٠  
واسترجع ، بلا عمد ، طعم التراب الذي ملأ حلقه ، وسيل الدموع  
التي سببتها ذرات التراب والرمال التي علقت بعينيه ٠٠

قالت ، بنفس الحماس ، مشيرة الى لوحة اخرى مجاورة  
للوحة الخماسين : وانظر الى هذه أيضا ٠٠ أنا أعطيتها اسما آخر  
غير اسمها الأصلي ٠٠ اسميتها ٠٠ ما بعد الخماسين ٠٠ مارأيك ٠٠  
انظر الى المرأة وهي تنحنى بجرتها على ماء النهر ، ومع هذا  
فعيناها على كل النهر ٠٠ بوجهها الصبوح الفرحان ٠٠ سعيدة  
بانتها العاصفة ٠٠ ان المساحات والالوان لتوحى بعالم من الصفاء  
وبأغمار من الهواء النقي المنعش يوحى للانسان بأن يتنفس حتى  
العمق ، طاردا من جوفه آثار أيام الخماسين !!

كانت هي الأخرى تحس بانها تتحدث عن حياتهما ، أكثر مما تتحدث عن اللوحتين . . ونظرت اليه وقد امتلأ قلبها بالتفاؤل . . واستقرت عينها في عينيه بابتسامة . . بادلها الابتسام . إلا أنه كان يفكر في نفسه : اثبت يا ولد . حذار أن تجرفك العواطف ، هذه الزيارة بالذات أنت أقدمت عليها لكى تخرجها تماما من حياتك العاطفية . . بلطف وكياسة تحفظ عليها كبرياءها . . لقد انتهت « الخماسين » بالفعل ، إلا أن الصفاء والنقاء الذى حل لم يأت مرتبطا بها . . ( وسرح بعينيه الى بعيد ) كان وجها آخر . . وجها مريميا ، يصاحبه فى كل خطواته ونظراته وهمساته . . كان يسترجع كلماتها « قابلها يا حمدى . . لا بد أن تزورها ، وتبارك لها . وعش لحظاتك وفق ماتحس . لا تجبر نفسك على شيء . . اذهب ولنتفق على موعد نلتقى فيه . . بعد الزيارة . . الليلة . . أو بعد عام . . أو . . فلتقل لى : لقد عدت اليها . . ووداعا الى الأبد » .

وقال لنفسه : فى أى بقعة من بقاع العالم وأقطاره يمكن أن أجد مثلها ؟ ! ( وخاطب الطيف المريمى فى سره ) : لا ياسهير . . اطمئننى . . انت هو انت . . التى أصبحت مالكة العرش والصولجان !

ـ يبدو أنك سرحت بعيدا بعض الشيء .

ـ هذا صحيح ( وأشار بذراعيه الى محتويات الشقة ) لكنى لم أخرج من هذا العالم الموحى بالآف المعانى والأفكار . . طول عمري ، من يوم أن رأيتك ياكاميليا . وأنا أقول عنك أنك فنانة !!

سعدت بكلماته الى حد الاضطراب . . اختلطت أفكارها بمشاعرها . . ولم تجد لنفسها خلاصا من الاضطراب إلا أن

تعبير له عن أجمل ماتتمناه فى هذه اللحظة .. اندفعت مقتربة منه  
وأعسكت بذراعيه :

— حمدى .. هذه الشقة ليست شقتى وحدى .. أنها شقتك  
أنت أيضا ..

نظر إليها مدهوشا ، غير فاهم ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة .  
واصلت هى : ننسى ما حدث .. كأنه ما كان .. صدقتنى  
يا حمدى .. لقد حاولت أن أحب غيرك فلم أستطع ، لقد أيقنت أنك  
الوحيد المالك لقلبى وعواطفى . ( وضغطت على كفيه بقوة الرجاء )  
فلنتزوج من جديد !

— نتزوج ؟!

— نعم يا حمدى نتزوج .. وننسى ما كان .. ومن الآن وليس  
الغد ، نبدأ معا حياتنا ، وما أجمل الأيام التى تنتظرنا .. أنا  
وأنثى !

تنهد .. كان فمه مغلقا ، فخرجت المتنهدة من أنفه . ووجد  
نفسه على وشك أن يبتسم ، لكنه قتل الابتسامة فى مهبها .. كانت  
يداه لاتزالان بين يديها .

— كاميليا .. أود أن أقول لك شيئا ..

— قل يا حمدى ..

— أنا .. ارتبطت بانسانة أخرى .. وهى الآن تنتظرنى فى أحد  
الكازينوهات .. على النيل .. سيكون لطيفا لو جئت معى وقضينا  
سهرة جميلة .. و ..

ولم تسمع شيئا .. أحست برأسها يدور ، وبأن شيئا كالخماسين  
يهب عليها وعلى شقتها الجديدة . أغمضت عينيها .. ثم استدارت  
عنه بوجهها فى كبرياء .. مغالبة البكاء .. وتسمرت بنظراتها أمام  
صورة الخماسين !

(( ١٩٨٧ ))



## حييها

كانت الدنيا بردا .. والفضاء غائما .. والشمس الغاربة  
تختفي خلف السحب الكثيفة القاتمة .. ورياح ديسمبر الثلجية  
تطارد في طريقها الناس والعربات وتكتسح أمامها كل شيء ..

وعلى رصيف الشارع الطويل الواسع ، كانت تسير ، ولكعب  
حذائها الأسود يدق أسفلة الطريق في إيقاع متتابع سريع ..  
كان جسدها ينتفض ، ويدها المدسوستان في جيوب «التاير»  
ترتعثان ..

وأمام واجهة أحد المحلات الصغيرة ، توقفت لحظات ، وراحت  
تجول فيها بصرها على مهل ولم تلبث أن دلفت إلى داخل المحل  
في نشاط وابتسامة هادئة ومريحة تعلو شفقتها .. وحين استقبلها  
واحد من عمال المحل مرحبا قالت له بصوت فرحان :

.. من فضلك .. عايزه كرافتة ..

أسرع العامل فأخرج بعض الصناديق وراح يعرض عليها  
أنواعا وألوانا من أربطة العنق ..

كان وجهها أليفا ، فراح العامل يتأمل فيه وهي تقلب  
الكرافتات ٠٠ ووجد نفسه يتساءل في سره ، وهو يرى ملامحها  
الدقيقة الصغيرة البيضاء ترتعش من البرد رغما عنها : ألم يكن من  
الممكن تأجيل شراء هذه الكرافتة الى يوم آخر ، لابرده فيه ولأرياح  
ولا غبار ٠٠ ١٩ ! يالها من عفريئة شقية ، تريد أن تقابل حبيبها في  
يوم عاصف مثل هذا ومعها هدية له ٠٠ !!

ولاحظ فجأة ، أنها كفت عن التقليل ، ووضعت اصبعها بين  
أسنانها وراحت تفكر ٠٠ فسألها في ود ٠٠ أى لون تريد  
الدموازيل ٠٠ ؟ !

قالت وهي تنظر اليه نظرة باسمة وشاردة في الوقت نفسه :  
- هذا هو بالضبط ما أفكر فيه ٠٠ ان لون بدلتيه بنى ٠٠  
وفيها خطوط بيضاء ٠٠ أما هو نفسه ، فلون وجهه أسمر ٠٠

فرحة غريبة أحس بها العامل ٠٠ كان يود لو يسألها ٠٠  
« أسمر مثلى هكذا ٠٠ ١٩ ٠٠ هل الجميلات مثلك يحبن  
الأسمر ٠٠ ١٩ »

وبالطبع كتم رغبته ٠٠ وأحس بفضول يغمره ، فراح يقلب  
معه في حماس ٠٠ وفجأة ، قال لها في شغف :

- آه ٠٠ هذه مناسبة ٠٠ بنية ٠٠ وفيها نقشه صغيرة  
بيضاء ٠٠ انظري ٠٠

- فعلا مناسبة ٠٠ ولكن ٠٠ عنده أختها تماما ٠٠

وحانت منها لقطة الى المرأة المواجهة لها ، والمغمورة بأنوار  
النيون ، فلمحت خصلة رفيعة من شعرها الأسود الناعم مائلة على  
جبينها حتى تصل الى حاجبيها ، فعدلتها وعادت تقلب في الكرافتات  
من جديد ٠٠ ولم تلبث أن صاحت فجأة .

١٥ - ٠٠ هذه جميلة ٠٠ جميلة جدا ٠٠ سأشتريها ٠  
واهتز العامل لنبرة صوتها وحناسها ، ولم يتمالك أن وجد  
نفسه يسألها في صوت متردد خافت :

١٦ - خطيبك يامدموازيل ٠٠ ؟

ضحكت وقالت في رنة حلوة :

١٧ - لا ٠٠ زوجي ٠٠

وأعطته النقود وهي تبتسم ، وتناولت منه الكرافة ، ثم  
خرجت الى الشارع في نشاط ٠

كانت الرياح لاتزال تندفع في الشارع ٠ وطريق عودتها الى  
البيت كان في اتجاه الريح ، فأسرعت من خطاها وجسدها يرتعش  
من البرد ، لكنها كانت تحس أنها أسرع من الريح بكثير ٠٠ وأنها  
تكاد تطير من الفرحة ٠

« ١٩٥٩ »

## المشى فى الليل . .

كان على البركان ان يهدأ . .

قال لها ، عازفا عن اى كلام : انتهينا . .

قالت ، شامخة بصدرها متحدية : انتهينا . .

لم تستفزه روح التحدى .

— لنذهب الى الماذون .

— الآن ، انا مستعدة وها نحن بملايسنا .

خرجا فى صمت وقفلا خلفهما الباب فى هدوء . كانت قد  
استقرت فى نفس كل منهما فكرة الطلاق بلا اى احساس بالتردد او  
باحتمال الندم .

الى هذا الحد يكفى

صرخا فى وجه بعضهما كثيرا . تبادلوا الالفاظ الجارحة .  
تملكتها شبه هستيريا وهو تملكته رغبة فى ان يرفع كفه ويهوى به  
على قممها المتدفق بالصراخ تكاد تسمع كل سكان الجحى وليس البيت



وحده . ثم . . وفى آخر لحظة ثابا الى عقلهما . . تحكما فى اعصابهما .

ان كانا حقا ضادقين ، فليكما عن هذه الترهات ويعلنا الانفصال .

يعلنانه بهدوء واقتناع يتناسب مع نبل حياتهما التى كانت ويمضى كل منهما فى طريق . .

سارا فى هدوء . كانت الدنيا ليلا . والشوارع التى يسيرون فيها معتمة . لم يكن بيت المأذون بعيدا ، ولكنه ايضا لم يكن قريبا جدا . واذ لاح لهما تاكسى فارغ قادم احس كلاهما بالعزوف عن الركوب . كان كلاهما يحس بأن المشى فى الليل ، فى هذه الطرقات الهادئة الصامتة متوافقا مع نفسيته . فليستمررا فى المشى . ولاحتلها صورة المأذون الذى يتجهان اليه . أنه هو نفس المأذون الذى حرر عقد زواجهما ، وهو نفسه الذى سيحرر الليلة وثيقة طلاقهما .

وفكر فى نفسه بمرارة : ذلك اليوم كان زواجنا انتصارا . كان ختام معارك وتحديات خضناها . اكان كل ذلك وهما ؟!

وقالت فى نفسها وهى تحبس الدموع فى حلقها : تلك الليلة ووجوه الاصدقاء والصديقات من حولنا سعيدة ، وكلمات احدهم : كأنكما ستصنعان بهذا الحب ثورة تشتاقي اليها البشرية ، ها نحن لم نصنع ثورة . بل انتهى الأمر بالفشل وبالهزيمة . لامفر من الاعتراف بالواقع . لكفى خداعا للذات !

وقال فى نفسه ، مانعا تنهدته ان يكون لها صوت : تلك الايام كنا نقرح بأبسط الأشياء . وكانت السعادة ثمنها بسيط جدا . . وكنا ننضج حبنا بالمشى تحت الشمس وعلى ضفاف الانهار وتحت المطر فنسرع من خطواتنا ونجرى ونختبئ ونضحك من الأعماق .

الآن جفت ينابيع الضحك من القلب • السعادة أصبح ثمنها غاليا  
جدا فوق القدرات •

وقالت فى نفسها : كان فى تلك الايام سعيدا وضحوكا ونظراته  
متنبهة على جميع الاتجاهات • فقد كان دائما فى معركة ويحكى لى عن  
اخبارها •• الآن تحولت المعارك فأصبحت بينى وبينه كأنى أصبحت  
عدوه الرئيسى ويريد ان يدمرنى • لا • لن اسمح له أو لأى انسان  
آخر أن يقضى على •

وقال فى نفسه : لم تعد للحياة معنى ، فكيف يكون للزواج ؟!  
لقد اصبحنا داخل البيت كغريبين • منذ متى لم نمش معا هذه  
المشية • كانت سعادتنا قائمة على الاشتراك فى الاحساس بالمتع  
الصغيرة والبسيطة !

وقالت فى نفسها : كنا نتلاصق فى الحجرة الواحدة • الآن  
نادرا ما نجلس ونتحدث معا •• أو نخرج ونمشى معا هكذا •  
لقد كنا ••

على ايقاع خطواتهما الهادئة فى صمت الليل • كانا يسترجعان  
فتتباطأ خطواتهما أكثر وأكثر ، كأنما يريدان ان يفرغا من استرجاع  
ذكريات الرحلة كلها ، قبل أن يصلا الى محطة الفراق •

فجأة وجدا نفسيهما يدخلان الشارع الذى يقطنه المأذون • ها  
هو ذا البيت • بيته • خطوات قليلة ويدخلانه •• وينتهى فى دقائق  
كل شئ •• توقف الاثنان عن المشى • اتجهت عيونهما الى البيت •  
عادت عيونهما فتلاقت بلا كلمات : ندخل أم نؤجل ؟

وبلا كلمات أيضا ، عاودا المشى ، وحين حاذيا بيت المأذون ،

لم ينظرا اليه ، بل واصلا المسير • لكانا لايزالان يحسان بطعم  
جميل للمشى ..

وفكر كل منهما في نفسه : فلنظل هكذا ولو للصباح .. فما زال  
هناك وقت لجميع الاشياء • كانت عيوتهما الى الامام • ومضيا ..  
على ايقاع خطواتهما المتوحدة ، يسترجعان قصة حب .. في صمت  
الليل ..

« ١٩٧٢ »

## أغنية كونية

ذلك الصباح الباكر ، بادئنا يومى لكالعقاد ، باطلالة هادئة  
واسعة من شرفتنا العالية ، مستمتعا بمنظر المدينة قبل أن تبدأ  
ملحمتها اليومية الرهيبة ، قبل أن تصبح غابة وطاحونة •

ذلك الصباح الباكر ، وكل شىء يوحى بالصفاء وبالتفاؤل  
بيوم جديد طيب : الأفق الأزرق الناعم ، والنسمة الرائعة المنعشة  
بعد موجة حر خانقة طالت • • ويضع شجيرات حولى فى الشرفة ،  
أهمها وأجملها شجرة ياسمين هندى ، أهدانى أياها صديق عزيز  
سمعتنى ذات مرة أتحدث عن جمال هذه الزهرة وعطرها  
العميق الأخاذ ، وإذا بى أفاجأ به ذات يوم يدق على بابى ، حاملا  
شجيرة صغيرة مزروعة فى أنية فخارية ويقول : كل سنة وانت  
طيب • اليس اليوم هو عيد ميلادك !؟

امتز قلبى بالامتنان وبالفرح • رحت أعانق الاثنين : الصديق  
والشجرة •

أه • • كم هى رائعة وجميلة • الحياة • بما فيها من بشر • •  
وياسمين !

يومها لم تكن الشجرة أكثر من نبتة صغيرة • • مجرد ساق



صغيرة يخرج منه فرعان صغيران عاريان ، أشبه باصبعين منفرجين  
على شكل سبعة ٠٠ وفكرت جذلانا : كأنهما علامة النصر !

حملتها بشغف وأخترت لها مكانا فى الشـرفة ٠٠ وكطفل  
صغير رحت أرعاها وأرضعها محبة وعناية حتى كبرت : الساق  
الصغير المزروع فى الطين تحول الى جذع ذى جذور وراح يستطيل  
ويقوى ويمتد الى أعلى ٠ والفرعان ، علامة النصر ، بدءا ينبتان  
أوراقا جميلة مترعة الخضرة ٠٠

وأنا فى عمق نشوتى باللحظة ، متفتح القلب ليوم جديد طيب ،  
وإذا بالحادث الرهيب يقع فجأة ٠٠ بغلطة حمقاء منى ، ووجدتنى  
أشبهق والقلب يكاد ينخلع ٠٠ فبينما أنا أستدير عن  
سياج الشرفة متجها الى الداخل ، طرق أذننى صوت خافت :  
تـك ٠

نظرت ٠٠ وإذا بى أرى أحد الفرعين فى الياسمينية وقد  
انكسر وسقط بأوراقه على الأرض ٠٠ اصطدمت به ساقى دون وعى  
منى ، ولرقتة انكسر وسقط ٠٠

انخطف قلبى واكتسحنى شعور بالتشاؤم ٠٠ وبالخزى ٠٠  
جلست كالمجرم ينظر الى جسم جريمته ٠٠ وتذكرت صديقى  
الذى أهدانى أياها ، واحسست بالخجل ٠٠ كانت أجمل الأشجار  
عندى ٠٠ وكانت رمزا ، فقد جاءتنى فى عيد ميلادى ٠٠ أكون  
هذا نذيرا بأيام صعبة وكئيبة قادمة !؟

مجرم أنا ٠٠ غيبى أنا ٠٠ غير جدير بامتلاك تلك النباتات  
المرهفة الراقية الجميلة ٠

تحولت الشرفة الى مصدر للاحساس بالكآبة والذنب ، وأنا  
أرى الياسمينية وقد أصبحت بفرع ونصف ٠٠ فرع سليم مورق ٠٠  
ونصف فرع مشوه عار وبائس ٠

وفكرت كما يفكر المجرم بعد ارتكاب جريمته ، أن اخفى  
فعلتى .. أحملها الى الخارج وأتخلص منها ، غير أنى أحسست  
بالخجل من هذا الشعور الوحشى .. كأنى أضيف الى جريمتى  
جريمة أخرى .. لقد بدا لى وكأنى أتخلص من ابن لى أو صديق  
مرض أو أصيب ..

فلتبق فى مكانها ، وسأواصل ربيها فى مواعييدها المعتادة ..  
وان كانت بعد هذا قدرة على البقاء فلتبق ، ولكن ليس كمصدر  
للجمال ، انما وفاء للعشرة ، وللرمز الذى كان : علامة النصر !

بعد فترة غير طويلة ، حدث ما زاد من كآبتى . فقد لاحظت  
ان الفرع السليم المورق يفقد زهوته ونضارته ، وأوراقه أيضا أخذت  
فى الذبول والسقوط .. ورقة بعد ورقة .. وفكرت : أياكون هذا  
حزنا منه على أخيه ؟ أم ان الاصابة قد وصلتته على نحو ما ، وان  
الشجرة كلها فى طريقها الى الذبول والى الجفاف ؟

غير أنى فوجئت بشيء بالغ الغرابة يحدث . فبينما كانت  
الحيوية والخضرة تتناقصان فى الفرع السليم ، كنت أرى نوعا من  
الحياة يدب فى نفس الوقت فى الفرع المكسور !

استرعتنى الظاهرة .. فمضيت أرصدها وأتابعها .. لعلها  
لا تكون وهما وخيالات تمنى .. لكنها مع الأيام كانت تتأكد .. فقد  
رأيت أوراق الفرع السليم وقد جفت كلها وذبلت وتساقطت ، بينما  
الفرع المكسور وقد التأم جرحه ، راح يتمدد من جديد وينمو .. ثم  
إذا بالمعجزة الساطعة تحدث وأنا أرى تباشير أوراق جديدة تنبت  
وتبزغ وتطل منه على الدنيا . رحت أرقص فرحا فى الشرفة ،  
كأنى اغتسلت من ذنبي .. كأنى اغترفت من الحياة جرعة أمل  
جديدة .. وفكرت أن أجرى الى صديقى الذى أهدانى الشجرة  
وأحكى له كل ماحدث ..

لكنى كنت مشغولا بمتابعة الظاهرة أو المعجزة ، كما انى كنت  
حزيناً للفرع الذى كان سليماً وجف .. كنت قلقاً على مصيره ..  
غير أن ضوء المعجزة كان يقترب من قمة ذروة سطوعه وبهجته  
واكتماله .. فما أن استعاد الفرع المكسور صحته وقدرته على  
معاودة الحياة ، حتى بدأ الفرع الثانى يستعيد حيويته وقدرته ، وبدأ  
هو الآخر يورق من جديد ..

وبدت الشرفة وكأنها تتغنى بأغنية كونية لا مثيل لها ..  
أغنية عن ذلك القانون الجليل الرائع ، والذى لا تمضى الحياة  
عظيمة وراقية ومتطورة إلا به .. فى النبات تماماً .. كما فى  
البشر .. والقلب ذائب بالوجد .. مبتهج بما يملكه فى هذا العالم  
من جمال البساطة ..

كأنه عيد ميلاد جديد أهدتنه الحياة ، وأنا أرى الياسمين  
تزهو مرة أخرى بجمالها .. وتلوح لى كل صباح ، كعلامة نصر  
جديدة !

(( ١٩٦٠ ))

## قلب الحب

لا أحد يعلم كيف وقعت البللورة ، وأى يد أو قوة شريرة  
دفعتها من مكانها العالى وأسقطتها على الأرض تلك السقطة العنيفة  
فتطايرت كتلتها المتعاسكة الصلبة الى قطع وأجزاء متفرقة ..  
متباعدة ..

هبّت عليهم جميعا رياح التشاؤم والحزن .. من أول الأب  
والأم ، الى أصغر أفراد الأسرة .. فقد تحولت هذه البللورة مع  
الأيام الى ما يشبه الرمز أو التهمة .. وقفوا جميعا مذهولين  
مفجوعين يتطلعون الى الشكل الجميل الأسر وقد ضاع وتناثر ..  
ليس فقط الشكل الجميل ، وإنما أيضا تلك القدرات والإمكانيات  
الداخلية التى كانت تكمن فيها .. كانت تضيء فى الليل وفى النهار  
تتماوج بألوان الطيف السبعة .. وبين الحين والآخر ترسل الحائلا  
موسيقية بهيجة ..

ما من صديق أو غريب كان يراها ، الا ويتساءل مبهورا :  
من أين جئتم بهذه البللورة ؟ وفى أى مصنع صيغت ؟ فيجيبون  
باسمين مزهوين : فى مصنع الحياة والزمن ، صنعت وصيغت  
بللورتنا .



كان هذا هو بالفعل سرها العجيب ! فقد كانت فى البدء صغيرة ودقيقة حين دخلت هذا البيت لأول مرة مع الأب والأم ، ولم يكونا أبا وأما بعد .. كانا عروسين صغيرين رومانسيين التقيا على الحب فأسمياها « قلب الحب » وكانت تنتقل معهما من حجرة الى حجرة .. غير أن شيئا رائعا ومدهشا كان يحدث للبلورة . فمع دورات السنين ومع مجيء أطفال جدد للحياة ، كان حجمها ينمو ويزداد ، مكتسبة جمالا أعظم وقدرات أكثر .. حينذاك بدا لها مكانا جديدا يليق بها ويحفظها . شيئا كالمحراب أعلى صدر الصالة فى مدخل البيت مباشرة .. تبهج عين الداخل والخارج .. كيف سقطت رغم هذا !؟ أم أن حركتها الذاتية النامية المستمرة هى التى دفعت بها الى الموت وإلى النهاية !؟

انتفضوا جميعا من وقفتهم المذهولة ، وانكبوا على الأرض يتسابقون فى جمع الأجزاء المتناثرة .. كل واحد ملهوف على أن يكون له منها جزء .. للذكرى ، وللحظ الطيب جاءت القطع بعددهم تماما . أمسك كل منهم بقطعته وأنفاسه تتسارع ، وراح ينظر اليها .. وإلى بقية القطع الأخرى ..

كانت الأحجام متفاوتة ، لكنها - كلها - كانت تبرق وتشتع . قال الأب وقد لاحظ أن أصغر قطعة جاءت من نصيبه : أنا يكفينى من « قلب الحب » ذرة .

قالت الأم وهى تقاوم فى عينيها دمعة تآثر : وأنا أيضا .. وتذكروا دائما يا أولادى أن « قلب الحب » بدأت معنا صغيرة جدا .. أصغر من أى قطعة من هذه القطع !

وإذا بالابن الأكبر يصبح فجأة مهللا : قطعتى ترسل لحنا موسيقيا .. اسمعوا قطعكم جميعا .. أرجوكم . اسرع الكل بوضع القطع على اذانهم ، وإذا بوجوههم تتفتح

وتشرق .. فقد كانت القطع كلها ترسل موسيقى .. تماما كما كانت  
تفعل البللورة الكبرى .

حينذاك انجاب عنهم الاحساس الحزين بموت الأشياء ونهايتها  
... وبدأ لهم على الفور ان البللورة الكبرى لم تضع أو تتبدد ..  
بل رأوا امامهم الانقسام العظيم الذى يتولد عنه كيانات جديدة ،  
ومهما كانت صغيرة ففيها كل خصائص وجماليات البللورة الأولى  
.. وهتف الأب قائلاً ونظراته ذاهبة الى بعيد : أتعرفون فيم أفكر  
الآن ؟ أفكر فى حركة الكون الأولى ، حين كان كتلة واحدة دوارة .  
ثم انتثر الى نجوم وكواكب سيارة ..

تصاعد الفرح بالاكشاف العظيم .. وبأن كلا منهم أصبح  
له بلورته الخاصة يحملها معه حتى لو سافر الى بعيد .. واعتزتهم  
جميعا نشوة ..

حسبناها النهاية فإذا بها البداية .. وضم كل واحد بلورته  
الى صدره .. سعيدا بها ..

ومهما كان حجمها .. يكفيها من « قلب الحب » ذرة ..

(( ١٩٧٨ ))

## الأعظم

وقفت فى الصف الطويل انتظر دورى • عشرات من النساء  
والرجال والاطفال أمامى ، وعشرات آخرون خلفى • قدرت انى لن  
أبلغ دورى قبل ساعة • لم أعبأ • المهم ان أحقق هدفى • والأكثر  
أهمية ان يظل هذا الهدوء العميق يسود المدينة • هدوء ثقيل مشحون  
بالريبة واحتمال الغدر فى أى لحظة ••

كانت الغارات الوحشية على غرب بيروت قد توقفت مع أول  
اضواء النهار • انتهزتها فرصة قبل ان يعودوا • حملت « الجيرك »  
الكبير لأملاه بالماء • انجاز عظيم لو تحقق هذا • ان أعود الى  
البيت وإلى الأصدقاء ومعى ماء • كان الحصار على أشده • وكان  
أبشع مافيه قطع الماء عن الاهالى • قطرة الماء نحافظ عليها مثلما  
تحافظ على حبات عيوننا • الجرعة الواحدة نتقاسمها بالعدل حين  
نشرب • اما غسل الوجه وحلاقة الذقن فكان ترفا لا يليق باللحظة •  
بعد ايام بدأت الروائح الكريهة تفوح من البيوت • وشبح الاوبئة  
يلوح • أصبح الماء هو حلم أحلام البشر •

كنت أدرك ونار الغيظ •• بل الحقد ، تأكل فى صدرى ، ان

هدفهم هو الضغط على الاهالى كى يهجروا نصف المدينة المحاصر ،  
ويبقى المقاتلون وحدهم فيه . . حينذاك يسهل الانفراد بهم والقضاء  
عليهم . لكن الاهالى صمموا على البقاء فازدادت غاراتهم وحشية  
وضراوة .

انتهزت لحظات الهدوء . حملت « الجيرك » واسرعت الى  
مكان كنت قد لمحت بالصدفة بعض الاهالى يملأون منه أوانيهم .  
سور حديقة أحد البيوت يخرج منه خرطوم . . وشخص غير ظاهر  
يتولى توزيع الماء .

كانت العملية تتم بنظام وسرعة . ففى أية لحظة يمكن أن  
يعاودوا التحليق وصب الجحيم . أه ما أجمل لوعدت الى زملائى  
ومعى الماء الوفير . نشرب حتى الارتواء . نحلق نرقوننا التى طالت  
نفسل شعرنا الذى تلبد . وكذلك أوانينا التى تراكمت عليها آثار  
الطعام .

خطوة خطوة كنت اقترب من مكان توزيع الماء . ولأن الشخص  
الذى كان يوزع جالساً ، فلم أكن قد رأيته بعد . . وحين لم يبق  
أمامى فى الصف غير ثلاثة أو أربعة . . رأيته بوضوح . وكان  
منظره مفاجأة لى . كان فى حوالى الثلاثين . ومن كتفيه العاريتين  
بدالى أنى أمام بطل من أبطال المصارعة أو حمل الاثقال . استرعتنى  
قوته الجسدية . وفكرت ان هذا الذى يفعله بالنسبة لقوته شىء  
تافه وبسيط . حقا ان الماء هو اكسير الحياة ، لكن هذا الذى يقوم  
به ، يمكن أن يؤديه صبى صغير . أما مكانه المناسب هو أحد مواقع  
القتال وبيده مدفع يلاحق به هؤلاء المتوحشين .

وانذ لم يبق على دورى غير شخص واحد . . يملأنى الحماس  
والاستبشار . . فجأة تبدد كل الهدوء وانفجر البركان من جديد .  
لقد عادوا بصواريخهم من البحر ، وقاذفات قنابلهم من الجو .  
انتثرنا جريا الى اقرب ملجأ . . وفى غمضة عين كان الشوارع



قد خلا من الصف الطويل . الا اننى فوجئت بالشباب الذى كان  
جالسا يوزع الماء ، وقد ظل باقيا على جلسته اسفل السور فى  
العراء . ورأيت ينظر الى أعلى حيث تهدر اسراب الطائرات المغيرة  
ويصرخ : يا كلاب . يا اولاد الزناة . . انزلوا لى . لتكون المواجهة  
بيننا شخصية ( وراح يلوح بكلتى ذراعيه ) بيدي وحدهما .  
سأواجهكم أيها الجبناء . بيدي هاتين .

فى تلك اللحظة ، سطعت الحقيقة . واكتشفت مالم يخطر  
على البال . كان الفتى الجميل القوى مصابا بشلل الاطفال ،  
ولا يستطيع النهوض من مكانه الا بمساعدة . خجلت من افكارى الأولى  
تجاهه . يا لها من مدينة عظيمة . كل من فيها يساهم فى المعركة  
بما يستطيع . وهذا الشاب لايمك غير ذراعيه . ورأيت سيدة  
وفتاة يجريان عليه ، تحت الجحيم ، ويجذبانه برفق . استند  
عليهما ، ومضى معهما الى أحد المخابىء . وبدأ الشارع بعده خاليا  
تماما من أية حركة للبشر . .

كان الاناء فى يدي فارغا ، لكن مشهد البطل كان قد روى قلبى  
بمياه انهار العالم العذبة كلها .

(( ١٩٨٣ ))

## الحنين الى الفرخ

كنت امشى على الرصيف سارحا .. فيم كنت سارحا ؟  
لا اذكر .. لكن حين يحدث ويكون المزاج رائقا طيبا ، يحلو للمرء  
الانطلاق خلف فكرة أو قضية معلقة ينشغل بها عن الضجة وعن  
الزحام .. زحام ساعة الذروة ، تلك التى يخرج فيها عشرات  
الألوف من الموظفين والعاملين والطلبة والطالبات دفعة واحدة وفى  
ساعة واحدة ، ليصبوا جميعا فى شارع واحد ، الأمر الذى جعلنى  
أطلق على هذه الساعة : ساعة الحشر اليومية !

كنت اشق طريقى بهدوء وسط الجموع ، غير مهتم بالنظر فى  
وجوههم .. وكنت قد قرأت - قبل أيام - جملة لأحد الفنانين  
التشكيليين أعجبتنى جدا وحرصت على حفظها : « لا معنى لوجه  
يشبه كل الوجوه » .. ورأيت أن ذلك يتحقق تماما فيما حولى ..  
هذه الكتل البشرية الهائلة التى تبدو الوجوه فيها والرءوس كأنها  
وجه واحد ورأس واحد بتعبير واحد ، واذن لا معنى للنظر فيها ..

فجأة ، وموجات الوجوه والأجسام تتوالى ، اذا بعينى تتوقفان  
على وجه بالذات ، قايما فى اتجاهى ، واذا بينبوع فرخ ينبثق فى  
قلبى ، وهتفت لنفسى بفرخ : « منصور السويفى .. من كم سنة .. »

يااللهى • نفس الاستدارة فى الوجه وفى الجسم ، وان كان قد  
سمن بعض الشيء ، • وبكل الحنين وكل الاشتياق الى تلك الأيام  
الحوالى بصورها واحداثها وذكرياتنا ، اندفعت اليه ، فاتحا كل  
ذراعى لآخذه بالحضن •• الا اننى ماكدت اقترب منه ، موشكا على  
ضمه حتى فوجئت به يجفل ماخوذا ، ويتراجع الى الخلف خطوة !!  
•• اكتشفت على الفور خدعة البصر التى اوقعتنى فيها عينائى ،  
رغم انى كنت اضع نظارتى الطبية !! تجفدت ذراعائى ، ثم تدلنا  
بهدوء الى جانبى ، وقلت منكشفا فى نفسى مبتسما بحياء وخجل -  
انا آسف •• العتب على النظر ( وندت عنى ضحكة صغيرة معتذرة )  
يخلق من الشبه اربعين •

اتفاق الرجل من المفاجأة •• ادرك الموقف •• كان ينظر فى  
وجهى محاولا جمع شمل نفسه بسرعة ، بينما اتسعت له ابتسامتى  
بانتظار أن يقبل اعتذارى ، ثم أمضى لحالى •• وكررت : آسف  
جدا ••

واذا بوجهه المستدير يتفتح بابتسامة كبيرة ويقول بحماس ،  
ناظرا فى عينى بود شديد : آسف ليه ١٩ ( وبسط لى فجأة كل  
ذراعيه ، بصوت فائض بالحيوية والبساطة •• » تعال ياراجل ••  
بالحضن ، واندفع الى ، نفس اندفاعتى الاولى اليه ، اندفعت عليه  
انا أيضا ، والتحمنا فى عناق حار !!

من منا كان الاكثر طفولة ونحن تربت على ظهر بعضنا بود  
وحرارة وحماس ، كأننا صديقان قديمان التقيا بعد غياب طال ،  
نبتعت من لاشيء ، شيئا رائعا وجميلا يحتاجه كل منا •• عناق  
صديق •• عناق صاف لا تشوبه أية شائبة •• ينصب فيه كل  
اشتياق الانسان للانسان ، ويبدد به وحدته وغربته فى قلب هذا  
الزحام ••

وبينما كنت أحاول استيعاب الموقف الذى يبدو كالخيال أو  
المعجزة السعيدة ، كانت ثمة كلمات تقال ، منى ومنه ، مع اهتزازات  
العناق : هو لازم الناس يكونوا عارفين بعض عشان ياخدوا بعض  
بالحضن ١٩ الانسانية واحدة ..

وكلنا أولاد آدم وحواء ..

ومضينا نضحك فرحا ، كطفلين ، من أعماق القلب ..

« ١٩٨٩ »



## يعود الحب أقوى

حين وضعا - هو وهى - أقدامهما على سلم الطائرة ليصعدا ،  
خفق القلب فرحا وتبادلا نظرة • لولا الزحام واندفاع الركاب لتمهلا  
فى الصعود كى يطبلا من اللحظة •• يثبتانها على صفحة الزمان  
فى الذاكرة • كانت أعماق الاثنين تموج بانفعالات شتى متضاربة  
•• لكن الفرع كان هو الطاغى ، وثمة لحن بهيج راقص يشيع فى  
الجو ويتبعهما •• ما أجمل أن يعيشا الحب لأول مرة فوق السحب  
•• ولئن كانت سماء القاهرة اليوم صافية وخالية من أصغر ندفة  
سحاب ، كأنما احتفالا بطيرانهما معا ، فسرعان ما ستدخل بهما  
الطائرة مناطق وأجواء تبدو فيها كتل السحاب كمنشآت المدن ،  
فتخترقها وتعلو عليها ثم تنطلق بهما خفيفة متجلية ! ••

لم يكن طيرانهما معا لأول مرة هو المفجر الوحيد لكل هذا  
الفرح ، إنما السبب الأعظم والأخطر فى الحقيقة ، والذي لولاه ما  
كانت هذه الشاعر ولا كانت الرحلة نفسها أنهما عادا الى بعضهما  
زوجين حبيين ، بعد أن وسوس الشيطان فى صدريهما ، وألهمهما  
شر مايقع بين اثنين مزج بينهما الحب لأكثر من خمسة عشر عاما :  
الطلاق !! وعاشا منفصلين ثلاث سنوات ، كل منهما فى عالمه ،

لا يدري شيئاً عن الآخر رغم أنهما يعيشان فى مدينة واحدة ! ..  
لكنما ، فى هذه اللحظة ، ومن فوق سلم الطائرة ، يريدان اعلان  
خبر عودتهما على العالم كله .. ينثرانه أضواء ملونة وساطعة  
مثل تلك التى تضيء السماء فى ليالى المهرجانات والاحتفالات  
السعيدة .. لكن ضغط الركاب كان شديداً ، فمضيا ، بقوة الدفع ،  
يصنعان بهمة ونشاط ومرح أيضاً : على الحب ألا يعطل من مسيرة  
الرحلة .. ! ودخلا الطائرة ..

.. أسرع بعينه عبر صفوف المقاعد متمنيا مقعدين خاليين  
بجوار احدى النوافذ . تلك متعته فى السفر بالطائرة .. رؤية العالم  
من أعلى .. ما أجمل أن تعيش معه ولأول مرة هذه المتعة .. واذ  
لمح مقعدين خاليين أسرع وحجزهما .. أثرها بمقعده المفضل ..  
« فلتكن هذه هى هديتى الأولى لها فى الرحلة : المقعد الملاصق  
للنافذة » .. وجلس بجوارها - أمسكت يده بانفعال وحنان ..  
أخذت من عينيه نظرة مفعمة جياشة .. الكلام الآن ليس بالألفاظ ..  
الكلام الآن له لغة أخرى تنطق العيون بها .. بل ان العيون ليحلو  
لها الآن أن تغلق جفونها .. هذا العالم الخارجى لا ينبؤنا حقاً  
بالحقيقة .. الداخل هو الأعظم .. ما يستكن فى القلب ، وما  
تدفرق به الروح هو الأجمل والأصدق !

أغمضت عينيه .. مالت برأسها على ظهر المقعد ، مستبقية  
يده فى يدها .. ند عن صدرها نفس طويل عميق هادئ : الحمد  
لله .. انقشعت الغمة .. ما كان يمكن أن أعيش لحظة سعادة حقيقية  
بدونه .. ورأت نفسها فى معرضها الأخير ، بقاعة المشربية ، تتلقى  
التهانى وكلمات الاعجاب من كل جانب .. « ومع هذا وجدتنى  
أنتهى أحد الأركان تحت احدى لوحاتى وبكيت .. لأنه لم يكن  
معى .. هو بالذات .. هو الذى فجر فى نفسى موهبة الرسم ،  
ومعظم هذه اللوحات هى جصاد أيامنا معا ..

هاهو الآن معى ٠٠ يده فى يدى ٠٠ طائران فى الأعلى ، ٠٠  
وطار بها الخيال الى مرحلة من الماضى البعيد ٠٠ قبل أن تراه ٠٠  
صبية صغيرة ، فى السادسة عشر ، مبكرة. النضوج ولكن كل ما فيها  
مكمور ومغلق عليه بقوة واحكام ٠٠ حتى فتح النافذة كان اخوها  
واقفا له بالمرصاد ، فما بالك بالخروج وحدها من البيت ٠ وعادتها  
صورة بشعة : أخوها وهو يجذبها بوحشية من شعرها ثم يصفعها  
صفعة أنزلت الدم من شفتيها ! ٠٠ فى تلك الأيام جاء هو ٠٠ كفارس  
أطلقها وحررها من السجن والسجان ، ثم أركبها الحصان وطار بها  
٠٠ « رأيت فيه الحياة ٠٠ رأيت فيه الحرية التى طالما تشوفت روحى  
إليها ٠٠ وانطلقنا ٠٠ وتدفقنا ٠٠ وأنجبنا ، وتفجرنا بالآمال  
وبالأحلام ٠٠ من كان يتصور أننا بعد كل هذا نصل الى قرار  
الطلاق 19 ( وتنهدت فى سرها ) كان لابد أن يحدث هذا ٠٠ كنا وصلنا  
الى طريق مسدود ٠٠ كان لابد أن نفترق ، حتى لو سالت الدماء ،  
كى نعود عبر العذاب الى بعضنا من جديد ! »

وضغطت بقوة على يده ٠٠ « لحسن الحظ أننا لم نركب معا  
من قبل طائرة ٠٠ » وتبسمت ملامحها ، رغم أنها لاتزال مغلقة  
العينين ٠٠ « جميل أن يبقى دائما أمام المحبين عوالم لم يروها ،  
وانجازات واشتياقات لم تتحقق بعد ٠٠ » ، وهرعت الى ذاكرتها  
بعض أبيات من الشعر ، ضمن ديوان لناظم حكمت ، كان قد أهدها  
إليها فى أحد أعياد ميلادها :

أجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد ٠٠ وأجمل الأنهار هى  
التى لم نرها بعد ٠٠ وأجمل الأطفال هى التى لم تولد بعد ٠٠  
(وأضافت فى سرها تكمل ) ٠٠ وأجمل اللحظات هى التى لم نعشها  
بعد ٠٠ أجل ٠ هناك لحظات جميلة فى انتظارنا حين نهبط الى  
الأرض ، وننطلق فى مدينة لم نرها من قبل أبدا !! ، ٠٠ وعادتنا



الضغط على يده ، استجابت يده على الفور .. كفه الكبير احتوى  
كفها الصغير .. أحست به يقول : أنا أعيش نفس أحاسيسك »

تنبها من سرحتهما على صوت المضيئة ترجو الركاب ربط  
الأحزمة ، سحب كل منهما يده من يد الآخر في نعومة ، ومضى  
يربط حزامه استعداداً لانطلاق الطائرة .. لحظات قليلة وجاءت  
أحدى المضيفات ومعها جهاز الانقاذ وراحت تقدم عرضاً لطريقة  
استعماله .. دأبها احساس غريزي بالخطر .. وارتسمت لها  
صورة مروعة كئيبة فاستبعدتها بقوة .. وفكرت : « ستمر الرحلة  
على خير .. باذن الله .. » وعادت تمسك بكفه بقوة .. « وحتى  
لو حدث - لا قدر الله - مكروه للطائرة ، فسنكون معا .. تكون  
النهاية ونحن معا .. » واختلست من وجهه نظرة ، وجدته  
سارحاً .. لا يتابع عرض المضيئة ، وعلى شفثيه ابتسامة خفيفة  
تتم عن الرضا العميق .. « هو دائماً هكذا .. يعطيني الاحساس  
بالأمان .. ما أكثر ماواجهنا معا من شدائد وأخطار .. » واذ  
انتهت المضيئة من عرضها ، أحست بارتياح شديد ، كأنما الخطر  
زال .. وبدأت الطائرة في التحرك .. ببطء شديد كانت تسير على  
ممرها الأرضي .. ثم حين بلغت نقطة الانطلاق توقفت وتصادعت  
منها فجأة ضجة كبرى .. ضجة الاحتشاد الذي يسبق لحظة  
الوثوب الى الفضاء .. أحست بثمة طاقة هائلة يحتشد بها صدرها  
هي الأخرى ، وفكرت سعيدة ، وخفقات قلبها تصرع : بقوة الحب  
تطير الطائرة هذه المرة .. ودوى صوت رعدى هائل أعقبه  
مباشرة انطلاق الطائرة الى أعلى فى يسر ونعومة .. صامت  
مهيب وعميق يرين على الطائرات فى مثل هذه اللحظات وهى تسبح  
مخرقة طبقات الفضاء لكى تصل الى ارتفاعها المنشود .. لكنما  
الطائرة تطير بهما وحدهما ، رغم امتلائها بالركاب ومن بينهم بعض  
أصدقاء وصديقات ، هم أعضاء « الجروب » السياحي الذى انضموا  
اليه ..



نظر اليها .. نظرت اليه .. قال : أحس أنها ليست أول مرة  
لنا معا فى طائرة .. كأننا ركبناها معا من قبل مرات ومرات .

اندفعت مؤكدة بفرح : نفس احساسى - وهو أمر طبيعى ..  
فى كل مرة كنت أطيّر فيها وأنت لست معى ، كنت فى لحظات  
اتخيلك جالسا بجوارى ، أتحدث معك ، وأحاورك ، وانقل اليك كل  
مشاعرى .

قال : ذلك بالضبط ما كان يحدث لى وأنا طائر بدونك . كنت  
أحيانا أمد يدى ، كأنما سأجد يدك !

هزتها الصورة . ودت لو تضمه كله . خرجت الكلمة الوحيدة  
التي يمكن أن تعبر عما يموج فى صدرها : يا حبيبى ..  
أحس بالكلمة تصله أنفاسا لأحروفا .. كأوراق ورد مبيلة  
بالتدى .. ندى الفجر وندى أنفاسها أيضا ..

- يا حبيبتى .. أنت حبى الأول والأخير .. وما بينهما ..

راقها المقطع الأخير .. ليس كثيرا على خيال شاعر .. وفكرت  
وهى تبتسم فى سرها أن تسأله : هل هذا يعنى أنك لم تعرف واحدة  
أخرى خلال سنوات انفصالنا ؟ .. إلا أنها استبعدت السؤال  
ضنا بصفاء اللحظة وجمالها .. « لن تبعث من الماضى إلا كل ما هو  
شفاء للنفس .. وأنتى لوائقة من أنه حتى لو كان قد عرف أخرى ،  
فهو لم يكن حبا .. الحب لى أنا وحدى .. مثلما ظل حبى له  
هو وحده » .. ومرت بخيالها صور سريعة لأطياف رجال داروا  
حولها ، وتمنوا حبها .. « لقد حاولت بالفعل .. حاولت جادة ، أن  
أحب واحدا منهم .. لكنى فشلت .. لم يكن الحب هو قضيتى ..  
كانت قضيتى هى الحرية » .

وانتبهت من خواطرها على صوته ، داعيا بحماس .. ومشيرا  
على النافذة - انظرى .

توجهت بنظراتها الى النافذة • صاحبت بنشوة ودهشة :  
شمس الغروب •• الله •• الله على الألوان •• ألوان الهية ••

قال فرحانا بقرحتها : اذن فلتملأ الرسامة عينيها ••

قالت ، وليملأ الشاعر أيضا عينيه ••

قال : ليتنى أرى هذه الألوان فى لوحة جديدة لك ••  
بسطت يدها متحسرة على العجز ! هذه الألوان •• محال أن  
يجدها أى رسام ••

— أتعرفين ماذا يسمونها فى بلاد النوبة ؟! •• لون المغارب •  
سمعتها مرة من شاعر نوبى كان يتغزل فى وجنات حبيبته :  
« والخدود الشارية من لون الشفق عند المغارب » •• ورفع أنامله  
ومر بها على خديها ••

سألته وهى تنظر باسمه فى عينيه : مايزالا ؟

ضغط قليلا على خديها : وأجمل مما كانا •

اختلج قلبها بالفرح • هاهى الأشياء الصغيرة والملفات  
الجميلة البسيطة لم تضع من حياتهما •• وعادت تفكر : « كانت  
تجربة شقية ( وتنهدت ) لكنها كانت ضرورية •• كانت الامتحان  
الذى أنقذ حينا » ••

وسمعه يقول : هاهى الألوان قد تغيرت ••

أسرعت تنظر : تغيرت تماما •• حتى الألوان تتوالد •• مع  
كل لحظة يولد لون جديد •• ( وتنهدت بصوت مسموع ) أجمل  
ما يفعله الرسام ازاء هذا السحر أن يعيشه •• لا أن يرسمه •• بل  
يمتصه ويختزنه •• رصيذا للأيام القادمة •

— هو ذاك •• الآن ليس وقت الرسم ••

- ولا وقت قرض الشعر أيضا ..

- الآن وقت ( وتوقف عن الكلام ، ونظر في عينيها منتظرا أن تكمل جملته ..

- الآن وقت الحب ..

فرح أنها أكملت الجملة كما كان سينطلق بها . انتابته حالة مرح وثقة .. ما أكثر ما كان ذلك يحدث بينهما .. في الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة .. في الفعل ورد الفعل .. كثيرا ، بل غالبا ، ما كانت الأفكار والمشاعر بينهما متوحدة .. حتى على البعد ، كان بينهما « تليبائي » يرسل الاشارات السرية التي تكشف عنهما الحجاب وتوحد الرؤية بينهما رغم حواجز الأمكنة .. ( وتنهد من العمق ) كل شيء يعود كما كان وأجمل .

وعادا الى متعة الصمت ، وأوشكا أن يغلقا جفونهما مرة أخرى ، لكنهما رأيا بعض الركاب يروحون ويجيئون في ممر الطائرة .. أدركا أن من حقهما . فك الأحزمة .. فكاهما في الحال .. قال مبتهجا ، وقد أحس بحرية الحركة : غريب أن يحس المرء بأنه يريد أن يطير رغم أنه طائر .

وفوجئ « بها تنهض واقفة وتقول : هيا نظير .

قال مداعبا : الى أين ؟!

قالت بأسمة ، وهي تشير على إحدى الراكبات : سأجلس مع ليلي بعض الوقت ..

وأفسح لها طريقا للمرور ، ومضت الى صابجيتها . وبقي جالسا وحده ..

« هذا هو أحد وجوه الخلاف بيننا ( قال باسم لنفسه )

لاتطبيق البقاء مدة طويلة فى مكان واحد .. ان استقرت يوما باكملة  
فى البيت ، خرجت منطلقا فى اليوم التالى وكأنها حرمت من  
الشوارع ومن الناس دهرًا !! .. بينما أنا يمكنى البقاء فى البيت  
أسبوعا واسبوعين مع تأملاتى وكتبى وحنينى الى الهام عظيم يهبط  
على خلوتى ! ما أكثر ما تصادمنا بسبب ذلك .. بل كان ذلك هو  
لب الصدام الذى راح يشتعل يوما بعد يوم حتى أوصلنا الى القرار  
الرهيب ! وهرعت اليه صورتها وهما يجلسان فى مكتب المأذون !!  
هز رأسه مبعدا الصورة ، وعاد ينظر من النافذة .. انتقل الى  
مقعدها كى يرى بشكل أفضل .. وخطر له من اللحظة الأولى أن  
ينادى عليها لتشهد التطور الأخير فى المنظر .. كانت الطائرة قد  
أمعنت فى الارتفاع ، حتى لم يعد يبدو فى المحيط الهائل غير قرص  
الشمس الغارب .. هاهو القرص يلامس خط الأفق البعيد .. انها  
ملامسة الوداع .. وفكر : بعد قليل سيختفى قرص الشمس ، ولكن  
سيبقى نور آخر يضىء .. هو نور الحب !

أبهجته الفكرة . تملكته رغبة عارمة فى أن يخرج ورقة وقلما  
ويكتب .. يبدأ قصيدة ، أو يفتح قصة .. ان بحرا من الالهام  
يوشك أن يتدفق من أعماقه .. الا أنه تذكر اتفاقهما : لاوقت الا  
للحب .. وهاهو قرص الشمس قد اختفى ، ساحبا معه كل ألوان  
مهرجانه .. ولم يبق فى الفضاء ثمة شىء أو علامة يمكن أن تتعلق  
بها العين .. بل فراغ كامل مطبق ، ولا دليل على أن الطائرة تطير  
غير صوت الأزيز .. أزيز أحسسته فجأة مفرغا من قوة الحركة  
والاندفاع .. وانتابه الشك فى أن الطائرة تطير .. شعور رهيب  
ومقبض وغير مفهوم ، عانى منه مرة من قبل ، وهاهو يستبد به  
مرة أخرى .. أن الطائرة واقفة تعانى .. تراها على وشك  
السقوط ؟! أم أن الطيار سينجح فى اصلاح الخلل ؟! .. وعادته  
ذكرى أيام كئيبة ، بدا فيها الحب بينهما قد توقف .. لفظ أنفاسه



الأخيرة ومات .. » وكنت أقول معزيا نفسى : هى قوانين الحياة •  
كل شىء له عمر .. يولد وينمو ثم يموت .. كذلك الحب ، لسه  
هو الآخر عمر .. الحب أيضا يتوقف ويموت .. يجب أن أتقبل  
هذا .. ومضى يحيا حياته على أنها خلت والى الأبد من الحبيب  
.. الذى كان !! .. لكن الحقيقة كانت غير ذلك .. لم يكن الأزيز  
مفرغا .. كان الحب بينهما ينبض مستترا فى الخفاء .. كان منطلقا  
بكل قوته ولايدريان .. تماما مثلما يحدث لهذه الطائرة الآن ..  
فبينما لم يكن هناك ثمة دليل على حركتها وانطلاقها الا حينما تجتاز  
منطقة مطبات هوائية ، أو تمر بقطعة سحب تتجاوزها ثم تدخل ثانية  
فى منطقة الفراغ المخيف ، الا أنها كانت ماضية فى اندفاعها الى  
الامام ..

وند عنه نفس ارتياح عميق : « أجل » هناك ثمة حركة متوثبة  
وجياشة فى الداخل ، رغم أن الخارج يوحى بالفراغ وبالتوقف •  
كذلك حيننا .. أيام الفراق ! .. كل لحظة صدق عشناها فى الأيام  
السابقة للأزمة ، كانت دون أن ندري رصيذا لأيام الشدة .. وكان  
كلانا بعيدا عن الآخر ، ومع هذا كان يواجه نفسه بصدق وحرارة :  
هذا الذى حدث بيننا .. لماذا حدث ؟ لماذا ضاع ماضى ؟

ولم يكن مفر من الصدق مع الذات .. واكتشفت أن قدرا كبيرا  
من المسئولية يقع على .. لابد من الاعتراف .. ليس من أجل أن  
نعود .. بل من أجل معرفة الذات .. لقد التقيت بها صغيرة ،  
واستمرأت أن يظل الملك صغيرا ، أحمله سعيدا على كتفى وأمضى  
به .. أريه العالم بعيونى أنا !! .. غير أن الملك سرعان ماكبر ،  
وأصبح يضيق بأن يحمله أحد .. يريد أن يستمتع بالمشى على  
قدميه ، وبالنظر بعينه وينطلق وحده وبقدراته هو فى كل اتجاه ..  
وفوجئت بها تقفز من فوق لكتفى الى الأرض وتنطلق وحدها كما  
تشاء ! .. حينذاك ملأنى خوف ساحق .. أن تقضى عليها وعلى

حبنا تجربة الحرية .. ورفعت كف الاعتراض ، ثم سيف الاتهام  
بالعقوق وبالجحود ، فكان الصراخ وكان الصدام الذى انتهى ..  
بقرار الانفصال !! ( وتجهت ملامحه ) أصبح الفارس المبشر  
بالحرية ، هو عدوها .. وسجانها .. بالضبط هو ذاك .. كنت  
أنا فى البدء المبشر والمعلم ، وهى المريـد التابع الأمين .. وكنت أنا  
الذى أـصحبها الى حديقة الأورمان لنجلس على العشب على ضفاف  
بحيرة صغيرة مليئة بأزهار اللوتس ، وأقرأ لها فى كتاب « النبى »  
لجبران : هات حدثنا عن الزواج ، فيهمس لنا بموعظته : لا تأكلا  
من رغيف واحد . فليأكل كل منكما من رغيفه . اجعلوا بينكم  
فسحات ، ولا تلتصقوا على الدوام .. كونا مثل عمسودى الهيكل  
متباعدين ، لكنكما تحملان معا السقف الواحد !! ( وندت عنه زفرة  
حارة ) .. وحين وصل بنا التطبيق الى أعلى ذراه ، لم أقو ..  
وبدا لى شغفها الزائد بالحرية يحمل نوعا من الدمار !!

هاهى بالحرية ازدهرت وتألقت .. لم يحدث خراب أو دمار  
.. عفوا أيها العظيم جبران .. كان لابد من التجربة كي أسلم  
. بهذه الفسحات بيننا .. لنرى بعضنا من بعيد .. ومن جديد !

ولاح له « جبران » دون أن يفتح شفـتيه المزمومتين على معنى  
شجى عميق : لاتندم على تجربة .. ولا تأس على دم سـال ..  
كأبتنا هى فجر لذواتنا .. انما .. لاتنسى انها باصرارها على  
حريتها ، أعادت اليك حريتك .. الآن اكتملت الدائرة .. التقت  
النقطتان فأصبحتا خطا واحدا ..

فجأة انتبه على شىء غريب ومدهش يحدث فى صوت الطائرة  
.. لقد انتهى الأزيز الذى كان يوحى بالتوقف والتخلخل فى

الفراغ ، وعاد الصوت العظيم المهيّب ، الموحى بالقوة وبالقُدرة على  
الاختراق والمضى فى الطيران والتحليق !! ..

فى هذه اللحظة رأها قادمة فى المر نحوه مضيئة الوجوه  
مبتسمة ، رفع لها فى الحال يده منحيا .. وكان يقول فى نفسه :  
محررتى العظيمة .. أجل « سوف تأتى لحظة الاعتراف ! »

وحين عاودت الجلوس بجواره ، أحس بالنقطتين تدوران  
وتلتقيان .. مال عليها وقبلها .. واكتملت الدائرة الى الأبد !!

« ١٩٨٩ »

## صيد البكور

تُعرفين ذلك يا صديقتي ، حين يقابلنا شخص ما ، لأول مرة وعلى غير انتظار ، فإذا به يتلبسنا من الوهلة الأولى ، ويأخذ بجماع أرواحنا وانفسنا ، ونستسلم لهذا الشعور بسعادة ، مبهورين بهذا الحب الذي يرسله القبر إلينا بعد افتقاد طويل .. كأجمل عطايا الحياة ..

يحدث لنا هذا أحيانا مع انسان ، كما يحدث لنا أيضا مع مكان .. هناك أماكن تأخذ بجماع القلب وتهز أعطاف النفس بالنشوة والحبور ، ونشكر الحياة على اننا لم نمت قبل ان نراها ونندب بأقدامنا عليها ، ونود لو نقضى بقية العمر فيها .. أجل يا صديقتي .. عشق الأماكن ليس أقل خطورة وروعة من عشق البشر .. حدث ذلك لى حين زرت لأول مرة « شرم الشيخ » فى جنوب سيناء مع بعض الاصدقاء .. وكانت اقامتنا فى بيت هلالى الشكل ، شبيه ببيوت الأحلام .. اقيم فى حضان احدى الهضاب ، تعلوها من الخلف قمم الجبال .. ومن الأمام تنبسط فسيحة وممتدة ومغرية بالمشى أو الجرى حتى تبلغ حافتها ، فإذا بها تطل على واحد من اروع خلجان البحر الأحمر .. ومع دورة الأفق مجموعة



من الجبال ، يالروعة التشكيل ، وياالسحر الألوان وهى تتعاقب ،  
فاذا بالصخور أرواح تنطق وتقول .. وتناجى ..

هناك يا صديقتى أصمم لنفسى لحظات أعيش فيها المكان ،  
واضمنح روحى بأرضه وهوائه وكتله وفضائه ..

اصحو مبكرا ، والكل نيام ، أخرج الى سطح الهضبة الممتدة ،  
مسحورا بتلك البكارة الأولى للصباح ، كوجه الوليد فى اطلالته  
الأولى على الحياة .. أمضى فوق الهضبة بهدوء بالغ ، حريصا  
على ألا تحدث خطواتى فوق الحصى أى صوت .. لكل شئ  
مستغرق فى السكون يصلى .. عرفت فى زيارة سابقة لهذا المكان  
صديقة كانت تعشق هذا النوع من الصلاة .. كانت من هواة  
اليوجا .. وقفت ذات مرة أرقبها مايقرب من الساعة وهى مستغرقة  
وحدها على حافة الهضبة فى سكون عميق ، ثم بعد أن ثابت  
أخيرا الى ماحولها .

سألتها : فيما كان تركيزك هذه المرة ؟!

قالت : مع صوت الموج !

ولم يكن صوت أمواج الخليج لحظتها غير وشوشات تهمس  
لشيطان الخليج !

ذلك الصباح .. جلست على الحافة .. تحقى مباشرة ،  
بمسقط رأسى مياه الخليج .. ورحت أملا عيني وروحي .. لكائننى  
كنت نائما من سنوات وصحوت .. ماذا أريد ؟! .. وقلت لنفسى :  
أنا أريد .. ولكنى الآن لا أعرف ماذا أريد ، ولا أريد أن أعرف  
ماذا أريد .. يكفينى هذا الثراء الروحى الذى أحس به .. ليس  
ثراء روحيا فقط ، بل وثراء ماديا أيضا ( وفكرت مع نفسى بطرب )  
كل هذه الروائع ملكى .. الجبال .. والخليج .. والألوان ..

والفضاء الرحيب .. فلأضمح بها روحى .. وأملأ بها قلبى حتى  
يفيض ..

كنت الانسان الوحيد الجالس يستمتع بهذه اللوحة المسحورة  
.. وخطر لى ذلك الشعور الجميل بالتفرد والتميز عن الآخرين ..  
فها نحن مالا يقل عن ثلاثين جئنا معا فى هذه الرحلة ، والمكان  
مبسوط للجميع ، ومع هذا ، فها انا الوحيد الذى يخرج للقضاء  
البكور ..

الا اننى فجأة ، تذهبت الى انى لست الوحيد ، فقد لمحت  
طائرا فوق أعلى قمة الهضبة عن يسارى .. ينظر فى نفس الاتجاه  
الذى كنت أنظر اليه .. نحو جبال الشرق التى سيصعد من خلفها  
قرص الشمس فى موعده المحتوم .. وما أغرب وقفته .. إكأنما هو  
واقف فى شرفة ملوكية عالية .. وأوحى لى هيئته بأنه ملك ينظر  
فى هدوء وعظمة الى مملكته .. تراه هو الآخر فى صلاة ١٩ ..  
أحسست أن هناك شيئا ما مشتركا يجمعنا .. ساهو هذا الشيء ١٩!

.. صباح الخير ياطائرى العزيز .. يا شريكى ويا انيسى فى  
هذا المحيط الالهى البديع .. لا أعتقد أن صلاتك تختلف عن صلاتى  
.. وربما كان قصدك هو نفس قصدى .. فكل مافى هذا الكون  
يتحرك بفعل قوانين واحدة ..

وددت لو تثبت الدورة عند هذه اللحظة ، وتبقى اللوحة ..  
لوحتنا أنا والطائر والهضبة والجبال ومياه الخليج وسحر البكور ،  
الا أن ضوء النهار كان ينبثق ناعما فى هدوء وبالتدريج .. واذ بدا  
قرص الشمس فى الاقتراب وقى الظهور ، انعكست اشعته على مياه

الخليج وتخللتها وكشفت عن أعماقها وعن كل مافي هذه الأعماق  
.. فجأة رأيت الطائر يندفع منطلقا بأسرع من غمضة العين الى  
مياه الخليج ويغوص فيها بكل رأسه ومنقاره ، ثم يخرج ومعه صيده  
ومضى محلقا الى بعيد ، حتى اختفى ..

الفيتنى وحيدا من جديد ، ومضيت أفكر بأسى .. وحنين :  
لقد وجد صيده .. وأنا !؟ .. أين صيدى .. أين صيدى ؟

« ١٩٨٩ »

## حلاوة البحر المالح

- هل تجمع قواقع ؟
- وأحجارا ملونة أيضا .
- إقتربت الفتاة منه بحركة طفولية ملهوفة ، وتوجهت بنظراتها الى يديه اللتين تحملان ما جمع ..
- هل يمكننى رؤية ما جمعت ؟
- بكل تأكيد ..
- وراح يريها .. ما أن رأت أول قطعة ، حتى صاحت بانبهار وفرح : أوه .. كم هى جميلة ..
- قال وقد أسعدته فرحتها : اذن فهى لك ..
- تراجعت برأسها قليلا وقالت وهى تنظر فى عينيه بدهشة : هل تفرط فى الأشياء الجميلة هكذا بسهولة ؟
- اذا كان من سيأخذها ، أجمل منها ..



استراحت للأجابة • مالت برأسها قليلا نحو كتفها وقالت  
بابتسامة : هل ترانى حقا جميلة ؟

- استغرب السؤال • أو يمكن حقا ألا تكون مدركة لجمالها  
•• كل هذا الجمال •• الشعر الذهبى المفرق من الوسط ،  
والخصلات المنسدلة •• بعضها على الكتف ، والبعض الآخر يكاد  
يخفى احدى الوجنتين المتوردتين والملمحتين بحرارة الشمس ••  
ثم هذا القوام البديع المشدود والمكسو جزء منه بثياب الشاطئ  
البسيطة •• وجذب بصره أكثر قدماها الحافيتان وقد علقت بهما  
بعض ذرات الرمال •• أهى حقا لاتدرك جمالها •• أم هى لأبد  
رغبة الأنثى الدائمة أن تسمع بأنها جميلة •• ماتزال جميلة ؟

- لقد رأيتك من قبل فى لكافيتيريا « البشندورة » •• وكنت  
وسط مجموعة كبيرة ••

هزت رأسها بالإيجاب باسمه ••

وخطر له أن يكمل ويقول لها : الآن ، وانت وحيدك على  
الشاطئ ، تكتمل بك سيمفونية الجمال الالهى •• السماء ••  
والخليج : •• والجبال المحيطة •• انت قمة من قمم الخلق الالهى •  
وجاشت بنفسه رغبة فى أن يجول بنظراته عبر مساحات قوامها ،  
ويصافح مسام نصف جسدها الجميل المعارى ، الا أنه حرص على  
ألا ييدر منه ما يجعلها تسيء فهم قصده •• كما ان لأبد لها صاحب  
أو رفيق وربما زوج وحالما سيلحق بها :

- هل معك أحد •• الآن ؟

هزت رأسها مرة أخرى بالإيجاب - وقد اتسعت ابتسامتها •  
تلقت بعينه فى كل الاتجاهات ، ثم فى اتجاه صف الفنانق  
ومجموعات الخيام والكافيتريات البادية بطول الشاطئ ، لكنه لم ير  
أحدا بالمرة •• كان المكان كله خاليا •• هو وهى وحدهما على حافة

الشاطيء والأمواج الخفيفة تدور وتلتف حول أقدامها ، تغطي  
الأصداف حيناً ، وحيناً آخر مع الارتداد تكشف عنها ..

قال يستوثق : أين هو .. صاحبك هذا ؟

— هو معي .. هنا .

أدرك بما لا يقبل الشك أنها تقصده هو .. وأن لا أحد آخر ..  
وأوشك أن يصيح : يا اللهى .. هذا أكثر مما كنت أتصور ، أو أحلم  
.. ان لم يكن معها حقاً أحد ، فهي لابد واحدة من حوريات البحر ،  
أو شبيهة بها ..

— تقصدين أنك غير مرتبطة بأحد ؟

فردت ذراعها بابتهاج ، وجذبت بأنفها نفساً عميقاً .

— أنا حرة ..

رنت الكلمة والنبرة فى سمعه وفى قلبه . وتراءى له مع  
منظرها ، كما لو أن الموج ارتفع فجأة وهو وسط البحر وعليه أن  
يضبط جيداً حركته ليعرف كيف يسبح .. أهو الوعد يأتيه به القدر  
على غير ميعاد .. حب جديد يعوض الذى راح ويجد معه  
السلوى ؟ لا .. لا .. أنا لا أطمع فى أكثر من أسبوع الاجازة  
الذى جئت لأقضيه هنا .. بل يكفى يوماً أو يومين .. ننطلق معا  
.. ويرتوى القلب الذى أصابه التشقق والعطش !

— منذ متى وصلت شرم الشيخ ؟

— منذ خمسة أيام . ( وأشارت على مجموعة الخيام ) أسكن  
هناك .. فى المخيم الحر !

المخيم الحر ؟ ياله من تعبير يطلق الخيال ويفجر فى النفس

عوالم وصور ورغبات تعيش حبيسة فى الأعماق وتهفو للانطلاق  
والرفرفة والزقزقة كما الطيور ..

وواصلت تقول : اسكن فى تلك الخيمة .. الثانية الى اليمين  
.. امامها كرسيان ومنضدة .. أعيش فيها مع صديقة لى ..

— وأين صديقتك الآن ؟

— ذهبت مع الآخرين ليشترؤا ..

قال مجاهداً فرحه : اذن تستطيع أن نقضى بعض الوقت  
معا ..

أسرعت قائلة : بالطبع . ان لم يكن لديك مانع .

أى مانع يا حوريتى الجميلة ؟! لو أن أخطر المهام الآن فى  
انتظارى لطرحتها بعيداً عنى ، لكنى فى الحقيقة رجل وحيد ..  
شريد القلب والفكر ، يعزى نفسه بجمع القواقع والأصداف ، ويوهم  
نفسه بالبحث عن سر التكوين الأول !!

انت قمة من قمم التكوين الالهى .. كيف يكون لدى مانع ؟!

نظرت اليه بامتنان ، ثم طافت بعينيها فيما حولها بسعادة .

— ماذا تحبين أن نفعل ؟ فلتكن الرغبة رغبتك .

— كل مافى هذا المكان يوجه اليك دعوة . الرمال تدعو الى  
الجرى ، والبحر يدعو للسباحة والغوص ، والجبال تدعو للصعود  
الى القمم ..

قال بحماس : أنا مستعد لكل هذا .. بماذا تحبين أن نبدأ .

قالت : الآن .. أنا سعيدة بجمع القواقع .. فلنواصل ماكنت

تفعل .

واذ مضيا يبحثان بأيديهما وبأقدامهما فى الرمل وفى الماء ،  
عرف كل منهما ما هو منهم عن الآخر .. الاسم .. والوطن ..  
والعمل .. وأحب اسمها : لودميلا .. وردده مرتين فرحا بإيقاعه  
.. وعرف أنها من « أمستردام » وتعمل مهندسة كومبيوتر .. وعبر  
لها عن دهشته : وتملكين كل هذه الرومانسية .. وكل هذا الحب  
للطبيعة ؟! ضحكت وقالت : نوع من التعويض .. مع الطبيعة أجد  
انسانيتى .. وانت !! مصرى .. اليس كذلك ؟!

— هو ذاك .. وأعمل كاتبا بإحدى المجلات .

توقفت لحظة عن البحث فى الماء ، ونظرت اليه بدهشة  
واعجاب :

كاتب .. أوه .. هذا شىء عظيم .. لابد انك انسان  
سعيد ..

ندت عنه ضحكة عالية سرعان ما انتهت بتنهده : سعيد بلقائك  
هذا .. انه لقاء من صنع الأقدار !

لم يكن يريد لآى شىء آخر أن يقتحم عليهما خلوتهما الرائعة  
الطليقة ، ودعا من لكل قلبه أن يرسل اليه البحر إحدى أعاجيبه  
ومدهشاتة ، فيهديها اليها .. وفكر لو أنه عثر فى واحدة منها على  
لؤلؤة كريمة فسيهبها لها على الفور ودون أدنى تردد !!

وانتبه عليها تصيح مهللة : أوه .. أوه .. انظر .. ماذا  
وجدت !

كانت تحمل بين كفيها قوقعة متوسطة الحجم زاهية الألوان .

— أه .. كم هى جميلة حقا .. ونادرة أيضا .. أرىنى  
اياها ..



وقدمتها له وهى تكاد تقفز من السعادة .. مضى يتأملها من جميع جوانبها ، ثم ينظر فى عمقها المختفى ..

– من يدري .. ربما بداخلها لؤلؤة !! ومضى يشخصها ..  
نبهته ضاحكة .. انها فارغة .

قال : ليس على وجه اليقين . ربما اللؤلؤة ملتصقة بجدارها !

– أوه .. لأحب أن أذهب بأحلامى الى بعيد .. يكفينى جدا جمالها البادى هذا .. يكفى جدا .

أحب اجابتها .. قربتها أكثر الى نفسه .. الاكتفاء هو فلسفته فى الحياة .. هزلها رأسه .

– حقا .. يجب أن نفرح بالأشياء كما هى .. انظرى ( ومضى يمتحن قوة القوقعة ) كم هى صلبة . هذه الصلابة هى ماتدهشنى فى القواقع :

– وفيم الدهشة !؟

– دهشة التحولات .. قانون التحول ، حيث يصبح الشيء شيئا آخر مختلفا بالمرة .

– كيف !؟

– هذه القوقعة .. ألم تكن فى الأصل خلية هلامية بالغلة الدقة والتكوين .. ثم مضت بالتدريج تكسو نفسها ، وتقيم لها درعا من افرازها .. درعا يحميها من عنف البحر وتقلباته .. ثم حين كبرت وأصبحت قادرة على الحركة والانطلاق بنفسها ، ودعت القوقعة وانطلقت فى كل هذا المحيط .. لقد أصبحت شيئا .. مخلوقا آخر تماما ..

كان يتكلم بحماس ، راجيا ألا يكون قد اختار موضوعا ثقيلا

يتناقض مع رومانسية المكان .. يبدد عنها فرحها الطفولى .. وفرح  
اذ وجدها تقول : أحس أنى كنت فى قوقعة وخرجت منها ..

- كيف 19

- الحياة كلها أحيانا تبدو قوقعة ، وتحتاج من الانسان الى  
قوة هائلة ليخرج منها !!

وجذبت نفسا عميقا بأنفها ، فبرز صدرها الناهد مثل شراع  
امتلا فجأة بالريح ويستعد للأبحار وللانطلاق وقالت : الآن بى  
رغبة شديدة للسباحة .. ننزل الى الماء ..

- هيا ..

وخلع كل منهما سرواله القصير وأصبحا بالمايوه .. نظر  
لحظة يتملى قوامها البرونزى البديع وهى تشب على أطراف أصابعها  
كما لو أنها تريد أن تطير .. اصطفت الأمواج هائلة فى صدره ..  
مهلا أيها القلب مهلا .. فمازال أمامنا الوقت طويلا .. واندفعت  
جريا الى الماء فاندفع خلفها .. ورأها تغوص للحظات حتى  
اختفت تماما ، ثم اذا بها تخرج من الماء ، رافعة ذراعيها .. تناديه !  
.. كانت قد ابتعدت قليلا .. وفكر : أنا لا أجيد السباحة .. ومع  
هذا ، لن أنكص على عقبي .. أجل .. ولو غرقت فساكون شهيدك  
يا لودميلا .. شهيد اللحظة الجميلة .. لكن الانسان حين يقرر عدم  
الموت لايموت .. ومضى يسبح اليها .

- لودميلا .. هل تسمحين لى أن اتغزل فيك والماء يقطر من  
خصلات شعرك !9

ضحكت : أوه .. أرجوك .. تغزل كما تريد .. ليس أروع  
من غزل الكتاب ! ..

- أنا الآن لست كاتباً .. أنا الآن انسان !

— اذن فغزلك اصدق .. ( وندت عنها تنهدة ) ليس أجمل من الحرية ، لكن المؤسف أن يجد الانسان نفسه مضطرا للدخول فى القوقعة من جديد !

— أية قوقعة !؟

— أنظر .. ها قد عادوا ومعهم مشترياتهم ..

ورأى مجموعة من الشباب والفتيات قادمين يغنون ويضحكون .. فرحين بما يحملون ..

— على الآن أن الحق بهم .

( وهزت رأسها بأسف ) خسارة .. لماذا لم نلتق من أول يوم جئت أنا فيه الى هنا ؟ لماذا لا نلتقى الا فى اليوم الذى سأسافر فيه ؟

انقضت الكلمات عليه كموجة عاتية وحشية أفقدته توازنه .. صاح بها رافضا التصديق : اليوم تسافرين ؟ مستحيل ..

خرجت من صدرها زفرة حارة : بعد ساعتين .. لابد أن نكون جميعا على استعداد .. وبعد اربع ساعات ستطير بنا الطائرة الى امستردام !!

كانا قد اقتربا من الشاطئ . وأوشك أن يصرخ فيها : لماذا ظهرت لى ؟ .. ولماذا أقبلت على بكل هذا الجمال وهذا التبسط وأحييت فى نفسى مشاعر كنت ودعتها من زمن طويل ؟ لماذا وأنت تعرفين انك راحلة .. لماذا ؟ وتراءت له — للحظة فى صورة حواء متأمرة غليظة القلب ، تهوى العبث بالرجال .. تحببى الجذوة الراقدة تحت الرماد .. تنفخ المريح فى القلاع وتعددها بالابحار ، ثم فجأة تتخلى وتتراجع فتتطفئ الجذوة من جديد وتتغصن القلاع .. وفكر أن يقول لها : أنت مثلها .. مثل التى راحت .. كلكن واحدة !!

الا أنه تحكم فى مشاعره .. كان يدرك من أعماقه أن الحقيقة غير  
ذلك .. الحقيقة أن منظره وهو يجمع القواقع من الشاطئ هو  
الذى جذبها ؛ اللحظة الساحرة فى المكان الساحر جذبتهما الى  
بعضهما ..

كانا قد عادا الى الشاطئ .. حيث ترقد القواقع والأصداف  
على الرمل فى انتظارها ..

:- لست وحدك الحزين .. أنا أيضا حزينة .. ومع هذا فأنا  
لست بنادمة .. هل أنت نادم !؟

- اطلاقا .. ( وابتسم بحزن ) جميل أن الحياة منحتنا هذه  
اللحظات .. كان يمكن ألا تحدث .. لكنت ستكون خسارة كبرى  
.. شكرا لله ..

- لحظات لن أنساها .. ستعيش معى بمثل ما ستعيش هذه  
القطع فى بيتى .. ( وانحنى ترفعها ، وتضعها برفق فى سروالها  
بعد أن حولته الى ما يشبه الحقيقة .. وقالت وقد عاودت السعادة  
وجهها : أشكرك على الهدية .. أوه .. سيحسدوننى عليها .. انها  
أفضل من كل ما اشتروه .. من كل قلبى أشكرك ..

- أشكركى البحر .. والقدر الذى جمع اللحظة بين  
غريبين ..

- لم نعد غريبين .. ( ونظرت باسمة فى عينيه ) أقفل  
عينيك لحظة لو سمحت ..

استغرب مطلبها .. أغلق عينيه .. فوجيء بشفتيها تطبعان  
قبلة بين عينيه .. أسرع دقات قلبه .. فتشع عينيه .. كانت قد  
ابتعدت قليلا .. ثم توقفت للحظة .. ومضت تلوح له مودعة ..  
بقى واقفا مكانه .. وراح هو الآخر يلوح لها .. وفجأة استدارت  
وانطلقت تجرى بما تحمل ..



ألقى نفسه وحيدا .. عاوده صسوتها : أغمض عينيك ..  
وأغمضهما .. ورفع يده الى ما بين عينيه .. يتحسس مكان القبلة  
.. كان يود ألا يفتجها ، إلا أنه أحس بالرمال تتخلخل تحت قدميه  
وبدوار يشبه دوار البحر ، ففتح عينيه خشية السقوط !! ..

كان متراوفا بين الحزن والفرح .. تنهد مغمغا : لا .. أنا  
لست طماعا ..

اشكرك أيتها الحياة .. اشكرك لودميلا .. لقد منحتماني  
ماسيهج القلب الى الأبد .

« ١٩٨٩ »

## موت الموت

### ● واقترب المساء ..

هفت روحه الى الشرفة الالهية : جلسته الأثيرة فى شرم الشيخ ، فوق الصخرة العالية ، أقصى نهاية اللسان الخارج من الهضبة ، ومياه الخليج تحته مباشرة ! .. كان قلبه يخفق بالحنين وبالنشوة المنتظرة .. ذلك هو موعد مهرجان ألوان الغروب ، والتي لاتدوم بهجتها الا لوقت قصير ، فليسرع ليملا بها عينيه ، ويضمخ بها جسده وروحه قبل الزوال !

صعد حثيثا الى سطح الهضبة ، ثم شرع يسير فوق اللسان الطويل الضيق ، والذي يتحدر من الجانبين بمسقط رأسى حاد ، الأمر الذى يستوجب غاية الانتباه والحذر .. ان أبسط انحراف يعنى السقوط فى الهوة .. ذلك مايجعل الاغراء أقوى .. والغايات العظيمة دائما محفوفة بالخطر !

قال لنفسه وقد بلغ الصخرة بأمان وجلس على حافتها يستشرف المنظر : الجبال .. والمياه والسماء .. والرمال .. والفنادق والمخيمات البعيدة : هنا فى هذا المكان بدأت يومى ،

ورأيت الصبح وهو يتنفس وينشر أول أضوائه .. وهاهى الشمس  
تميل الى المغيب .. فماذا أخذت من يومى ؟! .. وتذكر الطائر الذى  
لمحه فى جلسة الصباح واقفا على احدى القمم المجاورة وفرح به  
لحظتها كرفيق للبكور ، لكنه سرعان ما رآه مع طلعة الشمس  
ينقض على الماء ويلتقط صيده ثم طار محلقا مبتعدا .. تاركا اياه  
وحده ! .. كما تذكر أيضا « لودميلا » فتاة الشمال التى سطعت  
على حياته للحظات مع شمس الضحى ، ثم لم تلبث هى الأخرى أن  
رحلت بقواقعها وأحجارها الملونة وتركته وحيدا على الشاطئ ! ..  
رحل الاثنان ، لكن صورتهم ظلت باقية فى القلب وفى الذاكرة !!  
.. وتنهد : اننى لا أتعزى .. فهكذا أصبحت حياتى .. ليس المهم  
ما نمتلكه فى اليد أو فى الجيب ، بل مايبقى فى القلب ويدفئه ..  
وها هو المهرجان قد بدأ !!

ورأى الفضاء وقمم سلسلة الجبال تشع وتتوهج بالألوان  
فانتعشت روحه .. كان اللون الأعظم والطاغى هو البرتقالى  
النارى .. لولا الهدوء والسلام الرائيين على المكان لحسبه صادرا  
من قلب بركان متفجر فائرا .. ورأى واجهات الجبال وجنابتها تتخذ  
مع تموجات الألوان أشكالاً وتكوينات جديدة غير تلك كانت عليه  
بالنهار ، فمضى يتتبع الأشكال بفرح طفولى .. وتراءت له وجوه  
انسانية هائلة حيناً .. وحيوانات ديناصورية حيناً .. ومزيجا  
كوثيا غريبا حيناً آخر !! كما جذبته بقوة مياه الخليج وقد أصبحت  
هى الأخرى مسرحا لابداعات مذهشة جعلت الموج الفيروزى يصبح  
أخضر .. ثم أحمر كالعقيق ومخمليا ناعما .. وراقصا !! .. واذ  
راح يتنقل ببصره فى المحيط اللانهائى ، انتابه احساسى مفاجيء  
بطغيان الجمال ، وأنه أضعف من أن يحتمله هو وحده .. واشتاق  
لأن تكون معه عيناان أخريان تنظران معه .. ولكن ليس أى عينين !  
وانبثق وجهها أمامه .. بلمعة عينيها السوداوين الضاحكتين دوما  
.. قبل أن تهب العاصفة على حياتهما .. « ولم أكن أرى منظرا

جميلا الا واصطحبها معى بعد ذلك لكى تراه معى وأسعد بصيحات  
فرحها المدهوشة .. ( وتذت عنه زفرة ) انتهت تلك الأيام المبعيدة  
.. أم تراها تعود ذات يوم وأجدها بجوارى فوق هذه الصخرة ،  
وتعيش معى هذا المهرجان . كنا سنحوله الى عرس زفاف لنا  
بالألوان .. والحجرة هناك فوق الهضبة تجمعنا .. ومعنا الألوان  
كلها داخل الجدران الأربع .. و .. ( وهز رأسه ) لا .. ليس الآن  
وقت بعث الماضى .. والحزن رقد فى الأعماق وأصبح شجنا !!

كان عرس الألوان ماضيا بكل قوته وزهوته .. وان رآه  
يقترّب من لحظات الذروة ، والوهج يصل الى أقصى سطوعه ، لاحظ  
فى نفس الوقت أنه بدأ يميل الى الذوبان والى الانحسار .. قال  
لنفسه : هكذا الأيام .. تنسحب من عمر الانسان مثلما تنسحب  
ألوان الغروب ، وحالما سيغيب كل شىء فى جوف الظلام .. ظلام  
الموت !! .. غير ان الألوان تعود مع دورة الأرض فيتجدد مهرجان  
كل يوم ، أما الأيام التى تروح منا لاتعود .. كل يوم ينقضى يقربنا  
من نهاية الرحلة .. من الغروب الأكبر !

الا أن مشاعره رغم هذا لم تكن مفاجئة على أى نحو .. كان  
قد بدأ - خاصة فى السنوات الأخيرة - يتصالح مع فكرة تسرب  
الأشياء الحميمة من حياته . لا سيما بعد موت أمه ثم بعد ذلك  
عدد كبير من أصدقائه .. أصدقاء العمر الذين رافقوه رحلة الحياة  
بكل حافيتها رأهم يرحلون بغتة وعلى التوالى .. يرحلون بالموت أو  
بالسفر والهجرة الى بلاد أخرى بعيدة وغريبة .. الأمر الذى جعل  
فكرة الموت تختلط فى نفسه بفكرة السفر .. فبعض من سافروا  
وغابوا لم يكن يعرف على وجه اليقين ان كانوا ما يزالون أحياء أم  
ماتوا ١٩

لسوف يعتبر الموتى مسافرين فى بلاد وأماكن مجهولة ، ولئن  
كان من المستحيل الوصول اليهم ، الا أنه بالخيال يمكننا استحضارهم



•• نناجيهم •• وفى أوقات الأزمة نستشيرهم •• ونستضىء  
برأيهم ! •• ولهذا ، كان ، وما يزال ، يرفض زيارة قبر أمه •• وقبور  
أصدقائه •• انهم مازالوا يعيشون •• انهم هناك •• مسافرون !

كان كل همه فى الحقيقة أن يهون من وقع احساسه الدائم  
بمأساة الموت •• وأنه لكى يواصل حماسه للحياة ويعمل ويكتب  
ويحب ويسافر ويحلم يجب أن ينساها ، أو يتعامل معها على نحو  
يزيل عنها وجهها المأساوى •• يسيطر على فكرة الموت بدلا من أن  
تكون هى المسيطرة عليه ! •• وساعدته على ذلك جملة قراها ذات  
يوم للحلاج •• شيخ شهاداء المتصوفين : « الموت رفيقى » ••  
فتلقفها ، وجعل يديرها فى نفسه وفى عقله حتى خرج منها بفكرة  
ظن معها أنه أمسك بطائر الموت بين يديه ، وانتصر عليه وعلى  
مأساويته : أجل •• أن أحبه •• أحب الموت •• أجعله الفالى ••  
وحين يحب الانسان الشئ ويألفه ، ينعدم تماما خوفه منه •• أنا  
والموت رفيقان •• وحين أموت ، سيموت هو الآخر بموتى ••  
سيموت الموت معى !!

وأبهجته الفكرة : موت الموت •• بدت له لكاكتشاف ملهم نادر  
•• ليس فقط كإنسان •• وإنما أيضا ككاتب •• ما أروعها قصة  
أو رواية •• فليمسك بها بقوة ولا يدعها تفلت مثل ألوان الغروب  
•• وأخرج ورقة وقلمما يحتفظ بهما دائما فى جيبه •• وكتب : موت  
الموت !! •• ثم أعادهما بحرص الى جيبه !

كان مهرجان الغروب قد انتهى ، وبدأت عتمة الليل تحل ،  
وسرعان ما هبط الظلام ولم يعد يرى أى شئ وهو جالس وحده  
فى قمته •• وفكر فى العودة •• عليه أن يكون أكثر انتباها وحذرا  
حين يمشى فوق اللسان ! كان سعيدا مثل صياد جاد عليه يومه  
برزق طيب •• وفكر مبتهجا بأعظم ما فى صيده : موت الموت ••  
قصة يفرح بها عشاق الحياة التائقين لهزيمة الموت هزيمة أبدية !

فجأة .. أحس بجسم رفيع زاحف يمرق تحت ساقه ، وبشيء  
حاد كسرت الابرّة يلذعه ، فانتفض باللاوعي مرتعبا من موقعه ..  
ولأنه كان يجلس على حرف الصخرة فقد وجد نفسه ينزلق ويهوى  
فى فراغ دون أن تطول يداه أى شيء يمكن أن يتعلق به : ما هذا ؟!  
كيف هذا ؟! وجاءه الجواب على شكل دوى هائل أحدثه ارتطامه  
بالماء ، وأحس بنفسه يتناثر شظايا .. وبدلا من أن تطير الشظايا  
فى الفضاء ، راح بكل كتلته يغوص ويغوص ، وقد أفقدته الصدمة  
والموجة الباردة كل شظايا الوعي الباقية .. كان يغوص حيناً ،  
وحيناً يلف ويدور .. البحر والدنيا واللوان الغروب تدور .. وقد  
سيطرت عليه روح استسلامية كاملة .. وعاد الهدوء يطبق على  
المكان .. انتهى الدوى وصداه .. والدوائر المرتعشة التى أحدثتها  
السقطة فى الماء خفت وتلاشت .. وعادت حركة أمواج الخليج الى  
إيقاعها الرتيب الأول : .. اذن فهو الموت .. ومهرجان اللوان الغروب  
كان زفاف عرس ولكنه الآن زفاف للموت .. للصمت الأعظم !!  
.. الا أن هذا الصمت سرعان ماتمرق ، وفزعّت أسماك البحر  
وكائناته وابتعدت .. فقد أحس صاحبنا بمحض الغريزة لا أكثر -  
بشيء مروع ومؤلم يحدث له .. كان الماء يندفع الى فمه ، ووجد  
نفسه باللاوعي يشهق ويفهق .. وجاهد أن يزم شفّتيه بقوة .. الموت  
اختناقاً شيء بشع .. ومضت يداه تضرّيان .. وقدماه أيضاً ..  
ولمعت فى رأسه شظية وعى أدرك بها أنه فى بحر ويغرق .. لو نفس  
هواء يستنشقه .. الهواء فوق .. واندفعت ذراعااه وقدماه فى حركة  
غريزية تصعد به الى أعلى .. نسمة .. لا يريد غير نسمة .. الا  
أن قدميه لامسنا بعض النباتات البحرية فتصورها خصلات شعر  
أحدى الجنّيات ستلتف حولها وتجذبه الى الأعماق مرة أخرى ،  
فمضى بكل قوة الفرع يضرب فى الماء مبتعداً .. ومصعداً .. كأنما  
عمق الخليج آلاف الأميال وعليه أن يقطعها .. يصعداً .. ولأن  
غريزة حب البقاء لاتخطئ أبدا لحظات الخطر ، فقد تراءى له

فجأة ، أن المعجزة تحدث ، فهاهى رأسه تطل من الماء ويستنشق الهواء .. يستنشق ويستنشق .. الهواء هو الحياة ، والحياة هى الهواء .. ولكن عليه أن يضبط جيدا تنفسه وحركته .. فهاهما ذراعاه تكادان أن تخذلاه .. ويكاد يهوى الى أسفل من جديد .. « لا .. لا .. مستحيل » يكفينى الهواء « وألهمته غريزته أن يستلقى بظهره على الماء ويطفو .. مجرد أن يطفو .. ولا يفعل شيئا الا أن يتنفس .. ويحاول استعادة بعض شظايا وعيه ان أمكن !

واذ كانت له بعض الدربة السابقة فى الطفو بالظهر على الماء .. بل تلك كانت أروع لحظات استمتاعه بالبحر .. بحر الاسكندرية .. والأصدقاء .. والأولاد .. والصيد بالسنانير .. ومهرجانات الصيف المرحية على البلاج .. بلج المندرة .. وانقلب على ظهره مثلما كان يفعل .. وفرد ذراعيه بالعرض على آخرهما .. وطفا !!

داخلته شحنة أمل .. فاذا كان قد نجح فى ذلك ، فبالامكان أن ينجح فى أشياء أخرى . ومع هذا لم يكن يطمع فى أكثر من هذا .. أن يبقى طافيا على ظهره .. يتنفس .. ويحاول استعادة الوعي بما حدث ! .. « أين أنا الآن ؟ » .. واذا رأى السماء وقد امتلأت بالنجوم الى آخر المدى ، خيل اليه أنه يطفو وسط اقيانوس هائل بلا شواطئ .. أى نجم من هذه النجوم اتخذه دليلى ؟ .. رغم أنه كان فى الحقيقة قريبا جدا من الشاطئ ومن حرف سفح الهضبة فى التقائها بمياه الخليج !! .. كان ثمة دوار يثقل رأسه .. وأحس فجأة بأنه فى حاجة الى النوم .. وبدا النوم شيئا ناعما ورائعا وعذبا .. لو ينام ويستغرق فى النوم ويستريح .. الا أن شظية الوعي أو الغريزة لمعت : لسوف تكون النومة الأبدية .. غرقا فى الأعماق !! .. فلأحرك ذراعى .. أو حتى كفى .. بهدوء بالغ وعلى مهل .. ليس المهم الاتجساه .. المهم الحركة .. حركة تبعد عنى شبح النوم الموت !!



ما كاد يجدف قليلا بذراعيه ، حتى أحس فجأة بأصابع إحدى يديه تلمس جسما أيقن على الفور أنه صخرة ، فأنقلب ملهوها على بطنه وتشبث بكلتي يديه بالصخرة .. وإذا به فى نفسى اللحظة يحس بقدميه تصطدمان بأرض صخرية صلبة .. هتف لنفسه بفرح يكاد يبلغ حد البكاء : انه الشاطيء .. انها العودة للحياة !



بعد قليل ، وعبر مساحة من الصخور المختبئة والزلقة ، وجد خطواته الواهنة المترنحة تقوده فى الظلام الى الشاطيء .. وما أن أحس بلمس الرمل ناعما وحانيا تحت قدميه ، حتى تراخت كل عضلاته المشدودة وتهاوى مختارا .. وتمدد !! الآن يمكنه النوم .. ولن يكون النوم الموت .. بل النوم البعث .. ومع أنفاسه التى كانت تتردد ببطيء ، بدأ الوعي يعاوده بالمكان وبالزمان وبما حدث .. وأراد أن يفرح ، لكن شيئا غريبا أفسد عليه رغبته ، فقد أحس بإحدى ساقيه ثقيلة كصخرة ، ملتهبة كجمرة ، رغم أنه خارج لتوه من الماء البارد .. وحاول أن يرفعها أو يحركها فلم يستطع .. بل وجد نفسه يتأوه من شدة الألم .. واذ لاحظ أن كل جسده يرتعش ، أدرك أنها حمى .. وعلى الفور تذكر اللدغة التى جعلته ينتفض وبسببها سقط من فوق الصخرة .. هى اذن لدغة الأفعى .. وربما عقرب : نجوت من الغرق .. لكنى لم أنج من السم .. والسم يسرى فى العروق فلا تطوله يد ل تمنع سريانه .. يسرى صعبا حتى يصل الى المخ .. فتنتطفئ جميع الاشارات ، ويسود الظلام المطبق .. النوم الموت .. على الرمل .. على الشاطيء .. ها هو رذاذ الموج المتناثر يتساقط على وجهى .. لكنقرات طائر .. طائر الموت .. ورأى النجوم بقعا وشرارات ضوئية تتعانق وتتصادم ثم تخبو .. وأغمض عينيه : وما تدري نفس بأى أرض تموت .. الآن يمكننى قبول الموت .. ( وعاودته الجملة الساحرة ) الموت رفيقى .. وبموتى



سيموت الموت معى .. تتحقق الفكرة التى تمنيت أن اكتبها قصة ..  
آه .. ماكان أجمل أن أعيش حتى اكتبها .. وقرأها الأصدقاء  
والصديقات .. و .. وجد نفسه ينتفض فجأة من قسوة الألم ..  
ومضى يتأوه .. وان سمع صوت أماته .. بدا له أن بداخله كائنا  
مايزال يعيش ويحس بالألم ويرفضه ويستغيث منه .. ما الذى  
استطيع أن أفعله من أجله ؟ فى تلك اللحظة برقت فى ذهنه صورة  
قديمة .. على جسر النيل .. قرب منطقة الغاب .. وفلاح لدغه  
ثعبان فى قدمه فأسرع بشق مكان اللدغة ليخرج السم مع الدم  
النازف بغزارة من ساقه !! لو أستطيع أن أفعل هذا .. لو مديّة  
أو سكين .. أو قطعة صخرية مسنونة .. أو محارة أو قوقعة  
مديبة الأطراف ، ألقى بها البحر على الشاطئ .. وراح يتحسس  
الرمال حانيا ورطباً فمضى بجهد شديد يحفر فيه .. ورأى أن الرمال  
تستجيب له فمضى يحفر ويحفر .. وبدأ له فى لحظة أنه يحفر  
لنفسه قبراً ليتوسد فيه .. فجأة وجدها .. قطعة حجر صغيرة ذات  
حواف مديبة مسنونة .. فشدد قبضته عليها وأخرجها .. الآن  
على بالجلوس لكى أتمكن من الانحناء على الساق وشق مكان اللدغة  
.. وحاول النهوض لكنه أحس بثقل جسمه ، وبراأسه تدور : كنت  
فى جوف الماء واستطعت أن أطفو ، وانا الآن على الأرض ، أفلا  
أستطيع الجلوس نصف جلسة ؟ ..

فى تلك اللحظة رأى شيئاً غريباً بالغ الروعة يحدث .. رأى  
القمر هلالاً طالعا .. وأحس بأن طلوعه ليس وفقاً لدورة .. بل من  
أجله هو .. لينصره فى لحظته : هيا انهض ياقتى الترحال  
والتجوال .. أجل فأنت مازلت فتى رغم أعوامك التى تجاوزت  
الستين ولم تبق فى رأسك شعرة واحدة سوداء .. أجل يا بابا ..  
أجل يا جدو .. ومررت به أطياف الأولاد والاحفاد المتفرقين فى  
الأماكن وفى البلاد .. وكنا كثيراً ما نفعلها ونجتمع كلنا فى مكان

واحد وبلد واحد .. نحن فى انتظارك لتغمرنا بحضنك وبغرائب  
حكاياتك واسفارك .. انهض .. وشدد جذعه الى أعلى .. وجلس  
.. الآن أسرع .. فأنت مع السم فى سباق .. لاتضيع لحظة ..  
لكنه أحس بيده واهنة ترتعش ، وأن القطعة الصخرية تكاد تنزلق  
من يده .. شدد القبضة عليها ، حتى أنه رأى الدم ينبثق من كفه ..  
داخله الفرح : هذا هو ما أريد .. ولكن ليس دم اليد .. وانقض  
بالقطعة مصوباً حرقها المسنون على مكان اللدغة ومضى يشق اللحم  
.. لايشقه بل يذبحه بوحشية .. وأحس بالألم الرهيب يخرج من  
عينيه كالشرر .. لكنه لم يعبأ .. مضى يشق فى اللحم ويشق ..  
ورأى الدم يتفجر من ساقه وينزف .. مرعى .. مرعى .. الموت  
ينسكب منه ويسيل والرمال تشربه .. بقى أن يضغط على موضع  
اللدغة كي يصفى كل مابقى من دم .. آه لو تواتيه القوة .. أو ..  
لو يدان أخريان .. تمدان لى يد العون .. وانبثق طيفها ، بوجهها  
الأسمر الضحك والمتفتح للحياة دوما .. لو أنها الآن هنا ورائتى  
هكذا نهجمت كالوحش وراحت تصفى الجرح .. ورأها لاتضغط فقط  
بكفيها ، بل تضيق بشفتيها وتمص الدم وتبصقه .. تمصه وتبصقه ..  
غير عابئة بأى خطر .. ويعود الحب أقوى .. تلك كانت كلماتها  
.. وصرخاتها أيام الأزمة : لابد من فتح الجراح وتصفيتها تماما من  
كل الدماء .. فيقول لها مستبشعا : هذا منطق المتوحشين ، فتقول  
بل منطق الصادقين .. كانت ستفعلها رغم أننا افترقنا ، وتخضر  
الشجرة من جديد .. تخضر بدمائى !! .. كان ماضيا ، دون أن  
يدرى فى الضغط على اللحم المشقوق .. وثمة قوة غريبة تلبست  
يديه .. قوة حب الحياة والتمسك بها .. حتى لم يعد يرى الدم  
النازف غير قطرات .. هل حقا تطهر الجرح ، أم أن حب الحياة  
أحيانا يدفع الى الموت .. ووجد نفسه من فرط الانهاك يتراجع برأسه  
الى الخلف .. ثم يتمدد بظهره على الرمال .. فليكن مايكون ..

.. لقد فعلت كل ما كان يجب على أن أفعله .. وأغمض عيني :  
ما أعذب النوم .. وغاب عن الوعي !

\*\*\*

بعد قليل . كان فتى وفتاة يسيران .. يستمتعان بلحظات حب  
على الشاطئ في ضوء القمر .. واذ لمحاها ممددا .. مبتلا وغارقا  
في الدم .. هرعاً اليه .. حسباه قتيلاً .. لكن صدره كان يعلو  
ويهبط بانتظام : تنفساً الصعداء - انه حي ..

- أو ربما يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

وأمسكا به .. وراحا يهزانه برفق : أنت ايها الصديق ..  
ماذا حدث .. قل لنا .. من أنت .. يجب أن نعرف من أنت ..

وصاحت عليه الفتاة وهي تكاد تبكي : هذا المكان الرائع ليس  
للموت ، بل للحياة !

وامتدت يد الفتى الى جيب قميصه المبتل ، فوجد ورقة صغيرة  
وقلما ، كامنين أسفل الجيب ! .. اخرجهما على الفور .. وكانت  
الورقة مبتلة ومطوية .. فردها الفتى بحذر وعناية .. ربما يجد  
فيها الدليل الى شخصيته .. وانكب عليها الاثنان يقرانها في ضوء  
القمر .. لم يجدا غير كلمتين اثنتين لم يفهماها .. لأنهما كانتا  
بالعربية .. كانت الكلمتان : موت الموت !

(( ١٩٨٩ ))

## الفهرس

### الصفحة

٥	...	...	...	...	تقديم .. حياتى والقصة القصيرة
٣٣	...	...	...	...	فى ضوء القمر
٤٦	...	...	...	...	الأرنب
٥٧	...	...	...	...	جفت الأمطار
٧٣	...	...	...	...	الفانوس
٧٩	...	...	...	...	النهاية السعيدة
٩٣	...	...	...	...	أو نجشش
١٠٤	...	...	...	...	داود الصفيير
١١٢	...	...	...	...	ابتسامة الرجل الكتيب
١٣١	...	...	...	...	الصورة
١٤٣	...	...	...	...	الصبيد
١٥٧	...	...	...	...	هدد؟ لا .. انهيار
١٧٠	...	...	...	...	الرجل الذى ضحك
١٨٥	...	...	...	...	شاطر يا عبد الستار أفندى



## الصفحة

١٩٣	...	...	...	...	...	...	...	في شارع السد
٢٠٣	...	...	...	...	...	...	...	وردة
٢١٤	...	...	...	...	...	...	...	شجرة
٢٢٠	...	...	...	...	...	...	...	حفلة عشرة
٢٢٨	...	...	...	...	...	...	...	العصفور لعبة
٢٣٨	...	...	...	...	...	...	...	ابن العالم
٢٥٣	...	...	...	...	...	...	...	الموتوسيكل
٢٦٦	...	...	...	...	...	...	...	الكلب عض لطيفة
٢٧٤	...	...	...	...	...	...	...	حد المحراث
٢٨٤	...	...	...	...	...	...	...	بحر الذئوب
٢٩٤	...	...	...	...	...	...	...	النمل الأسود
٣٠٧	...	...	...	...	...	...	...	العاصفة
٣١٥	...	...	...	...	...	...	...	التفاحة
٣٢٧	...	...	...	...	...	...	...	كوميديا في أتوبيس
٣٣٥	...	...	...	...	...	...	...	على المقعد الرخامي
٣٤١	...	...	...	...	...	...	...	جرح في وجه المدينة
٣٥٩	...	...	...	...	...	...	...	ما نملكه نحن الفقراء
٣٦٣	...	...	...	...	...	...	...	قوة الجذور

## الصفحة

٣٧١	...	...	...	...	...	...	البحر يكشف كل الأتنة
٣٨٨	...	...	...	...	...	...	هولاكو .. والطفلة
٣٩٢	...	...	...	...	...	...	اغنية اليمام
٤٠٨	...	...	...	...	...	...	الطبقات العليا والطبقات السفلى
٤١٥	...	...	...	...	...	...	هو الذى سقط
٤٢٦	...	...	...	...	...	...	سباق مع القدر
٤٤٣	...	...	...	...	...	...	الخروج من المربعات الضوئية
٤٥٣	...	...	...	...	...	...	الأمل .. والجرح
٤٥٨	...	...	...	...	...	...	ذو القرنين
٤٦٧	...	...	...	...	...	...	الميلاد ..
٤٧٥	...	...	...	...	...	...	البرغوث سفيرا
٤٨٩	...	...	...	...	...	...	الباب والوهم
٤٩٨	...	...	...	...	...	...	الخماسين
٥٠٨	...	...	...	...	...	...	حبيها
٥١١	...	...	...	...	...	...	المشي فى الليل
٥١٥	...	...	...	...	...	...	اغنية كونية
٥١٩	...	...	...	...	...	...	قلب الحب
٥٢٢	...	...	...	...	...	...	الأعظم

٥٢٥	...	...	...	...	...	...	...	الحنين الى القرع
٥٢٨	...	...	...	...	...	...	...	يعود الحب اقوى
٥٣٩	...	...	...	...	...	...	...	صيد البكور
٥٤٣	...	...	...	...	...	...	...	حالة البحر المالح
٥٥٣	...	...	...	...	...	...	...	موت الموت





رقم الايداع ١٩٩١/٣٥٨٧

---

الترقيم الدولى 5 — 2748 — 01 — 977 I.S.B.N.

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



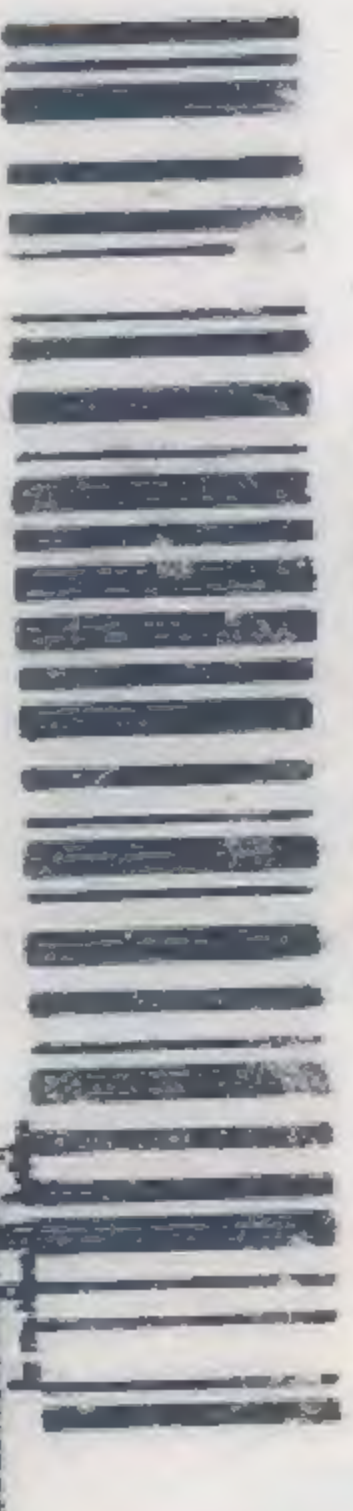


لقد أدركنا منذ البداية  
أن تكوين ثقافة المجتمع  
تبدأ بتأصيل عادة  
القراءة، وحب المعرفة، وأن  
المعرفة وسيلتها الأساسية  
هى الكتاب، وأن الحق فى  
القراءة يماثل تماماً الحق  
فى التعليم والحق فى  
الصحة.. بل الحق فى  
الحياة نفسها.

سوزانه مبارك

الثمن ٣٠٠ قرش

Bibliotheca Alexandrina



0628771

مهرجان القراءة للجميع  
الكتاب - الأسرة  
جمعية الرعاية الشاملة